الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

ONE DAY

ذات يوم

رواية

الرواية التي تحولت إلى فيلم سينمائي بالعنوان نفسه وحقق نجاحاً رائعاً في صالات السينما

ديفيد نيكولاس
DAVID NICHOLLS

ONE DAY

ذات يوم

رواية

ديفيد نيكولاس

DAVID NICHOLLS

ترجمة

مروان سعد الدين

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

ISBN 978-614-02-0359-4

الطبعة الأولى

1433هـ. 2012 م

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

ONE DAY

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر

Hodder & Stoughton Ltd

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

Copyright © 2009 by David Nicholls

All rights reserved

Arabic Copyright © 2012 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون

Arab Scientific Publishers, Inc.

إلى ماكس وورومي
حين تكبران، وحنّا، دائماً.

«ما فائدة الأيام؟
الأيام حيث نعيش.
تأتي، توقظنا
مراراً وتكراراً.
لنكون سعداء فيها:
أين يمكننا أن نعيش إلا في الأيام؟
آه، للإجابة عن هذا السؤال
أحضروا رجل الدين والطبيب
وهما يرتديان معطفيهما الطويلين
ويجريان في الحقول».

فيليب لاركين، «أيام».

القسم الأول

1988-1992

بداية العشرينيات

«كان ذلك يوماً لا يُنسى بالنسبة إلي؛ لأنه أحدث تغييرات كبيرة، لكن الأمر مماثل في حياة أي شخص. تخيّل انتقاء يوم ما من تلك الحياة، ثم فكّر إلى أي حدٍّ سيكون مختلفاً. توقف، أنت الذي تقرأ، وفكّر مطوّلاً في السلسلة الطويلة من الحديد أو الذهب، الأشواك أو الورود، التي لم تكن لتقيّدك مطلقاً؛ لولا تشكّل الحلقة الأولى في ذلك اليوم الخالد في الذاكرة».

تشارلز ديكنز، توقعات كبيرة

الفصل الأول

المستقبل
الجمعة 15 تموز 1988

شارع رانكيلور، أدنبرة

قالت: «أفترض أنه من المهم إحداث تغيير من نوعٍ ما».

«مثل ماذا؟ هل تقصدين شيئاً مثل تغيير العالم؟».

«ليس العالم برمّته، بل تغيير شيء صغير يتعلق بك».

استلقيا بصمت للحظة، ثم بدأا يضحكان بصوت خافت. تأوّهت: «لا أصدّق أنني قلت ذلك للتو. يبدو سخيفاً، أليس كذلك؟».

«نوعاً ما».

«أحاول أن أكون مصدر إلهام! أحاول أن أرفع معنوياتك المنهارة من أجل المغامرة العظيمة التي تنتظرك». استدارت لتواجهه. «لا يعني هذا أنك تحتاج إلى ذلك. أتوقع أن تكون قد خطّطت لمستقبلك جيداً، وعلى خير ما يرام. لديك على الأرجح رسم بياني في مكان ما، أو شيء من هذا القبيل».

«بالكاد».

«إذاً، ما الذي ستفعله؟ ما الخطة العظيمة؟».

«حسنٌ، سيجمع والداي أغراضي، وسيضعانها في منزلهما، ثم سأمضي بضعة أيام في شقتهما في لندن، وأرى بعض الأصدقاء، ثم أقصد فرنسا».

«رائع جداً».

«وربما الصين بعد ذلك. أريد أن أرى قدر ما أستطيع من ذلك البلد، ثم ستكون الهند المقصد التالي، فأتنقل في أرجائها لبعض الوقت».

تنهّدت: «السفر. أمر متوقع تماماً».

«ما الخطأ في السفر؟».

«يبدو أنك تهرب من الواقع».

أجاب بغموض: «أظن أننا نبالغ في تقدير الواقع».

تنشّقت. «لا بأس بذلك - كما أفترض - لأولئك الذين يستطيعون تحمّل النفقات. لمَ لا تقول فحسب؛ أنا ذاهب في عطلة لسنتين؟ إنه الشيء نفسه».

قال وهو يتكئ على أحد مرفقيه ويقبّلها: «لأن السفر يجعل الذهن أكثر انفتاحاً».

قالت وهي تبعد وجهه عنها: «أظنّ أن ذهنك منفتح أكثر من اللازم». استقرا مجدداً على الوسادة. «على كل حال، لم أعنِ ما ستفعله الشهر القادم، بل قصدت ماذا ستفعل مستقبلاً؟ حين تصبح، لا أعرف... «. توقفت؛ وكأنها تستجمع شتات فكرة خيالية. «... في الأربعين أو شيء من هذا القبيل. ماذا تريد أن تصبح حين تبلغ الأربعين؟».

«أربعون؟». بدت الفكرة غريبة بالنسبة إليه. «لا أدري. هل يُسمح لي أن أقول ثرياً؟».

«هذا سطحي جداً».

«لنقل مشهوراً». بدأ يداعب رقبتها بأنفه. «هذا أعمق نوعاً ما، أليس كذلك؟».

«ليس أعمق بل أهم».

«دعينا نقول إنّه مثير للاهتمام!». قال ذلك مقلداً صوتها ولهجة يوركشاير التي تنطق بها، ومقلداً ضحكات زمرة من الفتيان، فاعترضت على ذلك، نظراً إلى أنه ما من شيء غريب في لهجتها، ولم تكن تلك هي المرة الأولى التي تشعر فيها بأولى بذور الكراهية تتبرعم داخلها تجاهه. هزّت كتفيها، ودفعت نفسها مبتعدةً عنه حتى التصق ظهرها بالجدار البارد.

«نعم، مثير للاهتمام. يجب أن نكون مثيرين للاهتمام، أليس كذلك؟ كل تلك الاحتمالات. الأمر كما قال نائب المستشار: أبواب الفرص مفتوحة على مصاريعها...».

«أنتم الأسماء في صحف الغد...».

«هذا ليس مرجحاً».

«ما الأمر؟ هل تشعرين بالإثارة؟».

«أنا؟! لا بالله عليك، أنا مرهقة».

«وأنا أيضاً. يا الله...». استدار فجأة ومدّ يده إلى لفائف التبغ على الأرض بجانب السرير؛ وكأنه يحاول السيطرة على أعصابه. «أربعون عاماً. أربعون. تباً».

ابتسمت حين شعرت بقلقه، وقرّرت أن تجعله أسوأ. «إذاً، ما الذي ستفعله حين تبلغ الأربعين؟».

أشعل لفافة تبغ وهو يمعن التفكير في الأمر. «حسنٌ، الأمر يا إم -».

«إم؟ من هي إم؟».
«الناس يدعونك إم. لقد سمعتهم».
«نعم، أصدقائي يدعونني إم».
«إذاً، هل يمكنني أن أدعوك إم؟».
«تابع يا دكس».
«لقد فكّرت قليلاً في قضية التقدم في العمر تلك، وتوصلت إلى نتيجة؛ وهي أنني أودّ البقاء على ما أنا عليه الآن بالضبط».

دكستر ميهو. حدّقت إليه، وبدا واضحاً بالنسبة إليها - حتى من دون نظارتها - لماذا قد يرغب في البقاء على تلك الحال تماماً. كانت عيناه مغمضتين، ولفافة التبغ تتكئ بوهنٍ على شفته السفلية، وضوء الفجر يدفّئ جانب وجهه عبر المرشح الأحمر للستائر، وبدا أنه يتمتع بموهبة الظهور مستعداً دائماً لالتقاط صورة له. فكّرت إيما مورلي في أن كلمة وسيم كلمة سخيفة من القرن التاسع عشر. لكن، لم تكن هناك حقاً كلمة أخرى لتصفه بها، باستثناء «جميل» ربما. كان يتمتع بأحد تلك الوجوه التي يمكنك أن ترى فيها العظام تحت الجلد؛ وكأن جمجمته العارية ستكون جذّابة. أنف رائع يلمع قليلاً، وجلد داكن تحت العينين يبدو مزرقّاً قليلاً؛ وهي علامة مميزة تشير إلى التدخين وسهره في الليالي التي أمضاها وهو يخسر متعمداً في ألعاب الورق مع الفتيات. كان هناك شيء ماكر بشأنه: حاجبان رفيعان، فم متجهم بطريقة خجولة، شفتان داكنتان ومكتنزتان لكنهما جافتان ومتشققتان الآن، ومُحْمَرّتان بسبب الإسراف في احتساء الشراب. لم يكن شعره ممشطاً، بل كان قصيراً من الخلف والجانبين، مع ذؤابة صغيرة وبشعة في الأمام. كان الجِلّ الذي يستخدمه قد انتهى مفعوله، والذؤابة تبدو آنذاك منفوشة مثل قبعة صغيرة سخيفة.

بقيت عيناه مغمضتين، واستنشق الدخان عبر أنفه. بدا واضحاً أنه يعرف أنه محط ناظريها؛ لأنه دفع يده تحت إبطه، وشدَّ عضلات صدره وأعلى ذراعه. من أين جاءت العضلات؟ بالتأكيد ليس من نشاط رياضي، إلا إن أخذ المرء بالحسبان ألعاب الورق والبلياردو. كان ذلك على الأرجح نوع الصحة الجيدة التي تنتقل في الأسرة؛ مع الأسهم والسندات والأثاث الجيد. إنّه وسيم إذاً، أو حتى جميل، بسروال الملاكمة الصوفي المزركش القصير الذي يستقر عند عظام وركيه. وبطريقة ما، إنه هنا في سريرها المفرد في غرفتها المستأجرة الصغيرة بعد انتهاء أربع سنوات في الكلية. وسيم! من تظنين نفسك؟ جين آير؟

انضجي، وكوني منطقية، ولا تدعي الحماسة تجرفك.

انتزعت لفافة التبغ من فمه، وقالت بنبرة مكر في صوتها: «يمكن أن أتخيلك في الأربعين. أستطيع تصوّر ذلك الآن».

ابتسم من دون أن يفتح عينيه. «إذاً امضي قدماً».

«حسنٌ». تحرّكت في السرير، ودفعت اللحاف تحت إبطيها. «أنت في تلك السيارة الرياضية، وقد فتحت السقف في كنسينغتون أو تشلسي أو أحد تلك الأماكن. والشيء المدهش في تلك السيارة أنها صامتة؛ لأن كل السيارات ستصبح صامتة بحلول، لا أعرف، ماذا... 2006؟».

أغمض عينيه بقوة ليحسب الوقت بدقة وأجاب: «2004».

«وهذه السيارة تحلّق على ارتفاع ستّ بوصات عن الأرض فوق شارع الملك، وكرشك الصغيرة محصورة تحت عجلة القيادة الجلدية مثل وسادة صغيرة، وترتدي قفازين، وشعرك خفيف، ولا يبدو ذقنك للعيان. أنت رجل كبير في سيارة صغيرة، وبشرتك سمراء مثل ديك رومي محمّر...».

«هل يمكن أن نغير الموضوع الآن؟».

«وهناك تلك المرأة التي تجلس بجانبك وتضع نظارة شمسية؛ زوجتك الثالثة، لا الرابعة. وهي جميلة جداً وعارضة أزياء، لا عارضة سابقة، ثلاث وعشرون عاماً، وقد التقيتها حين كانت مستلقية على غطاء محرك سيارة في معرض مركبات في نيس أو مدينة أخرى، وهي فاتنة وغبية مثل...».

«حسنٌ، ذلك لطيف. هل هناك أي أطفال؟».

«لا يوجد أطفال. لكن، هناك ثلاث حالات طلاق، واليوم هو الجمعة في تموز، وأنت تتجه إلى منزل ما في الريف، وتوجد في الصندوق الصغير لسيارتك الطائرة مضارب تنس، ومطارق كرات خشبية، وسلّة كبيرة مملوءة شراباً فاخراً وعنباً من جنوب أفريقيا، وطيور سمانيّ صغيرة وهليوناً، والريح تتلاعب بشعرك وتنتابك سعادة غامرة من نفسك، وزوجتك الثالثة، أو الرابعة، أياً تكن، تبتسم لك بأسنانها البيضاء الناصعة، وترد لها الابتسامة بمثلها، وتحاول ألاّ تفكّر في حقيقة أنه ليس لديكما شيء؛ أي شيء على الإطلاق، تقولانه لبعضكما بعضاً».

توقفت فجأة، وقالت لنفسها: إنكِ تبدين مجنونة. حاولي ألاّ تبدي مخبولة. ثم قالت

بمرح: «طبعاً، إذا كان في ذلك أي مواساة فسنكون جميعنا أمواتاً في حرب نووية قبل ذلك بوقت طويل». لكنه بقي عابساً لها.

«ربما يجب أن أذهب الآن. إذا كنت ضحلاً وفاسداً جداً –».

قالت بسرعة كبيرة نسبياً: «لا، لا تذهب. إنها الرابعة من بعد منتصف الليل».

تحرّك في السرير حتى لم يعد وجهه يبعد إلا بضع بوصات عن وجهها. «لا أدري من أين جئت بهذه الفكرة عني، فأنتِ بالكاد تعرفينني».

«أعرف النموذج».

«النموذج؟».

«لقد رأيتكم تتسكعون في مودرن للّغات، وتنهقون على بعضكم بعضاً، وتشاركون في حفلات عشاء تضعون فيها ربطات عنق سوداء –».

«ليست لدي حتى ربطة عنق سوداء. وأنا بالتأكيد لا أنهق –».

«تتجولون في أرجاء معهد اللغات في العطلات الطويلة إلخ...».

«إذاً، إن كنت كريهاً جداً –».كانت يده على وركها آنذاك.

«هذا ما أنت عليه».

«حسنٌ، ذلك يعتمد». مال نحوها وقبّلها. «حدّدي معاييرك».

«يجب أن تنظّف أسنانك».

«لا أمانع إذا لم تمانعي».

ضحكت: «إنها كريهة حقاً. تفوح منها رائحة الشراب ولفائف التبغ».

«حسنٌ، ذلك صحيح إذاً. وأنتِ كذلك».

تراجع رأسها بسرعة، وتوقفت عن تبادل القبل. «حقاً؟».

«لا مانع لدي. أحب الشراب ولفائف التبغ».

«لا تكن فظاً». دفعت اللحاف إلى الخلف، وجلست فوقه.

«إلى أين ستذهبين الآن؟». وضع يده على ظهرها.

قالت: «إلى المرحاض». وأمسكت نظارتها من فوق كومة الكتب بجانب السرير: إطار أن – إتش – أس أسود كبير.

«المرحاض، المرحاض... آسف لأنني لست معتاداً...».

نهضت وهي تضع ذراعها على صدره، وتحرص على إبقاء ظهرها إليه. قالت وهي تخرج من الغرفة: «لا تذهب بعيداً، ولا تفعل شيئاً حين لا أكون هناك».

سحب شهيقاً عبر أنفه وتململ في السرير، ونظر في أرجاء الغرفة المستأجرة السيئة، وعرف بثقة مطلقة أنه في مكان ما بين البطاقات البريدية الفنية والملصقات الإعلانية هناك بالتأكيد صورة لنلسون مانديلا؛ كأنه حبيب مثالي حالم. كان قد رأى في السنوات الأربع الأخيرة عدداً كبيراً من غرف النوم المماثلة، المتناثرة في أرجاء المدينة مثل مسرح جريمة؛ غرف ضيقة لا تبعد أبداً أكثر من ست أقدام عن ألبوم نينا سيمون، وظنَّ أنه نادراً ما شاهد غرفة النوم نفسها مرتين، رغم أنها كلها بدت مألوفة: الأضواء الخافتة، والنباتات المهجورة في قدورها الخزفية، ورائحة مسحوق الغسيل على ملاءات رخيصة. كانت تتمتع بشغف البنات الفني في ما يتعلق بالمونتاج التصويري أيضاً، وتختلط صور أصدقاء الكلية وأفراد الأسرة مع صور شاغال، وفيرمير، وكاندينسكي، وتشي غيفارا، وودي ألان، وصمويل بيكيت. لم يكن هناك شيء محايد، وكل شيء يعرض قضية أو وجهة نظر. بدت الغرفة بياناً رسمياً. وبتنهيدة أدرك دكستر أنها إحدى أولئك الفتيات اللواتي يستخدمن كلمة بورجوازي بوصفها كلمة نابية. كان بمقدوره أن يفهم لماذا قد تحمل كلمة «فاشي» معانيَ سلبية، لكنه يحب كلمة بورجوازي وكل ما تدل عليه: الأمان، السفر، الطعام الشهي، الأخلاق السامية، الطموح؛ ما الذي يجب أن يعتذر عنه؟

شاهد الدخان يخرج من فمه ملتوياً. تحسس المكان قربه بحثاً عن منفضة، ووجد كتاباً بجانب السرير: ضياء الوجود الذي لا يُحتمل. وكانت الورقة مثنية عند قسم «الجنس». كانت المشكلة مع أولئك الفتيات المستقلات بقوة أنهن جميعهن متشابهات تماماً. كتاب آخر: الرجل الذي ظنَّ زوجته قبعة. أحمق ولعين وسخيف، كما فكّر، واثقاً أنها لن تكون أبداً غلطة يقترفها.

بعمر الثالثة والعشرين، لم تكن رؤية دكستر ميهو لمستقبله أكثر وضوحاً من رؤية إيما مورلي. تمنّى أن يحالفه النجاح، وأن يجعل والديه فخورين به. لكن، كيف سيحقق الانسجام بين الأمرين؟ أراد أن ينشر مقالات في مجلات، وتمنّى أن يتذكر يوماً ما أعماله من دون أن تخطر له أي فكرة واضحة عن ماهيتها. أراد أن يعيش الحياة بكل مباهجها؛ لكن من دون أي فوضى أو تعقيدات. أراد أن يعيش الحياة؛ حيث إنه إذا التُقطت لها صورة عشوائياً، فستكون صورة جميلة. يجب أن تبدو الأمور على خير ما يرام، وأن تكون

حياته حافلة بالمتعة؛ يجب أن تكون التسلية كبيرة ولا حزن أكثر مما هو ضروري.

لم تكن تلك خطة متقنة تماماً، وقد حدثت أخطاء سابقاً. هذه الليلة مثلاً، كانت مخصصة لاحتواء المضاعفات: دموع ومكالمات هاتفية واتهامات سمجة. كان يجب عليه، على الأرجح، أن يخرج من هذا المكان في أسرع وقت ممكن. ونظر إلى ملابسه المرمية جانباً استعداداً للفرار. جاء من الحمّام صوت خشخشة وجلبةٌ تحذيرية لخزان ماء مرحاض قديم، فأعاد الكتاب إلى مكانه على عجل، وعثر تحت السرير على علبة خردل كولمان صفراء صغيرة ففتحها بسرعة ليتوثق مما فيها. نعم، كانت تحتوي بقايا رمادية صغيرة للفافة مخدّر؛ كأنها فضلات فأرة. شعر بالأمل مجدداً، وقرّر أن بمقدوره البقاء وقتاً أطول قليلاً على الأقل.

في الحمّام، مسحت إيما مورلي هلالي معجون الأسنان عن طرفي فمها، وتساءلت: هل كان الأمر كله غلطة شنيعة؟ بعد أربع سنوات حرمان من الرومانسية، ها هي أخيراً في السرير مع شخص يعجبها حقاً، وقد أعجبها منذ رأته أول مرة في حفل عام 1984، وسيرحل بعد بضع ساعات؛ إلى الأبد على الأرجح. لم يكن محتملاً أن يطلب منها الذهاب معه إلى الصين، وفضلاً على ذلك، كانت تقاطع الصين. بدا رائعاً، أليس كذلك؟ دكستر ميهو. في الحقيقة، انتابها شك في أنه لم يكن ذكياً جداً، وأنه مغرور قليلاً بنفسه، لكنه محبوب ومضحك و - لا فائدة من إنكار ذلك - وسيم جداً. إذاً، لماذا تتصرف بعدوانية وتهكّم؟ لماذا لا يمكنها أن تبدو واثقة بنفسها ومسلّية، مثل أولئك الفتيات المرحات المفعمات بالحيوية اللواتي يتسكع معهن عادة؟ رأت ضوء الفجر من نافذة الحمّام الصغيرة. رزانة. حكّت شعرها المنفوش بأطراف أناملها وتجهّمت، ثم جذبت سلسلة خزان ماء المرحاض القديم واتجهت عائدة إلى الغرفة.

من السرير، راقبها دكستر تظهر عند المدخل، وهي ترتدي العباءة والقلنسوة الجامعيتين اللتين اضطروا جميعاً إلى استئجارهما لحفل التخرج، وساقها تلتف بحركة إغراء حول إطار الباب، وشهادتها الجامعية ملفوفة في يدها. نظرت من فوق نظارتها وشدّت القلنسوة إلى الأسفل فوق إحدى عينيها. «ما رأيك؟».

«تناسبك. أحب المظهر الأنيق. الآن، انزعيها وعودي إلى السرير».

«مستحيل. كلّفتني ثلاثين جنيهاً. سأجعلها تستحق المال الذي دفعته من أجلها».

مستسلماً، التقط شهادتها الجامعية عن الأرض، وفكّ الرباط المطاطي الملفوف حول

الوثيقة، وأعلن: «الإنكليزية والتاريخ، درجة الشرف، المرتبة الأولى».

«اقرأها وابكِ أيها الفتى المتواضع». أمسكت اللفافة. «هه، كن حذراً».

«ستضعينها في إطار، أليس كذلك؟».

«ستحوّلها أمي وأبي إلى ورق جدران». لفّتها بإحكام، ونقرت على الطرفين. «سيجعلانها بساطاً للأرضية، وستحوّلها أمي إلى وشم على ظهرها».

«أين والداك على كل حال؟».

«أوه، إنهما في الغرفة المجاورة».

فزع. «يا الله! حقاً؟».

ضحكت. «ليس فعلاً. إنهما في طريق عودتهما بالسيارة إلى ليدز. أبي يظن أن الفنادق للمتأنقين». أُخفيت اللفافة تحت السرير. قالت وهي تدفعه بمرفقها إلى الجانب البارد من الفراش: «تزحزح الآن». أفسح لها مجالاً، ووضع ذراعه بطريقة خرقاء نوعاً ما تحت كتفيها، وقبّل عنقها مستغرقاً في التفكير. استدارت إليه، وذقنها مرفوع.

«دكس؟».

«همم».

«لنتعانق فحسب، هل يمكننا ذلك؟».

قال بمودة، لكنه في الحقيقة لم يكن يرى شيئاً مفيداً في العناق: «طبعاً، إن أردت». كان العناق للعمّات العجائز ودمى الدببة، ويجعله يشعر بالتشنج. بدا الأفضل له آنذاك أن يعترف بالهزيمة ويذهب إلى المنزل في أسرع وقت ممكن، لكنها كانت تضع رأسها على كتفه، واستلقيا على تلك الحال، متجهمين ومستغرقين في أفكارهما لبعض الوقت قبل أن تقول: «لا أصدّق أنني لفظت كلمة عناق، كلمة عناق اللعينة. آسفة بشأن ذلك».

ابتسم: «لا بأس، على الأقل لم تكن كلمة احتضان».

«احتضان سيئة جداً».

«أو مداعبة».

قالت: «مداعبة مريعة. لنعِد ألاّ نداعب بعضنا أبداً». لكنها ندمت على الملحوظة فوراً. ماذا؟ معاً! بدا لها أن فرصة حدوث ذلك ضئيلة. أطبق الصمت عليهما مجدداً. كانا يتكلمان ويقبّلان بعضهما منذ ثماني ساعات، وكلاهما يشعران بإرهاق جسديهما مع بزوغ

الفجر. كانت طيور الشحرور تغرّد في الحديقة الخلفية الغنّاء.

تمتم في شعرها: «أحب ذلك الصوت؛ الشحرور عند الفجر».

«أنا أكرهه. يجعلني أظن أنني قد فعلت شيئاً سأندم عليه».

قال وهو ينوي تركَ انطباع غامض وساحر مجدداً: «لهذا أنا أحبّه». انقضت دقيقة، ثم أضاف: «لماذا؟ هل فعلتِ شيئاً؟».

«ماذا؟».

«هل فعلتِ شيئاً تندمين عليه؟».

«ماذا؟ هل تعني هذا؟». ضغطت على يده. «أوه، أتوقع ذلك، لكنني لم أعرف بعد. هل فعلتُ ذلك؟ اسألني في الصباح. لماذا؟ هل فعلت أنت شيئاً كذلك؟».

ضغط فمه على أعلى رأسها وقال: «طبعاً لا». وفكّر أن ذلك يجب أن لا يحدث أبداً مجدداً.

سعيدة بجوابه، تكوّرت مقتربة منه أكثر. «يجب أن ننال قسطاً من النوم».

«لماذا؟ ليس لدينا شيء غداً. لا مواعيد نهائية، أو أعمال...».

قالت نعسى، وهي تستمتع بالدفء الرائع، وتشم رائحته: «إن حياتينا بكاملهما تمتدان أمامنا». وانتابها في الوقت نفسه إحساس بأن قشعريرة قلق تسري على طول كتفيها من جراء التفكير في ذلك: حياة راشدة مستقلة. لم تكن تشعر أنها راشدة، ولم تكن مستعدة لها بأي طريقة. بدا الأمر وكأن جرس إنذار من الحريق قد صدح في منتصف الليل وهي تقف في الشارع وملابسها مكدّسة على ذراعيها. إذا لم تكن تتعلم، فماذا ستعمل؟ كيف ستمضي الأيام؟ لم تكن لديها أي فكرة.

المهم في الأمر، كما فكّرت في قرارة نفسها، هو أن تتمتع بالشجاعة والجرأة وتُحدث فرقاً. لن تغير العالم تماماً، وإنما جزءاً منه. ستخرج إلى هناك حاملة شهادتها الجامعية، وستتحلّى بالشغف ومعها الآلة الكاتبة الكهربائية الجديدة من نوع سميث كورونا، وستعمل بجد على... شيء ما. ستغير حياة الناس عبر الفن ربما، وتكتب أشياء جميلة، وتعتني بأصدقائها، وتبقى وفية لمبادئها، وتعيش متقدة العواطف وبصحة وعافية. ستختبر أشياء جديدة، وستحب وسيبادلها أحدهم الحب إن كان ذلك ممكناً، وستأكل على نحو معقول. أشياء مثل تلك.

لم يكن ذلك أمراً مهماً من وجهة نظر الفلسفة الإرشادية، وليس شيئاً يمكن أن

تتشاطره مع أحد؛ على الأقل مع هذا الرجل، لكنه ما تقتنع به. حتى هذا الوقت، كان لا بأس بالساعات القليلة الأولى من حياة الرشد المستقلة. وربما في الصباح، بعد تناول الشاي والأسبرين، قد تتحلّى بالشجاعة لتطلب منه العودة إلى السرير. سيكون كلاهما صاحيين آنذاك، ولن تصبح الأمور أكثر سهولة، لكن ربما ستستمتع بذلك أيضاً. في المرات القليلة التي ذهبت فيها إلى السرير مع فتيان، انتهى بها الأمر دائماً وهي تقهقه أو تبكي، وقد يكون لطيفاً أن تجرّب شيئاً بين الاثنين. تساءلت إن كان هناك واقٍ في علبة الخل. لم يكن هناك سبب لعدم وجوده، فقد كان هناك آخر مرة نظرت فيها إليه: شباط 1987، فنس، مهندس كيمياء كث الشعر كان قد مسح أنفه بغطاء وسادتها. أيام سعيدة، أيام سعيدة...

كان الضوء قد بدأ يشتد في الخارج. استطاع دكستر رؤية لون اليوم الجديد الوردي يتسلل عبر ستائر الشتاء الثقيلة التي زُوِّدت بها الغرفة المستأجرة. حريصاً على ألاّ يوقظها، مدَّ ذراعه وألقى عقب لفافة تبغه في كوب الشراب وحدّق للأعلى؛ إلى السقف. لم تعد فرصة النوم كبيرة آنذاك، وبدلاً من ذلك سيحدّق إلى النقوش في الأرتكس الرمادية حتى تغفو تماماً، ثم سينسل بعيداً من دون أن يوقظها.

طبعاً، كانت المغادرة آنذاك ستعني أنه لن يراها مجدداً. تساءل إن كانت ستمانع، وافترض أنها ستفعل: هن يمانعن عادة. لكن، هل سيمانع هو؟ كان قد تدبّر أمره جيداً من دونها طوال أربع سنوات. وكان لديه حتى الليلة الماضية انطباع بأنها تدعى آنا. لكن، في الحفل لم يستطع أن يشيح ببصره عنها. لماذا لم يكن قد لاحظها حتى الآن؟ أمعن النظر إلى وجهها حين نامت.

كانت جميلة، لكنها بدت مزعجة في الواقع بشعرها الأحمر الداكن المقصوص على نحو سيئ؛ بيدها كما يبدو، وحيدة أمام المرآة على الأرجح، أو بيد تيلي شيء ما، تلك الفتاة الضخمة عالية الصوت التي تشاطرها الشقة. بدا جلدها منتفخاً وشاحباً، ممّا يدل على قضائها وقتاً طويلاً في المكتبات أو على تناولها الشراب في الملاهي. ونظارتها تجعلها تبدو مثل بومة ومتكلّفة. كان ذقنها ناعماً وريّاناً قليلاً.

شاهد لمعاناً زيتياً باهتاً على أرنبة أنفها الصغير الجميل، ورذاذاً من بقع حمراء صغيرة على جبينها. لكن، باستثناء ذلك، لم يكن هناك مجال لإنكار أن وجهها حسنٌ، كان وجهها فاتناً. ومع إغماضها عينيها، اكتشف أنه لا يتذكر لونهما بالتحديد، لكنهما واسعتان

ولامعتان وبشوشتان، مثل الغمّازتين في طرفي فمها الكبير؛ كأنهما هلالان عميقان يغوران حين تبتسم، وهو ما يحدث غالباً. وجنتان ناعمتان متورّدتان مثل وسادتين من لحم يبدو أنهما تصبحان دافئتين من مجرد لمسهما. لا يوجد أحمر شفاه، لكن شفتيها رقيقتان بلون العلّيق تبقيهما مغلقتين بإحكام حين تبتسم؛ وكأنها لا تريد إظهار أسنانها التي تبدو كبيرة بالنسبة إلى فمها، والأمامية منها مثلّمة قليلاً، وكل ذلك يمنحها انطباعاً بأنها تكتم شيئاً؛ ضحكة أو ملحوظة ذكية، أو دعابة سرية رائعة.

إذا غادر، فلن يرى على الأرجح هذا الوجه مجدداً، ربما باستثناء حفلِ لمّ شمل فظيع بعد عشر سنوات. ستكون بدينة ومحبطة وتشتكي من تسلله من دون وداعها. بدا من الأفضل أن يغادر بهدوء، وألاّ يحضر أي اجتماع لمّ شمل. امضِ قدماً، وتطلع إلى المستقبل، وسترى مزيداً من الوجوه.

لكن، عندما اتخذ قراره، تمدد فمها إلى ابتسامة واسعة، ومن دون أن تفتح عينيها قالت:

«إذاً، ما رأيك يا دكس؟».

«بشأن ماذا يا إم؟».

«أنا وأنت. هل هو الحب برأيك؟». أطلقت ضحكة خافتة، ثم أغلقت شفتيها بإحكام.

«اخلدي إلى النوم فحسب، هل يمكنك ذلك؟».

«توقف عن التحديق إلى أنفي إذاً». فتحت عينيها، كانتا زرقاوين وخضراوين، لامعتين ومتقدتين. تمتمت: «ما الغد؟».

«تعنين اليوم؟».

«اليوم، هذا النهار الجديد المشرق الذي ينتظرنا».

«إنه الجمعة، يوم الاحتفال بسان سويذن في الواقع».

«ما هو؟».

«تقليد. إذا هطل المطر اليوم فسيستمر في الهطول طوال أربعين يوماً، أو كل الصيف، أو شيئاً مماثلاً».

عبست. «لا يبدو هذا منطقياً».

«لا يجب أن يكون منطقياً. إنها خرافة».
«تمطر أين؟ المطر يهطل دائماً في مكان ما».
«على ضريح سان سويذن. إنه مدفون خارج دار العبادة الكبيرة في ونشستر».
«كيف تعرف كل هذا؟».
«ذهبت إلى المدرسة هناك».
تمتمت في الوسادة: «أيها المتكلّف».
«إذا هطل المطر على سان سويذن فسيهطل غزيراً مجدداً».
«هذه قصيدة جميلة».
«حسنٌ، أنا أعيد صياغتها».
ضحكت مرة أخرى، ثم رفعت رأسها ببطء. «لكن، يا دكس؟».
«إم؟».
«إذا لم يهطل المطر اليوم».
«آه – ها».
«فماذا ستفعل لاحقاً؟».
أخبرها أنك مشغول.
قال: «لا شيء محدد».
«هل نفعل شيئاً إذاً؟ أعني أنا وأنت؟».
انتظر حتى تنام ثم اخرج خلسة.
قال: «نعم، لا بأس. لنفعل شيئاً».
تركت رأسها يسقط على الوسادة مرة أخرى، وتمتمت: «يوم جديد».
«يوم جديد».

الفصل الثاني

عودة إلى الحياة

السبت 15 تموز 1989

ولفرهامبتون وروما

غرف تغيير ملابس الفتيات

مدرسة ستوك بارك الثانوية

ولفرهامبتون

15 تموز 1989

تشاو بيلا!

كيف حالك؟ وكيف هي روما؟ المدينة الخالدة بخير، لكنني هنا في ولفرهامبتون منذ يومين، وتلك مدة سرمدية (على الرغم من أن بمقدوري القول إن بيتزا هت هنا ممتازة، ولذيذة جداً).

منذ رأيتك آخر مرة، كنت قد قرّرت العمل في تلك الوظيفة التي أخبرتك عنها، مع «جمعية مسرح المطرقة»، وكنا في الشهور الأربعة الماضية نؤلف ونتمرّن ونعمل على «شحنة قاسية»، وهي مسرحية يموّلها مجلس الفنون عن تجارة العبيد، وتُسرد على شكل قصة، وأغانٍ شعبية، وبعض الحركات الإيمائية الجميلة. لقد ضمّنت رسالتي هذه كرّاساً مصوّراً حتى تستطيع أن تشاهد المستوى الرفيع للعمل.

"شحنة قاسية" عمل ت-م (أي: تعليمي مسرحي بالنسبة إليك) يستهدف الفئة العمرية بين 11-13 سنة، والتي لديها وجهة نظر استفزازية وهي أن العبودية شيء سيئ. أؤدي شخصية ليندا، مم، حسنٌ، نعم الدور الرئيس في الحقيقة، وهي الابنة المدللة والمغرورة للسير الشرير أوبادياه غريم (هل يمكن أن تخمّن من اسمه أنه ليس لطيفاً؟). وفي أقوى لحظات العرض أدرك أن كل أشيائي الجميلة، وفساتيني (فستاني المشار إليه)، ومجوهراتي (أيضاً) مشتراة بدماء إخوتي في الإنسانية (أنشج-أتنهّد)، وأشعر بأنني قذرة (أحدّق إلى يديّ وكأنني أرى الدم)، ووسخة حتى أعماق رووووحي. إنه عرض قوي جداً. لكن، أفسده في الليلة الأخيرة بعض الأطفال بإلقائهم مالتيزرز على رأسي.

لكن جدّياً، في الواقع، لم يكن الأمر سيئاً جداً، ليس في السياق، ولا أعرف لماذا أنا متشائمة، وردّة فعلي لا إرادية على الأرجح. قوبلنا في الواقع ببردة فعل رائعة من الأطفال الذين رأوها، أولئك الذين لم يرموا أشياء، وأقمنا ورشات عمل في مدارس، وكانت مثيرة للاهتمام حقاً. مدهش كيف يعرف هؤلاء الأولاد الصغار عن إرثهم الثقافي؛ حتى أطفال هنود الغرب، عن المكان الذي جاءوا منه. لقد استمتعت بكتاباتها أيضاً، وقد منحتني كثيراً من الأفكار لمسرحيات ومواد أخرى، ولهذا أظن أنها تستحق العناء حتى إذا كنت تظن أنني أضيع وقتي سدى. أظن حقاً أن بمقدورنا تغيير أشياء يا دكستر. أعني كان هناك الكثير من المسارح المتطرفة في ألمانيا في الثلاثينيات، وانظر أي فرق أحدثه ذلك. سنعمل على إلغاء ذلك التمييز على أساس اللون من المنطقة الغربية في الأقاليم الوسطى، حتى إن اضطررنا إلى فعل ذلك من طفل إلى آخر.

يتكون فريق العمل من أربعة أشخاص. كوامي هو العبد النبيل. وعلى الرغم من أننا نلعب دورَي السيدة والخادم إلا أننا في الواقع نتفق مع بعضنا بعضاً على نحو جيد (رغم أنني طلبت منه أن يجلب لي علبة من رقائق البطاطا ذلك اليوم، ونظر إلي وكأنني أضطهده). لكنه لطيف وجدّي في العمل، رغم أنه بكى كثيراً في التدريبات، وهو ما ظننت أنه أمر مبالغ فيه. إنه بكّاءٌ قليلاً، إن كنت تعرف ما أعنيه. في المسرحية، يجب أن يظهر توتر جنسي قوي بيننا، لكن مرة أخرى تفشل الحياة في محاكاة الفن.

هناك أيضاً سيد الذي يؤدي دور والدي الشرير أوبادياه. أعرف أنك قضيت طفولتك كلها في لعب الكريكت الفرنسي على مرج أقحوان رائع، ولم تفعل قط أي شيء متواضع مثل مشاهدة التلفاز، لكن سيد كان مشهوراً جداً في ذلك البرنامج الذي يدعى «نبض المدينة»، وهو يشعر بالاشمئزاز لانحداره إلى هذا المستوى. يرفض بشدّة القيام بحركات إيمائية؛ كأنّه ليس من مستواه أن يشاهده أحد مع شيء ليس موجوداً حقاً، ويبدأ كل جملة بعبارة «عندما كنت في التلفاز» وهي طريقته في القول «عندما كنت سعيداً». يتبول سيد في أحواض الغسل، ولديه سراويل البوليستر المخيفة تلك التي تمسحها بدلاً من أن تغسلها، والتي تجدها في محطة الخدمة التي تقدّم فطائر لحم البقر. وأنا وكوامي نظن أنه عنصري حقاً في الخفاء،

لكن باستثناء ذلك نجده رجلاً لطيفاً؛ رجلاً رائعاً.
وهناك أيضاً كاندي، آه كاندي. ستحب كاندي، فهي اسم على مسمّى بالضبط. جميلة جداً وروحانية. وعلى الرغم من أنني لا أوافق على الكلمة، إلا أنها غانية. تسألني باستمرار كم عمري حقاً، وتخبرني أنني أبدو متعبة أو أنني إذا وضعت عدستين لاصقتين فسأبدو جميلة جداً، وهذا يعجبني طبعاً. تتحمّس كثيراً لإيضاح أنها تقوم بذلك فقط لتحصل على بطاقة مرور، وتتحين الفرصة المناسبة ليلحظها منتج من هوليوود تفترض أنه سيمر مصادفة عبر دودلي بعد ظهر يوم ثلاثاء ماطر باحثاً عن موهبة مسرحية مميزة. التمثيل هراء، أليس كذلك؟ عندما بدأنا ج–م–م (جمعية مسرح المطرقة) كنا متشوقين حقاً إلى إنشاء جمعية مسرحية تقدمية من دون هراء غرور – الشهرة – من – التلفاز – والتباهي – بها، وإنما تقديم عمل سياسي أصلي مبتكر جيد ومثير للاهتمام. قد يبدو كل ذلك غبياً لك، لكنه ما أردنا القيام به. المشكلة مع الجمعيات الديمقراطية المنادية بالمساواة هي أنه عليك الإصغاء إلى حمقى مثل سيد وكاندي. لن أشكك في قدرتها على التمثيل، لكن لهجة جوردي التي تتكلم بها لا تُصدّق؛ كأنها قد أُصيبت بجلطة أو شيء مماثل، وتتحدث دائماً أيضاً عن القيام بتمارين يوغا بملابسها الداخلية. ذلك يثير اهتمامك، أليس كذلك؟ إنها المرة الأولى التي أرى فيها إحداهن تؤدي طقوس «تبجيل الشمس» وهي ترتدي جوربين وصدرية فقط. ذلك ليس مناسباً، صحيح؟ لا يتمكن سيد العجوز المسكين من مضغ شريحة اللحم المطبوخة إلا بصعوبة، ويفغر فمه باستمرار. عندما يحين الوقت أخيراً لترتدي بعض الثياب وتصعد إلى خشبة المسرح، يطلق أحد الفتية عادة صفيراً أو صوتاً. وفي الحافلة الصغيرة بعد ذلك تتظاهر دائماً أنها تشعر بالإهانة من الأمر. تقول وهي تعدّل حمّالة جوربيها؛ كأنها قضية سياسية: «أكره أن يحكم الآخرون علي من مظهري، وطوال حياتي يحكمون على وجهي الفاتن وجسدي الرشيق»؛ كأن علينا تقديم مسرحية دعائية في الهواء الطلق عن مشكلة النساء المبتليات بحلمات رائعة. هل أتشدّق؟ هل أحببتها؟ ربما سأعرفك إليها حين تعود. يمكن أن أراك الآن، ترمقها بتلك النظرة، وتمسك فكك بقوة، وتداعب شفتيك، وتسأل عن مهنتها. ربما لن أعرّفك إليها بالنتيجة...
قلبت إيما مورلي الصفحة إلى الأسفل حين دخل غاري نوتكين، النحيل الذي يبدو قلقاً

دائماً، وقد حان وقت الكلام الحماسي قبل العرض من المخرج وأحد مؤسسي «جمعية مسرح المطرقة». لم تكن غرفة تبديل الملابس المشتركة بين الجنسين حجرة ثياب على الإطلاق وإنما حجرة تغيير للفتيات في ذلك الجزء من الثانوية. وتفوح منها - حتى في عطلة نهاية الأسبوع - تلك الرائحة المدرسية التي تتذكرها: هرمونات، صابون سائل وردي، مناشف.

عند الباب، تنحنح غاري نوتكين؛ شاحباً وحليقاً، والزر الأعلى في قميصه الأسود مغلق بإحكام. مثله الأعلى هو جورج أورويل. «حشد عظيم اليوم يا قوم! المكان نصف مملوء تقريباً وهذا ليس شيئاً سيئاً على اعتبار!»، ورغم أنه لم يقل على اعتبار ماذا بالضبط؛ ربما لأنه ارتبك حين رأى كاندي التي كانت تحرّك خصرها على إيقاع موسيقى البولكا. «لنقدّم لهم عرضاً مميزاً أيها القوم. لنجعلهم يصابون بالذهول».

تذمّر سيد وهو يراقب كاندي ممسكاً فطيرة: «أود أن نجعلهم يصابون بالذهول. سأعاقبكم بمضرب كريكت عليه مسامير، أيها الأوغاد الصغار».

ناشدته كاندي وهي تطلق زفيراً طويلاً تتحكم فيه: «ابقَ إيجابياً يا سيد، هلا فعلت ذلك من فضلك».

تابع غاري: «تذكروا، كونوا نشيطين ومنسجمين ومفعمين بالحيوية، وقولوا السطور وكأنها أول مرة والأهم على الإطلاق، ولا تدعوا الجمهور يرعبكم أو يستفزّكم بأي طريقة. التفاعل رائع، لكن الرد المتهوّر ليس كذلك. لا تدعوهم يعكّرون صفوكم، ولا تحققوا لهم تلك الرغبة. خمس عشرة دقيقة، من فضلكم!». عندما كان يقول ذلك، أغلق غاري باب غرفة تغيير الملابس عليهم، مثل سجّان.

بدأ سيد تمارينه الليلية آنذاك، وتمتم تعويذة «أنا-أكره-هذا-العمل، أنا-أكره-هذا-العمل». جلست كوامي خلفه، حاسرة الرأس، مكتئبة وترتدي سروالاً رثاً، وتضع يديها تحت إبطيها، ورأسها مسترخٍ إلى الخلف، تفكّر أو تحاول ربما ألاّ تبكي. إلى يسار إيما، أنشدت كاندي أغنيات من البؤساء بصوت سوبرانو حاد، وهي تمسك أصابع قدميها الرشيقة نتيجة ثماني عشرة سنة من الباليه. استدارت إيما إلى انعكاس صورتها في المرآة المشققة، ورفعت الردنين المنتفخين من فستانها الإمبراطوري، ونزعت نظارتها، وأطلقت تنهيدة جين أوستن.

كانت السنة الماضية سلسلة من المنعطفات الخاطئة، والخيارات السيئة، والمشروعات

المتعثرة. كانت هناك فرقة كلها فتيات عزفت فيها على الطبل، وأطلقت عليها أسماء متعددة منها «حنجرة»، و«مسلخ ستة»، و«بسكويت رديء»، ولم تستطع اختيار واحدٍ منها، فضلاً عن انتقاء الاتجاه الموسيقي لها. كان هناك النادي البديل الذي لم يذهب إليه أحد، والرواية الأولى التي تخلّت عنها، والرواية الثانية التي لم تكتمل، وعدّة وظائف صيفية بائسة تبيع الكشمير والطرطان إلى السياح. وعند وصولها إلى الدرك الأسفل، انضمت إلى دورة دراسية في «مهارات السيرك» حتى أدركت أنها لا تملك شيئاً منها: لم تكن أرجوحة البهلوان هي الحل.

كانت «صيف الحب الثاني»، التي حظيت بدعاية كبيرة، إحدى اللحظات الكئيبة وزخماً مهدوراً، حتى إن أدنبرة المحبوبة لديها بدأت تصيبها بالملل والكآبة. كان العيش في بلدة جامعتها مثل البقاء في حفل غادره كل شخص آخر. وهكذا، في تشرين الأول، سلّمت الشقة في شارع رانكيلور وعادت إلى والديها لتقضي معهما شتاءً طويلاً ورطباً مشحوناً بالاتهامات المتبادلة، وإغلاق الأبواب بعنف، وصوت التلفاز في منزل بدا آنذاك صغيراً على نحو مستحيل. سألت والدتها يومياً: «لكنك حصلت على شهادة جامعية! ماذا حدث لشهادتك الجامعية؟»؛ كأن شهادة إنما قوة عظمى ترفض بعناد استخدامها. كانت شقيقتها الصغرى ماريان، الممرضة السعيدة في زواجها التي رُزقت طفلاً، تأتي أحياناً في الليل فقط لتحدّق إلى فتاة أمها وأبيها الذهبية وقد أصبحت في الحضيض.

بين الحين والآخر، كان هناك دكستر ميهو. في الأيام الدافئة القليلة الأخيرة من الصيف بعد التخرّج، كانت قد ذهبت إلى منزل أسرته الجميل في أوكسفوردشاير؛ الذي لم يكن منزلاً وإنما قصراً في عينيها. فهو ضخم، 1920 متراً مربعاً، فيه سجاد قديم ولوحات زيتية تجريدية كبيرة وجليد في الشراب. في الحديقة الكبيرة التي تفوح منها رائحة الأعشاب، كانا قد أمضيا يوماً طويلاً وبطيئاً بين بركة السباحة وملعب التنس؛ وهو أول ملعب تراه ولم يكن قد بناه المجلس المحلي. تناولا الشراب الغازي الفوّار وهما جالسان على كرسيين مصنوعين من أغصان الصفصاف، ينظران إلى المشهد أمامهما، وقد فكّرت في غاتسبي الرائع. بالطبع كانت قد أفسدت الأمر؛ لأنها توتّرت وشربت الكثير على العشاء، وصرخت على والد دكستر – رجل لطيف ومتواضع وحصيف جداً – بشأن نيكاراغوا، في حين كان دكستر يرمقها طوال الوقت بنظرة خيبة أمل محبة؛ كأنها جرو لطّخ سجادة. هل جلست حقاً إلى مائدتهم، وتناولت طعامهم، ونعتت والده بأنه عنصري؟ استلقت تلك الليلة في غرفة نوم

الضيوف، ذاهلة وتشعر بالندم، وتنتظر قرعاً على الباب بدا واضحاً أنه لن يحدث، وعرفت أنها ضحّت بآمالها الرومانسية كرمى للسانديين الذين لم يكونوا ليشكروها على الأرجح.

كانا قد التقيا مجدداً في لندن في نيسان، في حفل ذكرى ميلاد صديقهما المشترك كالوم الثالثة والعشرين، وأمضيا اليوم التالي كلَّه في حدائق كنسينغتون معاً، يحتسيان الشراب من القارورة ويتكلمان. بدا واضحاً أنه قد صفح عنها، لكن الأمر توقف عند ألفة الصداقة التي تثير الجنون؛ جنونها على الأقل، واستلقيا على عشب الربيع النضر، يداهما بالكاد تتماسان وهو يخبرها عن لولا، تلك الفتاة الإسبانية الرائعة التي التقاها حين كان يتزلج في البيرينيه.

سافر بعد ذلك مجدداً، يوسّع آفاقه الذهنية إلى مجالات أكبر. تبين أن الصين غريبة جداً وإيديولوجية أكثر مما ينبغي لدكستر، وقد بدأ بدلاً من ذلك رحلة استجمام مدتها عام إلى ما تدعوه كتيبات الدعاية «بلدات الحفلات». كانا صديقين آنذاك، وسطّرت إيما رسائل طويلة مملوءة دعابات شدّدت فيها على المزاح وأخفت اشتياقها إليه بصعوبة؛ وبدت مثل فصول حب من ألفي كلمة على ورق بريد جوي. كانت الرسائل مثل أشرطة المقتطفات، وسائل نقل حقيقية لمشاعر لم تعبّر عنها، وبدا واضحاً أنها تخصّها بوقت طويل وطاقة كبيرة جداً. بالمقابل، أرسل دكستر إليها بطاقات بريدية تحمل عبارات مختصرة: «أمستردام تجنن»، «برشلونة تخبل»، «دبلن تذهل»، «مريض مثل كلب هذا الصباح». بوصفه كاتباً مسافراً، لم يكن مثل بروس تشاتوين، لكنها رغم ذلك كانت تدس البطاقات البريدية في جيب معطف ثقيل في أثناء سيرها مسافات طويلة في إلكي مور، وهي تبحث عن معنى خفي في «البندقية مغمورة بالماء تماماً».

سألت والدتُها، وهي تحدّق إلى الجهة الخلفية للبطاقات البريدية: «من هو دكستر إذاً؟ حبيبك، صحيح؟». ثم رمقتها بنظرة قلق: «هل فكّرت قط في العمل لمصلحة مجلس الغاز؟». حصلت إيما على عمل في تعبئة كؤوس الشراب في حانة محلية، ومرّ الوقت، وشعرت بأن دماغها بدأ يضعف مثل شيء منسي في الجزء الخلفي من ثلاجة.

كان غاري نوتكين قد اتصل بها، التروتسكي النحيل الذي أرشدها بطريقة متكلّفة إلى عمل بريخت مخاوف الرايخ الثالث وآلامه في 1986، ثم قبّلها ثلاث ساعات متواصلة في حفل الليلة الأخيرة. اصطحبها بعد ذلك بوقت قصير إلى مسرحيتي بيتر غرينوي المتتاليتين، وانتظر انقضاء أربع ساعات قبل أن يمدّ يده ويضعها شارداً على نهدها الأيسر؛ كأنه يعدّل مفتاح إضاءة. مارسا حب بريخت تلك الأمسية على سرير مفرد قديم تحت ملصق لمعركة

الجزائر، وتوخّى غاري الحرص في أثناء ذلك ليتوثق من أنه لا يجعلها تشعر بأنه شيء مهم على الإطلاق. ثم لا شيء، ولا كلمة، حتى ذلك الاتصال الهاتفي في آخر الليل في أيار، والكلمات المترددة، والصوت الهادئ: «هل تودّين الانضمام إلى جمعيتي المسرحية؟».

لم تكن إيما تطمح أن تصبح ممثلة، أو تحب المسرح حباً جمّاً، لكنها تعدّه وسيلة لنقل الكلمات والأفكار. وكانت المطرقة نوعاً جديداً من جمعيات المسرح التقدّمي، وتعبّر عن نوايا وحماسة مشتركة، وتقدم بياناً مكتوباً والتزاماً بأن تغير حياتك عبر الفن. ربما ستكون هناك بعض الرومانسية أيضاً، كما فكّرت إيما، أو على الأقل بعض الجنس. حزمت حقيبتها، وودّعت أمها وأباها المتشككين، وانطلقت في الحافلة الصغيرة كأنها تخرج في سبيل قضية عظيمة؛ نوعٍ من الحرب الأهلية الإسبانية المسرحية، يموّلها مجلس الفنون.

لكن، بعد ثلاثة شهور، ماذا حلَّ بالدفء، والألفة، والإحساس بالقيمة الاجتماعية، والقيم العالية المقترنة بالمتعة؟ كان القصد أن يكوّنوا جمعية، وذلك ما كُتب على جانب الشاحنة المغلقة، فقد خطّته بنفسها. قال سيد: أنا – أكره – هذا – العمل – أنا – أكره – هذا – العمل. غطّت إيما أذنيها بيديها، وطرحت على نفسها بعض الأسئلة الأساسية.

أين أنا؟

هل أُحدث فرقاً حقاً؟

لماذا لا يمكنني ارتداء بعض الثياب؟

ما تلك الرائحة؟

أين أريد أن أكون الآن؟

أرادت أن تكون في روما، مع دكستر ميهو؛ في السرير.

«جادة شاف–تز–بري».

«لا، شافتز–بري، مقطعان».

«ساحة لايتشيستر».

«ساحة ليسيستر، مقطعان».

«لماذا ليست لاي–تشيستر».

«لا فكرة لدي».

«لكن، أنت معلّمي، وينبغي أن تعرف».

هزّ دكستر كتفيه: «آسف».

قالت توف أنغستروم: «حسنٌ، أظن أنها لغة سخيفة»، ووكزته من كتفه.

«لغة سخيفة. لا يمكنني الاتفاق معك على ذلك، ولا داعي إلى ضربي».

قالت توف: «أعتذر». وقبّلت كتفه ثم عنقه ثم فمه، وتساءل دكستر مرة أخرى كم يمكن أن يكون التعليم مجزياً.

استلقيا على كومة من الوسائد على الأرضية الآجرية لغرفته الصغيرة، بعد أن اقتنعا أن السرير المفرد غير ملائم لحاجتهما. في كرّاس مدرسة بيرسي شيلي الدولية للغة الإنكليزية، كانت مساكن المعلّمين قد وُصفت بأنها «مريحة مع ميزات إضافية عديدة»؛ وذلك يلخص الأمر كله على نحو ممتاز. كانت غرفته في سنترو ستوريكو معتمة وكئيبة. لكن، هناك على الأقل شرفة، وعتبة نافذة بعرض قدم تطل على ساحة بديعة تُستخدم، بطريقة رومانية، كموقف للسيارات. كان يستيقظ كل صباح على صوت موظفي المكاتب وهم يركنون سياراتهم بنشاط إلى الخلف.

لكن، في منتصف أصيل تموز الرطب ذاك، جاء الصوت الوحيد من عجلات حقائب سائحَين تقعقع على الحجارة في الأسفل، واستلقيا والنوافذ مفتوحة على مصراعيها، يقبّلان بعضهما ببطء، شعرها يلتصق بوجهه، كثيفاً وداكناً وتفوح منه رائحة شامبو دانمركي: صنوبر اصطناعي ودخان لفافة تبغ. مدّت يدها من فوق صدره إلى العلبة على الأرضية، وأشعلت لفافتين وأعطته واحدة، فجلس على الوسائد، وترك اللفافة تتدلّى من شفته مثل بلموندو أو شخص في فيلم فيليني. لم يكن قد رأى قط بلموندو أو فيلماً لفليني، لكنه يعرف البطاقات البريدية: أنيقة، سوداء وبيضاء. لم يكن دكستر يحب أن يفكّر أنه شخص فاشل. لكن، انقضت بالتأكيد أوقات تمنّى فيها أن يكون هناك شخص ويلتقط صورة له.

تبادلا القبل مجدداً، وتساءل على نحو غامض إن كان هناك بعد أخلاقي أو مبدئي في وضعه. بالطبع، كان وقت القلق بشأن محاسن النوم مع طالبة ومساوئه يحين بعد حفل الكلية، في حين أن توف تجثم مضطربة على حافة سريره وتفتح سحّاب حذائها الطويل حتى الركبة. حتى آنذاك، في تشويش الشراب الأحمر والرغبة، كان قد وجد نفسه يتساءل عمّا ستقوله إيما مورلي. وعندما أدارت توف لسانها في أذنه، كان قد جهّز دفاعه: إنها في التاسعة عشرة، راشدة. وعلى كل حال أنا لست معلماً بحق. إضافة إلى ذلك، كانت إيما بعيدة جداً في تلك اللحظة، تغيّر العالم من الحافلة الصغيرة على الطريق الالتفافي لبلدة

ريفية، وما علاقة كل هذا بإيما على كل حال؟ كان حذاء توف الطويل حتى الركبة مرتخياً في زاوية الغرفة آنذاك، في المسكن الجامعي حيث استقبال زوّار يرغبون بقضاء الليل هناك محظور تماماً.

نقل جسده إلى بقعة أكثر برودة من الأرضية الآجرية، وحدّق إلى خارج النافذة ليحاول تحديد الوقت من المربع الصغير للسماء الزرقاء الصافية. بدأ إيقاع تنفّس توف يتغيّر حين خلدت إلى النوم، لكن كان لديه موعد مهم يجب أن يذهب إليه. ألقى آخر بوصتين من لفافة التبغ في كأس شراب، ومدَّ يده إلى ساعته الموجودة على نسخة غير مقروءة من كتاب بريمو ليفي إذا كان هذا رجلاً.

«توف، يجب أن أذهب».

تأوهت احتجاجاً.

«سألتقي والديَّ، وينبغي أن أغادر الآن».

«هل يمكنني المجيء أيضاً؟».

ضحك. «لا أظن ذلك يا توف، ثم إن لديك امتحان قواعد يوم الاثنين. اذهبي وادرسي».

«أنت ستجري الامتحان، اختبرني الآن».

«لا بأس، الأفعال، الحاضر المستمر».

لفّت إحدى ساقيها حوله، واستخدمتها لترفع نفسها وتستلقي فوقه. «أنا أقبّل، أنت تقبّل، هو يقبّل، هي تقبّل...».

رفع نفسه إلى الأعلى على مرفقيه. «كوني جديّة يا توف...».

همست في أذنه: «عشر دقائق إضافية»، واسترخى مجدداً على الأرضية. لمَ لا، كما فكّر؟ بالمحصلة، أنا في روما، وهذا يوم جميل. أنا في الرابعة والعشرين من عمري، مؤمَّن مادياً، وأتمتع بموفور الصحة والعافية. أنا مكتئب وأفعل شيئاً ينبغي أن أبتعد عنه، ومحظوظ جداً.

كانت فتنة الحياة المكرّسة للمشاعر والسعادة والذات ستضمحل يوماً ما على الأرجح، لكن سينقضي وقت طويل قبل حدوث ذلك.

وكيف هي روما؟ كيف «لا دولس فيتا»؟ (ابحث عن معنى ذلك). أتخيّل أنك

تجلس الآن إلى طاولة مقهى، تشرب إحدى تلك «الكابوتشينو» التي نسمع عنها كثيراً، وتصفر على كل شيء. أنت تضع على الأرجح نظارة شمسية لتقرأ هذا. حسنٌ، انزعها؛ لأنك تبدو سخيفاً. هل وصلتك الكتب التي أرسلتها لك؟ بريمو ليفي كاتب إيطالي رائع. إنها لتذكيرك بأن الحياة ليست كلها متعاً ومسرّات. لا يمكن أن تكون الحياة دائماً مثل افتتاحية «بتي بلو». وكيف التعليم؟ أرجوك عدني ألاّ تنام مع طالباتك. سيكون ذلك... مخيباً للآمال.

يجب أن أذهب الآن. نهاية الصفحة تقترب، وفي الغرفة الأخرى يمكنني سماع تمتمات مثيرة من جمهورنا الذي يرمي كراسي على بعضه بعضاً. سأنتهي من هذا العمل بعد أسبوعين والحمد لله، ثم يريد مني غاري نوتكين، مخرجنا، إبداعَ عرضٍ لمدارس الأطفال عن سياسة التمييز العنصري؛ مع دمى. ستة شهور من الانتقال من مكان إلى آخر مع دمية ديزموند توتو على حِجري، لكن قد لا أنضم إلى ذلك العمل. إضافة إلى ذلك، لقد كتبت مسرحية المرأتين تلك عن فيرجينيا ولف وإيملي ديكينسون بعنوان «حياتان» (إما ذلك أو «شاذتان مكتئبتان»). ربما سأعرضها على مسرح ملهى في مكان ما. لقد شرحت مرة لكاندي من هي فيرجينيا ولف، وقالت إنها تريد أن تؤدّي دورها حقاً، لكن فقط إن استطاعت أن تنزع ملابسها، حتى تكون ملائمة للدور. سأؤدّي دور إيملي ديكينسون، لكنني سأبقى مرتدية ثيابي. سأحتفظ لك بتذاكر.

في هذه الأثناء، يجب أن أختار بين العمل في ليدز أو لندن. خيارات، خيارات. لقد كنت أحاول معارضة الانتقال إلى لندن - هذا متوقع جداً، الانتقال إلى لندن - لكن زميلتي القديمة في السكن تيلي كيليك (هل تتذكرها؟ نظارة حمراء كبيرة، وجهات نظر حادة) لديها غرفة إضافية في كلابتون. تدعوها «غرفة صندوقها» وهذا لا يبشّر بخير. كيف هي كلابتون؟ هل ستعود إلى لندن قريباً؟ مهلاً! ربما يمكن أن نصبح زميلَي سكن؟

«زميلَي سكن؟»، ردّدت إيما، وهزّت رأسها وتأوّهت، ثم كتبت «أمزح فحسب!!!». تأوّهت مجدداً. كانت «أمزح فحسب» هي ما يكتبه الناس بالضبط حين يعنون كل كلمة. لقد فات أوان الخربشة فوقها آنذاك، لكن كيف ستنتهي الرسالة؟ كانت «مع أطيب التحيات» رسمية جداً، «تو مون آمور» متكلّفة جداً، «مع حبي» مبتذلة جداً، وقد

أصبح غاري نوتكين عند الباب مرة أخرى.

«لا بأس، فلْيجلس الجميع!». بحزن، فتح الباب وكأنه يقودهم إلى فرقة إعدام، وبسرعة وقبل أن تغيّر رأيها، كتبت –

يا إلهي، اشتقت إليك يا دكس.

– ثم توقيعها وقبلة واحدة طبعتها عميقاً على ورق البريد الجوي الأزرق الشاحب.

في بيازا ديلا روتندا، جلست والدة دكستر إلى طاولة مقهى، وهي تحمل رواية بإحدى يديها، وعيناها مغمضتان، ورأسها مائل إلى الخلف والجانب مثل طائر يريد الاستمتاع بآخر أشعة شمس الأصيل. وبدلاً من الذهاب إليها فوراً، قضى دكستر لحظة في الجلوس بين سيّاح على درجات المدفن، وراقب النادل يقترب ويحمل منفضتها، الأمر الذي أفزعها. ضحك كلاهما، ومن الحركة المتكلّفة لفمها وذراعيها عرف أنها تتكلم بإيطاليتها الفظيعة، ويدها على ذراع النادل، تربت عليها على نحو غزلي. ومن دون أي فكرة واضحة عمّا كان يقال، كشّر النادل واستدار بعصبية، ثم مشى مبتعداً، وهو ينظر من فوق كتفه إلى المرأة الإنكليزية الجميلة التي مسّت ذراعه وحدّثته بكلام مبهم.

شاهد دكستر كل ذلك وابتسم. بدت نظرية فرويد القديمة تلك، التي سمعها همساً أول مرة في المدرسة الداخلية، أن الفتيان يقعون في حب أمهاتهم ويكرهون آباءهم، معقولة تماماً له. كان كل من التقاهم على الإطلاق قد وقعوا في حب أليسون ميهو، وأفضل شيء هو أنه أحب فعلاً والده أيضاً؛ وقد بدا محظوظاً جداً في أشياء كثيرة.

غالباً، عند العشاء أو في الحديقة الكبيرة الخصبة لمنزل أوكسفوردشاير، أو في عطلات في فرنسا حين تنام تحت الشمس، كان يلاحظ والده يحدّق إليها بعينيه الحادّتين بإعجاب صامت. بدا أن ستيفن ميهو، الأكبر منها بخمس عشرة سنة، الضخم، طويل الوجه، الانطوائي، لا يستطيع تصديق هذا الجزء الرائع من الحظ الجيد. في حفلاتها المتكررة، إذا جلس دكستر هادئاً جداً حتى لا يُرسل إلى السرير، فسيشاهد الرجال يشكّلون دائرة مطيعة ومخلصة حولها؛ إنهم رجال أذكياء ورائعون، منهم أطباء ومحامون وأشخاص يتكلمون عبر المذياع، يصبحون مثل مراهقين ذاهلين. سيراها ترقص على أنغام ألبومات باكرة لفرقة روكسي الموسيقية، وهي تحمل كأس شراب في يدها، مصابة بدوار لكنها رابطة الجأش، في حين تنظر الزوجات الأخريات إليها، ويبدون في حالٍ يرثى لها وغبيات مقارنة بها. سيتحول أصدقاء المدرسة أيضاً، حتى الرائعون منهم، إلى شخصيات كرتونية حول أليسون

ميهو، يغازلونها وترد عليهم، ويشتركون معها في نزالات مائية، ويُثنون على طهيها المريع؛ البيض المخفوق بعنف، الفلفل الأسود الذي كان رماداً من لفافة تبغ.

كانت قد درست مرة الأزياء في لندن، لكنها هذه الأيام تدير متجر الأشياء الأثرية في قرية، تبيع بُسطاً وثريات غالية الثمن إلى أرستقراطيّي أوكسفورد بنجاح منقطع النظير. لا تزال ترافقها تلك الهالة بأنها كانت شخصاً مميزاً في الستينيات - لقد رأى دكستر الصور، القصاصات من ملاحق شاحبة اللون - لكنها قد تخلّت من دون حزن أو ندم ظاهر عن ذلك بكل عزم من أجل حياة أسرية محترمة وآمنة ومريحة. نموذجياً، بدا أنها قد شعرت باللحظة المناسبة تماماً لتغادر الحفل. انتاب دكستر شك في أنها تقيم علاقات عابرة مع الأطباء، والمحامين، والأشخاص الذين يتكلمون عبر المذياع، لكنه وجد صعوبة في أن يغضب منها. وقال الناس دائماً الشيء نفسه: إنه ورث ذلك عنها. لم يحدد أحد ما يعنيه «بذلك» بالضبط، لكن بدا أن الجميع يعرف؛ المظهر طبعاً، والطاقة والصحة الجيدة، لكن أيضاً بعض الثقة بالنفس ورباطة الجأش، والحق أن يكون مركز الأشياء، وضمن الفريق الفائز.

حتى آنذاك، كانت تجلس مرتدية فستانها الصيفي الأزرق الباهت، وتبحث في حقيبتها الضخمة عن عيدان ثقاب، بدا أن الحياة في بيازا تدور حولها. عينان بنيتان ماكرتان في وجه يشبه القلب تحت شعر أسود أشعث، وأحد أزرار فستانها غير مغلق، وتبدو في حال يرثى لها تماماً. رأته يقترب وتغضّن وجهها بابتسامة واسعة.

«تأخرت خمساً وأربعين دقيقة أيها الشاب. أين كنت؟».

«هناك، أشاهدك وأنتِ تتحدثين مع النادل».

«لا تخبر والدك». ضربت الطاولة بوركها حين وقفت وعانقته. «أين كنت؟».

«أحضّر الدروس فحسب». كان شعره رطباً من الاغتسال مع توف أنغستروم، وعندما أبعدته عن جبينه، وأطبقت يدها على جانب وجهه بحب، أدرك أنها ثملة بعض الشيء آنذاك.

«أشعث جداً. من كان يلاعبه؟ ما العمل المثير الذي كنت تقوم به؟».

«أخبرتك، أحضّر دروساً».

نظرت إليه متشككة. «وأين ذهبت الليلة الماضية؟ انتظرنا في المطعم».

«آسف، لقد تأخرت، ملهى الكلية».

«ملهى؛ كأننا في 1977. كيف كان الأمر؟».
«مئتا فتاة إسكندنافية ثملة يمرحن».
«يمرحن. أنا سعيدة للقول إنني لا أملك أي فكرة عمّا يعنيه ذلك. هل كان الأمر ممتعاً؟».
«مثل جحيم».
ربتت على ركبته. «أيها المسكين».
«أين أبي؟».
«اضطر إلى الذهاب للاستلقاء على سريره الصغير في الفندق. الحرارة، وخفّاه جعلت جلده يتقرّح. تعرف كيف هو والدك، إنه ويلزي قح».
«إذاً، ماذا كنت تفعلين؟».
«أتجول في أرجاء المنتدى. ظننت أنه جميل، لكن ستيفان شعر بملل جعله يفقد صوابه. كل تلك الفوضى، والأعمدة الملقاة في كل أنحاء المكان، أظن أنه يعتقد أنهم يجب أن يجرفوها كلها، وأن يضعوا دفيئة زجاجية أو شيئاً مماثلاً».
«يجب أن تزوري بالاتين. إنه على قمة تلك التلة...».
«أعرف أين البالاتين يا دكستر، فقد كنت أزور روما قبل أن تولد».
«نعم، من كان الإمبراطور آنذاك؟».
«ها. هنا، ساعدني بالشراب، ولا تتركني أشرب القارورة كلها». كانت قد فعلت ذلك، بكل تأكيد، لكنه سكب آخر كمية في كأس ماء ومدَّ يده إلى لفائف تبغها، لكن أليسون استهجنت. «أظن أحياناً أننا بالغنا في قضية الولد المتحرر كثيراً».
«أتفق معك تماماً، لقد أفسدتني. مرّري عيدان الثقاب».
«هذا ليس فعلاً ذكياً، كما تعرف. أعلم أنك تظن أنها تجعلك تبدو مثل نجم أفلام، لكنها لا تفعل ذلك، وتبدو شنيعاً».
«لماذا تفعلين أنتِ ذلك إذاً؟».
«لأنها تجعلني أبدو مثيرة». وضعت لفافة تبغ بين شفتيها وأشعلتها باستخدام عود ثقاب. «سأقلع على كل حال. هذه لفافتي الأخيرة. الآن بسرعة، ما دام والدك ليس هنا - «. اقتربت منه؛ كأنها تريد نسج مكيدة ما. «أخبرني عن حياتك العاطفية».

«لا».

«هيا يا دكس! تعرف أنني مرغمة على العيش بالوكالة عبر أولادي، وشقيقتك بتول...».

«هل أنت ثملة أيتها السيدة العجوز؟».

«كيف أنجبَت ولدين، لن أعرف أبداً...».

«أنت ثملة».

«أنا لا أشرب، هل تتذكر؟». عندما كان دكستر في الثانية عشرة اصطحبته بوقار إلى المطبخ في إحدى الليالي وعلّمته بصوت خافت كيف يصنع شراباً حادًّا وجافًّا؛ كأنه طقس مهيب. «هيا إذاً، انطق الجوهرة، واعترف بكل التفاصيل المثيرة».

«ليس لدي ما أقوله».

«لا أحد في روما؟ لا فتاة كاثوليكية لطيفة؟».

«لا».

«ليست طالبة، كما آمل».

«بالطبع لا».

«ماذا بشأن الوطن؟ من يكتب تلك الرسائل الطويلة المبقّعة بالدموع التي نرسلها إليك باستمرار؟».

«ليس من شأنك».

«لا تدعني أفتحها باستخدام البخار مجدداً، وأخبرني فحسب!».

«ليس هناك ما يقال».

استرخت إلى الخلف في كرسيها. «لقد خاب أملي فيك. ماذا عن الفتاة اللطيفة التي جاءت للمبيت ذلك الوقت؟».

«أي فتاة؟».

«جميلة، وجادّة، وشمالية. ثملت وصرخت على والدك بشأن الساندينين».

«إنها إيما مورلي».

«إيما مورلي. أعجبتني، وأعجبت والدك أيضاً، رغم أنها دعته فاشياً بورجوازياً». فزع دكستر من الذكرى. «لا أمانع، على الأقل كانت شعلة نشاط وكتلة انفعالات، وليست

مثل أولئك المهووسات اللواتي نجدهن عادة يجلسن إلى مائدة الفطور. نعم سيدة ميهو، لا سيدة ميهو. يمكنني سماعك، كما تعرف، تسير على أطراف أناملك إلى غرفة الضيوف في الليل...».

«أنت ثملة حقاً، أليس كذلك؟».

«إذاً، ماذا عن إيما هذه؟».

«إيما مجرد صديقة».

«هذا حالها الآن؟ حسنٌ، لست واثقة تماماً. في الواقع، أظن أنك تعجبها».

«أنا أعجب الجميع، وهذا بلائي».

بدا الأمر في ذهنه واضحاً: خليع ويسخر من نفسه، لكنهما يجلسان آنذاك بصمت وشعر بأنه أحمق مرة أخرى، كما هي حاله في تلك الحفلات حيث تسمح والدته له بالجلوس مع الراشدين فيسعى إلى لفت الأنظار ويخذلها. ابتسمت له بتسامح، وضغطت على يده حين وضعها على الطاولة.

«كن لطيفاً، من فضلك؟».

«أنا لطيف، ولطالما كنت كذلك».

«لكنك لست لطيفاً جداً. أعني أنا لا أتعصّب لذلك؛ اللطف».

«لن أفعل». غير مرتاح آنذاك، بدأ ينظر في أرجاء بيازا.

وكزت ذراعه. «هل تريد قارورة أخرى من الشراب، أم يجب أن نعود إلى الفندق ونرى أورام قدمَي والدك؟».

بدأا يسيران شمالاً في الشوارع الخلفية التي تمتد موازية لفيا ديل كورسو نحو بيازا ديل بوبولو، ودكستر يبدّل المسار لأنه يريد أن يجعله أقصر ما يمكن، وبدأ يشعر بأنه أفضل حالاً، ويستمتع بإحساس أنه يعرف المدينة جيداً. أمسكت ذراعه بعد أن شعرت بدوار خفيف.

«إلى متى تخطط للبقاء هنا إذاً؟».

«لا أعرف، ربما حتى تشرين الأول».

«لكنك ستعود وقتها إلى المنزل وتستقر على شيء ما، أليس كذلك؟».

«طبعاً».

«لا أعني أن تعيش معنا، فلن أفعل ذلك بك. لكنك تعرف أننا سنساعدك بدفع عُرْبون شقة».

«لا داعيَ إلى الاستعجال، أليس كذلك؟».

«حسنٌ، لقد انقضت سنة كاملة يا دكستر. ما العطلة التي تحتاج إليها؟ أنت لم تجهد نفسك في الجامعة -».

«لست في عطلة، فأنا أعمل!».

«ماذا عن الصحافة؟ ألم تتكلم عن الصحافة؟».

كان قد ذكر ذلك عَرَضاً، لكن فقط كإلهاء وعذر. بدا أنه في أثناء تقدّمه بالعمر إلى أواخر مراهقته كانت الاحتمالات قد بدأت تضيق ببطء أمامه. بدا أن أبواب بعض المهن الرائعة - جرّاح قلب، مهندس معماري - قد بدأت تغلق في وجهه آنذاك، والصحافة على وشك أن تفعل الشيء نفسه. لم يكن يتمتع بمهارة الكتابة، أو يعرف الكثير عن السياسة، أو يتكلم الفرنسية بطلاقة، ويفتقر إلى كل التدريب والمؤهلات المطلوبة، ولا يمتلك إلا جواز سفر وصورة جميلة عن نفسه وهو يدخن تحت مروحة سقفية في بلدات استوائية، ونيكون متهالكة وقارورة ويسكي يضعها بجانب سريره.

بالطبع، ما أراده حقاً هو أن يصبح مصوّراً. كان قد أكمل بعمر السادسة عشرة مشروع صور دعاه «الجوهر»، مملوءاً لقطات مقرّبة بالأبيض والأسود عن لحاء الأشجار وأصداف البحر، التي «أدهشت» على ما يبدو عقل معلّم الفنون. لم يكن أي شيء فعله منذ ذلك الوقت قد منحه شعوراً بالرضا كما فعل «الجوهر» وتلك الصور الصارخة جداً عن الجليد على النوافذ والحجارة في الدرب. ستعني الصحافة التعامل مع أمور معقّدة مثل الكلمات والأفكار، لكنه ظنَّ أنه يتمتع بمؤهلات مصوّر لائق؛ فقط لأنه يتمتع بإحساس قوي لتحديد متى تبدو الأمور بخير. في تلك المرحلة من الحياة، كان المقياس الرئيس لاختيار مهنة هو أنها يجب أن تبدو جيدة في ملهى، ويمكن أن يصرخ بها في أذن فتاة، ولم يكن هناك شك في أن جملة «أنا مصوّر محترف» رائعة، مثل «أعمل مراسلاً من مناطق الحروب» أو «في الواقع، أصنع أفلاماً وثائقية».

«الصحافة احتمال وارد».

«أو إنشاء شركة. ألم تكن وكالوم ستباشران عملاً ما؟».

«نحن نفكّر في الأمر ملياً».

«يبدو كل شيء مبهماً، وعمل فحسب».

«كما قلت، نحن نفكر في الأمر ملياً». في الحقيقة، كان كالوم، زميله القديم في السكن، قد بدأ العمل من دونه؛ بشيء يتعلق بتجديد الحواسيب لم يكن لدى دكستر الطاقة لفهمه. كانا سيصبحان من أصحاب الملايين حين يبلغان الخامسة والعشرين من العمر، كما أصرَّ كالوم، لكن كيف سيبدو الأمر في ملهى؟ «في الواقع، أنا أجدّد حواسيب». لا، بدا التصوير الاحترافي أفضل احتمال له. قرّر أن يحاول قول ذلك بصوتٍ عال.

«في الواقع، أفكّر في التصوير الضوئي».

«تصوير ضوئي؟». أطلقت والدته ضحكة تثير الغضب.

«مهلاً، أنا مصوّر جيد».

«– حين تتذكر أن تبعد إبهامك عن العدسة».

«ألا ينبغي أن تشجعيني؟».

«أي نوع من التصوير؟ الجمال الساحر؟». أطلقت ضحكة جوفاء. «أم إنك ستتابع عملك على الجوهر!». واضطرا إلى التوقف حين وقفت في الشارع تضحك بعض الوقت، وهي تنحني إلى الأمام، وتتمسك بذراعه لتسند نفسها – «كل تلك الصور عن الحجارة!» – حتى انتهت أخيراً، فشدّت قامتها واستعاد وجهها رصانته. «دكستر، أنا آسفة جداً جداً...».

«أنا في الواقع أفضل حالاً كثيراً الآن».

«أعرف أنك كذلك، أنا آسفة. أعتذر». بدأا يمشيان مجدداً. «يجب أن تفعل ذلك يا دكستر، إن كان هذا ما تريده». ضغطت على ذراعه بمرفقها، لكن دكستر بقي متجهماً. «لقد أخبرناك دائماً أن بمقدورك أن تصبح كما تريد، إن عملت بجد كفاية».

قال بفظاظة: «كانت مجرد فكرة. أنا أوازن خياراتي، وهذا كل شيء».

«حسنٌ، آمل ذلك؛ لأن التدريس مهنة صعبة، لكن هذه ليست صنعتك حقاً، أليس كذلك؟ تعليم فتيات إسكندنافيات حالمات أغاني البيتلز».

«إنه عمل شاق يا أمي. إضافة إلى ذلك، يمنحني هذا شيئاً أعتمد عليه».

«نعم، حسنٌ، أتساءل أحياناً إن كان لديك شيء تستند إليه حقاً». كانت تنظر إلى

الأسفل وهي تتكلم، وبدا أن الملحوظة قد ارتدت عن حجارة الشارع. سارا مسافة أبعد قليلاً قبل أن يتكلم.

«وماذا يعني ذلك؟».

«أوه، أعني فقط –». تنهّدت، ووضعت رأسها على كتفه. «أعني فقط أنه في مرحلة ما يجب أن تصبح جدّياً بشأن حياتك، ذلك كل شي. أنت شاب وموفور الصحة ووسيم كفاية، كما أفترض، في ضوء باهت. يبدو أن الناس يحبونك، فأنت ذكي، أو ذكي كفاية، ربما لست أكاديمياً، لكنك تعرف الغثَّ من السَّمين. وأنت محظوظ، محظوظ جداً يا دكستر، وتتمتع بحماية من أشياء عديدة مثل المسؤولية والمال. لكنك راشد الآن، ويوماً ما قد لا تكون الأمور بهذا...». نظرت حولها، وهي تشير إلى الشارع خلفها الذي كان قد اصطحبها إليه. «... الصفاء. سيكون جيداً لك أن تستعد لذلك، وسيفيدك أن تتزوّد على نحو أفضل».

عبس دكستر. «ماذا، هل تعنين مهنة؟».

«جزئياً».

«تبدين مثل أبي».

«يا الله، بأي طريقة؟».

«عمل ملائم، شيء يستند المرء إليه، شيء يترقّى فيه».

«ليس ذلك فحسب، وليس عملاً فقط، إنما اتجاه، هدف، حافز ما، طموح ما. عندما كنت في مثل عمرك أردت تغيير العالم».

تنشّق. «متجر الأشياء الأثرية»، ووكزته في أضلاعه بمرفقها.

«هذه هي الحال الآن، وذلك ما كانت عليه آنذاك، لكن لا تتذاكَ معي». أمسكت ذراعه وبدأا يسيران ببطء مجدداً. «أريدك فقط أن تجعلني فخورة بك؛ هذا كل شيء. أعني، أنا فخورة بك الآن، وبشقيقتك أيضاً، لكن، حسنٌ، تعرف ما أعنيه. أنا ثملة قليلاً. لنغيّر الموضوع. أردت أن أتكلم إليك عن شيء آخر».

«ماذا أيضاً؟».

«أوه – تأخر الوقت». كانا يشاهدان الفندق آنذاك؛ المصنّف ثلاث نجوم، والأنيق لكن من دون تباهٍ. استطاع أن يلمح عبر النافذة الزجاجية العاتمة والده يحني ظهره وهو جالس على كرسي بذراعين في الردهة، وإحدى ساقيه الرفيعتين الطويلتين مثنية على ركبته،

والجورب مكوّر في يده وهو يفحص أسفل قدمه.

«يا إلهي! إنه يفحص مسامير قدمه في ردهة الفندق. قليل من سوانسي على فيا ديل كورسو. فاتن، ساحر تماماً». مدّت أليسون ذراعها وأمسكت يد ابنها بيديها. «اصطحبني إلى الغداء غداً، هل تفعل ذلك؟ في حين يجلس والدك في غرفة معتمة ويفرك مسامير قدميه. لنخرج، أنا وأنت فقط، إلى مكان ما بجانب ساحة جميلة. أغطية طاولات بيضاء. مكان مُكلف، على حسابي. يمكن أن تجلب لي بعضاً من صورك عن الحجارة المثيرة للاهتمام».

قال متجهماً: «لا بأس». كانت والدته تبتسم لكنها مقطّبة الجبين أيضاً، وتضغط على يده بقوة أكبر قليلاً، فشعر بوخزة قلق مفاجئة. «لماذا؟».

«لأنني أريد أن أتحدث إلى ابني الوسيم، وأنا ثملة قليلاً الآن، كما أظن».

«ما الأمر؟ أخبريني الآن!».

«لا شيء، لا شيء».

«لن تنفصلا، أليس كذلك؟».

أطلقت ضحكة خافتة. «لا تكن سخيفاً، بالطبع لا». في ردهة الفندق، كان والده قد رآهما، وكان واقفاً آنذاك ويشد الباب الذي «يجب دفعه ليفتح». «كيف يمكن أن أترك رجلاً يدسُّ قمصانه تحت ملابسه الداخلية؟».

«أخبريني إذاً، ما الأمر؟».

«لا شيء سيئ يا حبيبي، لا شيء سيئ». واقفة في الشارع ابتسمت له ابتسامة مواساة، ووضعت يدها في شعره القصير على قفا رأسه، وشدّته إلى الأسفل على مستوى ارتفاعها حتى أصبح جبيناهما متماسين. «لا تقلق بشأن أي شيء. غداً. سنتكلم على نحو ملائم غداً».

الفصل الثالث

تاج محل
الأحد 15 تموز 1990

بومباي وبلدة كامدن

«انتبهوا رجاءً! هل يمكن أن أحظى بانتباهكم؟ بعض الاهتمام إذا كنتم لا تمانعون؟ هل يمكن أن تصغوا إلي؟ لا تُلقوا أشياء، استمعوا رجاءً! أرجوكم! انتباه، من فضلكم! شكراً لكم».

استقر سكوت مكنزي على الكرسي الصغير بجانب المشرب، ونظر إلى فريقه المكوّن من ثمانية أشخاص: لا يتجاوز عمر أي منهم الخامسة والعشرين، ويرتدون جميعاً جينزاً قطنياً أبيض ويعتمرون قبعة كرة قاعدة، وكلهم يتحرّقون شوقاً إلى أن يكونوا في أي مكان آخر؛ إنها وَرْدِية وقت الغداء يوم الأحد في لوكو كالينت، وهو مطعم لوجبات تكساس والمكسيك في طريق بلدة كنتيش حيث الطعام والجو حارّان جداً جداً.

«الآن قبل أن نفتح الأبواب لتقديم وجبة الضحى، أود استعراض ما يدعى «الأطباق الخاصة» اليوم، إذا سمحتم لي. حساؤنا هو ذاك المكوّن من سمك وبطاطا وبصل مع ذرة حلوة، والوجبة الرئيسة هي بوريتو السمك اللذيذ والشهي جداً».

نفخ سكوت هواءً من فمه وانتظر أن تهدأ همهمات الاستنكار ومحاولات التقيؤ المزيفة. سكوت رجل ضئيل الجسم، يعاني التهاب الملتحمة، ويحمل درجة في إدارة الأعمال من لوغبورغ، وقد تمنّى مرة أن يصبح شهبندر إحدى الصناعات. لقد تخيّل نفسه يلعب الغولف في مراكز مؤتمرات، أو يصعد على درجات طائرة خاصة، لكنه ذلك الصباح كان قد أزال كتلة من الدهن بحجم رأس إنسان من بالوعة المطبخ بيديه العاريتين، ولا يزال بمقدوره أن يشعر باللزوجة بين أصابعه. كان عمره تسعةً وثلاثين عاماً، ولم يكن يرغب أن تكون تلك حاله.

«أساساً، إنها وجبة البوريتو المصنوعة من لحم البقر أو الدجاج، لكن مع، وأقتبس هنا: 'قطع متبّلة لذيذة من القد والسلمون'. من يدري، قد يطلب أحدهم حبة قريدس أو اثنتين».

«ذلك بغيض... حقاً». ضحك بادي من خلف المشرب، حيث يجلس وهو يقطّع

الليمون على شكل مثلثات من أجل قوارير الجعة.

قالت إيما مورلي، وهي تربط مئزر النادلة: «إدخال مسحة صغيرة من شمالي الأطلسي إلى مطبخ أمريكا اللاتينية». ولاحظت وافداً جديداً يظهر خلف سكوت؛ رجلاً ضخماً قوي البنية، شعره أجعد على رأس أسطواني كبير. الفتى الجديد. راقبه الفريق بحذر؛ يقوّمونه وكأنه وافد جديد إلى المجموعة.

قال سكوت: «بعد هذه الملحوظة اللامعة، أود أن أقدّم لكم إيان وايتهيد الذي سينضم إلى فريقنا السعيد المكوّن من أفراد مدرّبين جيداً». دفع إيان قبعة كرة القاعدة إلى الخلف على رأسه، ورفع ذراعه ويده مفتوحة في الهواء محيياً إياهم. قال في ما بدا أنها لهجة أمريكية: «مرحباً يا قوم!».

كبت بادي ضحكة خافتة من خلف المشرب، وقال بصوت بالكاد مسموع للوافد الجديد: «مرحباً يا قوم؟ أين يجد سكوت هؤلاء؟».

ربت سكوت براحة كفّه على كتف إيان، ما أفزعه. «سأسلّمك إلى إيما، أقدم أفراد الفريق في العمل!».

وجلت إيما من الإطراء، ثم ابتسمت اعتذاراً للفتى الجديد، وابتسم لها بفم مغلق بإحكام؛ ابتسامة ستان لوريل.

«ستشرح لك الأساسيات، وهذا كل شيء. تذكروا! بوريتو السمك! الآن، موسيقى رجاءً!».

ضغط بادي زر التشغيل على مسجّل شرائط ملطخ بالدهن خلف المشرب فصدّحت الموسيقى؛ مقطوعةٌ تثير الجنون مدتها خمس وأربعون دقيقة من موسيقى مرياتشي، وبدأت على نحو ملائم كفاية بـ «لا كوكاراتشا»؛ الصرصار، ليسمعوها اثنتي عشرة مرة في ورديتهم التي تستمر ثماني ساعات. اثنتا عشرة مرة في ورْدِية العمل، أربع وعشرون وردية في الشهر، منذ سبعة شهور آنذاك. نظرت إيما نحو الأسفل؛ إلى قبعة كرة القاعدة في يدها. شعار المطعم، حمار كرتوني يحدّق للأعلى إلى عينها الجاحظة من تحت قبعته المكسيكية العريضة، ثملاً كما يبدو، أو مجنوناً ربما. وضعت القبعة على رأسها وانزلقت عن مقعد المشرب وكأنها تنزل إلى ماء جليدي. كان الفتى الجديد ينتظرها مبتسماً، وهو يدس أطراف أنامله في جيبي جينزه الأبيض النظيف مرتبكاً، وتساءلت إيما مرة أخرى عمّا كانت تفعله بالضبط بحياتها.

إيما، إيما، إيما. كيف حالك يا إيما؟ وماذا تفعلين هذه الثانية؟ الوقت أبكر ست ساعات هنا في بومباي، لهذا آمل أنك لا تزالين في السرير تعانين آثارَ الإفراط في الشراب صباح الأحد. على كل حال استيقظي! أنا دكستر!

تصلك هذه الرسالة من نُزل في وسط بومباي، فرشاته بغيضة، وفيه عدّاءات أستراليات متحمّسات لكنهن يشعرن بالبرد. يخبرني كتاب الدليل أنه يتمتع بسمعة مميزة؛ أي: قوارض. لكن توجد في غرفتي أيضاً طاولة نزهات بلاستيكية صغيرة بجانب النافذة والمطر يهطل بغزارة في الخارج، أكثر حتى من أدنبره. السماء تطرح كل حملها يا إم، بصوتٍ عالٍ جدًّا، حتى إنني بالكاد أسمع شريط المقتطفات الذي أرسلته إلي، وقد أحببته كثيراً بالمناسبة، باستثناء ذلك الجزء الذي يخشخش؛ لأنني بالمحصلة لست فتاة. لقد كنت أحاول قراءة الكتب التي أرسلتها إلي في عيد الفصح أيضاً، لكن يجب أن أعترف أنني أجد نهاية هاوردز صعبة جداً. يبدو أنهم يشربون من كأس الشاي نفسها طوال مئتي صفحة، وقد انتظرت أن يشهر أحدهم سكيناً أو يحدث غزو من مخلوقات غريبة أو شيئاً من هذا القبيل، لكن هذا لن يحدث، أليس كذلك؟ متى ستتوقفين عن محاولة تثقيفي، أتساءل؟ لن تفعلي أبداً كما آمل. بالمناسبة، في حال لم تخمّني من النثر المختار بعناية وكل الصراخ فاعلمي أنني أكتب هذا وأنا ثمل، وأتناول شراب الشعير وقت الغداء! كما تعرفين، أنا لست كاتب رسائل رائعاً، ولست مثلك (كانت رسالتك الأخيرة مضحكة جداً)، لكن كل ما سأقوله هو أن الهند مدهشة. تبين أن منعي من تعليم الإنكليزية بوصفها لغة أجنبية أفضل شيء حدث لي (على الرغم من أنني لا أزال أفكر أنهم بالغوا في ردة فعلهم. غير جيد أخلاقياً؟ أنا؟ كانت توف في الحادية والعشرين). لن أجعلك تسأمين بكل ذلك الكلام العادي غير الممتع عن الحالة الهندوسية، باستثناء القول إن كل الأفكار المبتذلة صحيحة (فقر، اضطراب معدة، ... إلخ). ليس لأنها حضارة غنية وقديمة فقط لكنك لن تصدّقي ما يمكنك الحصول عليه من الصيدلانيين من دون وصفة.

لقد رأيت بعض الأشياء المدهشة، وعلى الرغم من أن الأمر ليس ممتعاً دائماً إلا أنها تبقى تجربة مفيدة، وقد التقطت آلاف الصور التي سأريك إياها ببطء شديد جداً حين أعود. ستتظاهرين بالاهتمام، أليس كذلك؟ بالمحصلة أنا تظاهرت بالاهتمام حين أسهبت في الكلام عن أحداث شغب «ضريبة الرأس». على كل حال،

عرضت بعضاً من صوري على المنتجة التلفازية التي التقيت بها على متن قطار ذلك اليوم؛ امرأة (ليس كما تظنين، عجوز في منتصف الثلاثينيات) وقالت إن بمقدوري أن أمتهن ذلك. كانت هنا تنتج نوعاً من عروض سفر الشباب التلفازية، وأعطتني بطاقتها، وطُلب مني الاتصال بها في آب حين يعودون مجدداً. لهذا من يعرف؟ ربما سأقوم ببعض الأبحاث أو حتى تصوير فيلم.

ماذا يحدث بشأن عملك؟ هل تقدمين مسرحية أخرى؟ استمتعت حقاً بمسرحيتك عن فيرجينا ولف وإيملي لا أعرف ماذا حين كنت في لندن، وكما قلت، أظن أنها تضمّنت كثيراً من بشائر النجاح. وعلى الرغم من أن هذا يبدو هراء إلا أنه ليس كذلك. أظن أنك محقة بالتوقف عن التمثيل، ليس السبب أنك لا تجيدينه؛ لكن لأنه يبدو واضحاً جداً أنك تكرهينه. كانت كاندي لطيفة أيضاً، أكثر مما أوضحت. أرسل لها حبي. هل تعملين على مسرحية أخرى؟ هل لا تزالين في تلك الغرفة الصغيرة؟ هل لا تزال الشقة تعبق برائحة البصل المقلي؟ هل لا تزال تيلي كيليك تنقع صدرياتها الرمادية الكبيرة في وعاء الغسيل؟ هل لا تزالين في موتشو لوكو أو أياً تكن تسميته؟ جعلتني رسالتك الأخيرة أضحك كثيراً يا إم، لكن يجب أن تخرجي من ذلك المكان، فعلى الرغم من أنه جيد لتبادل الدعابات إلا أنه سيئ بالتأكيد لروحك. لا يمكن أن تضيعي سنوات من حياتك سدى؛ لأنه يقدّم حكايات ونوادر مضحكة.

يوصلني هذا إلى السبب الذي دفعني للكتابة إليك؛ هل أنت مستعدة؟ ربما ترغبين أن تجلسي...

* * *

«إذاً يا إيان، أهلاً بك في مقبرة الطموح!».

فتحت إيما باب غرفة الموظفين بدفعه أمامها، وقلبت فوراً كأس شراب على الأرضية، وبدا أن أعمال الليلة الماضية الشاقة لم تنته بعد. كانت الجولة الرسمية قد أوصلتهما إلى غرفة الموظفين الصغيرة الرطبة التي تطل على طريق بلدة كنتيش، المزدحمة آنذاك بالتلاميذ والسيّاح الذين كانوا في طريقهم إلى سوق كامدن لشراء قبعات ضخمة عالية من الفرو، وقمصان تائية عليها وجوه مبتسمة.

«لوكو كالينت يعني حار بجنون: «حار»؛ لأن نظام التكييف لا يعمل، و«مجنون»؛

لأن ذلك ما ينبغي أن تكون عليه لتأكل هنا، أو تعمل هنا. موتشو موتشو لوكو. سأريك أين تضع أغراضك». سارا معاً عبر مهاد صحف الأسبوع الماضي إلى خزانة المكتب القديمة المتهالكة. «هذا درجك، ولا يمكن أن يُقفل. لا يغرينَّك شيء على ترك بزّتك هنا في الليل أيضاً؛ لأن شخصاً ما سيسرقها، والله وحده يعلم السبب. ستغضب الإدارة إن أضعت قبعة كرة القاعدة، وسيضعون وجهك على شوّاية».

ضحك إيان. ضحكة من القلب أفلتت منه تقريباً، وتنهّدت إيما واستدارت إلى طاولة طعام الموظفين، التي لا تزال مغطاة بأطباق متسخة من الليلة الماضية. «وقت الغداء عشرون دقيقة، ويمكن أن تتناول أي شيء من قائمة الطعام باستثناء القريدس الضخم، الذي أظن أنه معروف بأنه نعمة مقنّعة. إذا كنت تقدّر الحياة، فلا تمس القريدس الضخم. إنه مثل الروليت الروسي، عندما تذوق تعلق». بدأت تنظف الطاولة.

قال إيان، وهو يرفع بحذر طبقاً ملطخاً باللحم بأطراف أنامله: «هيا، دعيني...». فتى جديد... لا يزال يشعر بالغثيان، كما فكّرت إيما وهي تراقبه. كان وجهه مليحاً وكبيراً تحت خصلات بلون القش، ووجنتاه ناعمتين ومتوردتين، وفمه يتدلّى مفتوحاً قليلاً. لم يكن وسيماً تماماً، لكنه، حسنٌ - قوي. لسبب ما، لم يبدُ لطيفاً جداً، إنما جعلها وجهه تفكر في جرّارات.

فجأة نظر إلى عينيها وتفوهت: «أخبرني إذاً يا إيان، ما الذي جعلك تسلك هذه الطريق؟».

«أوه، تعرفين. يجب أن أدفع الإيجار».

«وليس هناك شيء آخر يمكنك فعله؟ ألا يمكن أن تعمل في وظيفة مؤقتة، أو تعيش مع والديك؟ أو أيّ شيء من هذا القبيل؟».

«يجب أن أكون في لندن، ولا يمكنني العمل إلا في ساعات معينة...».

«لماذا، ما طموحك؟».

«ماذا؟».

«طموحك. كل من يعمل هنا لديه طموح. فنان يعمل نادلاً، وممثل يعمل نادلاً. يدّعي بادي الساقي أنه عارض أزياء، لكنني بصراحة أشك في ذلك».

قال إيان، بما ظنّت أنها لهجة شمالية: «حس-نٌ. أفترض أنني يجب أن أقول إنني كوميدي!». مكشّراً، وضع يديه على جانبي وجهه وهزَّ أصابعه.

«لا بأس. حسنٌ، نحب جميعنا الضحك. هل تحب إلقاء الدعابات واقفاً أو شيئاً مماثلاً؟».

«إلقاء الدعابات أساساً. ماذا عنك؟».

«أنا؟».

«طموحك؟ ماذا تفعلين غير ذلك؟».

فكّرت في قول «كتابة مسرحيات»، لكن حتى بعد ثلاثة شهور كان خزي أدائها دورَ إيملي ديكينسون في غرفة خاوية لا يزال ماثلاً في ذهنها. يمكنها أن تقول أيضاً «رائدة فضاء» مثل «كاتبة مسرحيات»، فالأمر سيّان. «أوه، أنا أفعل هذا...». نزعت عن وجبة بوريتو قديمة قشرة الجبن القاسية. «هذا ما أفعله».

«وهل يعجبك؟».

«يعجبني؟ أنا أحبّه! أعني، أنا لست مخلوقة من خشب». مسحت الكتشاب الذي أُريق قبل يوم بمنديل مستعمل واتجهت نحو الباب. «الآن، دعني أرشدك إلى المراحيض. استجمع قواك...».

منذ شرعت في كتابة هذه الرسالة كنت قد شربت (تناولت؟ ابتلعت؟) قارورتي جعة أخريين، ولهذا أنا مستعد لقول هذا الآن. ها نحن ذا. إم، نحن نعرف بعضنا بعضاً منذ خمس سنوات أو ست، لكن معرفتنا توطّدت منذ سنتين، كما تعرفين، «كصديقين»، وهي مدة ليست طويلة. لكنني أظن أنني أعرف قليلاً عنك، وأظن أنني أعرف ما مشكلتك. انتبهي إلى أنني حصلت على درجة منخفضة جداً تبلغ 2.2 في علم الإنسان، لذا أعرف ما أتكلم عنه. إذا كنت لا ترغبين بمعرفة نظريتي، فتوقفي عن القراءة الآن.

جيد. إليك ما أفكر فيه. أظن أنك خائفة من السعادة يا إيما. أظن أنك تعتقدين أن الطريقة الطبيعية للأشياء هي أن تكون حياتك مقيتة وكئيبة وقاسية وأن تكرهي عملك، وتكرهي مكان سكنك، وألاّ يحالفك الحظ أو تكسبي نقوداً أو يمنحك الرب حبيباً (وسر سريع هنا: يمكنني أن أخبرك أن مسألة الانتقاص من قدرك تلك لأنك تظنين نفسك غير جذّابة مملة حقاً). في الواقع، سأمضي أبعد من ذلك، وأقول إنني أظن أنك تستسلمين لكونك محبطة ولا تحققين شيئاً؛ لأن ذلك أسهل، أليس كذلك؟ الفشل والتعاسة أسهل؛ لأن بمقدورك الضحك على هذا. هل

يزعجك الأمر؟ أراهن أنه كذلك. حسنٌ، هذه هي البداية فحسب.
إم، أكره التفكير فيك جالسة في تلك الشقة السيئة بروائحها وأصواتها الغريبة ومصابيحها الكهربائية فوق رأسك، أو جالسة في تلك المصبغة. وبالمناسبة، ليس هناك سبب في هذا الزمن والعصر يجعلك تستخدمين مصبغة، وليس هناك شيء لطيف أو حصيف بشأن المصابغ، بل إنها تثير الكآبة في النفس. لا أعرف يا إم، أنت شابة وعبقرية عملياً، لكن فكرتك عن قضاء وقت ممتع هي أن تعملي في خدمة الغسيل. حسنٌ، أظن أنك تستحقين أفضل من ذلك. أنت ذكية ومسلّية ولطيفة (لطيفة جداً إذا سألتني عن رأيي)، حتى الآن إنك أذكى إنسانة أعرفها. و(أنا أشرب مزيداً من شراب الشعير الآن، نفس عميق) أنت أيضاً «امرأة جذّابة جداً». و(مزيد من شرب الشعير) نعم، أعني «مثيرة» أيضاً، رغم أنني أشعر ببعض الإحراج في كتابة هذا. حسنٌ، لن أمحوها؛ لأنه من غير اللباقة أن أصف امرأة بأنها «مثيرة»؛ لأن ذلك صحيح أيضاً. أنت بارعة الجمال، أيتها العجوز الشمطاء، وإذا استطعت أن أقدّم لك هدية واحدة فقط باقي حياتك فستكون هذه: الثقة. ستكون هدية الثقة. إما تلك أو شمعة معطّرة.
أعرف من رسائلك ومن رؤيتك بعد مسرحيتك أنك غير واثقة تماماً الآن بما ستفعلينه بحياتك، فأنت من دون دفّة أو مجذافين أو هدف تسعين إليه، لكن لا بأس بذلك؛ لأننا جميعاً على تلك الحال بعمر الرابعة والعشرين. في الواقع، جيلنا كله على تلك الحال. قرأت مقالاً عن ذلك، ويعزى السبب إلى أننا لم نخض حرباً قط أو أننا نشاهد التلفاز أكثر مما ينبغي. على كل حال، الأشخاص الوحيدون الذين لديهم مجاذيف ودفّة وأهداف مملّون وكئيبون، وهم أصحاب مهن مثل تيلي – اللعينة – كيليك أو كالوم أونيل وحواسيبه المجدّدة. ليست لدي بالتأكيد خطة رئيسة، وأعرف أنك تظنين أن الدرب أمامي مفروش بالورود، لكن الأمر ليس كذلك. وأنا أقلق أيضاً، لكن ليس بشأن منحة البطالة، وفائدة المنزل، ومستقبل حزب العمل، وأين سأكون بعد عشرين سنة، وكيف ينسجم السيد مانديلا مع الحرية.
حان الوقت الآن لاستراحة قصيرة أخرى قبل الفقرة الآتية؛ لأنني بالكاد بدأت. ستصل هذه الرسالة إلى ذروة تغير الحياة. أتساءل إن كنت مستعدة لها.

في مكان ما بين مراحيض الموظفين والمطبخ، بدأ إيان وايتهيد عرضه واقفاً.

«هل كنت في سوق كبيرة، مثلاً، وتقفين في صف من يحملون ستة أغراض أو أقل، وهناك سيدة عجوز أمامك تحمل، لنقل سبعة أغراض؟ وأنت تقفين هناك تعدّينها، وتشعرين بغضب شديد...».

تمتمت إيما بصوت خافت: «نعم، تعرّضت لهذا». قبل أن تفتح البابين إلى المطبخ حيث استقبلهما جدار من هواء ساخن لسع عيونهما؛ وكان لاذعاً ومملوءاً فلفلاً حاراً ورائحة مبيّض دافئ. سمعا أصواتاً حادة من مسجّل الشرائط المتهالك، في حين كان صومالي وجزائري وبرازيلي يقومون بفك أغطية علب تموين بلاستيكية بيضاء.

قالت إيما بمرح: «صباح الخير يا بنويت وكمال. كيف حالك يا جيسوس؟»، فابتسموا وأومأوا بسعادة أيضاً. مشت إيما وإيان إلى لوحة إعلانات حيث أشارت إلى لافتة معدنية مكتوب عليها ما يجب أن يفعلوه إن غصَّ شخص ما بطعامهم «أو حدث ذلك لأحد منهم». كانت قد ثبّتت إلى جانب اللافتة وثيقة كبيرة، ممزّقة الحواف، تحمل خريطة حدود تكساس مع المكسيك. نقرت إيما عليها بإصبعها.

«هذا شيء يبدو مثل خريطة كنز؟ حسنٌ، لا ترفع آمالك عالياً؛ لأنها قائمة الطعام وحسب. لا يوجد ذهب هنا يا صديقي، إنما ثمانٌ وأربعون مادة فقط، وكل الأطباق المختلفة من أصناف طعام تكساس - المكسيك الخمسة الرئيسة: لحم مفروم وفاصولياء، جبن، دجاج، غواكامول [نشاء الأفوكادو]». مرّرت إصبعها على الخريطة. «إذاً، عندما نتحرك من الشرق إلى الغرب، لدينا دجاج على فاصولياء تحت الجبن، جبن فوق دجاج تحت غواكامول، غواكامول فوق لحم مفروم فوق دجاج تحت جبن...».

«لا بأس، فهمت...».

«... أحياناً من أجل التغيير، نقدم بعض الأرز أو بصلاً معه، لكن المثير فعلاً هو ما نضيفه إليه. الأمر كله يتعلق بالقمح أو الذرة».

«قمح أو ذرة، صحيح...».

«التاكو تُحضّر باستخدام الذرة، وبوريتو مع القمح. أساساً، إذا فرقعت وحرقت يدك فإنها تاكو، وإذا خفقت وسال منها دهن أحمر على ذراعك فإنها بوريتو. إليك واحدة». سحبت فطيرة محلاة طرية من علبة تموين فيها خمسون قطعة ودلّتها مثل نسيج رطب. «هذه بوريتو. احشها واقلها جيداً حتى يذوب الجبن عليها فتصبح كعكة محشوة باللحم.

الترتية المحشوة هي تاكو، والبوريتو التي تحشوها بنفسك هي فاجيتا».

«ما هي توستادا إذاً؟».

«سنصل إلى ذلك. لا تركض قبل أن تمشي. تُقدّم فاجيتا على تلك الأطباق الحديدية الكبيرة الحمراء». رفعت مقلاة حديدية ملوثة بالدهن؛ كأنها شيء من محل حدّاد. «توخ الحرص مع هذه الأطباق، فلن تصدّق عدد المرات التي اضطررنا فيها إلى إبعاد زبون عن هذه الأشياء. إنهم لا يدفعون إكرامية عندها». كان إيان يحدّق إليها آنذاك، وهو يكشّر كأبله. أشارت إلى الدلو عند قدميها. «هذه المادة البيضاء هنا قشدة رائبة، لكنها ليست رائبة ولا قشدة، إنما نوع من الدهن المهدرج، كما أظن. إنها ما يبقى حين يكرّرون النفط. مفيدة إذا خرج العقب من حذائك، لكن باستثناء ذلك...».

«لدي سؤال لك».

«اطرحه إذاً».

«ماذا تفعلين بعد العمل؟».

توقف بنويت وجيسوس وكمال جميعاً عما كانوا يفعلونه حين غيّرت إيما تعبير وجهها وضحكت. «أنت لا تتسكع في الجوار، أليس كذلك يا إيان؟».

كان قد نزع قبعته آنذاك ويقلّبها بيده؛ ويشغل نفسه بها. «ليس موعداً أو ما شابه، فأنت على الأرجح لديك حبيب على كل حال!». انقضت لحظة كان ينتظر فيها جواباً، لكن تعبير وجه إيما لم يتغير. «لقد ظننت أنك ربما تكونين مهتمة - 'بصوت أجش' - بمشاهدي الكوميدية الفريدة، وهذا كل شيء. أنا أؤدي - أشار بأصابعه بفواصل - 'شخصية غريب الأطوار' الليلة، في عرض قهقهات الضفدع والببغاء في كوكفوسترز».

«قهقهات؟».

«في كوكفوسترز. إنها في المنطقة 3 التي تبدو مثل المريخ الذي أعرفه في ليلة الأحد، لكن حتى إذا كنت سيئاً، تُعرض هناك بعض العروض الكوميدية الرائعة. روني بوتشر، ستيف شلدون، التوأم كاميكاز...». عندما تكلم تعرّفت إيما لهجتَه الحقيقية؛ همهمة الريف الغربي اللطيفة التي لم تشذّبها المدينة بعد، وفكّرت مرة أخرى في الجرارات. «سأؤدي عرضاً جديداً تماماً الليلة، عن الفرق بين الرجال والنساء».

لم يعد هناك شك في ذلك، فقد كان يطلب منها الخروج في موعد معه. كان يجب عليها أن تخرج فعلاً. بالمحصلة، لم يكن ذلك يحدث كثيراً، وما أسوأ ما قد يقع؟

«والطعام ليس سيئاً هناك أيضاً. المعتاد فقط: شطائر اللحم، عجين بالخضار، مقالٍ...».

«يبدو الأمر فاتناً يا إيان، أعني المقالي وكل ذلك. لكن، لا يمكنني الذهاب الليلة، آسفة».

«حقاً؟».

«يحل المساء عند السابعة».

«أود ذلك فعلاً».

«إنه عرض لطيف، لكن بعد عملي هنا أشعر بالإرهاق. أحب الذهاب إلى المنزل، والابتعاد عن الطعام والضوضاء. لن أتمكن من ذلك كما أخشى».

«في وقت آخر إذاً؟ أؤدي دور الموزة بينت في 'الهرة شيشاير' في بالاهام يوم الجمعة...».

رأت إيما من فوق كتفه الطهاة ينظرون، وبنويت يضحك ويده على فمه. قالت بلطف لكن بحزم: «ربما في وقت آخر». ثم غيّرت الموضوع.

نقرت دلواً آخر بإصبع قدمها: «الآن، هذا... هذه المادة هنا حارة. حاول ألاّ تصيب جلدك، فهي تحرق».

الأمر يا إم أنني بعد أن جريت عائداً إلى النُزل تحت المطر منذ قليل - المطر دافئ هنا، حتى إنه حار أحياناً، وليس مثل مطر لندن - كنت، كما قلت، ثملاً قليلاً، ووجدت نفسي أفكّر فيك، وأن من العار أن إم ليست هنا لترى هذا، وتختبره، وأريد أن أبوح بالآتي:

يجب أن تكوني هنا معي، في الهند.

وهذه فكرتي الكبيرة، وقد تكون جنونية، لكنني سأكتب هذا قبل أن أغير رأيي. اتبعي هذه التعليمات البسيطة.

1- اتركي تلك الوظيفة التافهة فوراً. ليجدوا شخصاً آخر يذيب الجبن على قطع الكعك مقابل 2.20 جنيهاً في الساعة. ضعي قارورة شراب في حقيبتك واخرجي من الباب. فكّري في ما ستشعرين به حين تفعلين ذلك يا إم. اخرجي الآن، وافعلي ذلك فحسب.

2- أظن أيضاً أن عليك مغادرة تلك الشقة. تيلي تسرقك، وتأخذ كل ذلك المال من أجل غرفة من دون نافذة. إنها ليست غرفة مثل صندوق، وإنما هي صندوق بالفعل. ويجب أن تخرجي من هناك وتدعي شخصاً آخر يعصر صدرياتها الرمادية الكبيرة. عندما أعود إلى ما يدعى العالم الحقيقي سأشتري شقة؛ لأنني من تلك الوحوش الرأسمالية المحظوظة جداً، وستكونين دائماً موضع ترحيب للإقامة فيها لبعض الوقت، أو باستمرار إذا أردت؛ لأنني أظن أننا سنبقى معاً، ألا تظنين ذلك؟ سنكون، كما تعرفين، زميلَي سكن؛ هذا إذا استطعت التغلب على انجذابك الجنسي نحوي ها ها. إذا حصل الأسوأ، فسأحبسك في غرفتك في الليل. على كل حال، إليك الفكرة الكبيرة الآن:

3- بعد أن تقرئي هذا، اذهبي إلى وكالة سفر الطلاب في شارع محكمة توتنهام واشتري تذكرة بتاريخ إياب مفتوح إلى دلهي لتصلي في أقرب وقت قبل الأول من آب، أي: بعد أسبوعين، وهو في حال نسيت ذكرى ميلادي. استقلي قبل ليلة القطار إلى أكرا وأقيمي في نزل رخيص، وفي صباح اليوم الآتي انهضي باكراً واذهبي إلى تاج محل، الذي ربما سمعت به؛ المبنى الأبيض الضخم الذي يحمل اسم ذلك المطعم الهندي في شارع لوثيان. قومي بجولة فيه، وعند 12 ظهراً تماماً قفي مباشرة تحت منتصف القبة وأنت تحملين وردة حمراء بإحدى يديك ونسخة من نيكولاس نيكلبي في الأخرى، وسآتي وأعثر عليك يا إم. سأحمل وردة بيضاء ونسختي من نهاية هاوردز، وعندما أراك سأرميها على رأسك.

أليست هذه أعظم خطة سمعتِ بها في حياتك؟

آه، دكستر المعتاد كما تقولين، ألم ينسَ شيئاً؟ المال! تذاكر الطيران لا تنمو على الأشجار، وماذا عن الضمان الاجتماعي وأخلاقيات العمل... إلخ، إلخ. حسنٌ، لا تقلقي، أنا سأدفع. نعم، أنا سأدفع. سأحوّل المال إليك؛ من أجل تذكرة الطائرة (لطالما أردت تحويل المال) وسأدفع كل التكاليف حين تصلين إلى هنا، وعلى الرغم من أن ذلك يبدو مكلفاً لكنه ليس كذلك؛ لأن كل شيء رخيص جداً هنا. يمكن أن نعيش شهوراً يا إم، أنا وأنت، ونذهب إلى كيرالا أو نعبر إلى تايلاند. يمكن أن نذهب إلى حفلة اكتمال البدر. تخيلي السهر طوال الليل، ليس لأنك قلقة بشأن المستقبل؛ ولكن لأن الأمر ممتع. (هل تتذكرين حين سهرنا طوال الليل بعد إنهاء

التخرج يا إم؟ على كل حال، تحركي).
مقابل ثلاث مئة جنيه من أموال شخص آخر، يمكن أن تغيري حياتك، وينبغي ألاّ تقلقي بشأن ذلك؛ لأنني بصراحة أملك مالاً لم أكسبه بعرق جبيني، وقد عملتِ بجد لكنك لا تملكين مالاً، لذا هذه اشتراكية، أليس كذلك؟ وإذا أردت حقاً يمكن أن تردي لي المال حين تصبحين كاتبة مسرحية مشهورة، أو حين تكسبين مالاً من نظم الشعر أو شيء مشابه. إضافة إلى ذلك، لن يستغرق ذلك أكثر من ثلاثة شهور؛ لأنني يجب أن أعود في الخريف على كل حال. كما تعرفين، أمي ليست بخير. أخبرتني أن العملية قد جرت على ما يرام، وربما هذا صحيح أو إنها لا تريد أن تجعلني أقلق. أياً تكن الحال، يجب أن أعود إلى الوطن في النهاية. (بالمناسبة، لدى والدتي نظرية عني وعنك، وإذا قابلتني في تاج محل فسأخبرك كل شيء عنها، لكن فقط إذا جئت).
يوجد على الجدار أمامي سرعوف ضخم يبتهل كما يبدو وهو ينظر إلي وكأنه يقول اصمت الآن، وهذا ما سأفعله. لقد توقف هطول المطر، وأنا على وشك الذهاب إلى مشرب ولقاء بعض الصديقات الجديدات لنتناول شراباً؛ ثلاث طالبات طب من أمستردام يخبِرْنك كل ما ترغبين بمعرفته. لكن على الطريق سأعثر على صندوق بريد وأرسل هذه قبل أن أغير رأيي، ليس لأنني أظن أن مجيئك إلى هنا فكرة سيئة – إنه ليس كذلك، وإنما هو فكرة رائعة ويجب أن تأتي – لكن لأنني أظن أنني قد أسهبت في الكلام. آسف إن أزعجك هذا. الأمر الرئيس هو أنني أفكر فيك كثيراً، وهذا كل شيء. دكس وإم، إم ودكس. انعتيني بالعاطفي، لكن لا أحد في العالم أود رؤيته مصاباً بالزحار أكثر منك.
تاج محل، الأول من آب، 12 ظهراً.
سأعثر عليك!
محبتي
د

... ثم تمطّى وحكَّ فروة رأسه، تجرّع آخر جرعة من شرابه وحمل الرسائل، نقر على الحواف معاً ووضع الرزمة بوقار أمامه. هزَّ يده ليخلّصها من التشنج؛ إحدى عشرة صفحة مكتوبة بسرعة كبيرة، وتمثّل أكبر كمية كتبها منذ امتحاناته الأخيرة. مدَّ ذراعيه فوق رأسه

ارتياحاً كما فكّر: هذه ليست رسالة، وإنما هبة.

دسَّ قدميه في نعليه، ووقف شاعراً بدوار خفيف، لكنه ثبّت نفسه استعداداً لزخّات المطر المعتادة. كانت بشرته سمراء داكنة آنذاك؛ مشروعه العظيم في السنتين الأخيرتين، واللون قد تغلغل عميقاً في جلده مثل سياج مطلي بروح القطران. كان حلاقٌ في الشارع قد قص شعره قصيراً جداً حتى بانت الجمجمة، وقد فقد أيضاً بعض الوزن، لكنه أحب سراً مظهره الجديد: فهو هزيل على نحو بطولي؛ كأنه قد أُنقذ للتو من الأدغال. لإكمال الصورة كان قد جعل أحدهم يرسم له وشماً صغيراً على كاحله، شيئاً ليس ذكورياً أو أنثوياً سيندم عليه على الأرجح حين يعود إلى لندن. لكن لا بأس بذلك؛ لأنه سيرتدي جوربين في لندن.

صاحياً تحت رذاذ المطر، عاد إلى الغرفة الصغيرة وبحث عميقاً في حقيبته ليعثر على شيء يرتديه من أجل لقاء طالبات الطب الهولنديات، وشمَّ كل قطعة ثياب لديه حتى تكدّست في كومة رطبة وفوضوية على سجادة ليف النخل البالية. استقر رأيه على أقل قطعة إثارة؛ قميص أمريكي عتيق قصير الردنين، ثم ارتدى جينزاً مقصوصاً عند ربلة الساق ومهترئاً ومن دون ملابس داخلية، فشعر بأنه جسور وجريء؛ مغامر، ورائد.

ثم رأى الرسالة: ست صفحات زرقاء مملوءة كتابة على الجانبين. حدّق إليها؛ وكأن دخيلاً قد تركها خلفه، ومع رصانته الجديدة شعر بأولى وخزات الشك. حملها بحذر شديد، وحدّق إلى صفحة عشوائياً وأشاح ببصره فوراً، وقد زمَّ فمه بقوة. كان قد وصفها بأنها «مثيرة»، واستخدم كلمة «مغرية» التي لم تكن ملائمة تماماً. بدا مثل طالب ثانوية يقرأ الشعر، وليس رائداً، ومغامراً حليق الرأس يحمل وشماً ولا يرتدي ملابس داخلية تحت جينزه. سأعثر عليك، لقد كنت أفكّر فيك، دكس وإم، إم ودكس. ما الذي كان يفكر فيه؟ ما بدا مُلحاً ومثيراً للاهتمام قبل ساعة يبدو الآن مقززاً وخالياً من اللباقة، وأحياناً خادعاً بصراحة؛ فلم يكن هناك سرعوف يتضرع على الجدار، وهو لا يصغي إلى الشريط من تأليفها حين يكتب، وقد فقد مسجّله في غوا. بدا واضحاً أن الرسالة ستغير كل شيء؛ ألم تكن الأشياء رائعة كما هي؟ هل يريد حقاً إيما معه في الهند، تضحك على وشمه، وتدلي بتعليقات ذكية؟ هل يجب أن يقبّلها في المطار؟ هل ينبغي أن يتشاطرا الفراش؟ هل يرغب حقاً برؤيتها إلى ذلك الحد؟

نعم، قرّر أنه يريد ذلك؛ لأنه، برغم كل الحماقة الواضحة، كانت هناك عاطفة صادقة،

وأكثر من مجرد شعور عابر في ما كتبه وسيرسله بالبريد بالتأكيد هذه الليلة. إذا بالغت في ردة فعلها، يمكنه دائماً القول إنه كان ثملاً، وذلك على الأقل صحيح.

من دون أي تردد، طوى الرسالة ووضعها في مغلف بريد جوي، ثم وضعها في نسخته من نهاية هاوردز، بجانب رسالة إيما المكتوبة بخط يدها، ثم اتجه إلى المشرب ليلتقي صديقاته الهولنديات الجديدات.

بعد التاسعة بقليل تلك الليلة، غادر دكستر المشرب مع رينيه فان هوتن، صيدلانية متدربة من روتردام، مع آثار حنّاء باهتة على يديها، وقارورة تيمازيبام في جيبها، ووشم وودي ودبيكر سيئ الرسم على أسفل عمودها الفقري. استطاع رؤية الطائر ينظر شزراً إليه على نحو خبيث حين مرّ عبر الباب.

متشوقين إلى المغادرة، دفع دكستر وصديقته الجديدة عن غير قصد منهما هايدي شاندلر؛ طالبة هندسة كيميائية تبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عاماً من كولون. شتمت هايدي دكستر، لكن بالألمانية، وبصوت خافت لم يسمعه أيٌّ منهما. شقّت الفتاة طريقها في المشرب المزدحم، ونزعت عن كتفها حقيبة الظهر، وجال بصرها في الحيز بحثاً عن مكان ترتاح فيه. كانت ملامح هايدي حمراء ودائرية، مثل سلسلة من الدوائر المتداخلة، وزادت من ذلك التأثير نظارتها المدوّرة، التي يغشو عدستيها ضباب في المشرب الرطب الحار. منزعجة، ومنتفخة بتأثير الديوكالم، وغاضبة من الأصدقاء الذين يخرجون من دونها، استرخت إلى الخلف على أريكة من الخيزران البالي، وفكّرت في النطاق الكامل لبؤسها. نزعت نظارتها، مسحتها بطرف قميصها، واستقرت على الأريكة وهي تشعر بشيء قاسٍ يخز وركها. بهدوء، أطلقت شتيمة مجدداً.

كانت نسخة من نهاية هاوردز محصورة بين الوسائد الإسفنجية البالية، وتبرز من بين صفحاتها المفتوحة رسالة. وعلى الرغم من معرفتها أنها تخص شخصاً آخر، إلا أنها شعرت بإثارة توقع تلقائية حين رأت الحافة الحمراء والبيضاء لمغلف البريد الجوي. أخرجت الرسالة من المغلّف وقرأتها حتى النهاية، ثم قرأتها مرة أخرى.

لم تكن إنكليزية هايدي جيدة على نحو خاص، ولم تكن بعض الكلمات مألوفة لها – «مغرية» مثلاً – لكنها فهمت كفاية لتعرف أن هذه رسالة مهمة، ومن النوع الذي تود أن تتلقاه بنفسها يوماً ما. لم تكن رسالة حب بالمعنى الكامل للكلمة، لكنها قريبة كفاية. تصوّرت تلك الفتاةَ «إم» وهي تقرأها، ثم تعيد قراءتها، ساخطة لكنها سعيدة قليلاً،

وتخيّلتها تتصرف وفقاً لما جاء فيها، فتغادر شقتها المريعة وتترك عملها البائس وتغير حياتها. تخيّلت هايدي إيما مورلي، التي بدا أنها تشبهها، وهي تنتظر في تاج محل في حين يقترب رجل أشقر وسيم منها. تخيّلت قبلة وبدأت هايدي تشعر بسعادة أكبر قليلاً، وقررت أنه بغض النظر عمّا يحدث يجب أن تتلقى إيما مورلي هذه الرسالة.

لكنها لم تجد عنوانها على المغلف ولا عنوان «دكستر» أيضاً. قلّبت الصفحات بحثاً عن دلائل؛ اسم المطعم حيث تعمل إيما ربما، لكن لم يكن هناك شيء يفيدها. عقدت العزم على أن تسأل مكتب الاستقبال في النُزل آخر الطريق، فقد كان ذلك بالمحصلة أفضل ما يمكنها أن تفعله.

هايدي شاندلر هي هايدي كلاوس الآن، وتبلغ من العمر واحداً وأربعين عاماً، وتعيش في إحدى ضواحي فرانكفورت مع زوج وأربعة أولاد، وهي سعيدة تماماً وبالتأكيد أكثر سعادة مما توقعت أن تكون عليه بعمر الثالثة والعشرين. لا تزال النسخة الورقية من نهاية هاوردز على الرف في غرفة النوم الإضافية، منسية وغير مقروءة، والرسالة مطوية بأناقة داخل الغلاف، بجانب كتابة أنيقة بخط اليد تقول:

إلى العزيز دكستر. رواية رائعة عن رحلتك الرائعة. سافر بمرح وعد سالماً من دون وشوم. انتبه لنفسك جيداً، أو قدر استطاعتك. اللعنة، سأشتاق إليك.

مع كل محبتي. صديقتك المخلصة إيما مورلي، كلابتون، لندن، نيسان 1990.

الفصل الرابع

فرص
الاثنين 15 تموز 1991

بلدة كامدن وتلة بريمروز

«انتبهوا رجاءً! هل يمكن أن أحظى بانتباهكم؟ انتبهوا جميعاً؟ توقفوا عن الكلام، توقفوا عن الكلام، رجاءً؟ أرجوكم؟ شكراً لكم. حسنٌ، أود استعراض ما يدعى «الأطباق الخاصة». لدينا حساء سمك وبطاطا وبصل مع ذرة حلوة وديك رومي مع تشيمي-تشانغا».

قال إيان وايتهيد من المشرب، حيث كان يقطّع الليمون ليضع الشرائح في أعناق زجاجات الجعة: «ديك رومي في تموز؟!».

تابع سكوت: «اليوم هو الاثنين. يجب أن نكون لطفاء وهادئين، لذا أريد هذا المكان نظيفاً جداً. لقد توثقت من جدول المناوبات، وقد حان دورك يا إيان لتنظيف المراحيض».

أطلق باقي أفراد الفريق صيحات سخرية. تأوه إيان: «لماذا أنا دائماً؟».

قالت صديقته العزيزة إيما مورلي: «لأنك تفعل ذلك على نحو جميل». واستغل إيان الفرصة ليضع ذراعاً حول كتفيها المنحنيتين، ويتظاهر مازحاً أنه يستخدم سكيناً في حركة طعن مرحة إلى الأسفل.

قال سكوت: «وعندما تنهين عملك يا إيما، هل يمكن أن تأتي لرؤيتي في مكتبي رجاءً؟».

ضحك باقي الموظفين بأصوات خافتة، وحرّرت إيما نفسها من إيان، وضغط رشيد الساقي زر التشغيل في المسجل الملوث بالدهن خلف المشرب فصدحت أغنية «لا كوكاراتشا»؛ الصرصار، وتكرّرت دعابة لم تعد مضحكة إلى ما لا نهاية.

«سأدخل صلب الموضوع فوراً. اجلسي».

أشعل سكوت لفافة تبغ، ودفعت إيما نفسها على مقعد المشرب قبالة طاولته الكبيرة غير المرتبة. حجب جدار من صناديق مملوءة بالشراب الذي يستخدم في البلدان شديدة البرودة ولفائف التبغ - بدا المخزون «يتمم لبعضه» - ضوءَ شمس تموز في غرفة صغيرة معتمة تفوح منها رائحة المنافض وخيبة الأمل.

أراح سكوت قدميه على الطاولة. «الحقيقة أنني سأغادر المكان».
«حقاً؟».
«لقد طلب مني المكتب الرئيس إدارة فرع يحيا قيصر الجديد في إيلنغ».
«ما هو يحيا قيصر؟».
«سلسلة كبيرة جديدة من مطاعم إيطالية معاصرة».
«تدعى يحيا قيصر؟».
«هذا صحيح».
«لماذا ليس موسوليني؟».
«سيقدّمون للإيطاليين ما قدّموه للمكسيكيين».
«ماذا؟ ما الذي يجري؟».
بدا سكوت منزعجاً. «تمهّلي قليلاً، هل يمكنك يا إيما؟».
«آسفة يا سكوت، حقاً. تهانينا، أحسنت صنعاً، حقاً». أحجمت عن المتابعة؛ لأنها أدركت ما سيأتي لاحقاً.
«القصد هو...». شبك أصابعه وانحنى إلى الأمام على الطاولة، فقد كان ذلك ما رأى رجل أعمال يفعله على التلفاز، وشعر بجرعة قوة وإثارة تسري فيه. «لقد طلبوا مني تعيين بديلي مديراً، وهذا ما أردت أن أتكلم معك بشأنه. أريد شخصاً لن يذهب إلى أي مكان، شخصاً يمكن الاعتماد عليه، لن يهرب إلى الهند من دون إعلامنا قبل وقت كاف، أو يتخلى عن كل شيء من أجل وظيفة ممتعة، شخصاً يمكنني الوثوق بأنه سيلتزم بالعمل هنا بضع سنوات ويكرّس نفسه له حقاً... إيما، هل... هل تبكين؟».
حجبت إيما عينيها بيديها. «آسفة يا سكوت، أنت تكلمني في توقيت سيئ، وهذا كل شيء».
عبس سكوت محتاراً بين التعاطف والانزعاج. «إليك...»، سحب لفّة من ورق مطبخ أزرق خشن من صندوق تموين. «تمالكي نفسك...». ورمى اللفّة على الطاولة فقفزت عنها وارتطمت بصدر إيما. «هل هو شيء قلته؟».
«لا، لا، لا، إنه أمر شخصي وخاص، يخرج إلى العلن بين الفينة والأخرى. هذا محرج جداً». ضغطت قطعتين من الورق الأزرق الخشن على عينيها. «آسفة، آسفة، آسفة، ماذا

كنت تقول؟».
«لقد أضعت أفكاري بعد أن انفجرت بالبكاء على ذلك النحو».
«أظن أنك كنت تخبرني أن حياتي غير ذات فائدة». وبدأت تضحك وتبكي في الوقت نفسه. أمسكت قطعة ثالثة من ورق المطبخ وضغطتها على فمها.
انتظر سكوت حتى توقفت كتفاها عن الارتعاش. «إذاً، هل أنت مهتمة بالوظيفة أم لا؟».
«تعني القول...»، وضعت يدها على قارورة عشرين لتراً من «مرق ألف جزيرة»، «... إن كل هذا قد يصبح يوماً ما لي؟».
«إيما، إذا كنت لا ترغبين بالوظيفة، فقولي هذا فقط. لكنني أقوم بذلك منذ أربع سنوات الآن...».
«وقد أدّيت واجبك على خير ما يرام يا سكوت...».
«الراتب ملائم، ولن تضطري أبداً إلى تنظيف المراحيض مجدداً...».
«وأنا شاكرة للعرض».
«لماذا الدموع إذاً؟».
«لقد كنت مكتئبة... قليلاً فقط».
«مكتئبة». عبس سكوت؛ وكأنه يسمع الكلمة للمرة الأولى.
«كما تعرف، محبطة قليلاً».
«حسنٌ، فهمت». أمعن التفكير في وضع ذراع أبوية حولها، لكن ذلك سيعني تجاوز برميل عشرة غالونات من المايونيز، وبدلاً من ذلك مال إلى الأمام فوق الطاولة. «هل هي... مشكلة مع فتى؟».
ضحكت إيما. «لا أبداً. ليس الأمر مهماً يا سكوت، إنها حالة ضعف وهذا كل شيء». هزّت رأسها بنشاط. «أرأيت؟ انتهى كل شيء؛ مثل المطر تماماً. لننسَ ذلك».
«إذاً، ما رأيك بشأن توليك الإدارة؟».
«هل يمكنني التفكير في الأمر وإبلاغك غداً؟».
ابتسم سكوت بلطف وأومأ. «لك ذلك! خذي استراحة». مدَّ ذراعه نحو الباب، وأضاف بتعاطف كبير: «اذهبي واحصلي لنفسك على بعض الناتشو».

في غرفة الموظفين الخالية، حدّقت إيما إلى طبق رقائق الجبن والذرة الذي يتصاعد البخار منه، وكأنه عدو يجب هزيمته.

وقفت إيما فجأة، ومشت إلى خزانة إيان، ودسّت يدها في قطع القماش القطنية حتى عثرت على بعض لفائف التبغ، أخرجت واحدة منها وأشعلتها، ثم نزعت نظارتها وتفحّصت عينيها في المرآة المشققة، ولعقت أصابعها لتزيل آثار المواد الدبقة. كان شعرها طويلاً تلك الأيام، وغير مصفف، وبلون ظنّت أنه يشبه «الفأر لانك». سحبت خصلة منه وثبتتها بيدها ومرّرت إصبعاً وإبهاماً على طولها. تعرف أنها عندما تغسله سيجعل الشامبو رمادياً: شعر مدينة. كانت شاحبة من تأدية الكثير من ورديات العمل المتأخرة، وريّانة أيضاً، فهي تكسب الوزن منذ عدّة شهور. ألقت باللوم على كل تلك الفاصولياء المطبوخة، وتناول المأكولات المقلية مراراً وتكراراً. «فتاة بدينة»، كما فكّرت، وكانت «فتاة بدينة غبية» إحدى العبارات التي تتردد في ذهنها، إلى جانب «ثلث حياتك قد انتهى» و«ما فائدة أي شيء؟».

كانت إيما قد شهدت في منتصف العشرينيات مراهقة ثانية جعلتها أكثر إحباطاً واهتماماً بذاتها من الأولى، وقد قالت أمها عبر الهاتف في الليلة الماضية، بصوت متهدج وقلق؛ وكأن ابنتها مختطفة: «لماذا لا تعودين إلى المنزل يا عزيزتي؟ لا تزال غرفتك هنا. توجد وظائف في دبنهامز»، وقد شعرت للمرة الأولى بإغراء لفعل ذلك.

مرة، كانت قد ظنّت أن بمقدورها غزو لندن، وتخيّلت مجموعة من القاعات الأدبية، والعمل السياسي، وحفلات اللهو، والعلاقات الرومانسية الجميلة على ضفتي التايمز. كانت قد عقدت العزم على إنشاء فرقة، وصنع أفلام قصيرة، وكتابة روايات، لكن سنتين من العمل على الكتاب الصغير من الشعر لم تبشرا بخير، ولم يحدث شيء جيد حقاً لها منذ تولت زمام الأمور في مسرحية «شغب ضريبة الأعناق».

كانت المدينة قد قهرتها؛ تماماً كما قالوا إنه سيحدث. ومثل حفلة مزدحمة بالأشخاص، لم يكن أحد قد لاحظ قدومها، ولن يلاحظ أحد مغادرتها.

لم يكن الأمر أنها لم تحاول، وقد طفت فكرة حياة مهنية في النشر على السطح من تلقاء نفسها. كانت صديقتها ستيفاني شو قد حصلت على وظيفة بعد إنهاء التخرج فوراً، والتي غيّرتها تماماً. لا مزيد من كؤوس شراب الشعير والقهوة من دون سكر من أجل ستيفاني شو، وهي تشرب هذه الأيام شراباً أبيض، وترتدي بزّات صغيرة أنيقة من جيغسو،

وتوزّع بطاقات جميلة في حفلات الغداء. بناءً على نصيحة ستيفاني، قامت إيما بكتابة رسائل إلى ناشرين، ووكلاء، ثم إلى مكتبات، لكن من دون جدوى. كانت هناك حالة ركود، والناس يتعلقون بأعمالهم بتصميم كبير. فكّرت في العثور على ملجأ في التربية، لكن الحكومة كانت قد أنهت المنح الطلابية، ولم تكن لديها طريقة لتغطية التكاليف. كان هناك عمل تطوعي مع منظمة العفو الدولية ربما، لكن الإيجار وتكاليف السفر استنفدا كل مالها، ولوكو كالينت يستنفد كل وقتها وطاقتها. خطرت لها فكرة خيالية أن بمقدورها قراءة روايات بصوتٍ عالٍ إلى أشخاص مكفوفين، لكن هل هذه وظيفة حقيقية، أم إنها مجرد شيء قد رأته في فيلم؟ عندما تمتلك الطاقة اللازمة، ستكتشف ذلك، أما الآن فستجلس إلى الطاولة وتحدّق إلى غدائها.

كان الجبن المخصص لاستخدامات اصطناعية قد أصبح قاسياً مثل البلاستيك، وشعرت إيما بالاشمئزاز فجأة فدفعته بعيداً ومدّت يدها إلى حقيبتها، وأخرجت دفتر ملحوظات جلدياً أسود فاخراً مع قلم حبر سائل صغير مثبّت على غلافه. فتحته على صفحة جديدة من الورق الأبيض المصفر، وبدأت تكتب بسرعة:

ناتشو

كان الناتشو من فعل ذلك.

الطعام المتنوع الذي يتصاعد منه بخار مثل فوضى حياتها.

يلخّص كل الأخطاء

في

حياتها.

جاء صوت من الشارع يقول إن وقت التغيير حان.

من الخارج في شارع بلدة كنتيش

هناك ضحكة

لكن هنا، في غرفة العلّية المفعمة بالدخان،

ليس هناك إلا

ناتشو.

جبن، مثل الحياة، قد أصبح

قاسياً

وبارداً

مثل بلاستيك

وليست هناك ضحكة في الغرفة العالية.

توقفت إيما عن الكتابة، ثم أشاحت ببصرها بعيداً وحدّقت إلى السقف؛ كأنها تمنح شخصاً فرصة للاختباء. أعادت بصرها إلى الصفحة على أمل أن تتفاجأ من ذكاء ما يوجد هناك.

ارتعشت وأطلقت تأوهاً طويلاً، ثم ضحكت وهي تهز رأسها وتخربش بمنهجية على كل سطر، وتطمس كل ما كتبته حتى اختفت كل كلمة. سرعان ما أصبحت كمية الحبر كبيرة حتى نفذ خلال الورق. قلبت الصفحة إلى حيث نزّت البقع وحدّقت إلى ما كان مكتوباً هناك.

أدنبره، 4 صباحاً

استلقينا على السرير المفرد وتكلمنا عن

المستقبل، وأطلقنا تخميناتنا

وعندما تكلم نظرت إليه، فكّرت

«وسيم»، كلمة غبية، وفكّرت

«هل هذا هو المراد؟ شيء محيّر؟».

الشحارير تزقزق في الخارج

وضوء الشمس يدفئ الستائر...

ارتعشت مرة أخرى؛ وكأنها تختلس النظر من تحت ضمادة، وأغلقت دفتر الملحوظات بقوة. يا للهول! «شيء محيّر». كانت قد وصلت إلى مفترق طرق، ولم تعد تصدّق أن الوضع يمكن أن يتحسن بكتابة قصيدة عنه.

أبعدت دفتر الملحوظات، ومدّت يدها إلى عدد الأمس من صنداي ميرور بدلاً منه، وبدأت تأكل الناتشو؛ الناتشو المحيّر، متفاجئة مجدداً كيف يمكن لطعام سيئ جداً أن يريحها كثيراً.

رأت إيان في المدخل. «ذلك الرجل هنا مجدداً».

«أي رجل؟».

«صديقك الوسيم. لقد أحضر فتاة معه». وعرفت إيما فوراً أي رجل يتكلم إيان عنه.

راقبتهما من المطبخ، وهي تضع أنفها على زجاج النافذة الدائرية الملوث بالدهن، وهما يجلسان بوقاحة في الحجيرة الوسطى، يرتشفان شراباً ويضحكان على قائمة الطعام. كانت الفتاة طويلة ونحيلة، وجلدها شاحب، وعيناها سوداوان، وتضع تبرجاً، وشعرها أسود فاحم وقصير وغير متناسق، وتغطي ساقيها الطويلتين بطماقين أسودين شفافين، وتنتعل حذاءً يغطي الكاحلين. بدا أن كليهما ثملان قليلاً، ويتصرفان بتلك الطريقة الجامحة والطائشة التي ينزلق إليها الناس حين يعرفون أن هناك من يراقبهم: سلوك متباهٍ. وفكّرت إيما كم سيكون الأمر مرضياً إن خرجت بخطوات واسعة إلى أرضية المطعم وضربتهما كليهما بوجبتين كبيرتين من طبق اليوم الخاص: البوريتو.

أطبقت يدان كبيرتان على كتفيها. وقال إيان وهو يضع ذقنه على رأسها: «مهلاً، من هي؟».

«لا فكرة لدي». فركت إيما العلامة التي تركها أنفها على النافذة. «لا أعرفها».

«هي واحدة جديدة إذاً».

«انتباه دكستر قاصر جداً، مثل طفل أو حمار. يجب أن تدلّي شيئاً لامعاً أمامه». هذا ما هي عليه هذه الفتاة، كما فكّرت؛ إنها شيء لامع.

«إذاً، أتظنين أن ما يقولونه صحيح؟ أن الفتيات يحببن الأوغاد».

«إنه ليس وغداً، وإنما أحمقَ».

«هل تحب الفتياتُ الحمقى إذاً؟».

كان دكستر قد ثبّت مظلة الكوكتيل خلف أذنه آنذاك، والفتاة تنفجر ضحكاً من عبقرية ذلك.

قالت إيما: «يبدو ذلك بالتأكيد». تساءلت عن السبب الذي يجعله يلوّح بحياته الحضرية الجديدة اللامعة أمامها؟ عندما قابلته عند بوابة الوصول لدى عودته من تايلاند، رشيقاً وأسمرَ وحليق الرأس، عرفت أن لا مجال لعلاقة بينهما، وأدركت أن أحداثاً كثيرة قد وقعت معه، في حين لم يحدث معها ما يستحق الذكر. كانت تلك ثالث صديقة، أو حبيبة، أو مهما تكن، تلتقيها في الشهور التسعة الأخيرة، اللواتي يقدمهن دكستر لها مثل كلب يحمل حمامة بدينة في فمه. هل كان ذلك نوعاً من الانتقام المريض من شيء ما؟

لأنها حصلت على درجة أفضل منه؟ ألم يكن يعرف ما يفعله ذلك بها، أن يجلسا إلى الطاولة التاسعة وفخذاهما متلاصقتان؟

«ألا يمكن أن تذهب أنت يا إيان؟ إنه قسمك».

«طلبك أنت».

تنهّدت، ومسحت يديها بمئزرها، ونزعت قبعة كرة القاعدة عن رأسها لتخفف من خجلها، ودفعت الباب الدوّار.

«إذاً، هل تريد سماع الأطباق الخاصة أم ماذا؟».

وقف دكستر بسرعة، محرراً نفسه من أوصال الفتاة الطويلة، ورمى ذراعيه حول صديقته القديمة. «أهلاً بك، كيف حالك يا إيما؟ عناق كبير!». منذ بدأ العمل في صناعة التلفاز، كان قد تطوّر لديه هوس بالعناق، أو العناق الكبير. كانت رفقة مذيعي التلفاز قد أثّرت فيه، ولم يعد يتكلم آنذاك بوصفه صديقاً قديماً، وإنما بوصفه الضيف الآتي الخاص جداً.

«إيما، هذه...». وضع يده على الكتف العارية والهزيلة للفتاة، مشكلاً صلة بينهما. «هذه نعومي، اسمها يُلفظ نوم-ي».

ابتسمت إيما: «مرحباً يا نوم-ي». ابتسمت نعومي لها، وهي تعض على قشّة الشراب بقوة بين سنَّين.

«مرحباً، تعالي وانضمي إلينا لتناول الشراب!». شدَّ يد إيما وهو يبدو ثملاً وعاطفيًّا.

«لا يمكنني يا دكستر، أنا أعمل».

«هيا، خمس دقائق. أريد أن أشتري لك شراباً؛ شراباً! أعني شراباً».

انضم إيان إليهم آنذاك، وهو يحمل دفتر ملحوظاته، وسأل بمرح: «إذاً، هل أحضر لكم شيئاً تأكلونه يا شباب؟».

غضّنت الفتاة أنفها. «لا أظن ذلك!».

قالت إيما بسرعة: «دكستر، لقد التقيت إيان، أليس كذلك؟».

قال دكستر: «لا، لا، لم ألتقِهِ». قال إيان: «بلى، عدّة مرات». وأطبقت لحظة صمت وهم واقفون هناك؛ الموظفان والزبونان.

«إذاً يا إيان، هل يمكننا الحصول على كأسين، بل ثلاث كؤوس من شراب «تذكر ألامو». أيُحضر اثنتين أو ثلاثاً؟ إم، هل ستنضمين إلينا؟».

«دكستر، أخبرتك أنني أعمل».

«لا بأس، في هذه الحال، هل تعرفين شيئاً؟ حسنٌ، سندع ذلك. الفاتورة فقط من فضلك، مم...». ذهب إيان، وأومأ دكستر إلى إيما، وقال بصوت خافت: «اسمعي، هل يمكنني بأي طريقة، تعرفين...».

«ماذا؟».

«أن أعطيك مالاً من أجل الشراب».

حدّقت إيما ببلاهة. «لا أفهم».

«ما أعنيه هو: هل هناك طريقة يمكنني فيها - كما تعرفين - أن أمنحك إكرامية؟».

«إكرامية لي!؟».

«بالضبط، إكرامية لك».

«لماذا؟».

قال دكس: «من دون سبب يا إم. أريد حقاً أن أقدم لك إكرامية». وشعرت إيما بجزء صغير آخر من روحها يذهب بعيداً.

على تلة بريمروز، نام دكستر تحت شمس الغروب، قميصه مفتوح، ويداه تحت رأسه، وقارورة نصف فارغة من شراب أبيض اشتراها من البقّال دافئة إلى جانبه؛ وقد انتقل من حالة الإسراف في الشراب إلى الثمالة مجدداً. كان عشب التلة الجاف الأصفر مزدحماً بشباب مهنيين، خرجوا إليه من مكاتبهم وهم يتكلمون ويضحكون، وثلاث مسجلات مختلفة تتنافس مع بعضها بعضاً، ودكستر مستلقٍ في وسط ذلك كله وهو يحلم بالتلفاز.

كان قد تخلّى عن فكرة أن يصبح مصوراً محترفاً من دون أن يمحّصها، وعرف أنه هاوٍ جيد، وسيبقى كذلك على الأرجح. لكن، لكي يصبح استثنائياً مثل كارتير-برسون، أو كابا، أو براندت، سيتطلب الأمر كدحاً وكدّاً وكفاحاً، ولم يكن واثقاً أن ذلك الكد يناسبه. كان التلفاز، من ناحية أخرى، يريده فوراً. لماذا لم يفكر فيه من قبل؟ كان هناك دائماً تلفاز في المنزل، لكن هناك شيئاً سيئاً قليلاً في مشاهدته. آنذاك، في الشهور التسعة الأخيرة، أخذ يهيمن فجأة على حياته. شعر بالحماسة، ونتيجة شغف الشعور الجديد وجد نفسه يصبح عاطفياً جداً بشأن تلك الوسيلة؛ كأنه عثر أخيراً على منزلٍ روحي.

لا، لم يكن ذلك يتمتع بالتألق الفني للتصوير الضوئي أو صدقية إرسال تقارير من منطقة حربية، لكن التلفاز مهم، والتلفاز هو المستقبل. الديمقراطية تنشط وتمس حياة الناس

بطريقة مباشرة، وتكوّن آراءهم، وتحفّزهم، وتسلّيهم، وتؤثر فيهم بفاعلية أكبر بكثير من كل تلك الكتب التي لا أحد يقرأها، أو المسرحيات التي لا يرغب أحد برؤيتها. تستطيع إيما أن تقول ما تريده بشأن المحافظين (لم يكن دكستر يؤيدهم أيضاً، لكن ذلك يرجع لأسباب تتعلق بالأسلوب لا المبدأ)، لكنهم قد أثاروا بالتأكيد اهتمام وسائل الإعلام. حتى وقت قريب، كان البث يبدو مملاً وبليداً، ومثقلاً بمطالب النقابات، وكئيباً وبيروقراطياً، ومملوءاً بمحكومين بالمؤبد ملتحين، ومصلحين، وعجائز يدفعون عربات الشاي، ونوعاً من فرع التسلية للخدمة المدنية. كانت شركة الضوء الأحمر للإنتاج، من ناحية أخرى، جزءاً من شركات جديدة يافعة مستقلة ومزدهرة يمتلكها أشخاص حوّلوا وسائل الإنتاج بعيداً عن تلك الديناصورات القديمة الفظة، وهناك مال في وسائل الإعلام، وتلك الحقيقة تبدو واضحة في المكاتب المفتوحة المطلية بألوان زاهية، وأنظمتها الحاسوبية الحديثة، وثلاجاتها العمومية الكريمة.

كان ارتقاؤه في ذلك العالم سريعاً، فقد منحته المرأة، التي التقاها على متن قطار في الهند ذات الشعر الأسود اللامع والنظارة الصغيرة، أول وظيفة؛ فأصبح ساعياً، ثم باحثاً، وأصبح الآن منتجاً مساعداً في يو - بي - 4 - آي - تي، وهو برنامج تلفازي يُعرض في عطلة نهاية الأسبوع، ويمزج الموسيقى الحية والدعابة الطريفة بتقارير عن قضايا «تؤثر حقاً في الشباب اليوم»: الأمراض المنقولة جنسياً، الممنوعات، موسيقى الرقص، الممنوعات، قسوة السياسة، الممنوعات. أنتج دكستر عدّة أفلام عن عقارات الإسكان الكئيبة التي جرى تصويرها من زوايا جنونية باستخدام عدسات مكبّرة، والسحب تتسارع وفقاً لتسجيل صوتي يخرج من مكان بيع الممنوعات. كان هناك أيضاً كلام عن وضعه أمام آلات التصوير في السلسلة الآتية. بدا متفوقاً ونجمه يصعد بسرعة، وبدا أن هناك احتمالاً بأن يجعل والديه يفخران به.

«أنا أعمل في التلفاز»؛ مجرد قول ذلك يجعله يشعر بالرضا. أحبَّ المشي في شارع برويك إلى جناح التحرير وهو يحمل حقيبة فيها شرائط فيديو، ويومئ إلى أشخاص مثله تماماً. أحبَّ أطباق السوشي وحفلات الغداء، وأحبَّ الشرب من مبرّدات الماء، وطلب السعاة، وقول أشياء مثل «يجب أن نحذف ستّ ثوانٍ». سراً، أحبَّ حقيقة أنها إحدى الصناعات التي تتمتع بمظهر ممتاز، والتي تقدّر الشباب. فمن المحال، في عالم التلفاز الجريء الجديد هذا، أن تدخل غرفة اجتماعات لتجد مجموعة من الشيوخ الذين تبلغ أعمارهم

أكثر من ستين عاماً يتبادلون أفكاراً. ماذا يحدث لعاملي التلفاز حين يصلون إلى عمرٍ معين؟ أين يذهبون؟ لن يكترث، فالأمر يناسبه، كما هن النساء الشابات مثل نعومي: صلبة، طموحة، حضرية. في لحظات نادرة من الشك في الذات، انتاب دكستر القلق من أن الافتقار إلى الذكاء الحاد قد يعيقه في الحياة، لكن هذه الوظيفة كل ما يهم فيها هو الثقة بالنفس، والطاقة، وربما حتى بعض الغطرسة؛ وهذه كلها صفات يتمتع بها. نعم، يجب أن تكون ذكياً، لكن ليس بذكاء إيما، ويكفي أن تكون لبقاً ومثابراً وطموحاً.

أحبَّ شقته الجديدة بالقرب من متنزه بلسايز، المكسوة كلها خشباً ومعدناً داكناً، وأحبَّ لندن التي تمتد شاسعة وضبابية أمامه في احتفال سان سويذن ذاك، وأراد أن يتشاطر كل تلك الإثارة مع إيما، ويعرّفها بإمكانيات جديدة، وتجارب جديدة، ودوائر اجتماعية جديدة، وأن يجعل حياتها أكثر شبهاً بحياته. من يعرف؟ ربما تصبح نعومي وإيما صديقتين.

فيما كان مستغرقاً في تلك الأفكار، وعلى وشك أن يغفو، أيقظه ظل شخص وقف أمامه. فتح عيناً، وحدّق إلى الأعلى.

«مرحباً أيتها الجميلة».

ركلته إيما بقوة على وركه.

«واو!».

«لا تفعل ذلك أبداً مجدداً!».

«أفعل ماذا؟».

«تعرف ماذا! كأنني في حديقة حيوانات، وتطعنني بعصا، وتضحك...».

«لم أكن أضحك عليك!».

«راقبتك وأنت تجلس وتمس ساقَي حبيبتك، وتضحكان بصوت خافت...».

«إنها ليست حبيبتي. وكنا نضحك على قائمة الطعام».

«كنتما تضحكان في المكان الذي أعمل فيه».

«إذاً؟ أنت تفعلين ذلك!».

«نعم؛ لأنني أعمل هناك. أنا أضحك في وجه الحظ العاثر، وأنت تضحك في وجهي!».

«إيما، لم أكن لأفكّر مطلقاً...».

«هذا ما بدا عليه الأمر».

«حسنٌ، أنا أعتذر».

«جيد». طوت ساقيها تحتها وجلست بجانبه. «الآن، أغلق أزرار قميصك، وناولني القارورة».

«وهي حقاً ليست حبيبتي». أغلق ثلاثة أزرار أسفل القميص، منتظراً أن تبتلع الطعم. وعندما لم تفعل، حثّها مجدداً. «نحن ننام معاً بين الحين والآخر، وهذا كل شيء».

مع تلاشي احتمال وجود علاقة، حاولت إيما أن تحتفظ برباطة جأشها رغم لا مبالاة دكستر. وفي هذه الأيام، لم تكن ملحوظة مثل هذه تسبب ألماً أكثر من، لنقل، كرة مضرب ترتطم بقوة على قفا رأسها. كانت في هذه الأيام بالكاد تجفل من ذلك. «ذلك لطيف لكليكما، أنا واثقة». سكبت شراباً في كأس بلاستيكية. «إذا لم تكن حبيبتك، فماذا أدعوها؟».

«لا أعرف. خليلة؟».

«ألا يدل ذلك على شعور تجاهها؟».

«ماذا بشأن فائزة؟». كشّر. «هل يمكنني قول فائزة هذه الأيام؟».

«أو ضحية. أحبُ كلمة ضحية». استرخت إيما إلى الخلف فجأة، ودسّت أصابعها بارتباك في جيبي جينزها. «يمكن أن تسترد هذه». قذفت ورقة عشرة جنيهات إلى صدره.

«غير ممكن».

«بلى ممكن».

«هذه لك!».

«دكستر، أصغِ إلي. لا يدفع المرء إكرامية إلى أصدقائه».

«إنها ليست إكرامية، وإنما هدية».

«والنقود ليست هدية. إذا أردت أن تشتري لي شيئاً، فسيكون ذلك لطيفاً جداً، لكن لا تعطني نقوداً. هذا محرج».

تنهّد، ثم دفع المال في جيبه. «أعتذر، مجدداً».

قالت: «رائع». واستلقت بجانبه. «هاتِ ما لديك إذاً. أخبرني كل شيء».

متجهماً، رفع نفسه على مرفقيه. «كنا في تلك الحفلة الصاخبة في عطلة نهاية الأسبوع...».

حفلة صاخبة، كما فكّرت. كان قد أصبح شخصاً يذهب إلى حفلات صاخبة.

«... وقد رأيتها في المكتب. لذا، ذهبت إليها لأقول مرحباً، أهلاً بك في الفريق؛ شيئاً رسميًّا جداً، ومددت يدي إليها فابتسمت لي، وغمزتني، ووضعت يدها على قفا رأسي وشدّتني إليها و...». أخفض صوته إلى همس مرتعش. «... قبّلتني، لا بأس؟».

قالت إيما؛ وكأن كرة مضرب أخرى قد ارتطمت برأسها: «قبّلتك إذاً؟».

«... ووضعت شيئاً في فمي. قلت: ما هذا؟ فغمزتني وقالت: ستكتشف ذلك».

أطبق الصمت قبل أن تقول إيما: «هل كانت حبّة فول سوداني؟».

«لا».

«حبّة فول صغيرة ومجففة ومحمّصة».

«لا، كانت قرصاً».

«ماذا، مثل حبة نعناع أو شيء مماثل؟ من أجل أنفاسك الكريهة».

«رائحة أنفاسي ليست...».

«ألم تخبرني هذه القصة من قبل على كل حال؟».

«لا، كانت تلك فتاة أخرى».

كانت كرات المضرب تأتي كبيرة وسريعة آنذاك، وكرة كريكت غريبة بينها أيضاً. تمطّت إيما وركّزت على السماء. «يجب أن تتوقف عن السماح للنساء بوضع ممنوعات في فمك يا دكس، فهذا غير صحي، وخطر أيضاً. يوماً ما ستكون كبسولة سيانيد».

ضحك دكستر. «إذاً، لا تريدين أن تعرفي ما حدث بعد ذلك؟».

وضعت يدها على ذقنها. «حقاً! لا، لا أظن ذلك. لا، لا أريد».

لكنه أخبرها على كل حال، السرد المعتاد عن الغرف الخلفية المعتمة في النوادي، والمكالمات الهاتفية في آخر الليل، وسيارات الأجرة في أرجاء المدينة عند الفجر، وبوفيه «تناول قدر ما تستطيع» الذي يمثّل حياة دكستر. حاولت إيما جاهدة ألاّ تصغي، وراقبت فمه فقط بدلاً من ذلك. كان فماً جميلاً كما تتذكر، وإذا كانت شجاعة وجريئة وجميلة مثل تلك الفتاة نعومي، فستميل نحوه الآن وتقبّله، وخطر لها أنها لم تقبّل أحداً من قبل،

وأنها لم تستحق قبلة قطّ. كانت قد قُبّلت من قبل طبعاً، فجأة وبقوة كبيرة من قبل فتيان فاقدين رشدهم في حفلات؛ قبلات جاءت تنقض من كل مكان مثل لكمات. كان إيان قد حاول قبل ثلاثة أسابيع وهي تمسح خزانة اللحم، واقترب منها بعنف شديد حتى ظنّت أنه على وشك أن يضربها برأسه، حتى دكستر قبّلها مرة، قبل سنوات عديدة. هل سيكون غريباً جداً أن تقبّله هي؟ ماذا سيحدث إن فعلت ذلك الآن؟ خذي زمام المبادرة، انزعي نظارتك، أمسكي رأسه في حين لا يزال يتكلم وقبّليه، قبّليه...

«... اتصلت نعومي عند الثالثة صباحاً لتقول: استقل سيارة أجرة، الآن».

خطرت لها فكرة ذهنية واضحة تماماً عن قيامه بمسح فمه بقفا يده: القبلة كفطيرة قستر. تركت رأسها يتراخى إلى الطرف الآخر لتشاهد الآخرين على التلة. كان ضوء الغروب قد بدأ يتلاشى آنذاك، ومئتا شاب جذّاب وناجح يرمون أقراصاً طائرة، ويشعلون مواقد شواء متنقلة، ويضعون خططاً للمساء. شعرت أنها منعزلة تماماً عن أولئك الأشخاص، بوظائفهم المثيرة للاهتمام، ومشغّلات الأقراص المدمجة لديهم، والدرّاجات الجبلية التي يمتلكونها؛ كأنها دعاية تلفازية للشراب الذي يستخدم في البلدان شديدة البرودة مثلاً أو للسيارات الرياضية الصغيرة. كانت والدتها قد قالت في الليلة الماضية: «لماذا لا تعودين إلى المنزل يا عزيزتي. لا تزال غرفتك هنا...».

أعادت بصرها إلى دكستر الذي لا يزال يسرد قصة حياته العاطفية، ثم من فوق كتفه إلى ثنائي شاب، يقبّلان بعضهما بشغف، والمرأة تجثو منفرجة الساقين بجانب الرجل، وذراعاه متراجعتان إلى الخلف استسلاماً، وأصابعهما متشابكة.

«... أساساً، لم نغادر غرفة الفندق طوال، حسنٌ، ثلاثة أيام».

«آسفة، توقفت عن الإصغاء منذ بعض الوقت».

«كنت أقول فقط...».

«ماذا تظن أنها ترى فيك؟».

هزَّ دكستر كتفيه؛ وكأنه لم يفهم السؤال. «تقول إنني معقد».

«معقد. أنت مثل أحجية صور مقطعة إلى قطعتين...». جلست وأبعدت العشب عن ساقها. «... وشديدة التداخل»، ثم شدّت ساقي جينزها إلى الأعلى قليلاً. «انظر إلى هاتين الساقين». أمسكت شعرة صغيرة بين سبابتها وإبهامها. «لديّ ساقا امرأة تبلغ من العمر ثمانيةً وخمسين عاماً. أبدو مثل رئيس رابطة النباتات المتسلّقة».

«عاجيهما بالشمع إذاً يا صاحبة الشعر الكثيف».

«دكستر!».

«وعلى كل حال، ساقاك جميلتان». مال نحوها وقرص باطني ساقيها. «أنت رائعة».

ضربت مرفقه لتبعده عنها فوقع إلى الخلف على العشب. «لا أصدّق أنك دعوتني صاحبة الشعر الكثيف». خلفه، كان الثنائي لا يزالان يتبادلان القبل. «انظر إلى هذين الشخصين هناك، لا تحدّق». نظر دكستر من فوق كتفه. «يمكنني في الواقع سماعهما. من هذه المسافة، يمكنني سماع الصوت؛ وكأن شخصاً ما يفتح بالوعة. قلت لا تحدّق».

«لِمَ لا؟ إنه مكان عام».

«لماذا يذهب المرء إلى مكان عام ويتصرف على هذا النحو؟ إنه مثل فيلم وثائقي عن الطبيعة».

«ربما يحبان بعضهما».

«وهل ذلك ما يبدو عليه الحب؛ فاهان رطبان وتنورة مرفوعة؟».

«أحياناً».

«يبدو أنها تحاول إدخال رأسه كله في فمها. ستخلع فكها إذا لم تتوخَ الحذر».

«إنها تبلي حسناً».

«دكستر!».

«حسنٌ، إنها كذلك، وهذا كل ما أقوله».

«تعرف أن بعض الأشخاص قد يظنون الأمر غريباً قليلاً؛ أعني هذا الهاجس عن البقاء في حالة مستمرة من التفاعل العاطفي؛ بعض الناس يظنونه تصرفاً بائساً وحزيناً قليلاً...».

«غريب، لا أشعر بالحزن أو البؤس».

لم تقل إيما – التي تشعر بذلك – شيئاً. وكزها دكستر بمرفقه. «هل تعرفين ماذا يجب أن نفعل؟ أنا وأنت؟».

«ماذا؟».

كشّر. «نتناول إي معاً».

«إي؟ ما هو إي؟». كان وجهها خالياً من أي تعبير. «أوه، نعم، أظن أنني قرأت مقالاً عن ذلك. لا تعتقد أنني أجهل ما هي المواد الكيميائية التي تُدهش العقل. نزعتُ

غطاء تيب-إكس مرة وظننت أن قدميّ تحاولان أن تأكلاني». ضحك بمرح وأخفت ابتسامتها في كأسها البلاستيكية. «على كل حال، أفضّل الشراب الطبيعي والنقي».

«إنه مميز جداً؛ إي هذا».

«هل هذا ما يجعلك تعانق الجميع طوال الوقت؟».

«أظن فقط أنك قد تقضين وقتاً ممتعاً، هذا كل شيء».

«أنا أقضي وقتاً ممتعاً. لا فكرة لديك عن مقدار المتعة». مستلقية على ظهرها ومحدّقة إلى السماء، شعرت أنه ينظر إليها.

قال بما ظنّت أنه صوت عالم النفس فيه: «إذاً، ماذا عنك؟ أي أنباء؟ أي أحداث؟ قصة حب؟».

«أوه، أنت تعرفني. ليست لدي مشاعر. أنا آلية، أو راهبة، أو راهبة آلية».

«لا، لست كذلك. أنتِ تتظاهرين بهذا، لكنكِ لست كذلك».

«أوه، لا أمانع. أحب ذلك حقاً، أن أصبح عجوزاً وحيدة».

«أنت في الخامسة والعشرين يا إم».

«... وأتحول إلى جورب - أزرق [امرأة تهتم بالثقافة]».

لم يكن دكستر واثقاً ممّا تعنيه بجورب أزرق، لكنه شعر على الرغم من ذلك بوخزة إثارة بافلوف من كلمة «جورب». عندما تكلمت، تخيّلها ترتدي جوربين أزرقين قبل أن يقرر أن الجوربين الأزرقين لن يكونا ملائمين لها، أو لأي شخص في الواقع، وأن الجوارب يجب أن تكون سوداء فقط، أو ربما حمراء مثل تلك التي أظهرتها نعومي مرة، قبل أن يقرر أنه ربما لا يفهم القصد من عبارة «جورب - أزرق». كان هذا النوع من أحلام اليقظة يستنفد مقداراً كبيراً من طاقة دكستر الذهنية، وتساءل إن كانت إيما محقة، وإن كان يركّز أكثر مما ينبغي على الجانب الجنسي من الأشياء. كان مشغولاً باستمرار وعلى نحو أحمق باللوحات الإعلانية، وأغلفة المجلات، وبوصة من شريط صدرية قرمزية غريبة تمر بجانبه، وبدا الأمر أسوأ في الصيف. بالتأكيد لم يكن طبيعياً أن يشعر أنه قد خرج للتو من السجن طوال الوقت؟ ركّز. كانت إنسانة يهتم لأمرها كثيراً على وشك أن تُصاب بنوع من الانهيار العصبي، ويجب أن يركّز على ذلك، وليس على الفتيات الثلاث اللواتي بدأن للتو قتالاً بمرشات الماء خلفها...

ركّز! ركّز. قاد أفكاره بعيداً عن موضوع الجنس، ودماغه رشيق مثل حاملة طائرات.

قال: «ماذا عن ذلك الفتى؟».

«أي فتى؟».

«في العمل، الساقي. يبدو مثل رئيس نادي الحواسيب».

«إيان؟ ماذا عنه؟».

«لماذا لا تخرجين مع إيان؟».

«اخرس يا دكستر. إيان مجرد صديق. الآن ناولني القارورة، إذا سمحت؟».

راقبها تجلس وتحتسي الشراب الذي أصبح دافئاً وشديد الحلاوة آنذاك. لم يكن دكستر رقيق العاطفة، ولكن بمقدوره أن يجلس بهدوء أحياناً ويشاهد إيما مورلي وهي تضحك أو تسرد قصة، ويصبح واثقاً تماماً أنها أروع شخص عرفه. أحياناً، أراد أن يقول هذا بصوتٍ عالٍ، أراد أن يقاطعها ويخبرها ذلك فحسب، لكن لم يكن الوقت مناسباً، وبدلاً من ذلك فكّر كم تبدو متعبة وحزينة وشاحبة. وعندما نظرت إلى الأرض بدا أن جلد ذقنها قد بدأ يتغضن. لماذا لم تضع عدستين لاصقتين، بدلاً من هذه النظارة الكبيرة البشعة؟ لم تعد طالبة الآن. والثياب المخملية؛ لم تكن تسدي نفسها أي صنيع بتلك الملابس. ما تحتاج إليه حقاً إضافة إلى الحنان، كما فكر، شخص يمسك يدها ويطلق قدراتها الكامنة. تخيّل نوعاً من المونتاج، وأن ينظر إلى إيما بافتتان وهي تجرّب سلسلة من الفساتين الجديدة الرائعة. نعم، ينبغي أن يولي إيما مزيداً من الاهتمام، وسيفعل ذلك أيضاً لو لم تكن لديه مشاغل كثيرة حالياً.

لكن، على المدى القصير، أليس هناك شيء يمكن أن يفعله ليجعل شعورها تجاه نفسها أفضل، ويرفع معنوياتها، ويعزز ثقتها بنفسها؟ خطرت له فكرة، ومدَّ يده إلى يدها قبل أن يعلن بوقار:

«إيما، إذا بقيت عازبة حين يصبح عمرك أربعين عاماً، فسأتزوجك».

نظرت إليه باشمئزاز صريح. «هل هذا عرض زواج يا دكس؟».

«ليس الآن، وإنما في مرحلة ما حين نصبح كلانا يائسين».

ضحكت بمرارة. «وما الذي يجعلك تظن أنني سأرغب بالزواج منك؟».

«حسنٌ، أعدُّ ذلك شيئاً مسلماً به».

هزّت رأسها ببطء. «حسنٌ، يجب أن تنضم إلى الصف، كما أخشى. قال لي صديقي

إيان الشيء نفسه حين كنا نعقّم ثلاجة اللحم، باستثناء أنه أمهلني إلى سن الخامسة والثلاثين فقط».

«لا أقصد الإساءة إلى إيان، لكنني أظن أنه يجب أن ينتظر بالتأكيد السنوات الخمس الإضافية».

«لن أنتظر أياً منكما! لن أتزوج أبداً على كل حال».

«كيف تعرفين هذا؟».

هزّت كتفيها. «غجرية عجوز حكيمة أخبرتني ذلك».

«أفترض أنك تعارضين على أسس سياسية أو شيء من هذا القبيل».

«فقط... الزواج ليس لي، هذا كل شيء».

«يمكنني رؤيتك الآن: فستان أبيض كبير، وصيفتان، فتيان صغار، رباط جورب أزرق...». رباط جورب. تعلّق ذهنه بالكلمة مثل سمكة تعلق بصنارة.

«في الواقع، أظن أن هناك أشياء أكثر أهمية في الحياة من العلاقات».

«ماذا؟ هل تعنين مهنتك؟». رمقته بنظرة. «آسف».

استدارا إلى السماء التي كانت تتحول إلى ليل حالك آنذاك، ثم قالت بعد لحظة: «في الحقيقة، وصلت مهنتي إلى منعطف حاسم اليوم إن كنت ترغب بمعرفة ذلك».

«هل طُردت؟».

«ترقية». بدأت تضحك. «لقد عُرضت علي وظيفة مدير».

جلس دكستر بسرعة. «في ذلك المكان؟ يجب أن ترفضي».

«لماذا يجب أن أرفض؟ لا خطب في عمل المطاعم».

«إم، يمكنك التنقيب عن اليورانيوم بأسنانك، ولا بأس بذلك ما دمت سعيدة. لكنك تكرهين ذلك العمل، وتكرهين كل لحظة فيه».

«إذاً؟ معظم الناس يكرهون وظائفهم، ولهذا السبب يدعونها وظائف».

«أحب وظيفتي».

«حقاً! حسنٌ، يمكننا جميعاً العمل في وسائل الإعلام، أليس كذلك؟». كرهت نبرة صوتها آنذاك، الساخرة والبغيضة. الأسوأ من ذلك أنها شعرت بدموع ساخنة غير منطقية تتجمّع في عينيها.

«مهلاً، يمكن أن أجد لك وظيفة!».

ضحكت. «أي وظيفة؟».

«معي في الضوء الأحمر للإنتاج!». كان يتحمّس للفكرة آنذاك. «بوصفك باحثة. يجب أن تبدئي بصفتك ساعية، وهو عمل لا تتلقين عليه أجراً، لكنك ستبلين حسناً».

«دكستر، شكراً لك، لكنني لا أرغب بالعمل في وسائل الإعلام. أعرف أننا جميعاً نبدو متشوقين إلى العمل في وسائل الإعلام هذه الأيام؛ وكأن وسائل الإعلام أفضل وظيفة في العالم...». تبدو هستيريةً، كما فكّرت؛ غيوراً وهستيريّة. «في الواقع، لا أعرف حتى ما وسائل الإعلام...». توقفي عن الكلام، حافظي على هدوئك. «أعني: ماذا يفعل الناس طوال اليوم باستثناء الوقوف وشرب مياه معبأة في قوارير، وتناول عقاقير، وتصوير أوراق...».

«مهلاً، إنه عمل شاق يا إم».

«أعني: إذا نظر الناس، لا أعرف، إلى التمريض أو الخدمة الاجتماعية أو التعليم بالاحترام نفسه الذي ينظرون به إلى وسائل الإعلام اللعينة...».

«اعملي معلّمة إذاً! ستكونين مدرّسة رائعة».

«أريد منك أن تكتب على اللوح: لن أُسدي صديقتي نصائح عن مهنتها!». كانت تتكلم بصوت مرتفع آنذاك؛ تكاد تصرخ، وتبع ذلك صمت طويل. لماذا كانت على تلك الحال؟ كان يحاول مساعدتها فحسب. بأي طريقة استفاد من هذه الصداقة؟ يجب أن ينهض ويمشي بعيداً، وهذا ما ينبغي أن يفعله. استدارا لينظرا إلى بعضهما بعضاً في الوقت نفسه.

قال: «آسف».

«لا، أنا آسفة».

«ما الذي تعتذرين عنه؟».

«الثرثرة مثل... امرأة عجوز مجنونة. آسفة، فأنا متعبة، وقد كان يومي سيئاً. آسفة لأنني كنت... مملة جداً».

«لست مملة إلى ذلك الحد».

«أنا كذلك يا دكستر. يا إلهي، أقسم إنني أملُّ من نفسي».

«حسنٌ، أنا لا أملّ منك». أمسك يدها بيده. «لا يمكن أن أملَّ منك أبداً. أنت فريدة في نوعك يا إم».

«لست مميزة حتى».

ركل قدمها بقدمه. «إم؟».

«ماذا؟».

«استريحي فحسب، هل يمكنك ذلك؟ اصمتي واسترخي».

نظرا إلى بعضهما لحظة. استلقى مرة أخرى، وبعد لحظة فعلت مثله، ووجلت قليلاً حين اكتشفت أنه قد وضع ذراعه تحت كتفيها. انقضت لحظة خجولة من الارتياح المتبادل قبل أن تنقلب إلى جانبها وتتكوّر نحوه. شدَّ ذراعه حولها، وتكلم إلى أعلى رأسها.

«هل تعرفين ما الذي لا أفهمه؟ هناك أشخاص كُثر يخبرونك طوال الوقت أنك رائعة وذكية ومسلية وموهوبة؛ أعني كنت أخبرك ذلك دائماً طوال سنوات. لماذا لا تصدقين هذا إذاً؟ لماذا برأيك يقول الناس هذه الأشياء يا إم؟ هل تظنين أنها مؤامرة، وأن الناس يتآمرون سراً ليكونوا لطفاء معك؟».

وضعت رأسها على كتفه لتجعله يتوقف، وشعرت بأنها ربما ستبكي. «أنت لطيف، لكن يجب أن أذهب».

«لا، ابقي وقتاً أطول. سنتناول قارورة أخرى».

«ألا تنتظرك نعومي في مكان ما؟ وفمها الصغير مملوء بممنوعات مثل همستر مدمن صغير». نفخت وجنتيها وضحك دكستر، وبدأت تشعر بأنها أفضل قليلاً.

بقيا هناك بعض الوقت، ثم سارا إلى دكان يبيع المشروبات لمشاهدة غروب الشمس فوق المدينة، واحتسيا شراباً ولم يأكلا شيئاً باستثناء كيس كبير من رقائق بطاطا غالية الثمن. استطاعا سماع صرخات حيوانات غريبة من حديقة حيوانات متنزه ريجنتس، وأصبحا أخيراً آخر شخصين على التلة.

قالت واقفةً وهي تشعر بدوار: «يجب أن أذهب إلى المنزل».

«يمكنك البقاء في منزلي إن أردت».

فكّرت في الرحلة إلى المنزل: الخط الشمالي، والطابق الأعلى من الحافلة أن 38، ثم المشي الطويل المحفوف بالمخاطر إلى الشقة التي تفوح منها رائحة البصل المقلي. عندما

تصل أخيراً إلى المنزل ستكون التدفئة المركزية تعمل على الأرجح، وتيلي كيليك هناك بثوب حمام مفتوح، تتشبث بالمشعات مثل «أبو بريص» وتأكل صلصة ثوم وجبن من المرطبان. ستكون هناك آثار أسنان على جبن الشدر الأيرلندية، وبرنامج ثلاثون شيئاً ما على التلفاز، ولم ترغب بالذهاب.

قال دكستر وكأنه يقرأ أفكارها: «بإمكانك أن تستعيري فرشاة أسنان، وتنامي على الأريكة».

تخيّلت قضاء ليلة على أريكة دكستر الجلدية السوداء التي تصدر صريراً، ورأسها يدور من أثر الشراب والحيرة، قبل أن تقرر أن الحياة معقدة كفاية أصلاً. اتخذت قراراً حاسماً، أحد القرارات التي كانت تتخذها يومياً تقريباً في هذه الأوقات. لا مزيد من النوم وقتاً طويلاً، ولا مزيد من كتابة الشعر، أو هدر الوقت. حان الوقت لترتّبي حياتك، وتبدئي من جديد.

الفصل الخامس

قواعد العلاقة

الأربعاء، 15 تموز 1992

جزر دوديكانيز، اليونان

ثم في بعض الأيام تستيقظ وتجد كل شيء ممتازاً.

كانا في يوم سان سويذن الرائع ذاك تحت سماء زرقاء شاسعة من دون أي احتمال لهطول الأمطار، على سطح المعدّية الذي تغمره الشمس فيما هي تبحر بقوة البخار ببطء عبر إيجه. وضع كل منهما نظارة جديدة، وارتدى ملابس الاحتفال، واستلقيا جنباً إلى جنب تحت شمس الصباح، يصحوان من آثار الإفراط من الشرب في الليلة الماضية. وفي اليوم الثاني من عطلة تستمر عشرة أيام وتأخذهما بين الجزر، كانت «قواعد العلاقة» لا تزال سارية المفعول.

كانت القواعد – وهي نوعٌ من اتفاقية جنيف الأفلاطونية – مجموعة من المحظورات الأساسية المتفق عليها قبل المغادرة؛ للتوثق من أن العطلة لن تصبح «معقدة». كانت إيما وحيدة مجدداً، وقد انتهت علاقتها القصيرة العادية مع سبايك، مصلح الدراجات الهوائية الذي تفوح من أصابعه باستمرار رائحة دبليو دي 40، بهزة كتف خفيفة من كلا الطرفين، لكنها استفادت منها على الأقل في تعزيز ثقتها بنفسها، ولم تكن درّاجتها بحال أفضل مطلقاً.

من جانبه، كان دكستر قد توقف عن رؤية نعومي؛ لأن العلاقة كما قال، «تصبح مجهدة جداً»، أياً يكن ما يعنيه ذلك. ومنذ ذلك الوقت خرج مع أفريل، وماري، وسارا، وسارة، وساندرا، ويولاند قبل أن يستقر على أنغريد؛ عارضة أزياء متكلّفة تحولت إلى مصففة شعر بعد إرغامها على التخلي عن عرض الأزياء – كانت قد أخبرت إيما ذلك بصراحة – لأن «نهديها يبدوان كبيرين جداً على ممر العرض»، وعندما قالت ذلك بدا أن دكستر قد انفجر زهواً.

كانت أنغريد من نوع الفتاة الواثقة بجسدها. وعلى الرغم من أن إيما أو أي أحد آخر على الأرض لم يكن يمثّل بأي طريقة تهديداً لها، إلا أن كل الأطراف قررت أنه سيكون من الأفضل توضيح بعض الأمور قبل الكشف عن ملابس السباحة وشرب الكوكتيل. لم يكن

حدوث أي شيء محتملاً، فقد أُغلقت تلك النافذة الصغيرة منذ سنوات مضت، وكانا منيعين تجاه بعضهما، وآمنين ضمن حدود الصداقة القوية. وعلى الرغم من ذلك، في ليلة جمعة في حزيران، كان دكستر وإيما قد جلسا خارج المشرب في براح هامبستد ووضعا القواعد.

رقم واحد: غرفتا نوم منفصلتان. مهما حدث، لن يتشاطرا السرير، سواء أكان مزدوجاً أم مفرداً. ولا احتضان أو عناق وهما ثملان؛ فلم يعودا طالبين آنذاك. كان دكستر قد قال: «ولا أرى الفائدة من العناق على كل حال، فهو يجعل المرء يتشنج». وقد وافقت إيما وأضافت:

«لا غزل أيضاً. القاعدة الثانية».

قال دكستر، وهو يفرك قدمه بباطن ساقها: «حسنٌ، أنا لا أغازل، لذا...».

«جدّياً، لن نتناول بعض الكؤوس ونمرح بعدها».

«نمرح؟».

«تعرف ما أعنيه. لا خداع».

«ماذا، معك؟».

«معي أو مع أي شخص آخر. في الواقع، هذه هي القاعدة الثالثة. لا أريد أن أجلس هناك مثل ليمونة في حين تفرك الزيت على ظهر لوتي من شتوتغارت».

«إم، لن يحدث ذلك».

«لا، لن يحدث؛ لأنها قاعدة».

كانت القاعدة الرابعة، بناءً على إصرار إيما، لا للعري. لن يكون هناك عرض للجلد، بل احتشام جسدي وتحفّظ طوال الوقت. لم ترغب بأن ترى دكستر في ثيابه الداخلية أو في الحمّام أو – لا سمح الله – في المرحاض. رداً على ذلك، اقترح دكستر القاعدة الخامسة: لا سكرابل. كان الكثير من أصدقائه يلعبونها آنذاك بطريقة ساخرة قوامها تشكيل ثلاث كلمات، لكنها بدت له مثل لعبة مصممة لجعله يشعر بالغباء والملل خاصة. لا سكرابل أو بوغل أيضاً؛ فلم يكن قد توفي بعد.

آنذاك في اليوم الثاني، والقواعد لا تزال سارية المفعول، استلقيا على سطح المعدّية العتيقة المرقّطة بالصدأ وهي تقرقر ببطء من رودس نحو جزر دوديكانيز الأصغر. كانا قد قضيا ليلتهما الأولى في البلدة القديمة، وهما يشربان كوكتيلاً حلواً من ثمار أناناس مجوّفة، ولم

يتمكنا من التوقف عن الابتسام لبعضهما من بدعة ذلك كله. كانت المعدّية قد غادرت رودس تحت جنح الظلام، وهما الآن عند التاسعة صباحاً يستلقيان بهدوء ويعانيان آثار إفراطهما في الشراب، ويشعران بنبض المحركات في معدتيهما اللتين تخضان سائلاً، ويأكلان برتقالاً، ويقرأان بهدوء، ويحترقان بسكون، وسعيدان تماماً بالصمت.

نفد صبر دكستر أولاً، فتنهّد ووضع كتابه على صدره: لوليتا لنابكوف، هدية من إيما التي كانت مسؤولة عن انتقاء كل ما سيقرأانه في الرحلة، فأحضرت كتباً ضخمة رائعة كوّنت مكتبة متنقّلة ملأت معظم حقيبتها.

انقضت لحظة. تنهّد مجدداً؛ لإحداث التأثير المطلوب.

قالت إيما، من دون أن ترفع بصرها عن الأحمق لدوستويفسكي: «ما خطبك؟».

«لا يمكنني المتابعة».

«إنها أثر فني رائع».

«تجعل رأسي يؤلمني».

«كان يجب أن أجلب شيئاً فيه صور».

«أوه، أنا أستمتع بها...».

«يرقة جائعة جداً أو شيء...».

«أنا أجدها مكثّفة قليلاً فحسب. إنه هذا الرجل الذي يتباهى بفحولته طوال الوقت».

«ظننت أنها ستضرب وتراً حساساً». نزعت نظارتها الشمسية. «إنه كتاب مثير جداً للاهتمام يا دكستر».

«فقط إن كان المرء يحب الفتيات الصغيرات».

«أخبرني مرة أخرى، لماذا طُردت من مدرسة اللغات تلك في روما؟».

«لقد أخبرتك، كان عمرها ثلاثاً وعشرين سنة يا إم!».

«اخلد إلى النوم إذاً». رفعت روايتها الروسية. «مادي».

وضع رأسه مرة أخرى على حقيبة الظهر، لكنه وجد شخصين إلى جانبه آنذاك يلقيان ظلاً على وجهه. كانت الفتاة جميلة ومتوترة، والرجل ضخماً وشاحباً؛ أبيض كالمغنسيوم تقريباً في شمس الصباح.

قالت الفتاة بلهجة وسط بريطانيا: «أرجو المعذرة».

حجب دكستر عينيه وابتسم ابتسامة عريضة لهما. «مرحباً أيها الشابان».

«ألست ذلك الرجل الذي يظهر في التلفاز؟».

قال دكستر، وهو يجلس وينزع نظارته الشمسية مع حركة صغيرة من رأسه: «قد أكون هو». تأوهت إيما بهدوء.

«ماذا يدعى؟ كبّره!». كان عنوان البرنامج التلفازي يُعرض دائماً بحروف صغيرة، وهي الطريقة الأكثر رواجاً هذه الأيام.

رفع دكستر يده. «مذنب بالتهمة!».

أطلقت إيما ضحكة قصيرة عبر أنفها، ورمقها دكستر بنظرة. شرحت وهي تومئ نحو رواية دوستويفسكي: «مضحك».

«عرفت أنني قد رأيتك عبر التلفاز!». وكزت الفتاة حبيبها. «قلت لك هذا، أليس كذلك؟».

تنحنح الرجل الشاحب وهمهم، ثم صمت. أصبح دكستر مدركاً قرقرة المحركات ولوليتا المفتوح على صدره. دفع الكتاب بهدوء إلى حقيبته، ثم سأل: «أنتما في عطلة، أليس كذلك؟». كان السؤال بديهياً على نحو واضح، لكنه سمح له بالتحول إلى شخصيته التلفازية؛ ذلك الرجل الرائع حقاً الذي التقياه للتو.

تمتم الرجل: «نعم، إجازة».

ساد الصمت مرة أخرى. «هذه صديقتي إيما».

نظرت إيما من فوق نظارتها. «مرحباً بكما».

نظرت الفتاة إليها. «هل تعملين في التلفاز أيضاً؟».

«أنا؟ يا للهول! لا». اتسعت عيناها. «رغم أنه حلمي».

قال دكستر بفخر، وقد وضع يداً على كتفها: «إيما تعمل مع منظمة العفو الدولية».

«دوام جزئي. أساساً أعمل في مطعم».

«إنها مديرة، لكنها على وشك مغادرته. إنها تتدرب لتكون معلّمة في أيلول، أليس كذلك يا إيما؟».

نظرت إيما إليه مباشرة. «لماذا تتكلم هكذا؟».

«مثل ماذا؟». ضحك دكستر بجرأة، لكن الشابين كانا يبدوان مضطربين، والرجل ينظر

من فوق جانب السفينة؛ وكأنه يمعن التفكير في القفز منها. قرّر دكستر إنهاء اللقاء. «إذاً، سنراكما على الشاطئ، صحيح؟ ربما نتناول شراباً أو شيئاً ما؟». وابتسم الثنائي واتجها عائدين إلى مقعديهما.

لم يكن دكستر قد سعى يوماً متعمداً ليكون مشهوراً، رغم أنه قد أراد دائماً أن يكون ناجحاً؛ وما فائدة أن يكون المرء ناجحاً في الخفاء؟ يجب أن يعرف الناس. بعد أن حقق الشهرة آنذاك، يبدو الأمر منطقياً بعض الشيء؛ وكأن الشهرة امتداد طبيعي لكونه محبوباً في المدرسة. لم يكن قد سعى إلى أن يصبح مقدّم برامج تلفازية أيضاً - هل يفعل أحد ذلك؟ - لكنه مسرور؛ لأن وجهه مألوف. كان الظهور أمام آلة التصوير مثل الجلوس إلى البيانو لأول مرة واكتشاف أنه عازف بارع. لم يكن البرنامج نفسه يقدم قضايا مثل البرامج الأخرى التي قد عمل فيها، وإنما مجرد سلسلة من الفرق الموسيقية، ومشاهد الفيديو الحصرية، ومقابلات مع المشاهير، ونعم، لا بأس، لم يكن يتطلب جهداً كبيراً، وكل ما يفعله حقاً هو النظر إلى آلة التصوير والصراخ «أحدثوا بعض الجلبة!»، لكنه يفعل ذلك على أتم ما يرام، وعلى نحو جذّاب، مع كثير من الأناقة والمتعة.

لكن تقدير الجمهور يبقى تجربة جديدة. كان يتمتع بقدر كاف من الوعي الذاتي ليعرف أنه يمتلك لباقة معينة لما ستدعوه إيما «مؤخرة». مبقياً هذا في ذهنه، استثمر بعض الجهود الخاصة ليكتشف ما يفعله بوجهه. ومهتماً ألاّ يظهر متكلّفاً أو مغروراً أو مزيفاً، بدأ يبتكر تعبيراً يقول مرحباً، هذا ليس شيئاً مهماً، إنه التلفاز فقط، وقد أظهر ذلك التعبير آنذاك، ووضع نظارته الشمسية وعاد إلى كتابه.

راقبت إيما أداءه، مستمتعة به؛ الجهد من أجل الاحتفاظ برباطة الجأش، واحمرار منخريه قليلاً، والابتسامة التي تأرجحت على طرفي فمه. دفعت نظارتها الشمسية إلى أعلى حتى وصلت إلى جبينها.

«لن يغيرك هذا، أليس كذلك؟».

«ماذا؟».

«أعني أن تكون مشهوراً جداً جداً».

«أكره هذه الكلمة: مشهور».

«أوه، وماذا تفضّل؟ معروف».

كشّر: «ماذا عن ذائع الصيت».

«أو مزعج؟ ماذا عن مزعج؟».
«توقفي من فضلك؟».
«وأنت يمكنك التخلي عن ذلك الآن، رجاءً؟».
«ماذا؟».
«لهجة سكان لندن. لقد ذهبت إلى كلية وينشستر حباً بالله».
«لا أتكلم بلهجة سكان لندن».
«عندما تكون السيد تلفاز، فأنت تفعل ذلك. تبدو وكأنك قد تخلّيت عن لهجتك الأصلية لتقدّم هذا البرنامج التلفازي».
«أنت تتكلمين بلهجة يوركشاير!».
«لأنني من يوركشاير!».
هزَّ دكستر كتفيه. «يجب أن أتكلم على هذا النحو، وإلا نفّرت الجمهور».
«وماذا إن نفّرني ذلك؟».
«أنا واثق أنها تنفّرك، لكنك لست واحدة من مليوني شخص يشاهدون برنامجي».
«أوه، هل أصبح برنامجك الآن؟».
«البرنامج التلفازي الذي أقدّمه».
ضحكت وعادت إلى كتابها. بعد بعض الوقت تكلم دكستر مجدداً.
«حسنٌ، هل تفعلين؟».
«ماذا؟».
«هل تشاهدينني؟ في برنامجي؟».
«ربما كنت قد شاهدته، في الخلفية مرة أو اثنتين، حين كنت أراجع دفتر صكوكي».
«وما رأيك؟».
تنهّدت وثبّتت عينيها على الكتاب. «هذا ليس من شأني يا دكس».
«أخبريني على كل حال».
«لا أعرف عن التلفاز...».
«قولي رأيك فحسب».
«لا بأس. أظن أن البرنامج يشبه قيام سكير يحمل ضوءاً قوياً بالصراخ طوال ساعة.

لكن، كما قلت...».

«حسنٌ، فهمت قصدك». نظر إلى كتابه، ثم أعاد بصره إلى إيما. «وماذا عني؟».

«ماذا عنك؟».

«حسنٌ، هل أنا جيد؟ بوصفي مقدّم برنامج؟».

نزعت نظارتها الشمسية. «دكستر، أنت على الأرجح أفضل مقدّم برنامج شبابي قد عرفه هذا البلد على الإطلاق. ولا أقول هذا الشيء جزافاً».

فخوراً، رفع نفسه على مرفق واحد. «في الحقيقة، أفضّل التفكير بنفسي على أنني صحفي».

ابتسمت إيما وقلبت صفحة. «أنا واثقة بذلك».

«لأن هذه ماهية الأمر؛ صحافة. يجب أن أبحث، وأنظّم المقابلة، وأطرح الأسئلة الصحيحة».

أمسكت ذقنها بين سبابتها وإبهامها. «نعم، نعم، أظن أنني رأيت عملك الممتاز عن أم سي هامر. إنه حاد الذكاء، ومثير جداً».

«اخرسي يا إيما».

«لا، بجد، الطريقة التي عرضت فيها كل شيء عن أم سي، وإلهامه الموسيقي، وإبداعه. كان ذلك – حسنٌ – فوق النقد».

ضربها بكتابه. «اخرسي واقرئي، هلاّ فعلت ذلك؟». استلقى إلى الخلف وأغمض عينيه. نظرت إيما إليه لتتوثق من أنه يبتسم، وابتسمت أيضاً.

اقترب منتصف الظهيرة وغطَّ دكستر في النوم، في حين شاهدت إيما مقصدهما أول مرة: كتلة غرانيت زرقاء ورمادية ترتفع من أصفى بحر رأته على الإطلاق. كانت قد افترضت دائماً أن مياهاً مثل تلك كذبة تروج لها الكرّاسات الإعلانية، وخدعة باستخدام العدسات والمرشحات، لكنها رأتها هناك، خضراء زمردية، وتتلألأ. من النظرة الأولى، بدت الجزيرة غير مأهولة، باستثناء بضعة مساكن تمتد إلى الأعلى من الميناء؛ مبانٍ بلون جوز الهند. وجدت نفسها تضحك بهدوء من المنظر، فقد كان السفر حتى ذلك الوقت قضية شائكة. كل سنة حتى بلغت السادسة عشرة، كانت تقضي أسبوعين وهي تتشاجر مع شقيقتها داخل مقطورة في فيلي، في حين يشرب والداهما باستمرار وينظران إلى الخارج نحو المطر في نوعٍ من التجربة القاسية عن حدود التحمل الإنساني. في الجامعة، كانت قد ذهبت للتخييم في

كايرنغورمز مع تيلي كيليك، وقضت ستة أيام في خيمة تفوح منها رائحة الحساء في عطلة مرحة وممتعة رغم كل مساوئها.

آنذاك، فيما كانت واقفة عند الدرابزين والبلدة تصبح أكثر وضوحاً، بدأت تفهم الهدف من السفر؛ فهي لم تكن قد شعرت قط بأنها بعيدة جداً عن المصبغة، والطابق الأعلى من حافلة الليل التي تقلها إلى المنزل، وغرفة تيلي الصغيرة. بدا أن الهواء مختلف نوعاً ما هنا؛ ولا يتعلق الأمر برائحته فقط، وإنما بالمادة نفسها أيضاً. في لندن، الهواء شيء يمكنك النظر من خلاله، مثل حوض أسماك شفّاف، في حين أن كل شيء هنا ساطع وواضح، ونظيف وصاف.

سمعت طقطقة مصراع آلة تصوير، واستدارت في الوقت المناسب لترى دكستر يلتقط لها صورة مجدداً. قالت في ردة فعل، رغم أنها لم تكن كذلك: «أبدو في حال مزرية». انضم إليها، وذراعاه تمسكان الدرابزين على كلا جانبي خصرها.

«جميل، أليس كذلك؟».

قالت وهي غير قادرة على تذكر وقت شعرت فيه بسعادة أكبر: «رائع».

نزلا من السفينة - إنها أول مرة تشعر فيها بأنها تنزل من سفينة - ووجدا فوراً نشاطاً على الرصيف؛ حين بدأ المسافرون المعتادون والسيّاح البحث عن أفضل مكان يقيمون فيه.

«إذاً، ماذا يحدث الآن؟».

«سأعثر لنا على مكان ما. انتظري في ذلك المقهى، وسآتي وأصطحبك».

«مكان فيه شرفة».

«حاضر يا سيدتي».

«وإطلالة على البحر من فضلك، وطاولة».

«سأرى ما يمكنني فعله». ومشى بخطوات واسعة، وخفّاه يطقطقان، نحو الحشد على الرصيف.

صرخت خلفه: «ولا تنسَ!».

استدار ونظر إليها. كانت واقفة على مرسى الميناء، وهي تثبّت قبعتها عريضة الحافة إلى رأسها في النسيم الدافئ الذي يجعل فستانها الأزرق الفاتح يلتصق بجسدها. لم تكن تضع نظارة، وهناك بقع نمش على صدرها لم يكن قد رآها من قبل، والجلد العاري يتحول من

زهري إلى بني حين يختفي تحت خط العنق.

قالت: «القواعد».

«نحتاج إلى غرفتين، صحيح؟».

«بالتأكيد، نحتاج إلى غرفتين».

ابتسم واتجه إلى الحشد. راقبته إيما يذهب، ثم سحبت الحقيبتين القماشيتين على طول الرصيف إلى مقهى صغير يعصف به الهواء. هناك، مدّت يدها إلى حقيبتها وأخرجت قلماً ودفتر ملحوظات؛ كرّاساً ثميناً قماشي الغلاف يمثّل دفتر يومياتها في الرحلة.

فتحته على أول صفحة بيضاء وحاولت أن تفكّر في شيء يمكن أن تكتبه: فكرة أو ملحوظة ما، غير أن كل شيء بدا رائعاً. كان كل شيء رائعاً، وتملّكها شعور جديد ونادر بأنها حيث تريد بالضبط.

وقف دكستر وصاحبة الفندق في وسط الغرفة الكئيبة: جدران مطلية بماء الكلس، وأرضية حجرية باردة خالية إلا من سرير مزدوج حديدي ضخم، وطاولة كتابة صغيرة، وكرسي، وبعض الورود المجفّفة في جرّة. مشى إلى شرفة كبيرة مطلية بلون السماء نفسه، تطل على الخليج في الأسفل. بدا الأمر شبيهاً بالخروج إلى منصة رائعة.

سألت صاحبة الفندق، وهي في منتصف العقد الثالث وجذّابة جداً: «أنتم، كم عددكم؟».

«اثنان».

«وإلى متى ستمكثان؟».

«لسنا واثقين، خمسة أيام، وربما أكثر؟».

«حسنٌ، هذا المكان مناسب كما أظن؟».

جلس دكستر على السرير المزدوج، وهو يهز نفسه عليه مستغرقاً في أفكاره.

«لكن، أنا وصديقتي، نحن، حسنٌ، مجرد صديقين. نحتاج إلى غرفتين؟».

«أوه، لا بأس. لدي غرفة ثانية».

يوجد على جسد إيما ذلك النمش الذي لم أره من قبل مبعثراً على صدرها فوق خط العنق مباشرة.

«إذاً، لديك فعلاً غرفتان؟».

«نعم، طبعاً لدي غرفتان».
«هناك أخبار جيدة وأخرى سيئة».
قالت إيما، مغلقةً دفتر ملحوظاتها: «هاتِ ما لديك».
«حسنٌ، لقد وجدت مكاناً رائعاً؛ فيه إطلالة على البحر؛ فيه شرفة، وهو عالٍ قليلاً في القرية، وهادئ إن أردت الكتابة، وهناك طاولة صغيرة حتى، وهو خالٍ في الأيام الخمسة القادمة، ولمدة أطول إن أردنا».
«والخبر السيئ؟».
«هناك سرير واحد فقط».
«آه».
«آه».
«فهمت».
«آسف».
قالت متشككة: «حقاً؟ لا توجد سوى غرفة نوم واحدة في كل الجزيرة!».
«إنها ذروة الموسم يا إم! لقد حاولت في كل مكان». ابقَ هادئاً، ولا تصرخ. العب بطاقة الذنب بدلاً من ذلك. «لكن، إذا أردت مني أن أتابع البحث...». سئِماً، تظاهر بأنه سينهض عن الكرسي.
وضعت يدها على ذراعه. «أهو سرير مفرد أم مزدوج؟».
بدا أن الكذبة تفعل فعلها. «إنه مزدوج، مزدوج وكبير».
«حسنٌ، لا بد أنه ضخم جداً إذاً، أليس كذلك؟ ليتوافق مع القواعد».
هزَّ دكستر كتفيه: «حسنٌ، أفترض أنني أفضّل التفكير فيها على أنها إرشادات».
عبست إيما.
«ما عنيته يا إيما هو أنني لا أمانع إن لم يكن لديك مانع».
«لا، أعرف أنك لا تمانع».
«لكن، إذا كنت تظنين حقاً أنك لا تستطيعين إبعاد يديك عني...».
«أوه، يمكنني تدبر ذلك، لكنني قلقة بشأنك...».
«لأنني أخبرك الآن، إذا وضعت إصبعاً واحداً علي...».

أحبت إيما الغرفة، ووقفت على الشرفة وأصغت إلى الزيز؛ صوت لم تسمعه من قبل إلا في الأفلام فقط، وانتابها شك في أن ذلك خيال غريب. شعرت بالسعادة أيضاً لرؤية أشجار ليمون تنمو في الحديقة؛ ليمون حقيقي على الأشجار، بدت الثمار مُلصقة بها. عقدت العزم على ألاّ تبدو ضيقة الأفق، لم تقل أياً من ذلك بصوتٍ عالٍ، وعلّقت ببساطة: «ممتاز، سنحجزها». عندما كان دكستر يقوم بالإجراءات مع صاحبة الفندق، انسلّت إلى الحمّام لتتابع الكفاح مع عدستيها اللاصقتين.

في الجامعة، كانت لدى إيما قناعات خاصة راسخة بشأن غرور العدسات اللاصقة، غذّت أفكاراً تقليدية عن الجمال الأنثوي المثالي. أظهرت نظارة متينة وبسيطة ومفيدة من ناشونال هيلث أنكِ لا تكترثين بأمور تافهة وسخيفة مثل الظهور بمظهر جميل؛ لأن ذهنك مشغول بأشياء أسمى. لكن، في السنوات التي تلت مغادرتها الكلية، أخذت هذه الحجة تبدو مجرّدة تماماً ومقبولة ظاهرياً فقط، حتى إنها خضعت في النهاية إلى إلحاح دكستر وحصلت على الشيء اللعين، وأدركت متأخرة فقط أن ما كانت تتفاداه حقاً كل تلك السنوات هو تلك اللحظة في الأفلام: تنزع أمينة المكتبة نظارتها وتهز شعرها. «لكن، آنسة مورلي، أنت جميلة».

بدا وجهها في المرآة غريباً لها آنذاك؛ سافراً ومكشوفاً. وكأنها قد نزعت نظارتها لأول مرة آنذاك منذ تسعة شهور. كانت العدستان تجعلانها عرضة لتشنجات عشوائية ومفاجئة في الوجه، إضافة إلى غمزات نزقة، وتلتصقان بإصبعها ووجهها مثل حراشف أسماك، أو كما حدث آنذاك تنزلقان تحت جفنيها، وتدفنان نفسيهما بعيداً. بعد نوبة قاسية من تقلّص عضلات الوجه وما بدا أنها جراحة، استطاعت أن تستعيد القطعة، ثم خرجت من الحمّام، وعينها حمراء وتسيل منها الدموع.

كان دكستر يجلس على السرير، وقد فكَّ أزرار قميصه. «إم، هل تبكين؟».

«لا، لكن لا يزال الوقت باكراً».

خرجا في حر وقت الغداء الخانق، وشقّا طريقهما نحو الهلال الطويل من الرمل الأبيض الذي يمتد ميلاً أو نحو ذلك من القرية، وقد حان وقت الكشف عن ثياب السباحة. كانت إيما قد فكّرت كثيراً – وربما أكثر من اللازم – في ثوب السباحة، واستقرت في نهاية المطاف على قطعة سوداء بسيطة من جون لويس يمكن وصفها بأنها إدواردية الطراز. عندما سحبت فستانها فوق رأسها، تساءلت إن كان دكستر يظن أنها متكلّفة بطريقة ما؛ لأنها لم

ترتدِ بيكيني؛ وكأن ثوب سباحة من قطعة واحدة يتوافق مع نظارة، وحذاء صحراوي، وخوذة درّاجة هوائية، وتبدو كلها محتشمة وحذرة وغير أنثوية أبداً. لم تكن تهتم بذلك طبعاً، لكنها تساءلت فعلاً حين سحبت كل فستانها فوق رأسها إن كانت قد شاهدت عينيه تنظران خلسة نحوها. على كل حال، شعرت بالسعادة حين لاحظت أنه اختار سروالاً قصيراً فضفاضاً، وأدركت أن أسبوعاً من الاستلقاء بجانب دكستر وهو مرتدٍ سبيدوز سيكون مزعجاً أكثر مما يمكن أن تحتمل.

قال: «أرجو المعذرة، لكن ألست الفتاة من أبانيما؟».

«لا، أنا خالتها». جلست وحاولت أن تدهن ساقيها بكريم الوقاية من الشمس بطريقة لا تجعل فخذيها تهتزان.

قال: «ما هذه المادة؟».

«واقٍ شمسي».

«يمكنك أيضاً الاستلقاء تحت بطانية».

«لا أريد أن أتعرض لحروق في اليوم الثاني».

«إنه مثل طلاء منزل».

«لست معتادة على الشمس، لست مثلك أيها الرحّالة. هل تريد بعضاً منه؟».

«لا أستخدم كريم الوقاية من الشمس».

«دكستر، أنت صلبٌ جداً».

ابتسم، واستمر يراقبها من خلف نظارته الداكنة، ويلاحظ الطريقة التي تشد فيها ذراعُها المرفوعةُ صدرها تحت القماش الأسود لثوب السباحة، واللحم الطري الشاحب حول خط العنق المرن. كان هناك شيء في الإيماءة أيضاً؛ حركة الرأس وردّ الشعر إلى الخلف لتضع السائل على عنقها، وشعر بأجمل دوار يرافق الرغبة. أوه، يا للهول! ثمانية أيام أخرى من هذا؛ كما فكّر. كان ثوب سباحتها منخفضاً جداً من الخلف، ولم يكن بوسعها فعل شيء إلا أن تربت من دون جدوى على أكثر المواضع انخفاضاً. قال: «هل تريدين أن أدهن ظهرك؟». كان عرض دهن كريم الوقاية من الشمس طريقة قديمة مبتذلة، لا تناسبه فعلاً، وفكّر أنه من الأفضل أن يعرض ذلك على أنه اهتمام طبي. «لا تريدين أن تحترقي».

«افعل ذلك إذاً». تحركت إيما نحوه، وجلست بين ساقيه، ورأسها يرتاح إلى الأمام على

ركبتيها. بدأ يدهن الكريم، ووجهه قريب جداً إلى درجة أنها شعرت بأنفاسه على عنقها، في حين أحس هو بالحرارة تخرج من جلدها، وكل منهما يعمل جاهداً على ترك انطباع بأن هذا سلوك يومي وليس خرقاً واضحاً بأي طريقة للقاعدة الثانية، والرابعة؛ تينك اللتين تحظران الغزل والتواصل الجسدي.

قال مدركاً أن أصابعه على أسفل عمودها الفقري: «إنه منخفض جداً، أليس كذلك؟».

قالت: «جيد أنني لم أرتدِه بالمقلوب!». وأطبق الصمت بعد ذلك، في حين فكّر كلاهما: أوه، يا للهول! أوه، يا إلهي!

إلهاءً له وضعت يدها على كاحله وجذبته إليها. «ما هذا؟».

«وشمي، من الهند». فركته بإبهامها وكأنها تحاول مسحه. شرح: «لقد تلاشى قليلاً، إنه رمز أنثوي وذكوري معاً».

«يبدو مثل إشارة طرقية».

«معناه الانسجام المثالي بين ضدّين».

«معناه نهاية حدود السرعة الوطنية. يعني أن تضع جورباً عليه».

ضحك ووضع يديه على ظهرها، وإبهاماه على حافتي عظمتي كتفيها. انقضت اللحظة. قال مبتهجاً: «أنهينا! حصلت على طبقة أساسية من الكريم. لنسبح!».

وهكذا اقترب اليوم الحار والطويل من نهايته. سبحا وناما وقرأا، وعندما خفّت الحرارة القاسية وأصبح الشاطئ أكثر اكتظاظاً بالناس، ظهرت أمامهما مشكلة واضحة للعيان، ولاحظها دكستر أولاً.

«هل أتخيل فقط أم...».

«ماذا؟».

«أظن أن الأشخاص يبالغون في ثياب سباحتهم؟».

رفعت إيما بصرها. «أوه، نعم». عادت إلى كتابها. «لا تحدّق يا دكستر».

«أنا لا أحدّق، وإنما أراقب فحسب. فأنا عالم إنسان، هل تتذكرين؟».

«علامة متدنية، ألم تكن كذلك؟».

«علامة ممتازة. انظري، هذان صديقانا».

«أي صديقين؟».

«من المعدّية، هناك، يشويان». على بعد عشرين متراً، كان الرجل يجثم شاحباً فوق صينية ألمنيوم يتصاعد الدخان منها؛ وكأنه يلتمس الدفء، في حين تقف المرأة على أطراف أصابع قدميها وتلوّح. لوّح دكستر بمرح: «ثوب سباحة رائع!».

أشاحت إيما ببصرها بعيداً. «أنت تفهم أنني لا أستطيع فعل ذلك».

«ماذا؟».

«الشواء بمثل ثوب كهذا».

«إم، أنت تقليدية جداً».

«هذه ليست تقليدية، إنها صحة وأمان أساسيان. إنها صحة غذائية».

«أنا سأشوي».

«وذلك هو الفرق بيننا يا دكس، فأنت داكن البشرة ومنفتح جداً».

«ربما يجب أن نذهب ونلقي التحية».

«لا!».

«ركّزْ فقط على كتابك، هلاّ فعلت؟». استدارت لتواجه خط الأشجار. لكن، بمرور السنين كانت قد وصلت إلى مستوى من الألفة مع دكستر حتى أصبح من الممكن أن تسمع فكرة داخل رأسه؛ مثل حجر يُلقى في الطين، وبيقين كافٍ:

«ما رأيكِ إذاً؟».

«ماذا؟».

«هل نفعل؟».

«ماذا؟».

«ينبغي بنا التشبه بهم؟».

«لا، لا ينبغي».

«الجميع فعل ذلك!».

«هذا ليس سبباً! وماذا عن القاعدة الرابعة؟».

«ليست قاعدات، وإنما إرشادات».

«لا، قاعدات».

«إذاً؟ يمكننا تحريفها».
«إذا حرّفتها فلن تصبح قاعدة».
متجهماً، استلقى على الرمل. «يبدو الأمر فظاً قليلاً، وهذا كل شيء».
«لا بأس، افعل ذلك أولاً، وسأحاول الكفَّ عن المطالعة».
تمتم بفظاظة: «لا فائدة ترجى إن فعلت ذلك وحدي».
استلقت على ظهرها مجدداً. «دكستر، لماذا أنت مصرٌّ جداً؟».
«ظننت فقط أننا ربما نكون أكثر استرخاءً».
«هذا لا يُصدّق، لا يُصدّق فحسب».
«ألا تظنين أنك ستكونين أكثر استرخاءً؟».
«لا!».
« لمَ لا؟».
«لا يهم السبب! إضافة إلى ذلك، لا أظن أن حبيبتك ستكون سعيدة جداً».
«أنغريد لن تهتم. إنها منفتحة الذهن».
«حسنٌ، آسفة لتخييب أملك يا دكس».
«أنت لا تخيبين أملي».
«لكن هناك فرقاً».
«أي فرق؟».
«حسنٌ، كانت أنغريد عارضة أزياء».
«إذاً؟ يمكن أن تصبحي عارضة».
ضحكت إيما بقوة. «أوه دكستر، هل تظن ذلك حقاً؟».
«في كرّاسات إعلانية أو شيء من هذا القبيل. جسدك رائع».
«جسدي رائع. يا ربي عونك».
«كل ما أقوله موضوعي تماماً، فأنت امرأة جذّابة جداً...».
«... تتمسك بارتداء ملابسها! إذا كنت بأمس الحاجة إلى اكتساب المزيد من اللون الأسمر، فلا بأس، امضِ قدماً. الآن، هل يمكن أن نغير الموضوع؟».
استدار واستلقى على بطنه إلى جانبها، ورأسه يرتاح على ذراعيه، ومرفقاهما يتماسان.

ومرة أخرى استطاعت سماع صوت أفكاره. وكزها بمرفقه.

«بالطبع ليس شيئاً لم نره من قبل».

وضعت كتابها على الأرض ببطء، ورفعت نظارتها الشمسية إلى جبينها، ورأسها يرتاح جانبياً على ساعديها؛ مثله تماماً.

«عفواً؟».

«أقول فقط إن أياً منا ليس لديه شيء لم يره الآخر من قبل». حدّقت إليه. «تلك الليلة، أتذكرين؟ بعد حفل التخرج؟ ليلة حبنا الوحيدة؟».

«دكستر؟».

«أقول فقط إنه ليست لدينا أي مفاجآت».

«أظن أنني سأتقيأ».

«تعرفين ما أعنيه».

«حدث ذلك منذ وقت طويل».

«ليس طويلاً جداً. إذا أغمضت عينيَّ، يمكن أن أتخيل».

«لا تفعل ذلك –».

«نعم، ها أنت ذا –».

«كان الظلام مخيّماً –».

«لم يكن حالكاً –».

«كنت فاقدة رشدي».

«هذا ما يقلنه دائماً –».

«هن؟ من هن؟».

«ولم تكوني فاقدة رشدك كلياً».

«فاقدة رشدي كفاية لأخفض معاييري. إضافة إلى ذلك، كما أتذكر لم يحدث شيء».

«حسنٌ، لن أعدَّ الأمر كذلك؛ ليس من حيث كنت مستلقياً».

«تكذب. كنت يافعة، ولم أكن أدري ما أفعله. في الواقع، لقد محوت ذلك من ذاكرتي، مثل حادث سيارة».

«حسنٌ، أنا لم أفعل. إذا أغمضت عينيَّ فبإمكاني أن أتخيلك الآن، جسدك يرسم ظلاً في ضوء الصباح، وملابسك القطنية ملقاة جانباً، وأنت تجثمين على...».

ضربته بكتابها بقوة على أنفه.

«آه!».

«اسمع، لن أغير ثوب السباحة، اتفقنا؟ ولم أكن أرتدي ثياباً قطنية، فأنا لم ألبسها في حياتي». أمسكت كتابها مجدداً، ثم بدأت تضحك بهدوء لنفسها.

سأل: «ما المضحك؟».

«على...». ضحكت ونظرت إليه بمحبة. «تجعلني أضحك أحياناً».

«حقاً؟».

«بين الفينة والأخرى. يجب أن تعمل في التلفاز».

مسروراً، ابتسم وأغمض عينيه. كان قد احتفظ في الواقع بصورة ذهنية زاهية عن إيما من تلك الليلة، وهي تستلقي على سرير مفرد، وذراعاها مرفوعتان فوق رأسها حين يتبادلان القبل. فكّر في ذلك، وغط في النوم أخيراً.

في وقت متأخر من الأصيل عادا إلى الغرفة، متعبين ودبقين ويشعران بوخزٍ من الشمس، وشاهداه هناك مجدداً: السرير. تجاوزاه وخرجا إلى الشرفة التي تطل على البحر الضبابي آنذاك مع تحول لون السماء من الأزرق إلى حمرة الغروب.

«إذاً، من سيستحم أولاً؟».

«اذهب أنت، سأجلس هنا وأقرأ».

استلقت تحت الشمس المتكاسلة الغاربة في غسق المساء، وهي تصغي إلى صوت الماء المتدفق، وتحاول التركيز على الحروف المطبعية الصغيرة لروايتها الروسية التي يبدو أنها تصبح أصغر مع كل صفحة. وقفت فجأة، ومشت إلى الثلاجة الصغيرة التي كانا قد ملآها بالماء وعلب الشراب وأخرجت علبة، ولاحظت أن باب الحمّام مفتوح.

لم تكن هناك ستارة استحمام، واستطاعت رؤية دكستر يقف تحت الماء البارد، وعيناه مغمضتان من الرذاذ، ورأسه مائل إلى الخلف، وذراعاه مرفوعتان. لاحظت عظمتي كتفيه، والظهر البني الطويل. لكن، يا للهول! كان يستدير آنذاك، وانزلقت علبة الشراب من يدها وارتطمت بالأرض، تئز وترغي، وتدور حول نفسها على الأرضية مصدرة ضوضاء. رمت

منشفة فوقها؛ وكأنها تمسك قارضاً برياً، ثم رفعت بصرها لترى دكستر، صديقها الأفلاطوني، عارياً لا يستره شيء باستثناء ملابس يحملها أمامه. قالت، وهي تجفف الشراب بالمنشفة وتفكّر: ثمانية أيامٍ وثمان ليالٍ أخرى من هذا وسأحترق من الداخل: «انزلقت من يدي!».

حان دورها بعد ذلك لتستحم. أغلقت الباب، وغسلت الشراب عن يديها، ثم لوت نفسها وكافحت لتنزع ثوب استحمامها في الحمّام الصغير الرطب الذي لا تزال تفوح منه رائحة غسول الحلاقة خاصته.

تطلّبت القاعدة الرابعة خروج دكستر من الغرفة، ووقوفه على الشرفة في أثناء تجفيفها نفسها وارتدائها ثيابها. لكن، بعد بعض المحاولات اكتشف أنه إذا وضع نظارته الشمسية وأدار رأسه بزاوية معينة، فبإمكانه رؤية انعكاس صورتها على الباب الزجاجي وهي تكافح لتفرك الكريم على الجزء الأسفل من ظهرها الذي سفعته الشمس حديثاً. راقب اهتزاز وركيها في أثناء ارتدائها ملابسها الداخلية، والالتواء المقعّر لظهرها، وقوس عظمتي كتفيها حين ثبّتت صدريتها، والذراعين المرفوعتين، والفستان الصيفي الأزرق الذي كان ينسدل إلى الأسفل مثل ستارة.

انضمت إليه على الشرفة.

قال: «ربما يجب أن نبقى هنا بدلاً من التجول بين الجزر. بإمكاننا أن نتسكّع هنا أسبوعاً، ثم نعود إلى رودس وبعدها إلى المنزل».

ابتسمت. «لا بأس، ربما».

«ألا تظنين أنك ستشعرين بالملل؟».

«لا أظن ذلك».

«هل أنت سعيدة إذاً؟».

«حسنٌ، أشعر بأن وجهي مثل ثمرة طماطم مشوية، لكن باستثناء ذلك...».

«دعيني أرى».

أغمضت عينيها واستدارت نحوه ورفعت ذقنها، شعرها لا يزال رطباً وممشطاً إلى الخلف بعيداً عن وجهها الذي بدا لامعاً ونظيفاً. كانت تلك إيما، لكنها جديدة كلياً. بدا أنها تتورد، وفكّر في كلمتي قبّلتها الشمس، ثم فكّر قبّلها، أمسِك وجهها بقوة وقبّلها.

فتحت عينيها فجأة، وقالت: «ماذا الآن؟».

«أي شيء ترغبين به».

«لعبة سكرابل؟».

«لا رغبة لدي».

«لا بأس، ماذا عن تناول العشاء؟ واضح أن لديهم ذلك الشيء الذي يدعى سلطة إغريقية».

كانت المطاعم في البلدة الصغيرة متماثلة كلها على نحو جدير بالملاحظة، والهواء يعبق بدخان لحم الضأن المشوي. جلسا في مكان هادئ في نهاية الميناء حيث يبدأ هلال الشاطئ، وشربا شراباً بطعم الصنوبر.

قال دكستر: «أشجار الكرسمس».

قالت إيما: «معقّم».

صدحت موسيقى من مكبّرات تحجبها شجرة كرمة بلاستيكية من أغنية مادونا «اقضِ وقتاً ممتعاً» تُعزف على آلة قانون. تناولا خبزاً بائتاً، ولحماً مشوياً، وسلطة متبّلة بحامض الخل، وبدا طعمها كلها شهياً. بعد بعض الوقت أصبح كل شيء حتى الشراب — كان مثل غسول فم — لذيذاً وسرعان ما شعرت إيما بأنها مستعدة لخرق القاعدة الثانية: لا غزل.

لم تكن بارعة في الغزل مطلقاً، ونوبات سلوكها المرح سمجة وسخيفة؛ مثل محادثة عادية عن مزلاج بعجلات، لكن مزيج الشراب والشمس جعل إيما عاطفية وتشعر بدوار خفيف. مدّت يدها إلى مزلجها ذي العجلات.

«لدي فكرة».

«هاتِ ما عندك».

«حسنٌ، إذا كنا سنمكث هنا ثمانية أيام، فلن تبقى هناك موضوعات نتكلم عنها، صحيح؟».

«ليس بالضرورة».

«لكن، لنتجنب المخاطرة». مالت إلى الأمام، ووضعت يدها على رسغه. «أظن أن أحدنا يجب أن يخبر الشخص الآخر شيئاً لا يعرفه».

«ماذا، أتقصدين سرّاً مثلاً؟».

«بالضبط، سرّ، شيء مفاجئ، أمر واحد كل ليلة في ما تبقى من عطلتنا».

«نوع من لعبة أدر القارورة؟». اتسعت عيناه. كان دكستر يعد نفسه لاعباً من طراز عالمي في أدر القارورة. «لا بأس، أنتِ أولاً».

«لا، أنت أولاً».

«لماذا أنا أولاً؟».

«لديك أشياء كثيرة يمكنك الاختيار منها».

وكان ذلك صحيحاً؛ لأن لديه زاداً لا نهاية له من الأسرار. يمكن أن يخبرها أنه قد شاهدها وهي ترتدي ملابسها هذه الليلة، أو أنه قد ترك باب الحمام مفتوحاً بشكل متعمد حين استحم. يستطيع أن يخبرها أنه قد دخّن ممنوعات مع نعومي، أو أنه قبل الكريسماس أقام علاقة سريعة وسيئة مع زميلة إيما في الشقة تيلي كيليك؛ تدليك قدم خرج على نحو فظيع عن السيطرة حين كانت إيما في ولورثس تشتري مصابيح زينة. لكن، ربما سيكون من الأفضل أن يختار شيئاً لا يكشف عن أنه ضيق الأفق أو سيئ أو منافق أو مغرور.

فكّر لبعض الوقت ثم قال: «لا أذكر شيئاً حاليًّا. ماذا بالنسبة إليك؟».

«هل تريد سماع سري؟ لِمَ لا؟».

وصل النادل مع شراب مجاني؛ نوع الشراب الذي يمكن أن تحصل عليه من دون مقابل. شربت إيما رشفة ووجلت، ثم أراحت ذقنها بحرص على يدها بطريقة عرفت أنها توحي بألفة. «سر، دعني أفكّر في الأمر». نقرت على ذقنها بإصبعها. كان بمقدورها إبلاغه أنها قد رأته في الحمّام، أو أنها تعرف كل شيء بشأن تيلي كيليك في مناسبة الميلاد، وتدليك الأقدام الذي خرج عن السيطرة على نحو كريه. ويمكن حتى أن تخبره أنها عام 1983 قبّلت داوسن في غرفة نومها، لكنها عرفت أنها لن تسمع نهاية ذلك أبداً. إضافة إلى ذلك، كانت تعرف كل المساء ما تنوي قوله. ومع عزف القانون، لعقت شفتيها، وجعلت عينيها تتقدان انفعالاً مع بعض التعديلات الصغيرة الأخرى، حتى حصلت على ما ظنّت أنه أفضل تعبير وجه جذّاب؛ ذاك الذي تستخدمه في الصور.

«عندما التقينا أول مرة في الجامعة، قبل أن نصبح كما تعرف صديقين، حسنٌ، شعرت بافتتان نحوك. لم يكن شيئاً يسيراً، كان افتناناً كبيراً في الواقع، وطوال مدة طويلة كتبت قصائد غبية».

«قصائد! حقاً؟».

«لست فخورة بنفسي».

«فهمت، فهمت». طوى ذراعيه، ووضعهما على حافة الطاولة ونظر إلى الأسفل. «حسنٌ، أنا آسف يا إم، لكن ذلك لا يُحتسب».

«لمَ لا؟».

«لأنكِ قلت إنه يجب أن يكون شيئاً لا أعرفه». كان يبتسم، وتذكرت مرة أخرى قدرته غير المحدودة تقريباً على تخييب أمل الآخرين.

«يا إلهي! أنت مزعج!». صفعت الجزء الأكثر احمراراً من حروقه الشمسية بقفا يدها.

«آه!».

«كيف عرفت؟».

«أخبرتني تيلي».

«تيلي تلك إنسانة لطيفة».

«إذاً، ماذا حدث؟».

نظرت إلى قعر كأسها. «أفترض أنه أمر تتخلص منه بمرور الوقت، مثل القوباء».

«لا، حقاً، ماذا حدث؟».

«تعرّفت بك جيداً، وداويتني منك».

«حسنٌ، أريد أن أقرأ تلك القصائد. ما الذي يصح كقافية مع دكستر؟».

«وغد. إنه شعر حر».

«جدياً، ماذا حدث لها؟».

«لقد أتلفتها. أشعلت ناراً كبيرة قبل سنوات». شعرت بالارتباك والخجل، وشربت مرة أخرى من الكأس الفارغة. «تناولنا كمية كبيرة من الشراب. يجب أن نذهب». بدأت تبحث ذاهلة عن النادل، وبدأ دكستر يشعر بالارتباك أيضاً. لماذا الغرور والتكلّف والبخل؟ متشوقاً إلى العثور على طريقة لتصحيح الخطأ، وكز يدها. «هل نذهب في نزهة؟».

تردّدت. «لا بأس، لنذهب في نزهة».

سارا على طول الخليج، وتجاوزا منازل لم ينته بناؤها بعد؛ حيث تمد البلدة نفسها على طول الساحل في تنمية سياحية جديدة بطريقة تقليدية. وفي أثناء تبادلهما أطراف الحديث،

عقدت إيما العزم سراً على أن تكون أكثر حكمة في المستقبل. أدركت أن العفوية لم تناسبها حقاً، ولا يمكنها أن تتحلّى بالجرأة اللازمة، وأن النتائج لم تكن ما ترجوه مطلقاً. كان اعترافها لدكستر يشبه ضرب كرة بقوة، ومراقبتها وهي ترتفع عالياً في الهواء، ثم سماع صوت زجاج وهو يتحطم بعد لحظات. ومن أجل الوقت المتبقي الذي سيقضيانه معاً عقدت النية على أن تبقى حصيفة وصاحية وتتذكر القواعد. تذكري أنغريد؛ أنغريد الجميلة التي تنتظره في لندن، ولا مزيد من بوحٍ غير ملائم. في أثناء ذلك، سينبغي عليها أن تجر أذيال المحادثة الغبية معها، مثل ورق مرحاض عالق على كعب حذائها.

كانا قد تركا البلدة خلفهما آنذاك، وأمسك دكستر يدها ليساعدها حين سارا بحذر فوق الكثبان الجافة التي لا تزال دافئة من شمس النهار. مشيا نحو البحر إلى حيث الرمال رطبة وراسخة، ولاحظت إيما أنه لا يزال يمسك يدها.

سألت ملاحظة الارتعاش في صوتها: «إلى أين نحن ذاهبان على كل حال؟».

«أنا سأسبح، هل تأتين؟».

«أنت مجنون».

«هيا!».

«سأغرق».

«لن تغرقي. انظري، إنه جميل». كان البحر هادئاً وصافياً جداً مثل حوض مائي جميل، أو فوسفوري اللمعان؛ إن غرفتَ منه يتوهج في يديك. «هيا، سيجعلنا ذلك نصحو».

«لكنني لم أجلب ثياب السباحة...». أدركت أمراً. «أوه، فهمت». ضحكت. «فهمت ما يحدث هنا».

«ماذا؟».

«لقد مشيت بقدميّ إلى هنا، أليس كذلك؟».

«ماذا؟».

«خدعة السباحة من دون ملابس القديمة. اجعل فتاة تفقد رشدها وابحث عن أقرب مجمع مائي كبير».

«إيما، أنت تفرطين في الاحتشام. لماذا هذا الإفراط؟».

«اذهب أنت وسأبقى أنا هنا».

«لا بأس، لكنك ستندمين على ذلك». كان يدير ظهره لها آنذاك.

صرخت من خلفه، وهي تنظر إلى ظهره البني الطويل حين مشى بخطوات واسعة إلى البحر: «أنت لست في حفلة الوجه المثير الآن كما تعرف!». اندفع هو إلى الأمام نحو الأمواج، ووقفت هي متمايلةً ومصابة بدوار وتشعر بالعزلة والسخف. ألم تكن هذه بالضبط إحدى التجارب التي تتوق إليها؟ لماذا لا تكون أكثر عفوية وطيشاً؟ إذا كانت خائفة جداً من السباحة من دون ثياب ملائمة، فكيف يمكن أن تتوقع أن تخبر رجلاً أنها تريد تقبيله؟ ثم ركضت وهي تضحك وتشتم نفسها، نحو حافة المياه.

واقفاً على أطراف أصابع قدميه في أبعد منطقة تجرأ على الوصول إليها، مسح دكستر الماء عن عينيه، ونظر إلى البحر، وتساءل عمّا سيحدث تالياً. وخزات ضمير، شعر ببداية تأنيب الضمير. بدا أن هناك مأزقاً؛ ألم يعقد العزم على محاولة تفادي المآزق لبعض الوقت، وأن يكون أقل طيشاً وعفوية؟ كانت هذه إيما مورلي بالمحصلة، وإم عزيزة على قلبه، وأفضل أصدقائه على الأرجح. وماذا عن أنغريد، المعروفة سراً بأنغريد المخيفة؟ سمع صرخة انتعاش خافتة من الشاطئ، فاستدار بعد فوات الأوان ليرى إيما تمشي في الماء بتعثر؛ وكأنها تُدفع من الخلف. صدقٌ وصراحة: ستكون هاتان الكلمتان شعاره. خاضت في الماء نحوه، وقرر أن يكون صريحاً وصادقاً على سبيل التغيير، وأن يرى ما سينجم عن ذلك.

وصلت إيما وهي تلهث. أدركت فجأة أن البحر صاف، فعملت جاهدة لتجد طريقة تحرّك بها الماء، وإحدى ذراعيها مطوية حول صدرها. «هذا هو الأمر إذاً».

«ماذا؟».

«السباحة من دون ملابس ملائمة».

«هذا هو، ما رأيك؟».

«جيد كما أظن، مرح جداً. ماذا يفترض أن أفعل الآن، هل أتحرك في المكان أم أرشّك بالماء أم ماذا؟». ضمّت كفها، ورشّت الماء بهدوء على وجهه. «هل أقوم بذلك على ما يرام؟». قبل أن يتمكن من رشّها بالماء أدركها التيار وسحبها نحو دكستر الذي وقف مثبّتاً قدميه في قاع البحر. أمسكها، وتداخلت سيقانهما مثل أصابع متشابكة، وتماسَّ جسداهما ثم ابتعدا عن بعضهما مجدداً، مثل راقصين.

قالت، لتحطم الصمت: «هذا وجه مفعم بالعاطفة. أليس كذلك؟».

«لا».

«إذاً؟».

«على كل حال، ما أردت قوله هو أنني آسف؛ على ما قلته...».

«متى؟».

«في المطعم، حول كونك عفوية أو شيئاً من هذا القبيل».

«لا بأس، فأنا معتادة على ذلك».

«وأيضاً لأنني قلت إنني فكّرت في الشيء نفسه أيضاً، في ذلك الوقت. ما عنيته هو أنني أُعجبت بك أيضاً، بطريقة رومانسية، أعني. أنا لم أكتب قصائد أو شيئاً مشابهاً، لكنني فكّرت فيك، وأفكّر فيك، أنا وأنت، ما أعنيه هو أنني معجب بك».

«حقاً! أوه، حقاً؟ صحيح. أوه، صحيح». سيحدث ذلك أخيراً، كما فكرت، هنا والآن، وهي تقف في بحر إيجه.

«مشكلتي هي...»، وتنهّد ثم ابتسم بطرف فمه. «حسنٌ، أفترض أنني معجب بالجميع!».

كل ما استطاعت قوله: «فهمت».

«... أي شخص حقاً يمشي في الشارع. كما قلت إن الجميع يعجبونني. إنه كابوس!».

قالت بصوت خافت: «أيها المسكين».

«ما أعنيه هو أنني لا أظن أنني كنت - أنا - مستعداً لعلاقة - كما تعرفين - حبيب وحبيبة. أظن أننا سنرغب بأشياء مختلفة عن علاقة».

«لأنك...؟».

«أنا أتكلم جاداً هنا يا إم؟».

«حقاً؟ لا يمكن أن أعرف أبداً».

«هل أنت غاضبة مني؟».

«لا! لا أهتم! أخبرتك، كان ذلك منذ وقت طويل جداً».

«على كل حال!». تحت الماء، وجدت يداه خصرها وأمسك بها. «على كل حال، إذا أردت قليلاً من المتعة...».

«متعة؟».

«خرق القواعد...».
«نلعب السكرابل؟».
«تعرفين ما أعنيه. علاقة عابرة. فقط في أثناء رحلتنا، من دون شروط أو التزامات أو كلمة عن أنغريد. سرنا الصغير، فأنا مستعد له. ذلك كل شيء».
أطلقت صوتاً من حنجرتها بين ضحكة ودمدمة. مستعد لذلك. كان يكشّر مترقّباً مثل بائع يعرض صفقات كبيرة في التمويل. سرنا الصغير، الذي يُضاف إلى كل شيء آخر على ما يبدو. خطرت عبارة في ذهنها: الفم مجرد فم. لم يكن بوسعها أن تفعل إلا شيئاً واحداً فقط، وثبتْ إلى الأعلى خارج الماء، وبكل قوتها دفعت رأسه تحت الماء وأبقته هناك. بدأت تعد ببطء: واحد، اثنان، ثلاثة –
أيها المتغطرس، المغرور –
أربعة، خمسة، ستة –
وأنت امرأة غبية جداً، غبية لأنك تكترثين، غبية لأنك تظنين أنه يهتم –
سبعة، ثمانية، تسعة –
إنه يشعر بدوار الآن، ومن الأفضل أن أتركه يخرج كما أفترض، وأن ألقي دعابة، وأجعل من الأمر دعابة.
عشرة، وأبعدت يديها عن أعلى رأسه وتركته يثب إلى أعلى. كان يضحك، ويبعد الماء عن شعره وعينيه، وضحكت هي أيضاً «ها ها ها» قوية.
قال أخيراً، ماسحاً ماء البحر عن أنفه: «أعدُّ ذلك رفضاً إذاً».
«أظن ذلك، أعتقد أن لحظتنا قد انقضت قبل وقت طويل».
«أوه، حقاً! هل أنت واثقة؟ لأنني أظن أننا سنشعر بحال أفضل إن نحّينا هذا جانباً».
«نحّينا هذا جانباً؟».
«أظن فقط أننا سنشعر أننا أقرب إلى بعضنا، كصديقين».
«هل أنت قلق من أن عدم قيامنا بأمر ما مع بعضنا يمكن أن يفسد صداقتنا؟».
«أنا لا أعبّر عن نفسي كما ينبغي».
«دكستر، أنا أفهمك تماماً، وتلك هي المشكلة».
«إذا كنت خائفة من أنغريد».

«أنا لست خائفة منها، وإنما لن أفعل ذلك كي نقول إننا فعلناه. ولن أفعل ذلك إن كان أول شيء ستقوله بعدئذ هو أرجوك لا تخبري أحداً أو لننس أن ذلك حدث. إذا كنت ستبقي شيئاً سراً، فيجب ألاّ تفعله في المقام الأول!».

لكنه كان يحدّق وراءها؛ نحو الشاطئ، واستدارت نحو الساحل في الوقت المناسب فقط لترى الشخص الصغير والضئيل يندفع بسرعة كبيرة على طول الرمل، ويحمل شيئاً فوق رأسه مبتهجاً وكأنه استولى على راية: قميص، وسروال.

صرخ دكستر وهو يندفع نحو الساحل آنذاك، ويصرخ وفمه مملوء ماء: «توقف!». ثم ركض بخطوات سريعة على الشاطئ، وهو يقفز وراء اللص الذي سرق ثيابه.

بحلول الوقت الذي عاد فيه إلى إيما، وهو يلهث ويستشيط غضباً، كانت تجلس على الشاطئ وترتدي ثيابها، وصاحية مرة أخرى.

«ألم تجد أي أثر لها؟».

قال على نحو مأساوي: «لا! اختفى! سرق كل شيء واختفى». وتطلب الأمر نسمة عليلة لتذكّره بمصابه الجلل.

سألت، ووجهها خالٍ من أي تعبير: «هل أخذ محفظتك؟».

«لا، أخذ بعض النقود فقط: لا أدري، ما يساوي عشرة أو خمسة عشر جنيهاً، ذلك الوغد الصغير».

تمتمت، وطرفا فمها يرتعشان: «حسنٌ، أظن أن تلك إحدى مخاطر السباحة هنا».

«السروال هو الذي أزعجني، فقد كان من ماركة هلموت لانغ! ثلاثون جنيهاً لعينة ذهبت سدى مع ذلك السروال. ماذا حدث معك؟». لكن إيما لم تستطع أن تتكلم لأنها تضحك. «هذا ليس مضحكاً يا إم! لقد تعرضت للسرقة!».

«أعرف، آسفة».

«كان هلموت لانغ يا إم!».

«أعرف! الأمر فقط أنك... غاضب جداً، و... مسروق الملابس...». جثمت، وقبضتاها وجبينها على الرمل قبل أن تميل جانبياً.

«توقفي يا إم. هذا ليس مضحكاً. إيما؟ إيما! هذا كاف».

عندما استطاعت الوقوف مجدداً قضيا بعض الوقت وهما يمشيان على الشاطئ بصمت.

وشعر دكستر فجأة ببرد شديد وخجل، وسارت إيما بحذر أمامه، وهي تنظر إلى الرمل وتحاول أن تتمالك نفسها. تمتم دكستر: «أي نوع من الأوغاد الصغار ذاك الذي يسرق ثياب شخص آخر؟ هل تعرفين ماذا سأفعل حين أجد ذلك البغيض الصغير؟ سأبحث عن الوغد الوحيد الذي يرتدي ملابس ملائمة على كل الجزيرة اللعينة!». وانهارت إيما على الرمل مرة أخرى، ورأسها بين ركبتيها.

عندما تبين أن لا طائل من البحث، فتّشا على الشاطئ عن ملابس طوارئ. وجدت إيما كيساً متيناً من النايلون الأزرق، لفّه دكستر بإحكام حول خصره مثل تنورة قصيرة، في حين اقترحت إيما إحداث شقوق فيه، ثم انفجرت ضحكاً مرة أخرى.

أخذهما طريق العودة إلى الفندق على طول واجهة الميناء. قالت إيما: «إنه أكثر نشاطاً مما توقعت». عدّل دكستر تعبير وجهه إلى انتقاص من الذات، وتابع السير متجاوزاً مقهى الرصيف، وعيناه مثبتتان إلى الأمام؛ متجاهلاً الصفرات الموجهة إليه. اتجها نحو البلدة، ووصلا إلى زقاق ضيق، ثم وجدا نفسيهما فجأة يواجهان الثنائي الذي التقياه على الشاطئ، ووجهاهما أحمران من الشراب والشمس، وهما يمسكان بعضهما مترنّحين في أثناء نزولهما على الدرجات نحو الميناء. حدّقا، مرتبكين، إلى تنورة دكستر الزرقاء القصيرة المصنوعة من كيس.

شرح باقتضاب: «سرق أحدهم ملابسي».

أومأ الثنائي متعاطفين وتجاوزاهما، ثم توقفت الفتاة لتستدير وتصرخ نحوهما:

«كيس جميل».

قالت إيما: «هلموت لانغ». وضاقت عينا دكستر من خيانتها.

استمر العبوس كل الطريق إلى الفندق، وبحلول وقت عودتهما إلى الغرفة، كانت حقيقة السرير المشترك قد فقدت بطريقة ما أهميتها. دخلت إيما الحمّام لترتدي قميصاً تائياً رمادياً قديماً. وعندما خرجت، رأت كيس الفحم المصنوع من النايلون الأزرق ملقى على الأرضية بجانب السرير. قالت وهي تدفع الكيس بإصبع قدمها: «يجب أن تعلّق هذا الشيء، وإلا سيتجعّد».

قال مستلقياً على السرير، ومرتدياً ثياباً داخلية جافة: «ها».

«هذه هي إذاً؟».

«ماذا؟».

«الثياب الداخلية الشهيرة التي يبلغ ثمنها ثلاثين جنيهاً. ما هي؟ أهي مبطّنة بالفرو؟».

«لنخلد إلى النوم فحسب، هلاّ فعلنا ذلك. إذاً، أي جانب؟».

«هذا».

استلقيا على ظهريهما بالتوازي، وإيما تستمتع بملمس الملاءات البيضاء الباردة على جلدها الرقيق.

قالت: «يوم رائع».

تمتم: «حتى ذلك الجزء الأخير».

استدارت لتنظر إليه، وجانب وجهه يظهر لها وهو يحدّق نكداً إلى السقف. وكزت قدمَه بقدمها. «إنها مجرد سروال وثياب قطنية، سأشتري لك بعض الملابس الجميلة الجديدة. ثلاث قطع من الثياب القطنية». تنشّق دكستر الهواء، وأمسكت يده تحت الملاءة وضغطت عليها بقوة حتى أدار رأسه لينظر إليها. ابتسمت: «جدّياً يا دكس، أنا سعيدة حقاً لوجودي هنا. أقضي وقتاً ممتعاً حقاً».

تمتم: «نعم، وأنا أيضاً».

قالت: «ثمانية أيام أخرى».

«ثمانية أيام أخرى».

«هل تظن أن بمقدورك أن تتحمّل؟».

«من يعرف؟». ابتسم ابتسامة عريضة، وسواء أكان ذلك إلى الأفضل أم إلى الأسوأ، عاد كل شيء إلى سابق عهده. «إذاً، كم قاعدة خرقنا الليلة؟».

فكّرت لحظة. «الأولى، والثانية، والرابعة».

«حسنٌ، على الأقل لم نلعب سكرابل».

«هناك غدٌ دائماً». مدّت يدها فوق رأسه، وأطفأت المصباح، ثم استلقت على جانبها وظهرها له. عاد كل شيء إلى سابق عهده، ولم تكن واثقة بحقيقة شعورها نحو ذاك. انتابها القلق للحظة من عدم قدرتها على النوم نتيجة التفكير في ما حدث اليوم. لكن، لارتياحها سرعان ما وجدت نفسها تستسلم للتعب، والنومُ يسري في عروقها مثل مسكّن.

استلقى دكستر لبعض الوقت وهو ينظر إلى السقف في الضوء الأزرق، ويشعر أنه ليس في أفضل حالاته تلك الليلة. كان الوجود مع إيما يتطلّب مستوى معيناً من السلوك، ولم

يكن على ذلك المستوى دائماً. ألقى نظرة على إيما، ورأى شعرها ينسدل من مؤخر عنقها، وجلدها الأسمر حديثاً داكناً مقارنة بالملاءات البيضاء، وأمعن التفكير في مس كتفها والاعتذار لها.

تمتمت حين كان لا يزال بمقدورها أن تتكلم: «عمت مساء يا دكس».

ردَّ: «عمت مساء يا إم». لكنها كانت قد غفت آنذاك.

ثمانية أيام معاً، كما فكّر، ثمانية أيام كاملة. يمكن أن يحدث أي شيء تقريباً في ثمانية أيام.

القسم الثاني

1993-1995

أواخر العشرينيات

«أنفقنا أكبر مبلغ من المال يمكننا إنفاقه، ولم نحصل إلا على النزر اليسير الذي عقد الناس عزمهم على منحنا إياه. كنا دائماً بائسين بعض الشيء، ومعظم معرفتنا على الحال نفسها. انتشرت قصة غريبة بيننا؛ وهي أننا نمتّع أنفسنا على نحو متواصل، والحقيقة المكتومة أننا لم نفعل ذلك مطلقاً. وفقاً لما أظنّه، كانت حالنا في النهاية شائعة».

تشارلز ديكنز، توقعات كبيرة

الفصل السادس

كيمياء
الخميس 15 تموز 1993
الجزء الأول – قصة دكستر

بريكستون، إيرلز كورت وأوكسفوردشاير

في تلك الأيام، بدا أن الليل والصباح ينزعان إلى أن ينزَّ أحدهما في الآخر، وقد عفا الزمن على نظريتي قبل الظهر وبعد الظهر عتيقتَي الطراز، ودكستر يرى الفجر أكثر مما اعتاد سابقاً.

في الخامس عشر من تموز 1993، أشرقت الشمس عند 5:01 صباحاً، وراقبها دكستر من مؤخر سيارة الأجرة الصغيرة المتهالكة في طريق عودته إلى منزله من شقة غريب في بريكستون. لم يكن غريباً بالضبط، وإنما كان صديقاً جديداً تماماً، وواحداً من أشخاص كثيرين تعرّف بهم تلك الأيام؛ وهو مصمم غرافيك يدعى غيبس أو غيبسي، أم إنه ربما بيغسي، وصديقته تلك الفتاة المجنونة التي تدعى تارا، وهي شابة ضئيلة الحجم تشبه العصفور بجفنيها الذابلين الثقيلين وفمها القرمزي الكبير، والتي لا تتكلم كثيراً، وإنما تفضّل التواصل عبر التدليك.

التقى تارا أولاً، بعد الثانية صباحاً بقليل، في النادي الليلي تحت أقواس السكة الحديدية. كان قد لاحظها طوال الليل على حلبة الرقص وهي ترسم ابتسامة واسعة على وجهها الجميل المرح حين تظهر فجأة خلف غرباء، وتبدأ بفرك أكتافهم أو ظهورهم. أخيراً، حان دون دكستر، فأومأ، وابتسم، وانتظر فجر الإدراك البطيء. عبست الفتاة بكل تأكيد تقريباً، ورفعت أصابعها إلى أرنبة أنفه، وقالت ما يقوله الجميع آنذاك، وهو:

«أنت مشهور!».

صرخ بصوتٍ يعلو على الموسيقى، وهو يمسك يديها النحيلتين الصغيرتين بيديه، ويرفعهما إلى الجانب؛ كأن ذلك نوعٌ من لم الشمل الرائع: «من أنتِ إذاً؟».

«أنا تارا!».

«تارا! تارا! أهلاً يا تارا!».

«هل أنت مشهور؟ لماذا أنت مشهور؟ أخبرني».

«أظهر على التلفاز. أعمل في برنامج تلفازي يدعى كبّره. أُجري مقابلات مع نجوم بوب».

صرخت مبتهجة: «عرفت ذلك! أنت مشهور!». ومدّت نفسها لتقف على أطراف أصابعها وقبّلت وجنته، وفعلت ذلك على نحو لطيف جداً جعله يتأثر ويصرخ بصوت أعلى من الموسيقى: «أنتِ لطيفة يا تارا!».

صرخت: «أنا لطيفة! أنا لطيفة، لكنني لست مشهورة».

صرخ دكستر، ويداه على خصرها: «لكن، يجب أن تكوني مشهورة! أظن أن الجميع يجب أن يكونوا مشاهير!».

كانت الملحوظة من دون تفكير أو معنى، لكن بدا أنها تؤثر في تارا؛ لأنها قالت «آآآآآه»، ووقفت على أطراف أصابع قدميها، ووضعت رأسها الفاتن الصغير على كتفه. صرخت في أذنه: «أظن أنك لطيف جداً». لم يعترض، وقال: «أنت لطيفة أيضاً». ووجدا نفسيهما عالقين في حلقة «أنت لطيف» التي يمكن أن تستمر إلى الأبد. كانا يرقصان معاً آنذاك، ويقبّلان وجنتي بعضهما، ويبتسمان لبعضهما. ومرة أخرى تفاجأ دكستر بمدى سهولة إجراء حوار حين لا يكون هناك شخص في الذهن. في سالف الزمان، عندما لم يكن لدى الناس إلا الشراب ليلجأوا إليه، كان التكلم إلى فتاة يتطلّب كل أنواع التواصل البصري: شراء شراب، ساعات من الاستجواب الرسمي عن كتب وأفلام وشركاء وأقرباء. لكن، في هذه الأيام، أضحى الانتقال فوراً - تقريباً - من «ما اسمك؟» إلى «أريني وشمك» مثلاً، أو «ما نوع الثياب التي ترتدينها؟» ممكناً؛ وهذا من دون أدنى شك تقدّم كبير.

صرخ حين دفعت ردفيها على فخذيه: «أنت لطيفة! أنت ضئيلة جداً مثل عصفور!».

صرخت من فوق كتفها، وثنت عضلة ذراعٍ بحجم ثمرة مندرين: «لكنني قوية مثل ثور». كانت عضلة صغيرة رائعة فتحرك وقبّلها. «أنتَ لطيف، لطيف جداً».

قال بسرعة: «أنت لطيفة أيضاً». وفكّر: يا إلهي، هذا جيد على نحو لا يُصدّق حقاً، تبادل أطراف هذا الحديث، إنه أمر جيدٌ جداً. إنها ضئيلة وأنيقة جداً، تذكّره بنمنمة صغيرة، لكنه لم يستطع استدعاء كلمة «نمنمة»، لذا أمسك بيديها، وشدّها نحوه، ثم صرخ في أذنها: «ما اسم الطائر الصغير الذي يمكن وضعه في علبة ثقاب؟».

«ماذا؟».

«عصفور تضعينه في علبة ثقاب، يمكن أن تُدخليه في علبة ثقاب، عصفور صغير

مثلك، عصفور صغير لا أتذكر اسمه». باعد بين سبابته وإبهامه بوصة. «عصفور صغير يشبهك».

وأومأت، إما موافقة أو للموسيقى، وجفناها الثقيلان يرتعشان، وبؤبؤاها متسعان، ومُقلتاها منقلبتان إلى الخلف في رأسها مثل تلك الدمى التي اعتادت شقيقته امتلاكها. نسي دكستر ما كان يتكلم عنه، ولم يعد قادراً على فهم ما يحدث. ولذا، عندما أمسكت تارا يديه وضغطت عليهما أخبرته مرة أخرى أنه لطيف حقاً، ويجب أن يأتي ويلتقي أصدقاءها؛ لأنهم لطفاء أيضاً؛ ولم يمانع.

نظر حوله بحثاً عن كالوم أونيل، زميله القديم في السكن من الجامعة، ورآه يشد معطفه إليه. كان كالوم سابقاً أكثر الرجال كسلاً في أدنبره، لكنه أضحى رجل أعمال ناجحاً آنذاك؛ رجلاً ضخماً يرتدي بزّات غالية الثمن، وثرياً من تجديد الحواسيب. لكن، مع النجاح تأتي بعض الرصانة؛ لا ممنوعات، ولا إسراف في تناول الشراب في ليالي الأسبوع. بدا غير مرتاح هناك، ويجلس متكلّفاً، فذهب دكستر إليه وأمسك كلتا يديه.

«إلى أين أنت ذاهب يا زميل؟».

«المنزل! إنها الثانية صباحاً، ولدي عمل أنجزه».

«تعال معي، أريدك أن تقابل تارا!».

«هل تعرف ما أنت عليه؟ أنت شخص ضئيل الشأن!».

«وأنت صفيق! امضِ قدماً، افعل ما يجب أن تفعله، سأتصل بك غداً».

عانق دكستر كالوم، وأخبره أنه رائع جداً، لكن تارا كانت تشد يده مرة أخرى، وهكذا استدار وسمح لنفسه أن يُقاد عبر الحشد نحو إحدى الغرف الجانبية.

كان النادي مُكلفاً وعالي المستوى كما يُفترض، رغم أن دكستر نادراً ما دفع من أجل أي شيء تلك الأيام. والمكان هادئ قليلاً أيضاً في ليلة خميس، لكن على الأقل ليس هناك أيٌّ من الموسيقى الصاخبة المروّعة، أو الفتيان المخيفين النحيلين حليقي الرؤوس الذين ينزعون قمصانهم وينظرون شزراً في وجهك وهم يكشفون عن أسنانهم، ويشدّون قبضاتهم. بدلاً من ذلك، هناك أساساً عدد كبير من أفراد الطبقة الوسطى اللطفاء والجذّابين في العشرين من عمرهم، أشخاص ينتمي إليهم، مثل أصدقاء تارا هناك، يسترخون على وسائد كبيرة، ويدخّنون ويتكلمون ويتناولون الطعام. التقى غيبسي، أم كان بيغسي، و«تاش اللطيف» وحبيبته ستو ستيبوت، وسبكس التي تضع نظارة وحبيبها مارك الذي يبدو -

على نحو مخيب للآمال – أنه يدعى مارك فحسب. وكلهم قدّموا له علكة وماء ومارلبورو لايت. يُبدي الناس اهتماماً كبيراً بالصداقة، لكن الأمر يبدو حقاً سهلاً على نحو لا يُصدّق هناك، وسرعان ما تخيل الجميع يتسكّعون معاً، ويخرجون في عطلات في سيارة مزوّدة بأسرّة، ويقيمون حفلات شواء على الشاطئ عند مغيب الشمس. بدا أنه يعجبهم أيضاً، فسألوه عن العمل في التلفاز، وعن الأشخاص المشهورين الآخرين الذين التقاهم، وأخبرهم بعض الأقاويل المثيرة؛ كل ذلك وتارا تجثم خلفه، وتدلّك عنقه وكتفيه بأصابعها الصغيرة النحيلة، ما جعل رعشات خفيفة من الابتهاج تسري في جسده حتى أطبق الصمت فجأة من دون سبب ظاهر، ربما خمس ثوان من الصمت، لكنه وقت طويل كفاية جعله يُصاب بالدهشة، وتذكّر ما يجب أن يفعله غداً. لا، ليس غداً، بل اليوم. آه يا إلهي، في وقت لاحق من اليوم! وشعر بأولى رعشات الألم والرهبة تلك الليلة.

لكن لا بأس بذلك؛ لأن تارا تقول دعونا نذهب ونرقص قبل أن تنتهي الليلة، وهكذا ذهبوا جميعاً ووقفوا في الملهى بين أقواس السكة الحديدية في مجموعة كبيرة قبالة مهندس الصوت والأضواء، ورقصوا لبعض الوقت في المكان، وهم يتبسمون ويومئون وينظرون إلى بعضهم بتجهم، مقطّبي الوجوه. لكن الإيماءات والابتسامات كانت أقل ابتهاجاً آنذاك، وتنبع من حاجتهم إلى تأكيد أنهم لا يزالون يستمتعون، وأن كل شيء ليس على وشك أن ينتهي. تساءل دكستر إن كان يجب أن ينزع قميصه، فذلك نافع أحياناً، لكن اللحظة انقضت. صرخ شخص قريب «مقطوعة موسيقية» بفتور، لكن لم يقتنع أحد، ولم تكن هناك ألحان جديدة. اقترب العدو – الوعي الذاتي – ببطءٍ منهم، وكان غيبسي أو بيغسي أول من انهار وأعلن أن الموسيقى سيئة، ثم توقف الجميع عن الرقص فوراً؛ وكأن تعويذة قد أُلقيت.

عندما توجه نحو المخرج تخيل دكستر رحلة العودة إلى المنزل: الحشد المرعب من سائقي سيارات الأجرة الذي سيكون خارج النادي، والخوف غير المنطقي من تعرضه للقتل، والشقة الفارغة في متنزه بلسايز، وساعات من الأرق وهو يغسل الأواني ويعيد ترتيب أسطوانات الفونوغراف حتى يتوقف الألم في رأسه ويخلد إلى النوم ويستعد لمواجهة اليوم، ومرة أخرى شعر بنوبة ألم. كان يحتاج إلى الصُحبة، ونظر حوله بحثاً عن هاتف عمومي. سيتوثق إن كان كالوم لا يزال مستيقظاً، لكن رفقة الرجال لا تنفعه الآن. يمكن أن يتصل بنعومي، لكنها ستكون مع حبيبها، أو يولاند لكنها تصوّر فيلماً في برشلونة، أو أنغريد

المخيفة لكنها قالت إنها إذا رأته مجدداً فستمزّق قلبه إلى قطع، أو إيما، نعم إيما، لا ليس إيما، ليس في هذه الحال، فهي لا تفهم ما يحدث، ولن توافق على ذلك. وإيما هي أكثر شخص يرغب برؤيته. لماذا ليست معه الليلة؟ كانت لديه كل تلك الأسئلة التي يريد أن يطرحها عليها، مثل: لماذا لم يؤسسا علاقة معاً؟ فهما سيكونان رائعين معاً، سيكونان فريقاً، ثنائيًّا، دكس وإم، إم ودكس، والجميع يقول هذا. أُصيب بالدهشة من نوبة الحب المفاجئة تلك التي يشعر بها نحو إيما، وقرّر أن يستقل سيارة أجرة إلى إيرلز كورت ويخبرها كم هي رائعة، وكم يحبّها حقاً، وكم ستبدو مثيرة إن عرفت ذلك، ولماذا لا تفعل ذلك لترى فقط ما يحدث؟ وإذا لم يُجدِ أيٌّ من ذلك نفعاً، فحتى إذا جلسا فقط وتحدثا، على الأقل سيكون ذلك أفضل من بقائه وحيداً هذه الليلة. مهما حدث، يجب ألاّ يبقى وحيداً.

كان الهاتف في يده - الحمد لله - حين اقترح بيغسي أو غيبسي أن يذهبوا جميعاً إلى منزله الذي لا يبعد كثيراً، وهكذا خرجوا من النادي سالمين في مجموعة يشقون طريقهم إلى زقاق كولدهاربور.

كانت الشقة مساحة كبيرة فوق ملهى قديم؛ وهي عبارة عن مطبخ وغرفة معيشة وغرفة نوم وحمّام مصمّمة كلها من دون جدران. والإشارة الوحيدة على الخصوصية هي ستارة الحمّام نصف الشفافة التي تحيط بالمرحاض. عندما شُغل بيغسي بأوراقه ذهب الآخرون وتكدّسوا في كومة واحدة على السرير الضخم عالي القوائم، المغطّى بجلود نمور أكريليكية وملاءات اصطناعية تركيبية سوداء. كانت هناك مرآة فوق السرير، وحدّقوا إلى الأعلى إليها عبر جفون ثقيلة، مُعجبين بأنفسهم في أثناء استلقائهم في الأسفل، ورؤوسهم ترتاح في أحضان بعضهم، وأيادٍ تبحث في المكان عن أيادٍ أخرى، وهم يصغون إلى الموسيقى. كلهم يافعون وأذكياء، وجذّابون وناجحون. تخطر أفكار في أذهانهم، وكلهم يفكّرون كم يبدون رائعين، وأي أصدقاء جيدين سيكونون منذ ذلك الوقت فصاعداً. سيخرجون في نزهات إلى البراح، ويقضون أيام أحد طويلة متكاسلين في الملهى، ودكستر يستمتع بوقته مرة أخرى. قال شخص إلى آخر: «أظن أنك رائع». لكن لم يكن مهماً من هو؛ لأنهم جميعاً رائعون حقاً؛ الناس رائعون.

انقضت ساعات من دون أن يلاحظ أحد ذلك، وأحدهم يتكلم عن الجنس آنذاك، وهم يتنافسون للبوح بأسرار شخصية سيندمون عليها في الصباح. هناك أشخاص يتبادلون

القبل، وتارا لا تزال تدلك عنقه، وتجسُّ أعلى عموده الفقري بأصابعها الصغيرة القاسية، لكن أثر كل الممنوعات قد زال آنذاك، وما كان تدليكاً يجعل المرء يسترخي أضحى سلسلة من النخزات والوكزات. وعندما رفع بصره إلى وجه تارا الفاتن بدا فجأة بشعاً ومخيفاً: الفم واسع جداً، العينان مدوّرتان؛ مثل نوعٍ من الثدييات الصغيرة عديمة الشعر. لاحظ أيضاً أنها أكبر سناً مما ظن - يا إلهي، لا بدَّ أنها في الثامنة والثلاثين - وأن هناك نوعاً من المعجون الأبيض بين أسنانها، مثل الجص، ولم يعد بوسع دكستر أن يمنع شعوراً بالرعب من اليوم الآتي من الزحف على عموده الفقري، وبدأ الفزع والخوف والخجل تظهر كعرق كيميائي دبق. جلس فجأة وهو يرتعش، وحرّك كلتا يديه ببطء إلى أسفل وجهه؛ وكأنه يمسح شيئاً مادياً.

بدأ الضوء يبزغ، والشحارير تزقزق في زقاق كولدهاربور، وقد انتابه شعور قوي جداً حتى إنه يبدو هذياناً تقريباً، إنه خاوٍ تماماً؛ فارغ. كانت تارا المدلّكة قد أحدثت عقدة توتر كبيرة بين كتفيه، والموسيقى قد توقفت، وشخص على السرير يطلب شاياً، والجميع يريد شاياً، شاياً، شاياً. لذا حرّر دكستر نفسه، وذهب إلى الثلاجة الضخمة - من النموذج نفسه الذي يمتلكه - الكبيرة والاصطناعية مثل شيء تجده في مختبر وراثي. فتح الباب وحدّق إلى الداخل ببلاهة، ورأى سلطة تتعفّن في كيسها، والبلاستيك منتفخ وعلى وشك أن ينفجر. اضطربت عيناه في محجريهما؛ الأمر الذي جعل رؤيته مشوشة مرة أخرى. وعندما صَفَت مجدداً رأى قارورة من الشراب الذي يستخدم في البلدان شديدة البرودة. توارى خلف باب الثلاجة وشرب بوصتين، ثم تناول جرعة كبيرة من عصير التفاح أزّت على نحو بغيض على لسانه. وجِل، وابتلع السائل، فحمل العلكة معه. طلب أحدهم شاياً مجدداً. عثر على علبة حليب، حملها بيده، وخطرت له فكرة.

صرخ: «ليس هناك حليب!».

صرخ غيبسي أو بيغسي: «يجب أن يكون موجوداً».

«لا. إنها فارغة. سأذهب وأجلب بعضاً منه». أعاد العلبة الكاملة المغلقة إلى الثلاجة. «سأعود بعد خمس دقائق. هل يريد أحد شيئاً؟ سيغيز؟ علكة؟». لم يسمع رداً من أصدقائه الجدد، لذا غادر بهدوء، ثم نزل على السلالم وخرج إلى الشارع مندفعاً عبر الباب؛ وكأنه يخرج طالباً الهواء، ثم انطلق يركض، وهو لا يرغب أبداً أن يرى أياً من أولئك الأشخاص المدهشين مجدداً.

وجد عند ناصية إلكتريك مكتب سيارات أجرة. في تموز 1993 أشرقت الشمس عند 5:01 صباحاً، وشعر دكستر ميهو آنذاك أنه في الجحيم.

تأكل إيما مورلي جيداً وتشرب باعتدال. تخلد هذه الأيام إلى النوم ثماني ساعات هانئة، ثم تستيقظ فجأة بكامل وعيها قبل السادسة والنصف تماماً وتشرب كأس ماء كبيرة؛ أول 250 مل من 1.5 لتر يومياً، تسكبها من إبريق زجاجي جديد تماماً يقف في شعاع شمس الصباح بجانب سريرها المزدوج الدافئ والنظيف. إبريق؛ تمتلك إبريقاً. كانت بالكاد تصدّق أن ذلك صحيح.

تمتلك أثاثاً أيضاً. بعمر السابعة والعشرين لم تعد صغيرة جداً لتعيش حياة طالبة، وتمتلك الآن سريراً ضخماً من الحديد المشغول اشترته في أثناء فترة التخفيضات الصيفية من متجر للبضائع استعمارية الطراز في شارع توتنهام كورت. يوصف السرير بأنه «تاهيتي»، ويشغل غرفة النوم كلها في شقتها في شارع إيرلز كورت. اللحاف من ريش الإوز، والملاءات من القطن المصري الذي يعد - كما أبلغتها البائعة - أفضل قطن عرفه الإنسان، وكل هذا يشير إلى حقبة جديدة من النظام والاستقلالية والرشد. في صباح أيام الأحد تتمدد وحيدة على التاهيتي وكأنه طوف، وتصغي إلى بروغي وبس ومازي ستار، توم ويتس العجوز وألبوم أسطوانات فونوغراف عتيق لموسيقى الكمان من تأليف باخ. تشرب أكواباً من القهوة، وتكتب ملحوظات وأفكاراً صغيرة لتأليف قصص بأفضل قلم حبر لديها على صفحات بيضاء من دفاتر غالية الثمن. أحياناً، عندما تسوء الأمور، تتساءل إن كان ما تظنه حباً للكلمة المكتوبة هو في الواقع مجرد ولع بالقرطاسية. سيخربش الكاتب الحقيقي، المؤلف بالفطرة، كلمات على نُثار أوراق، وخلفيات تذاكر حافلة، وعلى جدار زنزانة. لا تستطيع إيما أن تبدع في مثل تلك الظروف.

لكن في أحيانٍ أخرى، تجد نفسها تكتب بسعادة ساعات؛ وكأن الكلمات موجودة هناك منذ وقت طويل، قانعة ووحيدة في شقة غرفة النوم الواحدة. لم تكن وحيدة تماماً، أو على الأقل ليس غالباً. فهي تخرج أربع ليالٍ في الأسبوع، ويمكنها الخروج أكثر إن رغبت بذلك. الصداقات القديمة تستمر، وهناك صداقات جديدة أيضاً مع طلاب زملاء لها في كلية تدريب المعلّمين. في نهاية الأسبوع، تستفيد إلى أقصى حد من مجلات الإعلانات؛ كل شيء باستثناء قسم النوادي، الذي ربما يُكتب عنه نص طويل يتناول كل كلامه الحشود التي تنتظر أمامه. قالت في قرارة نفسها إنها لن ترقص أبداً بصدريتها فقط في غرفة

مملوءة رغوة. بدلاً من ذلك، زارت دوراً وقاعات عرض مستقلة مع أصدقاء، وأحياناً كانوا يستأجرون كوخاً ويخرجون في نزهات حماسية إلى الريف، ويتظاهرون أنهم يعيشون هناك. يخبرها الناس أنها تبدو في حال أفضل، وأكثر ثقة بنفسها. لقد تخلّت عن ارتداء الملابس المخملية، وأقلعت عن لفائف التبغ، وألغت قوائم طلبات الوجبات الخارجية، وهي تفكّر لأوّل مرة في حياتها في الاستثمار في صناعة الأدب.

طقطقت ساعة المذياع، وسمحت لنفسها بالاستلقاء على السرير والإصغاء إلى عناوين الأخبار. جون سميث في نزاع مع النقابات، وشعرت بالأسى لأنها تحب جون سميث الذي يبدو الشخص المناسب بإدارته وحكمته، حتى إنّ اسمه يشير إلى رجل الشعب صاحب المبادئ الثابتة، وذكّرت نفسها مرة أخرى بالتفكير في احتمال الانضمام إلى حزب العمل؛ ربما سيخفف من تأنيب ضميرها الآن أن عضويتها في مجموعة «نزع السلاح النووي» قد انتهت. لا يعني هذا أنها لا تتعاطف مع أهدافهم، لكن المطالبة بنزع السلاح الشامل قد بدأت تبدو ساذجة قليلاً؛ مثل المطالبة بلطف عالمي.

بعمر السابعة والعشرين، تتساءل إيما إن كانت تتقدم في العمر. اعتادت أن تتباهى بنفسها بسبب رفضها رؤية طرفين في أي جدال، لكنها تقبل على نحو متزايد أن هناك قضايا أكثر غموضاً وتعقيداً مما تظن. بالتأكيد إنها لا تفهم الموضوعين الآتيين: معاهدة ماستريخت، والحرب في يوغسلافيا. ألا يجب أن تكوّن رأياً، وتنحاز إلى طرف، وتقاطع شيئاً؟ على الأقل يعرف المرء أين يقف في ما يتعلق بسياسة التمييز العنصري. الآن، هناك حرب في أوروبا، ولم تفعل شخصياً شيئاً قط لإيقافها، فهي مشغولة جداً بتسوق الأثاث. شعرت بالقلق، ورمت لحافها الجديد جانباً، وانسلّت إلى الممر صغير المساحةِ بين جانب السرير والجدار، وتحرّكت جانبياً إلى الردهة ومنها إلى الحمّام الصغير، ولم تكن مضطرة إلى الانتظار مطلقاً؛ لأنها تعيش وحيدة. رمت قميصها التائي في سلة الغسيل المصنوعة من أغصان صفصاف - مقدار كبير من الصفصاف في حياتها منذ تلك التخفيضات الصيفية المشؤومة في طريق توتنهام كورت - ووضعت نظارتها القديمة جانباً، ووقفت عارية أمام المرآة، كتفاها متراجعتان إلى الخلف. قد يكون الحال أسوأ، كما فكّرت، وانتقلت إلى تحت المرش.

تناولت الفطور وهي تنظر إلى خارج النافذة. تقع الشقة في الطابق السادس في بناء سكني مبني من الآجر الأحمر، والمنظر أمامها لمبنى سكني مماثل من الآجر الأحمر. إنها لا

تهتم لمنطقة إيرلز كورت على وجه الخصوص، فهي كئيبة ومؤقتة، والأمر شبيه بالعيش في غرفة لندن الإضافية. بدا استئجار شقة لها بمفردها ضرباً من الجنون أيضاً، وربما عليها أن تنتقل إلى مكان أرخص حين تحظى بأول وظيفة لها في التعليم، لكنها حالياً تحب المكان هنا، وهو بعيد جداً عن لوكو كالينت والواقعية الاجتماعية لغرفة الصندوق في كلايتون. تحرّرت من تيلي كيليك بعد ست سنوات أمضتاها معاً، وتحب أن تعرف أنها لن تجد ثياباً داخلية عالقة داخل بالوعة المطبخ، أو علامات أسنان في جبن الشيدر.

لأنها لم تعد خجلة من طريقة عيشها، سمحت لوالديها بزيارتها؛ شَغَل جيم وسو سرير التاهيتي، في حين نامت إيما على الأريكة. طوال ثلاثة أيام كاملة علّقا باستمرار على مزيج لندن العرقي وكلفة كوبٍ من الشاي. وعلى الرغم من أنهما لم يعبّرا في الواقع عن موافقتهما على نمط حياتها الجديد، إلا أن والدتها على الأقل لم تعد تقترح عليها أن تعود إلى ليدز لتعمل مع مجلس الغاز. كان والدها قد همس لها حين رأتهما على متن القطار في كنغ كروس: «أحسنتِ صنعاً إيمي». لكن، أحسنت صنعاً بماذا؟ ربما لأنها تعيش بوصفها راشدة أخيراً.

طبعاً ليس هناك حبيب، لكنها لا تمانع. أحياناً، نادراً، لنقل عند الساعة الرابعة من بعد الظهر من يوم أحد ماطر، تشعر بالذعر وتنقطع أنفاسها تقريباً من الوحدة. مرة أو اثنتين كانت قد رفعت سمّاعة الهاتف لتتوثق من أنه ليس معطلاً. أحياناً تظن أنه سيكون لطيفاً أن تستيقظ بسبب مكالمة في الليل: «استقلي سيارة أجرة الآن»، أو «أريد رؤيتك الآن، يجب أن نتكلم». لكن، في أفضل الأوقات تشعر بأنها مثل شخصية في رواية موريل سبارك: مستقلة، ومولعة بالكتب، وحادة الذكاء، ورومانسية سراً. بعمر السابعة والعشرين، تحمل إيما موريلي إجازتين في الإنكليزية والتاريخ، وتملك سريراً جديداً، وتشغل شقة من غرفتين في إيرزل كورت، ولديها أصدقاء رائعون كُثر، وشهادة في التعليم. إذا جرت المقابلة جيداً اليوم فستحظى بوظيفة لتعليم الإنكليزية والمسرح اللذين تعرفهما وتحبهما. إنها على وشك بدء مهنة جديدة على أنها معلّمة ملهمة وأخيراً. في نهاية المطاف، تنعم حياتها ببعض النظام.

أمامها موعد أيضاً.

لدى إيما موعد مناسب ورسمي. ستجلس في مطعم مع رجل وتراقبه وهو يأكل ويتكلم. يريد أحدهم أن يتسلق التاهيتي، وستقرّر الليلة إن كانت ستسمح له بذلك. وقفت بجانب

محمصة الخبز وهي تقطّع موزة - أول سبع حصص من الفاكهة والخضار اليوم - وتحدّق إلى التقويم؛ الخامس عشر من تموز 1993، علامة استفهام، وعلامة تعجّب. الموعد يلوح في الأفق.

سرير دكستر مستورد، إيطالي، ذو إطار أسود منخفض، مكشوف، موجود في منتصف الغرفة الكبيرة الفارغة مثل منصة أو حلبة مصارعة، ويخدم في تأدية كلتا الوظيفتين أحياناً. يستلقي هناك مستيقظاً وفزعاً عند 9:30، يشعر بمزيج من الاشمئزاز من الذات والإحباط. لقد توتر كثيراً وهناك طعم بغيض في فمه؛ وكأن لسانه مطلي برذاذ شعر. فجأة، نهض عن السرير، ومشى على ألواح الأرضية الخشبية اللامعة جداً إلى المطبخ السويدي. وجد هناك، في حجيرة المجمّدة في ثلاجته الاصطناعية الكبيرة، قارورة من الشراب الذي يستخدم في البلدان شديدة البرودة، فسكب بوصة منها في كأسه، ثم أضاف الكمية نفسها من عصير البرتقال. طمأن نفسه بفكرة أنه لم يخلد إلى النوم بعد، وأن هذا ليس أول شراب في اليوم، لكنه آخر شراب في الليلة الماضية. إضافة إلى ذلك، تحريم احتساء الشراب في أثناء النهار مبالغ فيه، وهم يفعلون ذلك في أوروبا. الخدعة هي أن تستفيد من انتعاش الشراب لإبطال مفعول الممنوعات، وهو يفعل ذلك ليبقى صاحياً، وعندما يفكر المرء في ذلك يبدو في الواقع منطقياً تماماً. متشجعاً بمنطقه، سكب بوصة ونصف بوصة أخرى من الشراب، وشغّل مقطوعة كلاب المستودع الموسيقية ومشى مختالاً إلى الحمّام.

انقضت نصف ساعة وهو لا يزال في الحمّام، متسائلاً عمّا يمكن أن يفعله لإيقاف التعرّق. كان قد غيّر قميصه مرتين، واستحم بماء بارد، لكن العرق لا يزال يسيل على ظهره وجبينه، زيتياً ولزجاً مثل الشراب الذي يستخدم في البلدان شديدة البرودة؛ وهو ما قد يكون عليه حقاً. نظر إلى ساعته، وأدرك أنه تأخر. قرّر أن يحاول قيادة السيارة والنوافذ مفتوحة.

توجد رزمة بحجم قطعة آجر بجانب الباب حتى لا ينساها، مغلّفة عمداً بطبقات من ورق رقيق مختلف الألوان. حملها، وأوصد باب الشقة، وخرج إلى الجادة التي تكثر فيها النباتات حيث تنتظره السيارة؛ مازدا أم - آر - 2 سقفها قابل للطي وخضراء فاتحة، لا مساحة فيها للركاب، أو حمّالة حقائب على السقف؛ فراغ صغير يتسع بالكاد لإطار إضافي، فضلاً عن عربة أطفال، وهي مركبة تصرخ بالشباب والنجاح والعزوبية. يوجد في الصندوق مشغّل أقراص مدمجة مخفيّ؛ أُعجوبة مستقبلية من قطع صغيرة وبلاستيك أسود

باهت. اختار خمس أسطوانات مضغوطة (مجانية من شركات التسجيل، وهي ميزة أخرى للوظيفة)، ووضع الأقراص اللامعة في العلبة؛ وكأنه يذخّر مسدساً برصاصات.

يصغي إلى كرانبيريز حين ينطلق على الشوارع السكنية العريضة في غابة سان جون. لم تكن مفضّلة لديه، لكن من المهم حقاً الاستماع إلى أحدث الفِرق حين تحكم على أذواق الناس في الموسيقى. كانت الطريق الغربية قد أضحت سالكة في ازدحام حركة السير، وقبل أن ينتهي الألبوم وصل إلى أم 40، واتجه غرباً عبر عقارات الصناعات الخفيفة ومشروعات التطوير السكني في المدينة التي يعيش فيها محققاً نجاحاً كبيراً. قبل انقضاء وقت طويل أفسحت الضواحي مجالاً لمزارع أشجار الصنوبر التي تبدو مثل ريف. كان عزفُ جاميروكوي يصدح من المسجّل ويشعره بأنه أفضل حالاً؛ فهو مستهتر وخليع وطائش في سيارته الرياضية الصغيرة، وقلق قليلاً فقط الآن. رفع الصوت. كان قد التقى المغني الرئيس في الفرقة، وقابله عدّة مرات، وعلى الرغم من أنه لن يمضي بعيداً ويعدّه صديقاً، إلا أنه يعرف الرجل الذي يعزف موسيقى الكونغا جيداً، ويشعر بصِلة شخصية ما حين يغنون عن الحاجة الملحّة على كوكب الأرض. إنه مزيج معقّد جداً ذاك الذي يجعل الزمان والمكان يتصفان بخاصية المرونة حين ينطلق دكستر بسرعة وقتاً يبدو أنه ساعات عديدة حتى تصبح رؤيته مشوشة ويهتز بقوة مرة أخيرة، ويدرك أن ذلك من بقايا ممنوعات الليلة الماضية في عروقه، ويصدح بوق فيُدرِك أنه يقود سيارته بسرعة 112 ميلاً في الساعة وسط مسربين.

خفف سرعته، وحاول إعادة السيارة إلى المسلك الأوسط، لكنه اكتشف أنه قد نسي كيف يقود، وتيبّست ذراعاه عند المرفقين حين حاول انتزاع المقود من قوة خفية تمسك به. فجأة، انخفضت سرعة دكستر إلى ثمانيةٍ وخمسين ميلاً في الساعة، قدمه على المكابح ودوّاسة السرعة في الوقت نفسه. سمع بوقاً آخر من شاحنة بحجم منزل قد ظهرت خلفه، واستطاع رؤية وجه السائق المتجهم في المرآة الداخلية: رجل ضخم ملتحٍ في ظلال سوداء معكوسة يصرخ عليه، وفي وجهه ثلاثة ثقوب سوداء، مثل جمجمة. أدارٍ دكستر المقود مرة أخرى من دون حتى أن يتحقق مما يوجد على المسلك البطيء، وأضحى واثقاً فجأة أنه سيموت، هنا والآن، في كرة نار مستعرة وهو يصغي إلى موسيقى جاميروكوي. لكن المسلك البطيء خالٍ، الحمد لله، وتنفس بقوة عبر فمه، مرة واثنتين وثلاثاً، مثل ملاكم. ضغط المفتاح فأوقف الموسيقى، وقاد بصمت بسرعة ثابتة تبلغ ثمانية وستين ميلاً حتى

وصل إلى المخرج المنشود.

مرهقاً، وجد فسحة توقّف على طريق أوكسفورد، فأعاد كرسيه إلى الخلف، وأغمض عينيه على أمل أن ينام، لكنه لم يستطع إلا أن يرى الثقوب الثلاثة السوداء لسائق الشاحنة الذي كان يصرخ عليه. في الخارج، كانت الشمس ساطعة جداً، وضوضاء حركة السير عالية جداً، وإضافة إلى ذلك هناك شيء كريه ويدعو إلى الأسى في هذا الشاب القلق الذي يتلوّى في سيارة متوقفة عند الحادية عشرة وخمس وأربعين دقيقة في صباح صيفي، لذا جلس منتصباً، وأطلق شتيمة، وانطلق حتى عثر على مقهى يعرفه من سنوات مراهقته. «البجعة البيضاء»، مطعم صغير يقدّم كل يوم فطوراً وشرائح لحم ورقائق بطاطا رخيصة جداً. ركن السيارة، وحمل الحزمة المغلّفة بورق هدايا من مقعد الراكب، ودخل الغرفة الكبيرة المألوفة التي تفوح منها رائحة ملمّع الأثاث ولفائف تبغ الليلة الماضية.

مال دكستر قليلاً على المشرب، وطلب شراب شعير وكأس شراب من الأنواع التي تستعمل في الدول شديدة البرودة مع شراب غازي فوّار. تذكّر بداية الثمانينيات حين اعتاد أن يشرب هنا مع زملائه. قال دكستر، هذراً: «اعتدت المجيء إلى هنا قبل سنوات». رد الرجل الهزيل المكتئب: «هل هذا صحيح؟». لم يقل الساقي إن كان قد عرفه. أمسك دكستر كأساً في كل يد، ثم مشى إلى الطاولة وشرب بصمت، والحزمة المغلّفة بورق الهدايا أمامه؛ رزمة صغيرة من المرح في غرفة كئيبة. نظر حوله وفكّر في ما فعله في السنوات العشر الأخيرة، وكل ما حققه؛ مقدّم تلفازي معروف، ولم يبلغ التاسعة والعشرين بعد.

أحياناً يظن أن القوى العلاجية للكحول تقترب من حدود الأعجوبة؛ لأنه خرج بعد عشر دقائق برشاقة إلى السيارة وأصغى إلى الموسيقى مجدداً، وصدحت بيلوفد فأشاعت جواً من المرح، وبعد عشر دقائق وصل إلى الممر المفروش بالحصى المؤدي إلى منزل والديه، وهو مبنى منعزل من العشرينيات، واجهته مكسوة بألواح خشبية رقيقة لجعله يبدو أقدم ومتهالكاً أكثر مما هو عليه حقاً. إنه منزل أسرة سعيدة ميسورة الحال في تشيلترنز، لكن دكستر نظر إليه برهبة.

كان والده يقف في المدخل؛ وكأنه هناك منذ سنوات. إنه يرتدي ملابس كثيرة في تموز؛ طرف قميص يخرج من تحت كنزته، وكوب شاي في يده. كان دكستر سابقاً يراه عملاقاً، لكنه يبدو الآن منحني الظهر ومتعباً، ووجهه الطويل شاحب ومرهق ومتغضن من الشهور الستة التي تدهورت فيها حال زوجته. رفع كوبه محيياً، ورأى نفسه للحظة في عيني والده،

ووجل خجلاً من قميصه اللامع، والطريقة الأنيقة التي يقود بها سيارته الرياضية الصغيرة، والضوضاء العالية التي أحدثتها حين تباطأت حتى توقفت على الممر، والموسيقى الصاخبة من المسجّل.

اِهدأ.

أحمق.

تريّث.

أبله.

أحسن التصرّف أيها المهرّج الصغير المبهرج.

ضغط زرّ مشغل الأقراص المدمجة فأطفأه، رفع اللفافة عن لوحة القيادة، ثم حدّق إليها في يده. اهدأ، هذه تشيلرنز، وليست ستوكويل. والدك لن يسرق مسجّلك. اهدأ فحسب. في المدخل، رفع والده كوبه مرة أخرى، وتنهّد دكستر، ثم حمل الهدية، واستجمع كل قوى تركيزه، ثم خرج من السيارة.

استهجن والده: «يا لها من مركبة سخيفة!».

«حسنٌ، لن تضطر إلى قيادتها، أليس كذلك؟». استمد دكستر الراحة من سهولة الروتين القديم؛ والده صارم ومتجهم، والابن لا يتحمّل مسؤولية ومعتدٌّ بنفسه.

«لا تظن أنني سأجلس فيها بأي حال؛ دمى للفتيان. كنا نتوقع مجيئك منذ بعض الوقت».

قال دكستر، وقد انتابه شعور عاطفي مفاجئ تجاه والده المسن العزيز: «كيف حالك أيها العجوز؟». وعقد تلقائياً ذراعيه خلف ظهر والده، فركه ثم قبّل وجنة أبيه متألماً. تجمّدا.

لقد تطوّرت لدى دكستر بطريقة ما ردة فعل على القبلة، وقد أطلق صوت «موا» في أذن والده المغطاة بالشعر. يظن جزء غير واعٍ منه أنه عاد إلى أسفل أقواس السكة الحديدية مع غيبسي وتارا وسبكس، ويستطيع أن يشعر باللعاب والرطوبة على شفته، وأن يرى الدهشة على وجه والده الذي ينظر إلى الأسفل نحو ابنه، نظرة «العهد القديم». أبناء يقبّلون آباءهم؛ لقد حُطّم أحد قوانين الطبيعة. لم يدخل بعد عبر الباب الأمامي وقد تبعثر وهم الرصانة آنذاك. تنشّق والده؛ إما اشمئزازاً أو لأنه يشم رائحة أنفاس ابنه، ولم يعد دكستر واثقاً أيهما أسوأ.

«والدتك في الحديقة، وهي تنتظرك منذ الصباح».
سأل: «كيف حالها؟». ربما سيقول «أفضل كثيراً».
«اذهب وشاهد، سأضع المغلاة على النار».
الرواق مظلم وبارد بعد وهج الشمس. تدخل شقيقته الكبرى كيسي من الحديقة الخلفية وهي تحمل صينية بيديها، ووجهها متوهج تعقلاً وورعاً. بعمر الرابعة والثلاثين استقرّت على دور القيّمة الصارمة في مستشفى، وذلك يناسبها. نصف مبتسمة ونصف عابسة، مسّت بوجنتها وجنته. «عاد المبذّر!».
ذهن دكستر ليس مشوشاً كثيراً حتى لا يتمكّن من تعرّف الملحوظة الساخرة، لكنه تجاهلها وألقى نظرة إلى الصينية: وعاء من الحبوب البنية الرمادية الموضوعة في حليب، والملعقة إلى جانبه لم تُستخدم. سأل: «كيف حالها؟». ربما ستقول «تحسّنت كثيراً».
تقول كيسي: «اذهب واكتشف ذلك». يتجاوزها ويتساءل: لماذا لا يخبره أحد شيئاً عن حالها؟
نظر إليها من المدخل. كانت تجلس على كرسي عالي الظهر عتيق الطراز كان قد حُمل إلى الخارج لتواجه مشهد الحقول والغابة، وأكسفورد تبدو غارقة في ضباب رمادي في مكان بعيد. كان وجهها، من هذه الزاوية، محجوباً بقبعة كبيرة ونظارة شمسية – الضوء يؤذي عينيها هذه الأيام – لكنه عرف من الذراعين النحيلتين والطريقة التي تسترخي فيها يداها على ذراعي الكرسي المبطّنتين أنها قد تغيرت كثيراً في الأسابيع الثلاثة التي مضت منذ جاء لرؤيتها آخر مرة. شعر برغبة مفاجئة في البكاء، وأراد أن يتكوّر على نفسه مثل طفل ويشعر بها تضع ذراعيها حوله، وأراد أيضاً أن يهرب من هنا بأسرع ما يمكنه. لكن، لم يكن أيٌّ من هذا ممكناً، لذا بدلاً من ذلك نزل مسرعاً على الدرج، وهو يتظاهر بالمرح، مثل مضيف برنامج حواري.
«مرحباً!».
ابتسمت؛ وكأن الابتسامة نفسها قد أصبحت تتطلب جهداً كبيراً. انحنى تحت حافة قبعتها ليقبّلها، ووجد أن جلد وجنتها بارد ومنتفخ ولامع على نحو يبعث على القلق. رأى وشاحاً معقوداً أسفل قبعتها لإخفاء تساقط شعرها، لكنه حاول ألاّ يدقق النظر في وجهها عن قرب، ومدَّ يده بسرعة إلى كرسي حديقة معدني صدئ. مُحدثاً ضجيجاً، سحبه إليه ووجّهه نحو الخارج حتى أصبح كلاهما يواجهان المنظر، لكنه شعر بعينيها عليه.

قالت: «أنت تتعرّق».

«حسنٌ، إنه يوم حار». بدت غير مقتنعة؛ وكأن ذلك ليس جيداً كفاية. ركّز، وتذكّر إلى من تتكلم.

«أنت تعصر ماءً».

«إنه هذا القميص، قماش اصطناعي».

مدّت ذراعها نحوه ومسّت قميصه بقفا يدها. تغضن أنفها اشمئزازاً. «من أين؟».

«برادا».

«مكلف».

«الأفضل فحسب»، ثم أمسك بالحزمة من على الجدار الصخري؛ متشوقاً إلى تغيير الموضوع. «هدية لك».

«كم أنت لطيف!».

«ليست مني، وإنما من إيما».

«عرفت ذلك، من الغلاف». فكّت الشريط بحرص. «هداياك تأتي بأكياس بلاستيكية مغلقة بشريط».

«هذا ليس صحيحاً...». ابتسم، محاولاً إشاعة جوٍ من المرح.

«... عندما تأتي أصلاً».

وجد أن الاستمرار في الابتسام أمر صعب جداً. لكن، لحسن الحظ كانت عيناها على الحزمة حين تطوي الورق بحرص إلى الخلف لتكشف عن كومة من الكتب الورقية: إيدث وارتون، رايموند تشاندلر، إف، سكوت فيتزجرالد. «هذا لطف كبير منها. هلاّ شكرتها نيابة عني؛ إيما مورلي اللطيفة». نظرت إلى غلاف كتاب فيتزجرالد: «الجميلة واللعين. هذا أنا وأنت».

يقول من دون تفكير: «لكن، من الجميل ومن اللعين؟». لكن، لحسن الحظ لا يبدو أنها قد سمعت. بدلاً من ذلك، قرأت ما هو مكتوب على قفا البطاقة البريدية، قصاصة بالأبيض والأسود من 1982؛ «تاتشر تغادر!». ضحكت. «يا لها من فتاة لطيفة! إنها مضحكة جداً». أمسكت الرواية وقاست سماكتها بين سبابتها وإبهامها. «متفائلة قليلاً ربما. قد ترغب بلفت انتباهها إلى إرسال قصص قصيرة في المستقبل».

ابتسم دكستر وتنشّق موافقاً لكنه يكره هذا النوع من الأشياء؛ الدعابة السوداء. الهدف منها إظهار الشجاعة، ورفع المعنويات، لكنه يجدها مملة وغبية. سيفضّل أن يُترك ما لا يُقال جانباً. «كيف إيما على كل حال؟».

«بخير، كما أظن. إنها معلّمة مؤهلة تماماً الآن. لديها مقابلة اليوم».

«هذه مهنة حقيقية». أدارت رأسها لتنظر إليه. «ألم تكن مدرّساً مرة؟ ماذا حدث هناك؟».

عرف الملحوظة الساخرة. «لم يناسبني الأمر».

كل ما تقوله: «لا». أطبق الصمت وشعر بأن اليوم يخرج عن سيطرته مرة أخرى. كان دكستر قد أضحى يصدّق، نتيجة التلفاز والأفلام، أن الجانب الإيجابي الوحيد للمرض هو أنه يقرّب الناس من بعضهم، وأنه يمثّل فرصة تفاهم من دون جهد بينهم، لكنهم كانوا دائماً مقرّبين من بعضهم، ومنفتحين على الدوام، وتحوّل تفاهمهم المعتاد إلى مرارة واستياء وغضب من كل الأطراف بسبب ما يحدث. تحوّلت اللقاءات التي يجب أن تكون ممتعة ومريحة إلى شجارات واتهامات متبادلة. قبل ثماني ساعات، كان يخبر غرباء تماماً عنه أسراره الخاصة جداً، والآن لا يستطيع أن يتكلم إلى والدته. هناك شيء ليس على ما يرام.

قالت: «إذاً، رأيت كبّره الأسبوع الماضي».

«حقاً؟».

صمتت، فاضطر إلى أن يضيف: «ما رأيك؟».

«أظن أنك جيد جداً. طبيعي كثيراً. تبدو لطيفاً جداً على الشاشة. كما قلت من قبل، لا أهتم بالبرنامج كثيراً».

«حسنٌ، إنه ليس موجهاً حقاً إلى أشخاص مثلك، أليس كذلك؟».

كظمت غيظها من تلك العبارة، وأدارت رأسها على نحو مهيب: «ماذا تعني بأشخاص مثلي؟».

تابع مرتبكاً: «أعني أنه مجرد برنامج سخيف في آخر الليل، وهذا كل شيء. يعرض بعد –».

«تعني أنني لم أكن فاقدة رشدي كفاية لأستمتع به؟».

«لا».

«أنا لا أبالغ في الاحتشام أيضاً، ولا أمانع سماع كلام سوقي، لكنني لا أفهم فقط لماذا أضحى ضرورياً فجأة أن تذل أشخاصاً طوال الوقت -».

«لا أحد يتعرض للإذلال، ليس حقاً، إنه مسلٍ -».

«لديكم مسابقات للعثور على أبشع حبيبة في بريطانيا. ألا تظن أن ذلك مذل؟».

«ليس حقاً، لا -».

«الطلب من الرجال أن يرسلوا صور حبيباتهم القبيحات...».

«هذا مسلٍ، والقصد منه أن الرجال يحبّونهن رغم أنهن... لسن جذّابات على نحو تقليدي. ذلك هو القصد كله، إنه مسلٍ!».

«تستمر في قول إنه مسلٍ، هل تحاول إقناعي، أم إقناع نفسك؟».

«دعينا لا نتكلم عن هذا؟».

«وهل تظن أنهن يجدن الأمر مسلياً، الحبيبات، القبيحات؟».

«أمي، أقدّم الفرق فحسب، وهذا كل شيء. أنا أسأل نجوم البوب عن أفلام الفيديو الجديدة الرائعة الخاصة بهم؛ هذا عملي. إنه وسيلة لتحقيق غاية».

«لكن، أي غاية يا دكستر؟ ربّيناك دائماً لتصدّق أن بمقدورك فعل أي شيء تريده. لم أكن أظن أنك ستفعل هذا».

«ماذا تريدين مني أن أفعل؟».

«لا أعرف؛ شيئاً جيداً». فجأة، وضعت يدها اليسرى على صدرها، واسترخت إلى الخلف على كرسيها.

بعد لحظة تكلم: «إنه جيد، بمعاييره الخاصة». تنشّقت. «إنه برنامج سخيف، وترفيهي فقط، وطبعاً لا يعجبني أبداً، لكنها تجربة، وستقود إلى أشياء أخرى. وفي الواقع، أظن أنني بارع فيه، لما يمثّله. إضافة إلى ذلك أنا أستمتع به».

انتظرت لحظة، ثم قالت: «حسنٌ، يجب أن تفعله إذاً، كما أفترض. ينبغي أن تفعل ما تستمتع به، وأنا أعرف أنك ستفعل أشياء أخرى في الوقت المناسب، لكن...»، وأمسكت يده، من دون إنهاء الجملة. تضحك بعد ذلك، مجهدة الأنفاس. «لا أزال أظن أنه ليس حرياً بك أن تتظاهر أنك من سكان لندن».

قالت: «إنه رجلي الذي يمثّل صوت الشعب». وابتسمت ابتسامة باهتة يتوق إليها، ثم

تابعت: «يجب ألاّ نتجادل».

قال رغم أنه يعرف أنهما يتجادلان: «نحن لا نتجادل، وإنما نتناقش».

أصبحت يدها على رأسها. «أتناول هذا المورفين. أحياناً لا أعرف ما أقوله».

«لم تقولي شيئاً. أنا متعب قليلاً أيضاً». تنعكس أشعة الشمس عن حجارة الرصيف، ويستطيع أن يشعر في الواقع بالجلد على وجهه وذراعيه يحترق، مثل خفّاش. يشعر بموجة أخرى من التعرّق والغثيان تنتابه. يخبر نفسه أن عليه التزام الهدوء، فهي مجرد كيمياء.

فرك صدغيه ليشير إلى أنه يتألم، وقال من دون تفكير: «لا أظن أن أياً من ذلك المورفين يذهب سدى، أليس كذلك؟».

لم تزعج نفسها حتى بالنظر إليه. انقضى الوقت. كان قد لاحظ سابقاً أنه يصبح أحمقَ. بدأ عزمه على إبقاء رأسه شامخاً وقدميه على الأرض يضعف، وقد لاحظ، بموضوعية كاملة، أنه يصبح أكثر طيشاً وأنانية، ويقول مزيداً من الملحوظات الغبية. كان قد حاول أن يفعل شيئاً بشأن هذا، لكنه شعر بأن الأمور تخرج عن سيطرته آنذاك على نحو لا يمكن تفسيره. لماذا لا يستسلم فحسب ويكون أحمقَ؟ توقف عن الاهتمام بذلك. انقضى الوقت ولاحظ أن النباتات والأعشاب الضارة قد بدأت تشق طريقها عبر سطح ملعب كرة المضرب؛ لقد بدأ المكان يتداعى.

تكلمت أخيراً.

«أخبرك الآن أن والدك يطهو الغداء، الملفوف المعلّب، فتوخّ الحذر. على الأقل ستعود كيسي في وقت مناسب لإعداد العشاء. ستبقى هذه الليلة، كما أفترض؟».

كان بمقدوره البقاء هذه الليلة، كما فكّر. بدا البقاء فرصة لإصلاح الوضع. قال: «في الواقع، لا».

أدارت رأسها قليلاً.

«لدي تذكرتين للحديقة الجوراسية الليلة. العرض الأول في الواقع. الليدي «دي» ستذهب! ليس معي، كما ينبغي أن أقول». وعندما تكلم كان الصوت الذي يسمعه لشخص يحتقره. «لا يمكنني تفويته، إنه شيء يتعلق بالعمل، وقد جرى الترتيب له قبل وقت طويل». ضاقت عينا والدته، بطريقة لاشعورية تقريباً، وللتخفيف من وطأة الأمر قال كذبة بسرعة: «سأصطحب إيما. يمكن أن أعتذر، لكنها تريد أن نذهب حقاً».

«أوه، حسنٌ». وأطبق الصمت.

قالت بوضوح: «يا لهذه الحياة التي تعيشها!».
صمت مرة أخرى.
«دكستر، أرجو أن تعذرني، لكن أخشى أن الصباح قد استنفد قوتي. يجب أن أذهب للنوم في الطابق الأعلى لبعض الوقت».
«لا بأس».
«سأحتاج إلى بعض العون».
قلقاً، نظر حوله بحثاً عن شقيقته، أو والده؛ كأنهما يتمتعان بنوعٍ من الصفات التي لا يمتلكها، لكنه لم يتمكن من رؤيتهما في أي مكان. كانت يدا والدتهً على ذراعي الكرسي آنذاك، تشدّان من دون فائدة، وأدرك أن عليه القيام بذلك. بهدوء، ومن دون اقتناع، وضع ذراعه تحت ذراعها وساعدها على النهوض. «هل تريدين مني...؟».
«لا، يمكنني الوصول إلى المنزل بمفردي، لكنني أحتاج فقط إلى مساعدة على الدرج».
سارا عبر الفناء، ويده بالكاد تلامس قماش فستانها الصيفي الأزرق الذي يتدلّى فضفاضاً عليها مثل رداء مستشفى. كان تباطؤها يثير الجنون، وإهانة له. سأل لقضاء الوقت: «كيف حال كيسي؟».
«أوه، بخير. أظن أنها تستمتع بإصدار أوامر كثيرة لي، لكنها لطيفة جداً. كلي هذا، خذي هذه، نامي الآن. إنها صارمة لكنها عادلة، وتلك شقيقتك. إنه انتقام؛ لأنني لم أشترِ لها تلك الفرس».
إذا كانت كيسي جيدة في هذا - تساءل - فأين هي حين تحتاج إليها؟ أصبحا في الداخل، عند أسفل السلالم. لم يكن قد أدرك مطلقاً أن هناك درجات كثيرة.
«كيف يمكنني...؟».
«من الأفضل أن تحملني. أنا لست ثقيلة، ليس هذه الأيام».
لست مستعداً لهذا، ولا يمكنني القيام به. كنت أظن أنني أستطيع، لكنني غير قادر. جزء مني مفقود، ولا يمكنني فعل هذا.
«هل يؤلمك أي مكان؟ أعني هل هناك مكان ينبغي أن...؟».
«لا تقلق بشأن هذا». نزعت قبعتها وحلّت عقدة وشاحها. أمسك بها بقوة من تحت عظم كتفها، وأصابع يده تُطبق على أضلاعها، ثم جثا، وتحسس ساقيها تحت فستانها

بساعديه، فوجدهما ناعمتين وباردتين، وعندما ظن أنها مستعدة، حملها ورفعها إلى الأعلى، فشعر بجسدها يتراخى بين ذراعيه. أطلقت زفيراً قوياً، وأنفاسها عذبة وحارة على وجهه. كانت أثقل مما توقع أو أنه أضعف مما ظن، وضرب كتفها بعمود السلالم، ثم عدّل وضعها على جسده، وتحرك جانبياً حين بدأ يصعد السلالم. استرخى رأسها على كتفه، وانزلق الوشاح على وجهها. بدا الأمر مثل محاكاة ساخرة لموقف مألوف؛ الزوج يحمل العروس فوق العتبة ربما، وجالت عدّة ملحوظات مرحة في ذهنه، لكن أياً منها لم يكن سيجعل الأمر أكثر سهولة. عندما وصلا إلى فسحة الدرج، تكرّمت عليه، فقالت وهي تنظر نحو الأعلى إليه: «بطلي»، وابتسم كلاهما.

فتح باب الغرفة المظلمة بركلة منه، ووضعها على السرير.

«هل يمكنني أن أحضر لك شيئاً؟».

«أنا بخير».

«هل حان موعد أي شيء؟ دواء أو...».

«لا، أنا بخير».

«شراب ما مع فوّار؟».

«أوه، نعم أرجوك».

«هل تريدين أن أضعك تحت الأغطية؟».

«تلك البطانية فقط، من فضلك».

«هل أسدل الستائر؟».

«أرجوك، لكن اترك النافذة مفتوحة».

«أراك لاحقاً إذاً».

«إلى اللقاء يا عزيزي».

«أراك لاحقاً».

ابتسم لها بتكلّف، لكنها كانت تستلقي آنذاك على جانبها وظهرها له، فخرج من الغرفة، وسحب الباب خلفه بهدوء حتى أغلقه. في يوم قريب جداً، على الأرجح بعد سنة، سيخرج من الغرفة ولن يراها مجدداً. وبدت هذه فكرة يصعب تخيّلها لهذا دفعها بعيداً بعنف، مركّزاً بدلاً من ذلك على نفسه: آثار الإفراط في الشراب، والتعب الذي يشعر به،

والألم الذي ينبض في صدغيه في أثناء نزوله على السلالم.

كان المطبخ الكبير المهمل فارغاً، لهذا ذهب إلى الثلاجة التي وجدها فارغة تقريباً أيضاً. قلب كرفس ذابل، دجاجة، علب مفتوحة، فخذ عجل صغيرة تشير كلها إلى أن والده قد تولى شؤون الواجبات المنزلية. وجد في باب الثلاجة قارورة مفتوحة من الشراب الأبيض. أخرج القارورة وشرب منها بشراهة، ثم تناول أربع جرعات أو خمساً من السائل الحلو قبل أن يسمع وقع خطوات والده في الردهة. أعاد القارورة إلى مكانها، مسح فمه بقفا يده حين دخل والده حاملاً كيسين من سوق القرية.

«أين والدتك؟».

«إنها متعبة، حملتها إلى الأعلى لتستلقي هناك». أراد دكستر منه أن يعرف أنه شجاع وراشد. لكن، لم يبدُ أن والده قد تأثر بذلك.

«فهمت، هل تحدثتما؟».

«قليلاً، بشأن هذا وذاك». بدا صوته غريباً في رأسه، مدوّياً ويجمجم؛ لم يكن على ما يُرام. تساءل إن كان بمقدور والده أن يعرف هذا؟ «سنسهب في الكلام حين تستيقظ». فتح باب الثلاجة مجدداً، وتظاهر أنه يرى الشراب لأوّل مرة. «هل تمانع؟». أخرج القارورة، وأفرغ باقي الشراب في كأس ثم خرج متجاوزاً والده. «سأكون في غرفتي لبعض الوقت».

«لماذا؟».تقطب جبين والده عبوساً.

«أبحث عن شيء، كتب قديمة».

«ألا ترغب بتناول الغداء؟ القليل من الطعام مع شرابك ربما؟».

ألقى دكستر نظرة على كيس التسوق عند قدمي والده، مفتوحاً من ثقل كل العلب. وقال، وهو يخرج من الغرفة: «ربما لاحقاً».

على فسحة الدرج، لاحظ أن باب غرفة والديه مفتوح، فدخلها بصمت مرة أخرى. كانت الستائر تتحرك في نسيم بعد الظهر، وضوء الشمس يظهر ويختفي عليها وهي نائمة تحت بطانية قديمة، وكانت قدماها المتسختان باديتين للعيان، وأصابعها مكوّرة إلى الأعلى بقوة. استُبدل بالعطور التي يتذكرها من طفولته؛ الغسول المكلفة والمساحيق الغامضة، رائحة نوع من الخضار فضّل ألا يفكّر فيه. كانت رائحة المستشفى قد غزت منزل طفولته. أغلق البابَ، ومشى إلى الحمام.

عندما كان يتبوّل، توثق مما يوجد في خزانة الأدوية: أقراص نوم والده الوفيرة التي تدل

على مخاوف ليلية، وهناك قارورة قديمة من فاليوم والدته يعود تاريخها إلى آذار 1989، والتي حلّ دواء أكثر فاعلية محلها. أخرج قرصين من كل دواء ووضعهما في محفظته، ثم قرص فاليوم آخر ابتلعه مع الماء من صنبور الحوض اليدوي، فقط ليخفف من الألم الذي يشعر به.

كانت غرفته القديمة تُستخدم للتخزين آنذاك، واضطر إلى الالتفاف حول أريكة طويلة قديمة، وصندوق شاي، وعلب كرتونية. شاهد على الجدران بعض صور الأسرة البالية، وصوره بالأبيض والأسود عن الأصداف والأوراق التي التقطها في أثناء مراهقته، مثبّتة كيفما اتفق وتذوي آنذاك. ومثل طفل أُرسل إلى غرفته، استلقى على السرير المزدوج القديم، ويداه خلف رأسه. كان قد تخيّل دائماً أن نوعاً من الأجهزة الذهنية العاطفية سيصبح في متناول اليد حين يصبح في الخامسة والأربعين أو الخمسين، نوعاً من الأدوات التي ستجعله قادراً على التعامل مع الخسارة الوشيكة لأحد والديه. لو كان يمتلك مثل هذا الجهاز فقط، لشعر أنه بخير. سيصبح شهماً وغير أناني، حكيماً وفلسفياً. ربما سينجب هو نفسه أولاداً، وسيتمتع على ما يبدو بالنضج الذي يأتي مع الأبوة، وفهم الحياة على أنها عملية متواصلة.

لكن عمره ليس خمسة وأربعين عاماً، وإنما ثمانية وعشرين، وعمر والدته تسعة وأربعون. لا بد أن هناك خطأ شنيعاً؛ فالتوقيت خاطئ، وكيف يُتوقع منه أن يتعامل مع هذا؛ مع مظهر والدته التي تذوي على تلك الحال؟ هذا ليس عادلاً له، خاصة بوجود الكثير من عوامل الإلهاء الأخرى. إنه شاب مشغول على حافة مهنة ناجحة، وإذا كان له أن يعبّر عن الأمر بكل صراحة، فسيقول إن لديه أشياء أفضل ليفعلها. شعر برغبة مفاجئة بالبكاء، لكنه لم يبكِ منذ خمس عشرة سنة، لذا أنحى باللائمة على الكيمياء، وقرّر أن ينام قليلاً. نظر إلى كأس الشراب على صندوق التخزين إلى جانب سريره، وانقلب إلى جانبه. سيتطلّب كونه إنساناً محترماً جهداً وطاقة. استراحة قصيرة، ثم سيعتذر ويُظهر كم يحبها.

أفاق فزِعاً ونظر إلى ساعته، ثم نظر مجدداً: 6:26 بعد الظهر. كان قد نام ست ساعات، وبدا ذلك مستحيلاً. لكن، عندما فتح الستائر، رأى أن الشمس قد بدأت تنحدر في السماء. شعر أن رأسه لا يزال يؤلمه، وعينيه مغمضتان بإحكام نوعاً ما، وهناك مذاق معدني في فمه، ويحس بالظمأ والجوع أكثر مما كان عليه في أي وقت مضى. كانت كأس الشراب، حين مدَّ يده إليها دافئة، فشرب نصفها، ثم أعاد رأسه إلى الخلف. كانت

ذبابة كبيرة قد وجدت طريقها إلى الكأس وتطنُّ على حافتها. ألقى دكستر الكأس، وأراق الشراب على قميصه والسرير، ثم نهض مسرعاً على قدميه.

في الحمام، رشَّ الماء على وجهه، ولاحظ أن العرق على قميصه قد أصبح بغيضاً، وتفوح منه رائحة كريهة وواضحة. شعر بالاشمئزاز قليلاً، ورشَّ نفسه بمعطّر والده القديم، وسمع في الأسفل أوعية وقدوراً، وهذيان مذياع؛ أصوات أسرة. مرحاً؛ كن مرحاً وسعيداً ومهذباً، ثم خرج.

لكن، عندما كان يتجاوز غرفة والدته، رآها تجلس على حافة السرير جانبياً، وهي تنظر إلى الخارج نحو الحقول؛ وكأنها تنتظره أيضاً. أدارت رأسها ببطء، لكنه تردد عند العتبة مثل طفل.

قالت بهدوء: «لقد فوتَّ النهار كله».

«استغرقت في النوم».

«فهمت، هل تشعر بأنك أفضل حالاً؟».

«لا».

«أوه حسنٌ. والدك غاضب منك قليلاً، كما أخشى».

«لا تغيير في هذا الشأن إذاً». ابتسمت بتسامح، فتشجع وأضاف: «يبدو أن الجميع منزعجون مني حالياً».

قالت: «دكستر الصغير المسكين». وتساءل إن كانت تسخر منه. «تعال واجلس هنا». ابتسمت، ووضعت يدها على السرير بجانبها. «بجانبي». مطيعاً، دخل الغرفة وجلس، فتماسّ ردفاهما. وضعت رأسها على كتفه. «نحن لسنا على سجيتنا، أليس كذلك؟ أنا بالتأكيد لست على سجيتي، لم أعد كما كنت. ولا أنت أيضاً. لا تبدو على سجيتك؛ لست كما أتذكرك».

«بأي طريقة؟».

«أعني... هل يمكنني التحدث بصراحة؟».

«هل يجب أن تفعلي هذا؟».

«أظن ذلك، فهذا امتياز لي».

«هاتِ ما لديك إذاً».

«أظن...». رفعت رأسها عن كتفه. «أظن أن رغبتك في أن تكون شاباً رائعاً واستثنائياً تجري في عروقك مع دمك. لطالما ظننت هذا، وذلك ما يفترض بالأمهات أن يعتقدنه، صحيح؟ لكنني لا أظن أنك وصلت إلى نهاية الطريق، ليس بعد. أظن أنه لا تزال أمامك مسافة تقطعها. هذا كل شيء».

«فهمت».

«يجب ألاّ تفهم الأمر على نحو سيئ. لكن، أحياناً...». أمسكت يده بيديها، وهي تفرك راحته بإبهامها. «أحياناً ينتابني قلق من أنك لم تعد لطيفاً».

جلسا هناك لبعض الوقت حتى قال أخيراً: «لا يسعني قول شيء بهذا الشأن».

«لست مضطراً إلى قول شيء بهذا الشأن».

«هل أنتِ غاضبة مني؟».

«قليلاً، لكنني غاضبة أيضاً بالقدر نفسه من كل شخص آخر هذه الأيام؛ كل من ليس مريضاً».

«أنا آسف جداً يا أمي، آسف جداً».

ضغطت بإبهامها على راحة كفه. «أعرف هذا».

«سأبقى، الليلة».

«لا، ليس الليلة، أنت مشغول. عد وابدأ مجدداً».

وقف، وأمسك كتفيها برفق، ومس وجنتها بوجنته. استطاع سماع أنفاسها في أذنه؛ الأنفاس الدافئة العذبة، ثم مشى إلى الباب.

قالت: «اشكر إيما نيابة عني؛ من أجل الكتب».

«سأفعل».

«انقل لها محبتي، حين تراها الليلة».

«الليلة؟».

«نعم، قلت إنك ستراها الليلة».

تذكر كذبته. «نعم، نعم سأراها. وآسف إن لم أكن... جيداً جداً اليوم».

قالت: «لا بأس، أفترض أن هناك دائماً مرة قادمة».

نزل دكستر على السلالم بسرعة، معتمداً على الزخم لإبقائه متماسكاً، لكنه شاهد

والده في الردهة يقرأ الصحيفة المحلية، أو يتظاهر بذلك. مرة أخرى، بدا أنه ينتظره، مثل خفير في الخدمة؛ ضابط الاعتقال.

قال دكستر، من خلف ظهر والده: «استغرقت في النوم».

قلب صفحة من الصحيفة. «نعم، أعرف».

«لماذا لم توقظني يا أبي؟».

«لم يبدُ أن هناك فائدة من ذلك. خطر لي أيضاً أنني يجب ألا أفعل». قلب صفحة أخرى. «لم تعد في الرابعة عشرة يا دكستر».

«لكن هذا يعني أنني يجب أن أغادر الآن».

«حسنٌ، إذا كان يجب أن تذهب...». توقفت الجملة عند ذلك الحد. استطاع رؤية كيسي في غرفة المعيشة، تتظاهر أيضاً بأنها تقرأ، ووجهها متورد استنكاراً ووقاراً. اخرج من هنا الآن، غادر فحسب؛ لأن هذا كله على وشك أن ينهار. وضع يده على طاولة الردهة بحثاً عن مفاتيحه، لكنها عادت خاوية.

«مفاتيح سيارتي!».

قال والده، وهو يقرأ الصحيفة: «لقد خبأتها».

لم يسع دكستر إلا أن يضحك. «لا يمكنك إخفاء مفاتيحي!».

«حسنٌ، واضح أنني أستطيع لأنني فعلت ذلك. هل تريد أن تلعب لعبة البحث عنها؟».

قال ساخطاً: «هل لي أن أسأل عن السبب؟».

رفع والده رأسه عن الصحيفة وكأنه يتنشّق الهواء. «لأنك لست على ما يرام».

في غرفة المعيشة، نهضت كيسي عن الأريكة، ومشت إلى الباب وأغلقته.

ضحك دكستر، لكن من دون اقتناع. «لا، لست كذلك!».

نظر إليه والده من فوق كتفه. «دكستر، أعرف حين يكون شخص ما على غير ما يرام؛ أنت خاصة. لقد كنت أراقبك منذ اثنتي عشرة سنة، هل تتذكر؟».

«لكنني لست كذلك، وإنما أعاني آثار الإسراف في الشراب».

«أياً يكن، لن تقود سيارتك إلى المنزل».

مجدداً، أطلق دكستر ضحكة ساخرة، وحرّك عينيه احتجاجاً. لكن، لم تخرج كلمات

من فمه، باستثناء: «أبي، عمري ثمانٍ وعشرون سنة!»؛ بصوت خافت.

قال والده في الوقت المناسب: «لقد كدت تخدعني». ثم مدَّ يده إلى جيبه وأخرج مفاتيح سيارته، وقذفها في الهواء والتقطها بفرح مصطنع. «هيا، سأقلك إلى المحطة».

لم يودّع دكستر شقيقته.

أحياناً أقلق؛ لأنك لست لطيفاً جداً. قاد والده السيارة بصمت، ودكستر يسترخي خجلاً في الجاغوار القديمة الكبيرة. وعندما لم يعد من الممكن احتمال الصمت، تكلم والده، بهدوء ورصانة، وعيناه ثابتتان على الطريق. «يمكنك المجيء وأخذ سيارتك يوم السبت، حين تصحو».

قال دكستر وهو يسمع صوته الذي لا يزال يئن ونكداً؛ صوته حين كان في السادسة عشرة من عمره: «أنا صاحٍ الآن». أضاف مسهباً: «بحق الله!».

«لن أجادلك يا دكستر».

زفر هواءً من فمه واسترخى في مقعده؛ جبينه وأنفه يضغطان على النافذة وهو ينظر إلى الريف والمنازل الأنيقة تمر بجانبهما. شغّل والده – الذي اشمئز دائماً من كل المواجهات، وبدا واضحاً أنه يشعر بالألم آنذاك – المذياعَ ليغطّي على الصمت، واستمعا إلى موسيقى كلاسيكية: لحن مبتذل وطنّان. اقتربا من محطة القطار، توجهت السيارة نحو الموقف الخالي آنذاك من المسافرين. فتح دكستر باب السيارة، ووضع إحدى قدميه على الحصى، لكن لم تظهر على والده أي إشارة على توديعه، وإنما جلس وانتظر فحسب والمحرك يعمل. كان يبدو حيادياً مثل سائق، وعيناه مثبتتان على لوحة القيادة، وأصابعه تنقر وفقاً لتلك الموسيقى الصاخبة.

عرف دكستر أن عليه قبول عقابه والذهاب، لكن كبرياءه لم تسمح له بذلك. «لا بأس، سأذهب الآن. لكن، هل يمكنني القول إنني أظن أنك تبالغ تماماً في هذا؟».

وفجأة، ظهر غضب حقيقي على وجه والده، فبانت أسنانه وهي تصطك بقوة، وصوته يلغو: «لا تتجرأ على إهانة ذكائي أو ذكاء والدتك، أنت رجل راشد الآن، ولم تعد طفلاً». اختفى الغضب بالسرعة التي ظهر فيها، وبدلاً من ذلك ظن أن والده على وشك أن يبكي ربما، وبدأت شفته السفلية ترتعش، ويده تمسك المقود بقوة، والأصابع الطويلة لليد الأخرى تلتف على عينيه مثل عُصبة. خرج دكستر من السيارة بسرعة، وأوشك أن يقف ويغلق الباب، لكن والده أغلق المذياع وتكلم مجدداً. «دكستر...».

توقف دكستر، ونظر نحو الداخل إلى والده. شاهد عينيه رطبتين، لكن صوته بدا ثابتاً وهو يقول:

«دكستر، والدتك تحبك حباً جماً، وأنا أيضاً. لطالما أحببناك وسنفعل ذلك دائماً. وأظن أنك تعرف هذا. لكن، في الوقت الذي تبقّى لوالدتك...». تردد ونظر إلى الأسفل وكأنه يبحث عن كلمات، ثم رفع بصره. «دكستر، إذا أتيتَ ورأيتُ والدتك على هذه الحال مجدداً، فأنا أقسم إنني لن أسمح لك بدخول المنزل. لن أسمح لك بعبور الباب، بل سأغلقه في وجهك، وأعني هذا».

فغر دكستر فمه، لكن لم تخرج كلمات منه.

«الآن، أرجوك اذهب إلى المنزل».

أغلق دكستر باب السيارة، لكنه لم يُوصد، ففتحه وأغلقه مجدداً فيما قاد والده – المرتبك أيضاً – سيارته إلى الأمام ثم إلى الخلف وغادر الموقف بسرعة. وقف دكستر وراقبه وهو يمضي بعيداً.

كانت محطة القطار الريفية خاوية، ونظر على طول الرصيف بحثاً عن هاتف عمومي؛ الهاتف القديم المألوف الذي استخدمه حين كان مراهقاً لوضع خطط هروبه. كانت الساعة 6:59 مساءً، وسيصل قطار لندن بعد ست دقائق، لكن ينبغي عليه إجراء مكالمته.

عند 7 مساءً، ألقت إيما نظرة أخيرة على المرآة للتوثق من أنها لا تبدو مثل شخص قد بذل أي نوع من الجهد. كانت المرآة تستند غير ثابتة إلى الجدار، وتعرف إيما أن لها تأثيراً مقصّراً؛ وكأنها في قاعة مرايا، لكنها رغم ذلك مرّرت لسانها على شفتيها، وهي تنظر إلى ساقيها المتواريتين تحت تنورتها القطنية. بدا الجو دافئاً جداً على ارتداء ثياب ضيقة، لكن لا يمكنها أن تحتمل رؤية ركبتيها الحمراوين؛ ولهذا فهي تخفيهما على كل حال. كان شعرها – الذي غسلته مؤخراً – وتفوح منه رائحة شيء يدعى فاكهة الغابة – قد انسدل على ظهرها مسترسلاً ومعطراً، وفرّقته بأطراف أناملها لتجدل خصلات منه، ثم استخدمت إصبعها الصغيرة لتمسح لطخاتٍ من أحمر الشفاه من طرف فمها. كانت شفتاها حمراوين داكنتين، وتساءلت إن كانت تبالغ في ذلك. بالمحصلة، لا يبدو أن شيئاً سيحدث، وستعود إلى المنزل عند 10:30. تجرّعت آخر كمية من مزيج الشراب الذي يستخدم في البلدان شديدة البرودة، ووجِلت حين تفاعل الشراب بقوة مع معجون الأسنان، ثم

أمسكت مفاتيحها وألقتها في أفضل حقيبة يد لديها، وأغلقت الباب.

رنَّ الهاتف.

كانت في منتصف الرواق حين سمعته، وفكّرت لحظة واحدة في العودة بسرعة لترد عليه لكنها كانت قد تأخرت آنذاك، والمتصل على الأرجح سيكون أمها أو شقيقتها التي تريد أن تعرف كيف جرت المقابلة. عند نهاية الرواق سمعت باب المصعد يُفتح، فركضت لتلحق به، وأُغلق باب المصعد حين عمل جهاز الرد الآلي.

«... اترك رسالتك بعد الطنين وسأعاود الاتصال بك».

«مرحباً إيما، أنا دكستر. ماذا كنت سأقول؟ حسنٌ، كنت سأقول إنني في محطة القطار هذه قرب المنزل، وقد جئت للتو من بيت أمي و... وتساءلت عمّا تفعلينه الليلة. لدي تذكرتان لعرض جوراسيك بارك الافتتاحي! في الواقع لقد فوّتنا ذلك كما أظن، لكن ربما يمكننا الانضمام إلى الحفل؟ أنا وأنت؟ ستكون الأميرة دي هناك. آسف، أنا أهذر. في حال كنتِ هناك، ارفعي السماعة يا إيما. ارفعي السماعة. لا؟ لا بأس، لقد تذكرت للتو أن لديك موعداً الليلة، أليس كذلك؟ موعدك المثير. حسنٌ، استمتعي، واتصلي بي حين تعودين، إن عدت. أخبريني بما حدث. جدياً، اتصلي بي، بأسرع ما يمكنك».

تلعثم، التقط أنفاسه، ثم قال:

«قضيت يوماً سيئاً على نحو لا يُصدّق يا إم»، وتردد مجدداً. «لقد فعلت شيئاً سيئاً جداً». كان عليه أن يغلق السماعة، لكنه لم يرغب بذلك. أراد أن يرى إيما مورلي حتى يعترف بذنوبه، لكنها خرجت في موعد، فشدَّ فمه إلى تكشيرة وقال: «سأتصل بك غداً. أريد أن أعرف كل شيء! يا فاطرة القلوب». أغلق السماعة. يا فاطرة القلوب.

بدأت السكة الحديدية تطقطق آنذاك، وسمع طنين القطار يقترب، لكن لم يكن بمقدوره الصعود على متنه، ليس في تلك الحال، وسيضطر إلى انتظار القطار الآتي. وصل قطار لندن وبدا أنه ينتظره، وهو يتكتك بتهذيب، لكن دكستر وقف متوارياً داخل كشك الهاتف العمومي، وهو يشعر بأن وجهه يتجعد إلى الداخل وأنفاسه تصبح مجهدة وخشنة، وعندما بدأ يبكي أخبر نفسه أن الأمر كله كيمياء، كيمياء، كيمياء.

الفصل السابع

حس الدعابة

الخميس 15 تموز 1993،

الجزء الثاني – قصة إيما

حديقة كوفينت وتقاطع كينغ

جلس إيان وايتهيد بمفرده إلى طاولة مخصصة لشخصين في مطعم فوريلي بجانب حديقة كوفينت، وتحقق من ساعته: تأخرت خمس عشرة دقيقة، لكنه تخيل أن ذلك جزء من لعبة القط والفأر المثيرة المعروفة بالمواعدة. حسنٌ، لتبدأ الألعاب. غمس كسرة الخبز في الطبق الصغير من زيت الزيتون وكأنه يستخدم فرشاة طلاء، ثم فتح قائمة الطعام وفكّر في ما يمكن تقديمه من وجبات.

كانت حياته ككوميدي يلقي الدعابات واقفاً، ستجلب له الثروةَ والشهرةَ التلفازية التي وُعِد بها سابقاً. ادّعت صحف الأحد أسبوعياً أن الكوميديا هي الروك آند رول الجديدة. لكن، لماذا كان لا يزال يكد لكي يحظى بفرص أمام مكبر الصوت في سير لافالوتس ليالي الثلاثاء؟ كان قد عدّل فكاهاته لتتناسب مع الأجواء السائدة آنذاك، وتراجع عن إلقاء الملحوظات السياسية، وجرّب الكوميديا الشخصية، والسريالية، والأغاني الهزلية، والمشاهد الفكاهية؛ لكن لا شيء من ذلك أثار ضحكة على ما يبدو. كان التحول إلى أسلوب أكثر تحدّياً قد قاده إلى التعرض للضرب والركل. ومشاركته في فرقة كوميدية تقدم عروضاً أيام الأحد قد أثبتت فقط أنه غير مضحك بطريقة عفوية غير مدبرة تماماً. وعلى الرغم من ذلك تابع جهوده، مراراً وتكراراً في المكان نفسه، وهو يدور في الحلقة المفرغة نفسها، بحثاً عن ضحكات كبيرة.

ربما كان هناك شيء بشأن الاسم «إيان وايتهيد» يجعله مقاوماً للشهرة، وقد فكّر حتى في تغييره إلى آخر غريب ومشوّق، وأحادي المقطع - بن أو جاك أو مات — لكن، إلى أن يكتشف شخصيته الهزلية كان قد عثر على وظيفة في سونيكوترونيكس، متجر إلكترونيات في طريق توتنهام كورت، حيث يقوم شباب مهووسون يرتدون قمصاناً تائية ببيع بطاقات الذاكرة والجرافيك إلى شباب مهووسين يرتدون قمصاناً تائية. لم يكن المال وفيراً، لكنه حرٌّ في المساء لفعل ما يريده، وقد أثار غالباً ضحك زملائه في العمل بفكاهاته الجديدة.

لكن الأفضل - أفضل شيء على الإطلاق في سونيكترونيكس - كان لقاءه في أثناء استراحة الغداء إيما مورلي. كان يقف خارج مبنى كنيسة ساينتولوجي وهو يمعن التفكير في الخضوع لاختبار الشخصية أو لا، حين رآها وهي تكاد تتوارى عن الأنظار خلف سلة غسيل ضخمة من أغصان الصفصاف، وعندما ألقى ذراعيه حولها تألق طريق توتنهام كورت بهاءً وتحوّل إلى طريق الأحلام.

إنه موعدهما الثاني، وهو يجلس هناك في مطعم إيطالي عصري أنيق قرب حديقة كوفينت. كان ذوق إيان الشخصي يميل نحو الحار والتوابل والمالح والمحمّص، ويفضّل الكاري، لكنه خبير كفاية بأهواء النساء ليعرف أنها ستتوقع خضاراً طازجة. توثق من ساعته مجدداً - تأخرت عشرين دقيقة - وشعر بوخز تشوّق في معدته، جزئياً بسبب الجوع، وجزئياً بسبب الحب. كانت قد انقضت سنوات آنذاك وقلبه ومعدته مثقلان بحب إيما مورلي، وليس حباً عاطفياً عذرياً فقط، وإنما ترافقه رغبة جنسية أيضاً. كان لا يزال يحمل في ذهنه بعد كل تلك السنوات - وسيحملها طوال حياته - صورتها وهي تقف مرتدية ملابسها الداخلية غير المتناسقة في غرفة الموظفين في لوكو كالينت، وشعاع شمس بعد الظهيرة يسقط عليها، وهي تصرخ عليه ليخرج، ثم تغلق الباب اللعين.

غير مدركة أنه يفكّر في ثيابها الداخلية، وقفت إيما مورلي تراقب إيان من محطة ميتر دس، ولاحظت أنه يبدو بالتأكيد أفضل مظهراً هذه الأيام. كان شعره المجعّد قليلاً قد اختفى، ويبدو مقصوصاً قصيراً آنذاك وأملس بقليل من الشمع، وقد فقد مظهر الفتى الجديد في المدينة. في الواقع، لولا ملابسه المريعة والطريقة التي يفغر بها فمه، لبدا جذّاباً بالتأكيد.

على الرغم من أن المكان لم يكن مألوفاً لها، إلا أنها عدّته مطعم موعد تقليدي - مكلف كفاية فحسب - إنارته ليست شديدة السطوع. ليس متكلفاً لكنه ليس رخيصاً أيضاً. بدا المكان مبتذلاً لكنه ليس سخيفاً، ولن يكون فيه الكاري على الأقل أو، لا سمح الله، بوريتو السمك. شاهدت أشجار نخيل وشموعاً، وفي الغرفة المجاورة، رأت رجلاً كهلاً يعزف ألحان غيرشوين على بيانو كبير: «آمل أن يكون شخصاً يهتم بي».

سأل رئيس النُدُل: «هل أنتِ مع أحدهم؟».

«ذلك الرجل هناك».

كان قد اصطحبها في موعدهما الأول لرؤية موت آثم 3، موت القرون الوسطى في دار

عرض أوديون في طريق هولوي. لم تكن إيما متعجرفة، وكانت تستمتع بفيلم رعب أكثر من معظم النساء. لكن، على الرغم من ذلك، ظنّت أن ذلك خيار غريب يدل على ثقة عجيبة بالنفس. كانت ثري كولورز بلو تعزف في إيفريمان، لكنها تقف هناك، وتشاهد رجلاً يحمل منشاراً بطول ذراع، وتجد ذلك منعشاً على نحو غريب. تقليدياً، كانت قد توقعت أن يجري اصطحابها إلى مطعم بعد ذلك، لكن بالنسبة إلى إيان بدا أن رحلة إلى دار عرض لا يمكن أن تكتمل من دون وجبة ثلاثية. أمعن النظر إلى الكشك وكأنه قائمة طعام، واختار أن يبدأ بالناشو، وتناول النقانق بوصفها طبقاً رئيساً، وريفيلز للتحلية، واختتم وجبته بدلوٍ من ليلت مثلّج بحجم جذع إنسان، وهكذا ترافقت مشاهد موت آثم 3 التأملية القليلة بهسيس إيان الاستوائي الدافئ وهو ينفخ هواءً أبيض في قبضته.

وعلى الرغم من كل ذلك - حب العنف المفرط، والطعام المالح، والخردل على ذقنه - استمتعت إيما أكثر مما قد توقعت. في الطريق إلى الملهى، كان قد غير موقعه على الرصيف حتى لا تصدمها حافلة تنحرف عن مسارها - إشارة غريبة قديمة الطراز لم تكن عُرضة لها من قبل - وناقشا التأثيرات الخاصة، وبتر الرؤوس، وانتزاع الأحشاء، وأعلن إيان بعد بعض التحليل أنه كان أفضل أجزاء ثلاثية «موت». ثلاثيات وأفلام، كوميديا ورعب بدت واضحة في حياة إيان الثقافية. تبادلا أطراف حديث ممتع حول ما إذا كانت رواية مصوّرة تتمتع بالعمق والمعنى مثل، لنقل: ميدلمارش. حامٍ ولطيف، شعرت أنه مثل شقيق أكبر يعرف الكثير من الأشياء الرائعة حقاً، والفرق أنه أراد بوضوح أن ينام معها. عاقد العزم، بدت نظرته شغوفة جداً؛ حتى إنها وجدت نفسها تتحسس وجهها باستمرار بحثاً عن شيء عليه.

كانت تلك هي الطريقة التي يكشّر بها لها آنذاك في المطعم، واقفاً مملوءاً حماسة جعلته يهز الطاولة بفخذيه، ويريق الماء على الزيتون.

قالت: «هل أطلب قطعة قماش؟».

«لا، لا بأس، سأستخدم سترتي».

«لا تستخدم سترتك، خذ، هذا منديلي».

«حسنٌ، لقد أفسدت الزيتون. ليس حرفياً كما ينبغي أن أضيف!».

«أوه، حسنٌ. لا بأس».

جأر: «دعابة!»، وبدا كأنه يصرخ: «حريق!». لم يكن قد شعر بذلك التوتر منذ ليلته

الكارثية الأخيرة، وطلب من نفسه بحزم أن يهدأ حين لطّخ غطاء المائدة، ونظر إلى الأعلى ليرى إيما تنزع سترتها الصيفية، وتدفع كتفيها إلى الخلف وصدرها إلى الأمام بتلك الطريقة التي تفعلها النساء من دون أن يدركن الألم الذي يسببه ذلك. شعر بذلك؛ وهْم الأمسية الكبير الثاني من الحب والرغبة نحو إيما مورلي. تفوه من دون تفكير، وهو غير قادر على ضبط نفسه: «تبدين فاتنة جداً».

قالت تلقائياً: «شكراً لك! وأنت أيضاً». كان يرتدي بزّة العرض الكوميدي المكوّنة من سترة كتّان مجعدة فوق قميص تائي أسود، وتكريماً لإيما، لم تكن هناك أسماء فرق أو تعليقات ساخرة: أنيق آنذاك. قالت مشيرةً إلى السترة: «أحب هذه، إنها أنيقة جداً»، وفرك إيان طيّة صدر السترة بين سبابته وإبهام وكأنه يقول: «ماذا؟ هذا الشيء القديم؟».

قال النادل الأنيق والوسيم: «هل يمكن أن آخذ سترتك؟».

«نعم، شكراً لك». سلّمته إيما إياها، وتخيّل إيان أن عليه منحه إكرامية من أجل ذلك لاحقاً. لم يكن يمانع، فهي تستحق ذلك.

سأل النادل: «أي مشروبات؟».

«أظن أنني أود تناول الشراب الذي يستخدم في البلدان شديدة البرودة».

قال النادل وهو يحثّها على طلب شيء أكثر كلفة: «أتريدين كأساً مزدوجة؟».

نظرت إلى إيان ورأت خفقة فزع على وجهه. «هل ذلك تهوّر؟».

«لا، تابعي».

«لا بأس، مزدوجة!».

«نعم، سيدي؟».

«سأنتظر الشراب، شكراً لك».

«أتريد مياهاً معدنية؟».

صرخ: «مياه الصنبور!». ثم قال بصوتٍ أهدأ: «لا بأس بمياه الصنبور، إلا إن كنتِ...».

«لا بأس بمياه الصنبور». ابتسمت إيما تطمئنه. انصرف النادل. «وبالمناسبة، ما سأقوله بديهي، لكننا لن نفكر في شيء الليلة، هل أنت موافق؟ لا جدال، إنها 1993، ويمكن أن نصرخ بصوتٍ عالٍ». ووجد إيان نفسه يحبها أكثر من قبل. ومن أجل حسن الأداء،

ظنَّ أنّه من الأفضل أن يتظاهر بغير ذلك.

«لكنك طالبة يا إم!».

«لم أعد كذلك. أنا الآن مدرّسة مؤهلة تماماً! أجريت أول مقابلة عمل اليوم».

«وكيف سار الأمر؟».

«كان جيداً جداً، حقاً».

«تهانينا يا إم، هذا رائع». ورمى بنفسه عبر الطاولة ليقبّلها على وجنتها، لا، على كلتا الوجنتين، لا، مهلاً، وجنة واحدة فقط، لا، لا بأس، كلتا الوجنتين.

كانت قائمة الطعام قد أُعدّت سلفاً، وعندما حاولت إيما التركيز، أخذ إيان يفكّر ويقلّب بعضاً من الخيارات: تنظيم أفكارك... إلخ. سمح له وجود قاروس بحري مشوي بالتفكير في الدعابة عن الانتظار دهوراً من أجل قاروس واحد، ثم خطرت له ثلاث أفكار في الوقت نفسه؛ هل تلك شريحة لحم مشوية أم شيء آخر يشبه شريحة لحم صغيرة جداً؟ وماذا يعني أنها مع «راغو» تلك الأيام؟ ومتى أصبحت المعكرونة القديمة الشهية «راغو»؟ ماذا - كما فكّر - سيدعون «سباغيتي ألفابيتي»؟ أشكال ألفية متبّلة في صلصة؟ أم ماذا؟

تبع شيء شيئاً آخر، وشعرت إيما أن آمالها المتعلقة بالأمسية قد تلاشت. إنه يحاول أن يجعلني أضحك ليأخذني إلى السرير، كما فكّرت، في حين أن ما يفعله في الواقع هو إضحاكي لأذهب إلى منزلي الصغير. على الأقل كان في دار العرض ريفيلز والعنف لإلهائه، لكن هنا، وجهاً لوجه، لم يكن هناك شيء باستثناء مشقّة الانتظار. يحصل ذلك لإيما كثيراً، فقد كان الفتيان في دورتها التدريبية مهذارين، خاصة بعد تناول بضع كؤوس. ورغم أن ذلك يدفعها إلى الجنون إلا أنها تعرف أنها تشجع عليه أيضاً، فالفتيات يجلسن ويبتسمن في حين يقوم الفتيان بتنفيذ خدعٍ باستخدام عيدان ثقاب والتجمهر أمام تلفاز الأطفال أو «حلويات منسية من السبعينيات»: مرض التباهي، عرض الفتيان الجنوني الذي لا يتوقف في الملاهي.

تجرّعت الشراب الذي يستخدم في البلدان شديدة البرودة. كان إيان يمسك قائمة الشراب آنذاك، ويتوثق من جودة الشراب: كمية ملء الفم من الشراب حاد الطعم مع لقمة من حلوى التفاح... إلخ. يوجد معيار رئيس لقيام الهواة بإلقاء الدعابات وقوفاً، ويتميز هذا النمط بأنه غير محدود، ووجدت إيما نفسها تحاول أن تتصوّر رجلاً خيالياً، شخصاً وهمياً لا يكترث كثيراً بذلك، وإنما ينظر فحسب إلى قائمة الشراب ويطلب مما

يوجد فيها، بتواضع ولكن بحزم.

«... نكهات قديد مدخّن مع نكهة لحم زرافة شهية...».

إنه يضحك عليّ حتى أصاب بالذهول؛ كما فكّرت. يمكن أن أضايقه بالأسئلة، كما أفترض، وأستطيع إلقاء رغيف خبز عليه، لكنه سيأكله كله. نظرت إلى الزبائن الآخرين، وكلهم يفعلون صنيعهما نفسه، وفكّرت هل هذه خلاصة القول؟ حب رومانسي، هل هذا ما عليه الأمر؟ أهو عرض مواهب؟ تناولي وجبة، اذهبي إلى السرير، فلتقعي في حبي، وأعدك بسنوات كثيرة من مواعيد مثل هذه؟

«... تخيّل إن باعوا شراب الشعير بهذه الطريقة؟». لهجة غلاسويك. «شرابنا الخاص ثقيل على الذوق، مع إشارة قوية إلى مجلس العقارات، وعربة تسوّق قديمة وتعتيق حضري. يتناسب هذا تماماً مع عنف أهلي!...».

تساءلت من أين جاءت هذه المغالطة؛ إن هناك شيئاً لا يُقاوم في الرجال المضحكين؛ فكاثي لا تحن إلى هيثكليف؛ لأنه مضحك حقاً. والمزعج أكثر بشأن هذا الشيء هو أن إيان في الواقع يعجبها، وقد جاءت تحمل آمالاً كبيرة، وتشعر حتى ببعض الإثارة بشأن رؤيته مجدداً، لكنه بدلاً من ذلك كان يقول...

«... عصير البرتقال؛ برتقال مع خلاصة مكثّفة من البرتقال...».

حسنٌ، هذا كافٍ الآن.

«... معصور، لا، مأخوذ من حلمات أبقار، حليب معتّق من سنة 1989 بنكهة حليب مميزة...».

«إيان».

«ماذا؟».

«اخرس، هل يمكنك ذلك؟».

أطبق الصمت، وإيان يبدو متألماً وإيما تشعر بالحرج. لا بد أن ذلك من تأثير الشراب الذي يستخدم في البلدان شديدة البرودة. وللتغطية على الأمر، قالت بصوتٍ عالٍ: «ماذا إن طلبنا فالبوليسيلا فحسب؟».

نظر إلى قائمة الطعام. «علّيق وفانيلا، كما هو مكتوب هنا».

«ربما كتبوا ذلك؛ لأن مذاق الشراب علّيق وفانيلا؟».

«هل تحبين العلّيق والفانيلا؟».

«أحبهما».

طرفت عيناه وهو ينظر إلى السعر. «لنطلب منه إذاً!».

وبعد ذلك، الحمد لله، بدأت الأمور تتحسن.

مرحباً يا إيما، هذا أنا مجدداً. أعرف أنك خرجت إلى البلدة مع «فتى الضحك»، لكنني أردت فقط القول إنك عندما تعودين، وأفترض أنك ستكونين بمفردك، فقد قررت عدم الذهاب إلى العرض الافتتاحي بالمحصلة. سأكون في المنزل كل الليل؛ إن أردت المجيء. أعني، سأودُّ ذلك. سأدفع أجرة السيارة، ويمكنك قضاء الليل هنا. إذاً، عندما تعودين، اتصلي بي، ثم استقلي سيارة أجرة. هذا كل شيء. آمل أن أراك لاحقاً. محبتي وكل ذلك الكلام. إلى اللقاء يا إم، إلى اللقاء.

استغرقا في ذكريات الأيام الخوالي التي تمتد ثلاث سنوات خلت. تناولت إيما الحساء ثم السمك، وطلب إيان وجبة كبيرة من الكربوهيدرات، وبدأ بطبق ضخم من المعكرونة الدسمة دُفنت محتوياته بين طبقتين بيضاوين من الجبن لاذع الطعم. جعله ذلك والشراب الأحمر رصيناً قليلاً، وقد استرخت إيما أيضاً، وأضحت في الواقع على وشك أن تثمل. ولمَ لا؟ ألم تستحق ذلك؟ كانت قد قضت الشهور العشرة الأخيرة وهي تعمل بكد على شيء تثق به. وعلى الرغم من أن بعض وظائف التدريس بدت مروّعة بصراحة، إلا أنها كانت صافية الذهن كفاية لتدرك أنها بارعة في ذلك. في مقابلة العمل ذلك الأصيل بدا واضحاً أنهم قد شعروا بالطريقة نفسها، وأومأ المدير وابتسم موافقاً، ورغم أنها لم تجرؤ على قول ذلك بصوتٍ عالٍ، إلا أنها عرفت أنها قد حصلت على الوظيفة.

إذاً، لماذا لا تحتفل مع إيان؟ عندما أسهَبَ في الكلام، أمعنت النظر إلى وجهه وقررت أنه أكثر جاذبية بالتأكيد مما كان عليه؛ فحدّقت إليه ولم تعد تفكر في الجرارات. لم يكن هناك شيء صافٍ أو رقيق بشأنه؛ وإذا كنت تنتقي ممثلين لفيلم حربي، فسيؤدي ربما دور تومي الشجاع الذي يكتب رسائل إلى أمه، في حين سيكون دكستر... ماذا؟ نازياً عقيماً. على الرغم من ذلك، أحبّت الطريقة التي نظر بها إليها. يبدو مغرماً، كانت هذه هي الكلمة المناسبة. إنه مغرم وثمل، وشعرت هي أيضاً بثقل أطرافها وأنها تتقد انفعالاً ومغرمة به بالمقابل.

سكب آخر كمية شراب في كأسها. «إذاً، هل ترين أياً من الزملاء القدامى؟».

«ليس تماماً. التقيت مصادفة سكوت مرة في «يحيا قيصر»؛ ذلك المطعم الإيطالي المروّع. بدا بحال جيدة، لكنه لا يزال غاضباً. باستثناء ذلك، أحاول تفادي الجميع، فالأمر أشبه بسجن. من الأفضل عدم لقاء الزملاء القدامى، باستثنائك أنت طبعاً».

«لم أكن سيئاً جداً، أليس كذلك؟ حين عملت هناك؟».

«حسنٌ، إنهما سنتان من حياتي لن أستعيدهما أبداً». كانت تتكلم بصوتٍ عالٍ، هزّتها الملحوظة لكنها أبعدتها من ذهنها. «لا أعرف، أفترض أنه لم يكن وقتاً سعيداً جداً، وهذا كل شيء».

ابتسم بكآبة، ووكز مفاصل أصابعها بمفصله. «ألهذا السبب لم تردّي على مكالماتي الهاتفية؟».

«ألم أفعل؟ لا أعرف، ربما». رفعت الكأس إلى شفتها. «نحن هنا الآن. لنغيّر الموضوع. كيف تجري مهنة إلقاء الدعابات وقوفاً؟».

«أوه، على نحو جيد. أقدّم هذا العرض المثير الذي يضم مواد جديدة، وغير متوقعة حقاً. أحياناً لا أكون مضحكاً على الإطلاق! لكنني أفترض أن تلك متعة التجديد، أليس كذلك؟». لم تكن إيما واثقة أن ذلك صحيح، لكنها أومأت بالطريقة نفسها. «وأنا أقدم هذا العرض ليلة الثلاثاء في مستر تشكلز في كينيغتون. الأمر أكثر صعوبة وموضوعية؛ وكأنني أقوم بذلك النوع من عمل بيل هيكس عن الإعلان؟ مثل المعلنين الأغبياء على التلفاز؟...».

انزلق إلى روتينه المعتاد وجمّدت إيما ابتسامتها. كان سيقتله قول ذلك. لكن، طوال الوقت الذي عرفت إيان فيه لم يكن قد جعلها تضحك إلا مرتين، إحداهما حين وقع على درج القبو. كان رجلاً يتمتع بحس كبير بالدعابة، لكنه في الوقت نفسه لم يكن بأي طريقة مضحكاً؛ بخلاف دكستر. لم يكن دكستر يهتم إطلاقاً بالدعابات، ويظن على الأرجح أن حس الدعابة مثل الضمير السياسي؛ أمر محرج قليلاً وغير لطيف، لكنها مع دكستر تضحك طوال الوقت، هستيرياً، وبوضوح، حتى تتبول قليلاً. في العطلة في اليونان، كانا قد ضحكا عشرة أيام بلياليها، بعد أن سوّيا سوء التفاهم البسيط ذاك. أين كان دكستر آنذاك؟ تساءلت.

قال إيان: «هل تشاهدينه على التلفاز إذاً؟».

فزعت إيما؛ وكأنه ضبطها متلبسة. «من؟».

«صديقك دكستر، في ذلك البرنامج الغبي».
«أحياناً. كما تعلم، حين أشغّله».
«وكيف هو؟».
«أوه، بخير، كالمعتاد. حسنٌ، إنّه غريب الأطوار قليلاً لأكون صادقة، فهو يتصرف بطريقة غريبة. والدته مريضة، ولا يتقبّل الأمر جيداً».
«آسف لسماع هذا». عبس إيان قلقاً، وحاول اكتشاف طريقة لتغيير الموضوع. لم يكن قاسي القلب، لكنه لم يرغب بأن يعكّر مرضُ غريبة عنه أمسيتَه. «هل تتحدثان كثيراً؟».
«أنا ودكستر؟ معظم الأيام. لا أراه كثيراً، مع التزاماته التلفازية، وحبيباته».
«من يرى الآن إذاً؟».
«لا فكرة لدي. إنهن مثل سمكة ذهبية مسلّية، ولا فائدة ترجى من منحهن أسماء، فعلاقته معهن لا تستمر وقتاً طويلاً أبداً». كانت قد استخدمت الجملة من قبل وتمنّت أن يحبها إيان، لكنه بقي عابساً.
« لم أحبه قط، كما أفترض».
«لا، أنا أتذكر».
«حاولت».
«حسنٌ، ينبغي ألا تعده أمراً شخصياً. فهو ليس جيداً في التعامل مع رجال آخرين، إنه لا يرى فائدة منهم».
«في الواقع، ظننت دائماً –».
«ماذا؟».
«أنه يعتبرك أمراً مسلماً به، وهذا كل شيء».
أنا مجدداً! أتوثق فحسب. أنا ثمل قليلاً في الواقع، وعاطفي قليلاً. أنتِ إنسانة رائعة يا إيما مورلي، ومن اللطيف رؤيتك. اتصلي حين تعودين. ماذا كنت سأقول غير هذا؟ لا شيء، باستثناء أنكِ إنسانة رائعة جداً. إذاً، عندما تعودين اتصلي بي. قومي بإجراء هذا الاتصال.
بحلول وقت وصول المشروب الثاني لم يعد هناك شك في أنهما ثملان. حتى إن عازف البيانو أبيض الشعر كان يدندن بهدوء «سأركل نفسي بعيداً عنك»، وقدمه تضرب على

الدوّاسة؛ كأن شخصاً ما قد قطع كبل مكابحه. وجدت إيما نفسها مرغمة على رفع صوتها، وسمعته يتردد في رأسها حين تكلمت بشغف وقوة كبيرين عن مهنتها الجديدة.

«إنه تطور كبير في شمالي لندن، وسأدرّس الإنكليزية والمسرح أيضاً. مدرسة جميلة ومختلطة، وليست أحد تلك المراكز في الضواحي حيث يقول الجميع: نعم آنسة، لا آنسة. لهذا يمثّل الأطفال نوعاً من التحدي. لكن، لا بأس بهذا، أليس كذلك؟ هذا ما ينبغي أن يكون عليه الأطفال. أقول هذا الآن، لكنهم سيأكلونني على الأرجح حية، أولئك الأشقياء الصغار». حرّكت الشراب في الكأس بطريقة كانت قد رأتها في الأفلام. «تنتابني رؤية عني وأنا أجلس على حافة مقعد، وأتكلم كيف كان شكسبير أول قارع باب أو شيئاً مماثلاً، وكل أولئك الأطفال يحدّقون إلي فاغرين أفواههم ومنوّمين مغناطيسياً. أتخيل أنني أُحمل عالياً على أكتاف شبان ملهمين. تلك هي الطريقة التي سأتجول بها في المدرسة، ومرأب السيارات، والمطعم، وفي كل مكان أذهب إليه سأكون على أكتاف أطفال معجبين بي. إحدى أولئك المدرّسات اللواتي يغتنمن الملذات».

«آسف، أي مدرّسات؟».

«اللواتي يغتنمن الملذات».

«يغتنمن –؟».

«تعرف، ينتهزن الفرص!».

«هل هذا هو المعنى؟ ظننت أنه يعني أنهن يمشين على السجاد!».

صدرت عن إيما حازوقة مرح مؤدبة، بدت لإيان مثل مسدس بداية سباق. «هذا ما أخطأت به! واو، كانت أيامي المدرسية ستصبح مختلفة جداً لو أنني عرفت هذا! كل تلك السنين، أزحف على الأرضية...».

يكفي هذا. قالت بحدّة: «إيان، لا تفعل هذا».

«ماذا؟».

«لا تؤدِّ تمثيليتك، لست مضطراً إلى فعل هذا». بدا متألماً، وندمت على نبرتها، فمالت فوق الطاولة تمسك يده. «لا أظن فحسب أنه عليك أن تكون متشككاً طوال الوقت، أو تكرر ما تقوله، أو تلقي الدعابات، أو تتلاعب بالألفاظ. هذا ليس عملاً يا إيان، وإنما كلاماً وإصغاءً، كما تعرف».

«آسف، أنا –».

«أوه، الأمر لا يتعلق بك فقط، وإنما بالرجال عامة. فأنتم جميعاً تفعلون ذلك طوال الوقت. يا ربي، ماذا يمكن أن أفعل لأحظى بشخص يتكلم ويصغي فقط!». كانت قلقة من الإسهاب في الكلام، لكن الزخم استمر. «لا يمكنني أن أعرف لماذا هذا ضروري، لكن الأمر لا يتعلق بالقدرة على الإصغاء».

«باستثناء أنه نوعٌ منها، أليس كذلك؟».

«ليس معي، ولا ينبغي أن تكون كذلك».

«آسف».

«ولا تعتذرْ باستمرار أيضاً».

«أوه، لا بأس».

أطبق الصمت على إيان لحظة، وحان دور إيما لتشعر بضرورة الاعتذار. لم يكن ينبغي أن تفصح عن أفكارها، فلا شيء جيد يتمخّض عن الإفصاح عن مكنونات نفسك. كانت على وشك أن تعتذر، حين تنهّد إيان ووضع وجنته على قبضته.

«أظن أن هذه هي الحال، وإذا كنت في المدرسة ولست ذكية أو جميلة أو محبوبة أو مهما يكن، وتقولين يوماً ما شيئاً فيضحك أحدهم، حسنٌ، ستتعلقين به أليس كذلك؟ وستظنين، حسنٌ، أنا مضحكة ولدي هذا الوجه الكبير الغبي والفخذان البدينتان ولا أحد معجب بي، لكن على الأقل يمكن أن أجعل الناس يضحكون. وهذا شعور رائع جداً، أن تجعلي شخصاً يضحك، ويمكن التعويل قليلاً على ذلك. الأمر مثل: إذا لم تكن مضحكاً عندها أنت لست... أي شيء». كان ينظر إلى غطاء المائدة آنذاك، ويكوّم فتات الخبز في هرم صغير بأطراف أنامله حين قال: «في الواقع، كنت أظن أنك ربما تعرفين ما يعنيه هذا».

ارتفعت يد إيما إلى صدرها. «أنا؟».

«التظاهر بشيء ما».

«أنا لا أتظاهر بأي شيء».

«ذلك الجزء بشأن السمكة الذهبية المسلية، فقد قلت هذا من قبل».

«لا، أنا... إذاً؟».

«إذاً، أنا أظن فحسب أننا متشابهان تماماً، أنا وأنت، أحياناً».

أول فكرة خطرت لها أن ذلك يجرح مشاعرها. لا لست كذلك، أرادت أن تقول: يا لها من فكرة سخيفة! لكنه كان يتبسم لها – ماذا كانت الكلمة – بهيام شديد، وربما قست عليه قليلاً. بدلاً من ذلك، هزّت كتفيها: «لا أصدّق ذلك على كل حال».

«ماذا؟».

«أنّ لا أحد قد أُعجب بك».

تكلم بصوت هزلي حاد: «حسنٌ، يبدو أن الدليل الموثق سيثبت عكس ذلك».

«أنا هنا، أليس كذلك؟». أطبق الصمت، وكانت قد شربت كثيراً حقاً، وقد حان دورها لتلعب بفتات الخبز على الطاولة. «إنها حقيقة، كنت أفكّر أنك تبدو أفضل مظهراً هذه الأيام».

أمسك بطنه بكلتا يديه. «حسنٌ، كنت أعمل على ذلك».

ضحكت على نحو عفوي تماماً، ونظرت إليه وقررت أنه لم يكن حقاً وجهاً سيئاً بالمحصلة. ليس وجه فتى جميل سخيف، وإنما وجه رجل ناضج. عرفت أنه بعد دفع الفاتورة سيحاول أن يقبّلها، وستدعه يفعل ذلك هذه المرة.

قالت: «يجب أن نذهب».

«سأجعلهم يجلبون الفاتورة». أشار بعلامة الفاتورة الصغيرة إلى النادل. «هذا غريب، أليس كذلك، تلك المحاكاة الصغيرة التي يفعلها الجميع؟ أتساءل: فكرة من كانت؟».

«إيان؟».

«ماذا؟ آسف، آسف».

اقتسما الفاتورة مناصفة كما اتفقا. وفي طريق الخروج فتح لها إيان الباب، وشدّه بقوة حتى بدا أنه قد ضربه على وجهه. «بعض الكوميديا البدنية هنا...».

في الخارج، كانت ستارة ثقيلة من سحبٍ سوداء وأرجوانية قد تجمّعت في السماء، وللريح الدافئة تلك الرائحة الحديدية التي تسبق العاصفة، وشعرت إيما بدوار خفيف ونكهة الشراب حين سارا شمالاً عبر الساحة. لطالما كرهتْ حديقة كوفينت، بفِرق المزامير البيروفية، ولاعبي الخفّة واللهو القسري فيها، لكنها بدت تلك الليلة لطيفة، تماماً كما يبدو الإمساك بذراع ذلك الرجل الذي يُبدي لطفاً واهتماماً بها دائماً لطيفاً وطبيعياً، حتى إذا حمل سترته متدلية على كتفه من الحلقة الصغيرة في الياقة. رفعت بصرها إلى الأعلى، ورأته عابساً.

سألت، وهي تضغط على ذراعه بذراعيها: «ما الأمر؟».
«أشعر فقط، تعرفين، أنني قد أفسدت الأمر قليلاً. فأنا أصبحُ عصبياً، وأحاول جاهداً، وأُلقي ملحوظات سخيفة. هل تعرفين أسوأ شيء في كون المرء كوميدياً يلقي الدعابات وقوفاً؟».
«هل هي الثياب؟».
«الأسوأ هو أنّ الناس يتوقعون منك دائماً أن تكوني جاهزة. المرء يطارد دائماً ضحكة...».
ولأنها أرادت تغيير الموضوع، وضعت يديها على كتفيه، واستخدمت جسده لتسند نفسها حين وقفت على أطراف أصابع قدميها لتقبّله. كان فمه رطباً لكنه دافئ. تمتمت وشفتا كل منهما تطبق على شفتي الآخر: «علّيق وفانيلا». رغم أنها في الحقيقة تذوقت طعم الجبن والشراب. لم تمانع ذلك، وضحكت فيما كانت تقبّله، ثم أمسكت وجهه ونظرت إليه. بدا أنه على وشك أن يبكي شكراً، وشعرت بالسعادة مما قد فعلته.
«إيما مورلي، هل يمكنني فقط القول -». نظر إلى الأسفل إليها بوقار كبير. «أظن أنك الهراء بعينه».
قالت: «أنت، بكلماتك المعسولة! لنعد إلى منزلك، هل نفعل هذا؟ قبل أن يبدأ هطول المطر».
خمّني من؟ إنها الحادية عشرة والنصف الآن. أين أنت أيتها المولعة بالسهر؟ أوه، حسنٌ. اتصلي بي في أي وقت، أنا هنا، لن أذهب إلى أي مكان. إلى اللقاء.
على مستوى الشارع في طريق كالي، لم تكن شقة إيان الصغيرة مُنارة إلا بأضواء مصابيح الشارع وكشّافات حافلات الطابقين التي تتجاوز المكان. تهتز الغرفة كلها عدّة مرات في الدقيقة بسبب خطوط بيكاديلي أو فكتوريا أو الشمالي وحافلات 30، 10، 46، 214، 390. كانت بمعيار النقل العام أفضل شقة على الأرجح في لندن، لكن فقط بذلك المعيار. شعرت إيما بالاهتزازات في ظهرها حين استلقت على السرير الذي يُطوى ويتحوّل إلى أريكة، وقد أنزلت ثوبها الضيق إلى الأسفل على فخذيها.
«ماذا كان ذلك؟».
أرهف إيان السمع إلى الاهتزاز. «شرقي بيكاديلي».
«كيف تتحمّل هذا يا إيان؟».

«يعتاد المرء على الأمر، ولدي أيضاً هاتان»، وأشار نحو يرقتين كبيرتين من شمع رمادي على عتبة النافذة. «لديّ سدادتا أذنين شمعيتان».

«أوه، هذا لطيف».

«باستثناء أنني نسيت نزعهما في يوم سابق، وظننت أنني مصاب بورمٍ دماغي. الأمر صبياني تماماً، إن فهمت ما أعنيه».

ضحكت إيما، وتأوهت حين أُصيبت بنوبة غثيان أخرى. أمسك يدها.

«هل تشعرين بتحسّن؟».

«سأكون بخير ما دامت عيناي مفتوحتين». استدارت لتنظر إليه، ودفعت طيات اللحاف إلى الأسفل لترى وجهه، ولاحظت بقليل من الاشمئزاز أنه لا يوجد غطاء للّحاف وأنه بلون حساء الفطر. شمّت في الغرفة رائحة غريبة، وشذا رجال يعيشون بمفردهم. «أظن أن كأس الشراب الثانية هي التي فعلت هذا». ابتسم، لكن ضوءاً أبيض من حافلة تمر بالجوار غمر الغرفة، ورأت القلق على محياه. «هل أنت غاضب مني؟».

«طبعاً لا. إنه فقط، تعرفين، يقبّل الرجل فتاة وتبتعد عنه؛ لأنها تشعر بالغثيان...».

«أخبرتك، هذا بسبب الشراب فقط. قضيت وقتاً ممتعاً حقاً. أحتاج فقط إلى التقاط أنفاسي. تعال إلى هنا –». جلست لتقبّله، لكن أفضل صدرياتها انثنت، واندفع جزء منها تحت إبطها. «آه، آه، آه!». أعادتها إلى مكانها، ثم مالت إلى الأمام وأضحى رأسها بين ركبتيها. كانت يده تفرك ظهرها آنذاك، مثل ممرّض، وشعرت بالحرج لإفسادها كل شيء.

«من الأفضل أن أغادر المكان، كما أظن».

«أوه. لا بأس، إن كان هذا ما تريدينه».

استمعا إلى صوت الإطارات على الشارع الرطب، والضوء الأبيض يغمر الغرفة.

«تلك؟».

«رقم 30».

شدّت ثوبها، ثم وقفت مترنحة وأدارت تنورتها. «لقد قضيت وقتاً ممتعاً!».

«أنا أيضاً –».

«تناولت الكثير من الشراب –».

«أنا أيضاً –».

«سأذهب إلى المنزل وأصحو -».
«أفهم، لكن هذا مخجل».
نظرت إلى ساعتها؛ 11:52 مساءً. قعقع قطار نفقي حين مرّ تحت قدميها، وذكّرها أنها تقف في وسط محور نقل استثنائي. خمس دقائق مشياً إلى تقاطع كينغ، تستقل حافلة غربي بيكاديلي، وستصل إلى المنزل بحلول 12:30. كان المطر يهطل على لوح النافذة، لكن ليس بغزارة.
لكنها تخيّلت المشي إلى الطرف الآخر، وصمت الشقة الخاوية وهي تتحسس بحثاً عن المفاتيح، وملابسها الرطبة التي تلتصق بظهرها. تخيّلت نفسها بمفردها في السرير، والسقف يدور، والتاهيتي يهتز تحتها، وهي تشعر بالغثيان والندم. هل سيكون بقاؤها أسوأ شيء حقاً؟ هل سيكون سيئاً أن تنعم ببعض الدفء والعاطفة والمودة على سبيل التغيير؟ أم هل تريد حقاً أن تكون إحدى أولئك الفتيات اللواتي تراهن أحياناً على الشاشة: تعاني آثار الإسراف في الشراب، شاحبة ونكدة في فستان حفل الليلة الماضية؟ انهمر المطر على النافذة، أكثر غزارة بقليل هذه المرة.
قال إيان وهو يرتدي قميصه التائي: «هل تريدين مني أن أرافقك إلى المحطة؟ أو ربما -».
«ماذا؟».
«يمكنك البقاء هنا، والنوم في المكان؟ يمكننا فقط، تعرفين، احتضان بعضنا».
«نحتضن بعضنا!».
«احتضان، معانقة، أو حتى من دون ذلك. يمكننا أن نستلقي محرجين طوال الليل إن أردت».
ابتسمت، وابتسم أيضاً، يحدوه الأمل.
قالت: «محلول العدسات اللاصقة. لا أحمله معي».
«لدي منه».
«لم أكن أعرف أنك تضع عدستين لاصقتين».
«ها نحن ذا؛ شيء آخر مشترك بيننا». ابتسم وابتسمت له. «ربما يكون لدي زوج إضافي من سدادات الأذن الشمعية إن كنتِ محظوظة».

«إيان وايتهيد، أيها المعسول الكلام».

«... ارفعي السماعة، ارفعي السماعة، ارفعي السماعة. إنه منتصف الليل تقريباً الآن. عند منتصف الليل تماماً سأتحول إلى، ماذا؟ لا أعرف، أحمق على الأرجح. لهذا على كل حال، إذا سمعت هذه...».

«مرحباً، مرحباً؟».

«أنتِ هناك!».

«مرحباً يا دكستر».

«لم أوقظك، أليس كذلك؟».

«وصلت للتو. هل أنت بخير يا دكستر؟».

«أوه، أنا بخير».

«لأنك تبدو خائر القوى».

«أوه، أنا أقيم حفلاً. أنا فقط في حفل خاص صغير».

«أخفض صوت الموسيقى، هلاّ فعلت هذا؟».

«في الواقع، تساءلت فحسب... مهلاً، سأخفض صوت الموسيقى... إن كنت تريدين المجيء. يوجد شراب، وموسيقى، وربما يكون هناك حتى بعض الممنوعات. مرحباً؟ مرحباً، هل أنت هناك؟».

«ظننت أننا قررنا أن هذه ليست فكرة سديدة».

«هل فعلنا؟ لأنني أظن أنها فكرة رائعة».

«لا يمكن أن تتصل بي فجأة وتتوقع مني -».

«هيا يا نعومي، أرجوك؟ أحتاج إليك».

«لا!».

«يجب أن تكوني هنا بعد نصف ساعة».

«لا! المطر غزير».

«لا أعني أن تمشي. استقلي سيارة أجرة، وأنا سأدفع».

«قلت لا!».

«أحتاج حقاً إلى رؤية شخص ما يا نعومي».

«إذاً، اتصل بإيما!».

«إيما خارج منزلها، وهي ليست من ذلك النوع من الصحبة. تعرفين ما أعنيه. الحقيقة هي أنني إذا لم أمس إنساناً آخر الليلة فأنا أظن أنني ربما سأموت حقاً».

«–».

«أعرف أنك هناك، ويمكنني سماع أنفاسك».

«حسنٌ».

«حسنٌ؟».

«سأكون لديك بعد نصف ساعة. توقف عن الشرب، انتظرني».

«نعومي؟ نعومي، هل تدركين؟».

«ماذا؟».

«هل تدركين أنك تنقذين حياتي؟».

الفصل الثامن

المسرحية المدرسية
الجمعة 15 تموز 1994

ليتونستون وحديقة الكلاب

تأكل إيما مورلي جيداً ولا تشرب إلا باعتدال. تحظى بثماني ساعات نوم هنيئة، ثم تستيقظ بسرعة من تلقاء نفسها قبل السادسة والنصف بقليل وتشرب كأساً كبيرة من الماء؛ أول 250 مل من 1.5 لتر يومياً، تسكبها في الكأس نفسها من الإبريق الزجاجي الذي يقف في شعاع شمس الصباح إلى جانب سريرها المزدوج.

تكتكت ساعة المذياع، وسمحت لنفسها بأن تستلقي على السرير وتصغي إلى عناوين الأخبار. كان قائد حزب العمل جون سميث قد توفي، وهناك تقرير عن جنازته في كنيسة ويستمنستر؛ وسجاياه المحترمة التي تعدّت حدود حزبه، «أفضل رئيس وزراء حظينا به على الإطلاق»، وتوقع حذرٍ بشأن من سيخلفه. ذكّرت نفسها مرة أخرى بأن تفكّر في احتمال الانضمام إلى حزب العمل، بعد أن انتهت عضويتها في مجموعة «نزع السلاح النووي» منذ وقت طويل.

أرغمها المزيد من أخبار كأس العالم التي لا تنتهي على الخروج من السرير، وإبعاد اللحاف الصيفي، ووضع نظارتها السميكة القديمة، والانزلاق إلى فسحة الممر الصغيرة بين السرير والجدران. اتجهت نحو الحمّام الصغير وفتحت الباب.

«دقيقة واحدة!». شدّت الباب وأغلقته مجدداً، لكن ليس بسرعة كافية لتمنع نفسها من رؤية إيان وايتهيد مكوّراً على نفسه فوق كرسي المرحاض.

صرخت عند الباب: «لماذا لا توصده يا إيان؟».

«آسف!».

استدارت إيما، ومشت عائدة إلى السرير، واستلقت هناك وهي تصغي بنكد إلى التوقعات الزراعية. وفي الخلفية تدفق ماء المرحاض، ثم تدفق مرة أخرى، ثم سمعت صوتاً حادًّا حين نفخ إيان الهواء من أنفه، ثم تدفق آخر. أخيراً، ظهر عند الباب، أحمر الوجه ويتألم. لم يكن يرتدي ثياباً داخلية، وإنما مجرد قميص تائي أسود يصل إلى فوق وركيه. لم يكن هناك إنسان في العالم يمكن أن يتحمّل مظهره. لكن على الرغم من ذلك، بذلت إيما

جهداً كبيراً لإبقاء بصرها مركزاً على وجهه، في حين كان ينفخ الهواء ببطء من فمه.

«حسنٌ، كانت تلك تجربة مميزة».

«ألا تشعر بأي تحسّن؟». نزعت نظارتها، فقط لتجنّب المخاطرة.

«ليس حقاً». تجهّم، ويداه تفركان بطنه. «أعاني ألماً في المعدة الآن». تكلم بصوت خافت متألم، وعلى الرغم من أن إيما ظنّت أن إيان في حال مريعة، إلا أن هناك شيئاً بشأن كلمة «معدة» جعلها ترغب بإغلاق الباب بقوة في وجهه.

«أخبرتك أن القديد غير مناسب، لكنك لم تصغِ إلي -».

«إنه ليس ذلك -».

«أوه لا، القديد لا يسبب الألم فحسب. القديد بغيض».

«أظن أنه فيروس -».

«حسنٌ، ربما هي تلك الجرثومة التي تنتقل الآن. لقد أُصيبوا بها جميعاً في المدرسة، وربما نقلتها إليك».

لم يعارضها. «بقيت مستيقظاً طوال الليل، وأشعر أنني في حال يرثى لها».

«أعرف أن هذه حالك يا حبيبي».

«إسهال يترافق مع زكام -».

«إنه مزيج مدهش، مثل ضوء القمر والموسيقى».

«وأنا أكره أن أُصاب بالزكام في الصيف».

قالت إيما وهي تجلس: «هذه ليست غلطتك».

قال وهو يستمتع بمزاوجة الكلمات: «أظن أنها إنفلونزا معدة».

«تبدو مثل إنفلونزا معدة».

«أشعر...». شدَّ قبضتيه، وبحث عن الكلمة التي تلخّص كل ما ينتابه. «بألم... كبير! لا يمكنني الذهاب إلى العمل على هذه الحال».

«إذاً لا تفعل».

«لكن يجب أن أذهب».

«اذهب إذاً».

«لا يمكنني، أليس كذلك؟ أشعر أن هناك كمية كبيرة من المخاط هنا». مدَّ يده على

عرض جبينه. «مقدار كبير من البلغم الكثيف».

«حسنٌ، إنها صورة أحملها معي طوال اليوم».

«آسف، لكن هذا ما أشعر به». استدار حول حافة السرير إلى جانبه، وبتنهيدة ألم أخرى دسّ نفسه تحت اللحاف.

استجمعت قواها قبل أن تقف. كان ذلك اليوم مهماً جداً لإيما مورلي، يوماً تذكارياً، ويمكنها المضي قدماً من دون هذا. ستشهد هذه الليلة العرض الافتتاحي من أوليفر في مدرسة طريق كرومويل، واحتمال وقوع كارثة غير محدود تقريباً.

إنه يوم مهم لدكستر ميهو أيضاً. كان يستلقي تحت كومة من الملاءات الرطبة، ويفتح عينيه الواسعتين، ويتخيل كل الأشياء التي ربما تكون خطأً. سيظهر الليلةَ في بث حي على تلفاز قومي في برنامجه. مركبة؛ إنها مركبة لمواهبه. وفجأة، لم يعد واثقاً أنه يتمتع بأيٍّ منها.

ذهب في الليلة السابقة إلى السرير باكراً مثل فتى صغير - بمفرده وصاحياً - في حين كان لا يزال هناك ضوء في الخارج؛ على أمل أن يصحو نشيطاً وحاضر البديهة هذا الصباح. لكنه استيقظ في سبعٍ من الساعات التسع الآن، ويشعر بإرهاق وغثيان يترافق مع القلق. رنَّ الهاتف فجلس بسرعة وأصغى إلى صوته على جهاز الرد الآلي. قال بصوت حضري وواثق بنفسه: «إذاً، تكلم إلي!». وفكّر أحمق، يجب أن تغير الرسالة.

تطنُّ الآلة. «أوه، لا بأس إذاً. مرحباً. إنها أنا». شعر بالراحة المألوفة لسماعه صوت إيما، وأوشك أن يرفع السمّاعة حين تذكر أنهما قد تجادلا، وأنه يجب أن يكون متجهماً. «آسفة للاتصال في هذا الوقت الباكر، لكن بعضنا لديهم وظائف مناسبة يذهبون إليها. أردت فقط القول إنها ليلة مهمة، لذا أتمنى لك حظاً طيباً حقاً. جدّياً، حظاً طيباً. ستكون بخير، بل أكثر، ستكون رائعاً. ارتدِ شيئاً أنيقاً، ولا تتكلم بذلك الصوت الغريب. وأنا أعرف أنك منزعج مني لأنني لن أحضر، ولكنني سأشاهد البرنامج وأهتف مثل حمقاء...».

إنه خارج السرير الآن، يقف عارياً، ويحدّق إلى الآلة، وهو يمعن التفكير في رفع السمّاعة.

«لا أعرف وقت عودتي، فأنت تعرف كيف تكون هذه المسرحيات المدرسية؛ هذا العمل الجنوني الذي ندعوه استعراضاً مسرحياً. سأتصل لاحقاً. حظاً طيباً يا دكس، والكثير من المحبة. وبالمناسبة، ينبغي أن تغيّر رسالة جهاز الرد الآلي تلك».

وأغلقت السمّاعة. يمعن التفكير في الاتصال بها فوراً، لكنه يشعر أن عليه تكتيكياً أن

يحجم عن الكلام وقتاً أطول. لقد تجادلا مجدداً، وهي تظن أن حبيبها لا يعجبه، وعلى الرغم من إنكاره التام إلا أنه لا يمكن إخفاء حقيقة أنه لا يحب حبيبها.

لقد حاول حقاً. وجلس الثلاثة معاً في دور عرض ومطاعم رخيصة وملاهٍ قديمة كئيبة، ودكستر ينظر إلى عيني إيما ويبتسم موافقاً في حين يتنشّق إيان عنقها؛ ويبدو الحب حلماً يافعاً بعد بضع كؤوس. كان قد جلس إلى طاولة المطبخ الصغيرة في شقتها الصغيرة، في إيرلز كورت، ولعبوا لعبة تريفيال بورسويت بتنافس محموم بدا مثل ملاكمة بمفاصل اليد. انضم إلى الموظفين من سونيكوترونيكس في «مختبر الضحك» في مورتليك؛ لمشاهدة عرض إيان الكوميدي، وإيما تكشّر بعصبية إلى جانبه، وتكزه حتى يعرف متى يضحك.

لكن، حتى في أفضل حالات سلوكه تبدو العدائية ملموسة، ومتبادلة أيضاً. يستغل إيان كل فرصة ليشير إلى أن دكستر زائف؛ لأنه محط أنظار العامة، ومتعجرف متعالٍ فقط؛ لأنه يفضّل سيارات الأجرة على الحافلات الليلية، ونوادي المشتركين على المشارب، والمطاعم الجيدة على الوجبات السريعة. وأسوأ ما في الأمر أن إيما اشتركت في التقليل من شأنه، وكانت من بين المذكّرين بسقطاته. ألا يقدّرون مدى صعوبة الأمر؛ أن تتصرف بتهذيب وتبقي رأسك شامخاً حين يحدث الكثير لك وحياتك حافلة بالأحداث؟ إذا أمسك دكستر الفاتورة على الطاولة، أو عرض أن يدفع لسيارة الأجرة بدلاً من الحافلة، كانا يهمهمان ويتجهّمان وكأنه قد أهانهما بطريقة ما. لماذا لا يشعر الناس بالسعادة من نجاحه، ويشكرون كرمه؟ تلك الأمسية المؤلمة - ليلة فيلم الفيديو، حين جلسوا على أريكة متهالكة، وهم يشاهدون رحلة النجوم: غضب خان، ويحتسون الشراب، في حين تضيء مصابيح النيون سرواله من ماركة درايز فان نوتن — كانت القشة التي قصمت ظهر البعير. منذ ذلك الوقت فصاعداً إذا كان سيرى إيما فينبغي أن تكون بمفردها.

المفارقة - وعلى نحو يخالف المنطق - أنه أصبح... ماذا؟ غيوراً؟ لا، ليس غيوراً، لكنه صار ممتعضاً ربما. لقد توقع دائماً أن تكون إيما موجودة، أن تكون مرجعاً يمكنه الاتصال به في أي وقت مثل خدمات الطوارئ. ومنذ كارثة وفاة والدته في احتفال الكرسمس الماضي، كان قد وجد نفسه يعتمد عليها أكثر فأكثر؛ في الوقت الذي أصبحت فيه أكثر انشغالاً عنه. كانت في السابق ترد على المكالمات الهاتفية فوراً، لكن الآن تمضي أيام من دون أيّ كلمة. تقول إنها «تخرج مع إيان»، لكن إلى أين يذهبان؟ ماذا يفعلان؟ أيشتريان أثاثاً معاً؟ أم يشاهدان «أفلام فيديو»؟ أم يذهبان إلى الملاهي؟ لقد التقى إيان والدي إيما، جيم

وسو، وهما يحبانه، كما تقول. لماذا لم يلتق دكستر قط جيم وسو؟ ألن يحبّاه أكثر؟

الأكثر إزعاجاً على الإطلاق هو أن إيما تستسيغ على ما يبدو هذا الاستقلال الجديد عن دكستر. يشعر وكأنه يُلقَّن درساً؛ وكأنه تلقى صفعة على الوجه بسعادتها الجديدة. كانت قد أخبرته، وهي تحدّق إليه بمحبة: «لا يمكن أن تتوقع من الناس أن يبنوا حياتهم حولك يا دكستر». وقد تجادلا الآن مرة أخرى، وذلك لأنها لن تكون في الإستوديو من أجل البث المباشر لبرنامجه.

«ماذا تريد مني أن أفعل؟ هل ألغي أوليفر لأنك ستظهر على التلفاز؟».

«ألا يمكنك المجيء بعد ذلك؟».

«لا، المسافة أميال!».

«سأرسل سيارة!».

«يجب أن أتكلم إلى الأطفال بعد ذلك، الآباء...».

«لماذا ستفعلين ذلك؟».

«دكستر، كن منطقياً، إنه عملي!».

يعرف أنه فظ. لكن، سيكون مفيداً أن يرى إيما بين الجمهور. إنّه يصبح شخصاً أفضل حين تكون بجواره: أليس الأصدقاء لهذا الغرض؟ ليرفعوا من روحك المعنوية ويجعلوك في أفضل حالاتك؟ إيما تعويذة سعده، رُقيَة حظّه، والآن لن تكون هنا، ولن تكون والدته هنا، وسيتساءل لماذا يفعل ذلك أصلاً.

بعد حمّام طويل شعر بأنه أفضل حالاً قليلاً، وارتدى كنزة من صوف الكشمير من دون قميص، وسروالاً من الكتّان الباهت من دون ثياب داخلية، وانتعل زوجاً من بيركنستوكس، ثم اتجه إلى متجر الصحف ليقرأ المقابلات التلفازية ويتوثق من أن الصحافة والدعاية تقومان بعملهما. ابتسم صاحب متجر الصحف لزبونه الشهير باحترام كبير، وأسرع دكستر بالعودة إلى المنزل وذراعاه مملوءتان صحفاً. أحس أنه أفضل حالاً آنذاك؛ يتملّكه الخوف لكنه مبتهج أيضاً. وفيما كانت آلة الإسبرسو تعمل رنّ الهاتف مرة أخرى.

يخبره حدسه حتى قبل أن يرفع السماعة أنه سيكون والده، وأنه لن يرد على المكالمة. منذ وفاة والدته كانت الاتصالات قد أصبحت أكثر تواتراً وتعذيباً: تأتأة، تكراراً، شرود ذهن. يبدو والده، الرجل العصامي، الآن مثقلاً من أبسط الأعمال. كان فقدانه زوجتَه قد أثقل كاهله. وفي زيارات دكستر النادرة إلى المنزل رآه يحدّق بائساً إلى الدلّة وكأنها تقانة

غريبة.

قال الأحمق عبر الآلة: «إذاً، تكلم إلي!».

«مرحباً يا دكستر، أنا والدك». كان يستخدم صوته الهاتفي الرتيب: «أتصل فقط لأقول حظاً طيباً في برنامجك التلفازي الليلة. سأشاهده، وأشعر بإثارة كبيرة. ستكون أليسون فخورة جداً». أطبق الصمت لحظة وأدرك كلاهما أن هذا على الأرجح ليس صحيحاً. «هذا كل ما أردت قوله. أيضاً، لا تُعِرْ أي اهتمام للصحف. استمتع فحسب. إلى اللقاء، مع السلامة».

لا تُعِرْ أي اهتمام لماذا؟ أمسك دكستر السمّاعة.

«مع السلامة!».

أنهى والده المكالمة. لقد شغّل مؤقت المتفجرات ثم أغلق السمّاعة، ودكستر ينظر إلى كومة الصحف، المملوءة آنذاك بالوعيد. شدّ الحزام على سرواله الكتّاني وتفرّغ لصفحات الصحف المخصصة لبرامج التلفاز.

عندما خرجت إيما من الحمّام، استعمل إيان الهاتف، واستطاعت أن تعرف من نبرة صوته المعسولة والمرحة أنه يتكلم إلى والدتها. كان حبيبها وسو قد تفاهما جيداً منذ التقيا في ليدز في الكرسمس: «خضار شهية يا سيدتي، وأليس هذا الديك متبّلاً؟». إنها علاقة متينة، والاشتياق المتبادل بينهما شديد، وكل ما يمكن لإيما ووالدها فعله هو الاستهجان وتحريك عيونهما.

انتظرت بصبر أن يكف إيان عن ذلك. «إلى اللقاء يا سيدتي. نعم، آمل ذلك أيضاً. إنه مجرد زكام صيف وسأتعافى منه. إلى اللقاء يا سيدتي، مع السلامة». أمسكت إيما السمّاعة حين عاد إيان المريض جداً مرة أخرى للاستلقاء على السرير.

كانت والدتها تتورد وذاهلة. «إنّه رجل رائع. أليس رجلاً رائعاً؟».

«إنه كذلك يا أمي».

«آمل أن تعتني به».

«يجب أن أذهب إلى العمل الآن يا أمي».

«الآن، لماذا كنت أتصل؟ لقد نسيت تماماً سبب اتصالي».

كانت تتصل لتتكلم مع إيان. «هل كان ذلك لتتمنّي لي حظاً طيباً؟».

«حظاً طيباً على ماذا؟».

«المسرحية المدرسية».

«أوه، نعم، حظاً طيباً في ذلك. آسفة أننا لا نستطيع المجيء لمشاهدتها. إن لندن مكلفة جداً...».

تنهي إيما المكالمة الهاتفية بالتظاهر أن المحمصة تشتعل ناراً، ثم تذهب لترى المريض الذي يتعرّق بغزارة تحت اللحاف في محاولة «للتخلّص من المرض بالتعرّق». يدرك جزء منها على نحو مبهم نقطة ضعفها بوصفها حبيبة. إنه دور جديد لها، وتجد نفسها أحياناً تنتحل «سلوك الحبيبة»: إمساك اليدين، عناق أمام التلفاز، ذلك النوع من الأشياء. إيان يحبّها، ويخبرها بذلك مراراً وتكراراً، وتظن أنها ربما تستطيع أن تحبه أيضاً، لكن الأمر سيتطلب بعض الممارسة. وهي تنوي بالتأكيد أن تحاول، وتكوّر نفسها الآن قربه في السرير، في إشارة تعاطف واعية.

«إذا لم تكن تظن أن بمقدورك المجيء إلى العرض الليلة -».

جلس، متنبهاً. «لا! لا، لا، لا، سآتي بالتأكيد -».

«سأتفهم -».

«- حتى إن اضطررت إلى المجيء في سيارة إسعاف».

«إنها مجرد مسرحية مدرسية سخيفة، وسيكون الأمر محرجاً جداً».

«إيما!». رفعت رأسها لتنظر إليه. «إنها ليلتك الكبيرة! لن أفوّتها مقابل العالم كله».

ابتسمت. «جيد، أنا مسرورة». مالت وقبّلته بشفتين مغلقتين، ثم أمسكت حقيبتها وخرجت من الشقة مستعدة ليومها الكبير.

قرأ العنوان:

هل هذا أبغض رجل على التلفاز؟

وظنَّ دكستر لبعض الوقت أن هناك خطأ؛ لأنهم قد وضعوا صورته مصادفة تحت العنوان، وتحت ذلك كلمة واحدة هي «مغرور»؛ وكأن «مغرور» هو لقبه. دكستر مغرور.

ومع إمساكه كوب الإسبرسو بإحكام بين سبابته وإبهام، تابع القراءة:

تلفاز الليلة

هل هناك رجل أكثر غروراً، واعتداداً بالنفس، ووقاحة من دكستر ميهو في التلفاز

اليوم؟ يجعلنا مظهر وجهه الصبياني الجميل المزهو بنفسه نرغب في أن نركل الشاشة. في المدرسة، كانت لدينا عبارة تصف ذلك: إنه رجل يبدو واضحاً أنه يظن نفسه مهماً. الغريب أنه يوجد شخص هناك في ميديالاند يحبه كثيراً كما يحب نفسه؛ لأنه بعد ثلاث سنوات من كبّره (ألا تكرهون هذه الكلمة؟) يقدّم الآن برنامجه الموسيقي الخاص في وقت متأخر من الليل: حبس آخر الليل.

كان يجب أن يتوقف عن القراءة هنا، ويغلق الصحيفة ويمضي قدماً، لكن رؤيته المحيطية قد لمحت آنذاك كلمة أو اثنتين. كانت إحداهما «أحمق». تابع القراءة:

لهذا، إن كنتم ترغبون حقاً برؤية تلميذ مدرسة عامة وهو يحاول أن يصبح فتى جديداً، ويتخلّى عن لهجته، ويغازل السيدات، ويحاول إسعاد الأطفال غير مدرك أن الأولاد يضحكون عليه، فهذا البرنامج لكم. إنه على الهواء مباشرة، لذا قد تكون هناك بعض السعادة في مشاهدة موهبة الأحمق الشهير هذا في المقابلات. أو بدلاً من ذلك، يمكن أن تكوي وجهك بمكواة حديدية بخارية. مقدمة البرنامج المساعدة هي سوكي ميدوز «المثيرة»، والموسيقى من شد سيفن، إيكوبيلي وليمونهيدز. لا تقولوا إن أحداً لم يحذّركم.

لدى دكستر ملف قصاصات؛ علبة حذاء باتريك كوكس في أسفل خزانة الملابس، لكنه قرّر عدم وضع هذا المقال هناك. وبمقدار كبير من الصخب والفوضى حضّر لنفسه كوباً آخر من الإسبرسو.

فكّر أنها متلازمة الخشخاش، هذه ماهية الأمر، الداء البريطاني. قليل من النجاح ويريدون أن يطرحوك أرضاً. حسنٌ، لا آبه لذلك، فأنا أحب عملي وأنا بارع جداً فيه، وهو أكثر صعوبة بكثير مما يظن الناس، وتحتاج إلى أعصاب من فولاذ وذهنٍ لتكون مقدم برامج تلفازية، حسنٌ، حاضر البديهة. وإضافة إلى ذلك، ينبغي ألاّ تعد الأمر شخصياً؛ النقّاد، من يحتاج إلى النقّاد؟ فلا أحد أبداً يستيقظ ويقرر أنه يريد أن يصبح ناقداً. حسنٌ، من الأفضل أن أكون هناك لأفعل ما أجيده؛ يجب أن أضع نفسي في مكاني بدلاً من أن أكون عاجزاً، ومتصفاً بالحقد مقابل اثني عشر ألفاً في السنة؛ حسنٌ، لم يبنِ أحد قط تمثالاً لناقد، وسأثبت لهم؛ سأثبت لهم جميعاً.

خطرت أشكال مختلفة من هذا المونولوج في ذهن دكستر في يومه الكبير؛ في أثناء انتقاله إلى مكتب الإنتاج، في رحلته بسيارة صالون يقودها سائق خاص إلى الإستوديو في جزيرة

الكلاب، في أثناء تجربة الملابس بعد الظهر، ولقاء المنتج، وجلستي تصفيف الشعر والتزيين، وصولاً إلى اللحظة التي أضحى فيها بمفرده في غرفة ملابسه، واستطاع أخيراً فتح حقيبته وإخراج القارورة التي وضعها هناك في ذلك الصباح، ثم سكب لنفسه كأساً كبيرة من الشراب الذي يستخدم في البلدان شديدة البرودة، وأضاف إليها عصير برتقال دافئاً، وبدأ تناول الشراب.

«شجار، شجار، شجار، شجار، شجار –».

قبل خمس وأربعين دقيقة من رفع الستارة، كان من الممكن سماع الأصوات في كل أرجاء المبنى.

«شجار، شجار، شجار –».

أسرعت إيما في الممر، ورأت السيدة غراينغر تتعثر في أثناء خروجها من غرفة الملابس؛ وكأنها تفرُّ من حريق. «لقد حاولت إيقافهم، ولكنهم لا يصغون إلي».

«شكراً لك يا سيدة غراينغر، أنا واثقة أن بمقدوري معالجة الأمر».

«هل يجب أن أستدعي السيد غودامينغ؟».

«أنا واثقة أن كل شيء سيكون بخير. اذهبي أنتِ ودرّبي الفرقة».

«قلت إن هذه غلطة». غادرت مسرعة وهي تضع يدها على صدرها. «قلت إن الأمر لن ينجح أبداً».

سحبت إيما نفساً عميقاً ثم دخلت. رأت الحشد؛ ثلاثين مراهقاً يعتمرون قبعات عالية ويرتدون تنانير فضفاضة ويلصقون لحى اصطناعية يصرخون ويسخرون، في حين تجلس أرتفول دودجر على ذراعي أوليفر تويست وتضغط وجهه بقوة على الأرضية المغبرّة.

«ماذا يجري هنا يا قوم؟».

استدار الجمهور الفيكتوري، وتمتم أوليفر على المشمّع: «أبعديها عني يا آنسة».

قال سامر تشوداري؛ تلميذ في الثانية عشرة من عمره، ويطلق سالفين عريضين: «إنهما يتشاجران يا آنسة».

«يمكن أن أرى ذلك، شكراً لك يا سامر». وشقّت طريقها بين الحشد لتفرّقهما عن بعضهما. كانت سونيا ريتشاردز، الفتاة السوداء النحيلة التي تؤدي دور دودجر، لا تزال تشبك أظفارها في خصلات شعر أوليفر الشقراء، فأمسكت إيما بكتفيها وحدّقت إلى

عينيها. «اتركيه يا سونيا. اتركيه الآن، مفهوم؟ مفهوم؟». أخيراً، تركته سونيا وتراجعت إلى الخلف، وعيناها رطبتان آنذاك، وغضبها قد تلاشى واستبدلت به كبرياءٌ جريحة.

بدا مارتن داوسون، أوليفر اليتيم، ذاهلاً. كان طوله خمس أقدام، وهو أكبر حتى من السيد بومبل، لكن على الرغم من ذلك بدا الطفل البدين على وشك البكاء. «هي بدأت هذا!»، تهدّج بين صوتٍ عميق وحاد، وهو يمسح وجهه الملطخ بالغبار بقفا يده.

«كفى الآن يا مارتن».

«نعم، اخرس يا داوسون».

«أعني ذلك يا سونيا. كفى!». وقفت إيما في وسط الحلقة آنذاك، وهي تمسك المتشاجرين من المرفقين مثل حكم ملاكمة، وأدركت أنها إذا أرادت إنقاذ العرض ينبغي أن ترتجل خطاباً مؤثراً؛ إحدى لحظات هنري الخامس العديدة التي تكوّن حياتها العملية.

«انظروا إلى أنفسكم! انظروا كم تبدون رائعين كلكم بأزيائكم! انظروا إلى سامر الصغير هناك بسالفيه الكبيرين!». ضحك الحشد، وتظاهر سامر بمجاراتهم، وحكَّ شعره الملتصق برأسه. «إن أصدقاءكم وآباءكم في الخارج سيرون جميعاً عرضاً رائعاً؛ أداءً حقيقياً، أو على الأقل هذا ما ظننته». طوت ذراعيها، وتنهّدت: «لأنني أظن أننا سنضطر إلى إلغاء العرض...».

كانت تخدعهم طبعاً، لكن التأثير بدا ممتازاً، وسمعت همهمة احتجاج جماعية عالية.

احتج فاغين: «لكننا لم نفعل شيئاً».

«إذاً، من كان يصرخ: شجار، شجار، شجار يا رودني؟».

صرخ مارتن داوسون: «لكن سونيا جنَّ جنونها تماماً يا آنسة!». وبدأت سونيا تكافح للوصول إليه.

«نعم يا أوليفر، هل تريد المزيد منه؟».

سمعت ضحكاً، لكن إيما بذلت جهداً كبيراً لتستفيد من الخطاب الذي ألقته. «كفى! ينبغي أن تكونوا فرقة، لا جمهوراً! تعرفون أنني لا أمانع إبلاغكم أن هناك أشخاصاً في الخارج الليلة يظنون أنكم لا تستطيعون القيام بهذا! ويظنون أنكم عاجزون، وأن الأمر معقد جداً بالنسبة إليكم. إنه عمل تشارلز ديكنز يا إيما! كما يقولون، وهم ليسوا موهوبين كفاية، ولا يتمتعون بالانضباط اللازم للعمل معاً، وليسوا مؤهلين لمسرحية أوليفر! وينبغي تكليفهم بشيء لطيف وسهل».

قال سامر، المستعد لتولّي زمام المبادرة: «من قال هذا يا آنسة؟».

«لا يهم من قاله، لكن هذا ما يفكّرون فيه، وربما هم محقون! ربما ينبغي أن نُلغي الحفل كله!». طوال لحظة، تساءلت إن كانت تبالغ في ذلك، لكن من الصعب المبالغة في تقدير شهية المراهقين لتمثيل مسرحية شهيرة، وهناك همهمة احتجاج كبيرة صدرت منهم جميعاً وهم يعتمرون قبعاتهم العالية. حتى إذا عرفوا أنها تختلق ذلك، فهم يستمتعون بالمخاطرة. توقفت عن الكلام لإحداث التأثير المطلوب. «الآن، سنذهب أنا وسونيا ومارتن لإجراء حديث قصير، وأريد منكم أن تستمروا في الاستعداد، ثم الجلوس بهدوء والتفكير في أدواركم، ثم سنقرر ما سنفعله آتياً. هل هذا مفهوم؟ قلت هل هذا مفهوم؟».

«نعم يا آنسة!».

كان الصمت يطبق على غرفة تبديل الملابس حين تبعت المتخاصمين إلى الخارج، وانفجر الضجيج مجدداً في اللحظة التي أغلقت فيها الباب. رافقت أوليفر ودودجر على طول الممر، تجاوزوا قاعة الرياضة حيث تقود السيدة غراينغر الفرقة في عزف سيئ لمقطوعة «فكّر في نفسك»، وتساءلت مرة أخرى عمّا أقحمت نفسها فيه.

تكلمت إلى سونيا أولاً. «إذاً، ماذا حدث؟».

مالت أشعة ضوء المساء عبر نوافذ مقوّاة في الطابق الرابع، وحدّقت سونيا إلى الخارج إلى مبنى العلوم، بملل ظاهر للعيان. «تبادلنا بضع كلمات فحسب، وهذا كل شيء». جلست على حافة مقعد، وساقاها الطويلتان تتأرجحان في سروال مدرسي قديم مملوء خرقاً، وتلتصق على خفّيها الأسودين مشابك معدنية. رفعت إحدى يديها إلى ندبتها المصطنعة، ووجهها الصغير القاسي والجميل مشدود تماماً مثل قبضة؛ وكأنها تريد أن تثني إيما عن أي محاولة من ذلك الهراء. يخاف الأطفال الآخرون من سونيا ريتشاردز، حتى إنّ إيما تخاف أحياناً من سطوتها. إنها النظرة الثاقبة والغضب. قالت بحدّة: «لن أعتذر».

« لِمَ لا؟ وأرجوك لا تقولي هو بدأ ذلك».

امتلأ وجهها سخطاً. «لكنه فعل!».

«سونيا!».

«قال –». أحجمت عن المتابعة.

«ماذا قال يا سونيا؟».

أمعنت سونيا التفكير، وهي تزن احتمال قول قصص تتناقض مع شعورها بالجور. «قال

إن سبب تأديتي الدورَ هو أنه ليس تمثيلاً حقاً؛ لأنني فلاحة في الحياة الواقعية أيضاً».

«فلاحة».

«نعم».

«هذا ما قاله مارتن؟».

«هذا ما قاله، ولهذا ضربته».

«حسنٌ». تنهّدت إيما ونظرت إلى الأرضية. «أول شيء أقوله هو إنه لا يهم ما يقوله أي شخص إطلاقاً، وإنه لا يمكن أن تضربي الناس». كانت سونيا ريتشاردز مشروعها، وهي تعرف أنها يجب أن تمتنع عن إقامة أي مشروعات، وبدا واضحاً أن سونيا ذكية جداً، وهي أكثر التلاميذ ذكاءً في صفها لكنها عدائية أيضاً؛ إنها حادة الطباع وتشعر بالاستياء، وكبرياؤها مجروحة.

«لكنه أحمق صغير يا آنسة!».

قالت: «سونيا، أرجوك، كفى!». رغم أن جزءاً منها كان يظنُّ أن لدى سونيا وجهة نظر محقة بشأن مارتن داوسن الذي يعامل الأطفال، والمدرسين، والنظام التعليمي كله وكأنه يتكرّم عليهم بالمشي بينهم. في الليلة الماضية في غرفة الملابس، كان قد ذرف دموعاً حقيقية في أثناء «أين الحب؟»، وصرخ بنغمات حادة، وقد وجدت إيما نفسها تتساءل عمّا سيشعر به المرء إذا مشى على المسرح، ووضع يداً على وجهه ودفعه إلى الخلف بقوة. إن ملحوظة الفلاحة تجري في دمه، لكن رغم ذلك -

«إذا كان ذلك ما قاله -».

«هذا ما قاله يا آنسة -».

«سأتكلم إليه لأكتشف ذلك. لكن، إذا كان هذا ما قاله فإنه يكشف عن مدى جهله، ومدى سخافتك أيضاً؛ لأنه أثار غضبك». تلعثمت عند «سخافتك»، وبدت مثل كلمة آيلكلي مور. بساطة، كوني أكثر بساطة، كما أخبرت نفسها. «لكن، مهلاً، إذا لم نستطع تسوية هذا... النزاع، فعندها لا يمكننا حقاً تقديم العرض».

تجهّم وجه سونيا مجدداً، وبدأت إيما تلاحظ أنها على وشك أن تبكي. «لن تفعلي هذا».

«ربما سأفعل».

«آنسة!».

«لا يمكننا عرض المسرحية يا سونيا».

«يمكننا ذلك!».

«ماذا؟ وأنتِ تضربين مارتن بقوة في أثناء من سيشتري؟». ابتسمت سونيا رغماً عنها. «أنتِ ذكية يا سونيا، ذكية جداً، لكن الناس ينصبون هذه المكائد لك وأنتِ تمشين مباشرة إليها». تنهّدت سونيا، وانفرجت أساريرها، ونظرت إلى الخارج نحو المستطيل الصغير من العشب الجاف بجانب مبنى العلوم. «يمكن أن تبلي حسناً، ليس في المسرحية فقط وإنما في الصف أيضاً. كان عملك هذا الفصل متقد الذهن وحسّاساً وممتازاً حقاً». غير واثقة بطريقة التعامل مع المديح، تنشّقت سونيا وعبست. «يمكن أن يكون أداؤك أفضل في الفصل القادم، لكن يجب أن تسيطري على انفعالك يا سونيا، وينبغي أن تُظهري للناس أنك أفضل من ذلك». إنه خطاب آخر، وتظن إيما أحياناً أنها تهدر كثيراً من الطاقة في إلقاء خطابات مثل هذه. كانت تأمل إحداث نوعٍ من التأثير الملهم، لكن نظرة سونيا تجاوزت كتف إيما آنذاك، نحو باب غرفة الصف. «سونيا، هل تصغين إلي؟».

«اللحية هنا».

استدارت إيما ونظرت لترى وجهاً داكن الشعر عند لوح الباب الزجاجي، وعينان تحدّقان من خلاله مثل دب فضولي. قالت لسونيا: «لا تناديه صاحب اللحية، إنه المدير». ثم أشارت إليه ليدخل. لكن ذلك صحيح؛ لأن أول كلمة وثاني كلمة تدخلان رأسها حين ترى السيد غودالمينغ هما «لحية». إنها إحدى تلك الصور الغريبة: شعر ليس أشعثَ ومشذّباً بأناقة لكنه أسود فاحم، «فاتح إسباني»، وعيناه الزرقاوان تحدّقان مثل فتحتين ثُقبتا في سجادة. لهذا يدعى «اللحية». عندما دخل بدأت سونيا تحك ذقنها واتسعت عينا إيما تحسباً.

قال بصوته الطروب العميق: «مساء الخير للجميع. كيف تجري الأمور؟ هل كل شيء بخير يا سونيا؟».

قالت سونيا: «فظ قليلاً، لكنني أظن أننا سنكون بخير».

تنشّقت إيما، واستدار السيد غودالمينغ إليها: «هل كل شيء بخير يا إيما؟».

«كنت وسونيا نتحدث بحماسة قليلاً قبل العرض. هل تريدين الذهاب ومتابعة الاستعداد يا سونيا؟». بابتسامة ارتياح، دفعت نفسها بعيداً عن المقعد ومشت الهوينا إلى

الباب. «أخبري مارتن أنني سأنضم إليكم بعد دقيقتين».

أصبحت إيما والسيد غودالمينغ بمفردهما.

«حسنٌ!». ابتسم.

«حسنٌ».

في إشارة لبقة ذهب السيد غودالمينغ ليجلس مباعداً بين ساقيه على كرسيه، بأسلوب يلفت الأنظار. لكن، بدا أنه غيّر رأيه في منتصف المحاولة قبل أن يقرّر أنه لا مجال للتراجع آنذاك. «مشاكسة قليلاً سونيا تلك».

«أوه، إنها تتظاهر بالشجاعة فقط».

«سمعت تقارير عن شجار».

«لم يكن شيئاً مهماً. إنّه توتر ما قبل العرض». جالساً على كرسيه مباعداً بين ساقيه، بدا حقاً غير مرتاح على نحو غريب.

«سمعت أن صنيعتك كانت تطرح مراقب الصف المستقبلي أرضاً».

«معنويات شبابية عالية، ولا أظن أن مارتن كان بريئاً تماماً».

«صُفع بقوة هي العبارة التي سمعتها».

«تبدو مطلعاً على ما حدث».

«حسنٌ، أنا المدير». ابتسم السيد غودالمينغ عبر غطاء رأسه الصوفي، وتساءلت إيما إن كان بإمكانها - إن نظرت وقتاً طويلاً كفاية - رؤية الشعر ينمو؟ ماذا يوجد تحت كل تلك المادة؟ هل يبدو السيد غودالمينغ وسيماً حقاً؟ أومأ نحو الباب. «رأيت مارتن في الممر. إنه... انفعالي تماماً».

«حسنٌ، إنه يؤدي دور هذه الشخصية منذ ستة أسابيع، ويتبنّى مقاربة منهجية. أظن أنه لو استطاع ذلك لكان قد أصاب نفسه بالكُساح».

«هل هو بارع؟».

«الحمد لله أنه ليس كذلك، إنه مريع. الميتم أفضل مكان له. أهلاً بك لتُقحم أجزاء من كتيّب البرنامج في أذنيك في أثناء أين الحب؟». ضحك السيد غودالمينغ. «سونيا رائعة».

بدا المدير غير مقتنع. «سنرى». تحرك مضطرباً على الكرسي. «ماذا يمكن أن أتوقع

الليلة يا إيما؟».
«لا فكرة لدي، قد يحدث أي شيء».
«شخصياً، أنا أحب عمل الإحسان. ذكّريني، لماذا لا نقيم يوماً لجمع الصدقات؟».
«حسنٌ، إنه شيء متصل بالفساد، لذا...».
مرة أخرى ضحك السيد غودالمينغ. إنه يفعل ذلك كثيراً مع إيما، وقد لاحظ الآخرون هذا أيضاً. هناك إشاعات في غرفة المعلمين، تمتمات خافتة عن التفضيل، وبالتأكيد كان ينظر إليها بتركيز هذه الليلة. انقضت لحظة، وألقت نظرة إلى الخلف نحو الباب حيث يختلس مارتن داوسون النظر بعينين مغرورقتين بالدموع عبر اللوح الزجاجي. «من الأفضل أن أتحدث مع إيدث بياف في الخارج، قبل أن يقترف شيئاً شنيعاً».
«طبعاً، طبعاً». بدا السيد غودالمينغ سعيداً بالنزول عن الكرسي. «حظاً طيباً الليلة. كنت وزوجتي نتطلع قدماً إليها كل الأسبوع».
«لا أصدّق ذلك ثانية».
«هذا صحيح! يجب أن تلتقي بها بعد العرض. ربما يمكنني وفيونا تناول شراب مع... خطيبك؟».
«يا ربي، لا! إنه حبيبي فحسب. إيان -».
«في حفل الشراب بعد العرض».
«كأس من شراب القرع».
«نظّم الطاهي حملة ادفع واحمل».
«سمعت إشاعات عن مفاجئات صغيرة».
«إنه التدريس، صحيح؟».
«ويقول الناس إنه ليس رائعاً».
«بالمناسبة تبدين جميلة يا إيما».
فتحت إيما ذراعيها إلى الجانبين. كانت تضع مجرد أحمر شفاه باهت يتناسب مع فستانها الزهري الداكن. نظرت إلى الأسفل إلى فستانها وكأنه قد أصابها بالدهشة، لكن الملحوظة في الواقع هي التي أربكتها. قالت: «شكراً جزيلاً!». لكنه لاحظ تردّدها.
انقضت لحظة، ونظر نحو الباب. «سأرسل مارتن إليك، هل أفعل هذا؟».

«من فضلك».

اتجه نحو الباب، ثم توقف واستدار. «أنا آسف، هل خرقت إحدى القواعد المهنية؟ هل يمكنني قول هذا لأحد أفراد فريقي؟ إنه يبدو لطيفاً؟».

قالت: «طبعاً يمكنك ذلك». لكن، كان كلاهما يعرفان أن كلمة «لطيف» لم تكن الكلمة التي استخدمها، وإنما «جميلة».

قال توبي موراي من عند الباب، بصوته الحاد والثاقب: «اعذروني، لكنني أبحث عن أبغض رجل في التلفاز؟». كان يرتدي بزّة صوفية مقلّمة، ويضع تبرج الظهور على الشاشة، وشعره أملس ومزيّت في تسريحة غريبة، وأراد دكستر أن يرمي قارورة عليه.

قال دكستر، وهو لا يرغب فجأة في التحدث بإيجاز: «أظن أنك ستكتشف أنك أنت من تبحث عنه، وليس أنا».

قال مساعده في تقديم البرنامج: «عودة رائعة. إذاً، هل رأيت المقالات الصحفية؟».

«لا».

«لأنني أستطيع تمرير بعض النسخ لك».

«إنه مجرد مقال واحد سيئ يا توبي».

«لم تقرأ ميرور إذاً، أو إكسبريس، التايمز...».

تظاهر دكستر أنه يمعن النظر إلى ترتيبات عمله. «لم يبنِ أحد قط تمثالاً لناقد».

«صحيح. لكن، لم يبنِ أحد تمثالاً لمقدم برامج تلفازية أيضاً».

«اغرب عن وجهي يا توبي».

«آه، هذا قول مأثور!».

«لماذا أنت هنا على كل حال؟».

«لأتمنى لك التوفيق». مشى إليه، ووضع يديه على كتفي دكستر وضغط عليهما. ريّان ومشاكس، كان توبي في البرنامج هو الشخص الذي يتدخل بفظاظة ويقول أي شيء مضحك، لكن دكستر يزدريه؛ هذا الرجل ضئيل الحجم والنشيط، ويحسده أيضاً. في التدريبات والتمرين كان قد أجرى عدّة اتصالات هاتفية بشأن دكستر، وقلّده بمكر وسخر منه، فجعله يشعر بالإهانة وتلبّد العقل والغباء، وأنه الفتى الوسيم الذي لا يستطيع النظر إلى ما هو أبعد من أنفه. هزَّ كتفيه لإبعاد يدي توبي عنهما، وكان ذلك التنافر في صلب

مادة التلفاز الرائع الذي يعملون فيه، لكن دكستر شعر بالارتياب والظلم. كان بحاجة إلى كأس أخرى من الشراب الذي يستخدم في البلدان شديدة البرودة ليستعيد بعضاً من معنوياته الجيدة، لكنه لم يستطع، ليس وتوبي يبتسم له بتكلّف في المرآة؛ بوجهه الصغير الشبيه بوجه البومة. «إذا لم تكن تمانع، أود استجماع أفكاري».

«أفهم، تريد أن تركّز ذهنك».

«أراك هناك، صحيح؟».

«أراك أيها الوسيم. حظاً طيباً». أغلق الباب خلفه، ثم فتحه مجدداً. «لا، حقاً، أعني هذا، حظاً طيباً».

عندما توثق دكستر أنه أصبح بمفرده سكب لنفسه تلك الكأس ونظر إلى ذاته في المرآة. قميص تائي أحمر فاقع اللون يرتديه تحت سترة رسمية سوداء فوق جينز رث فوق حذاء أسود مدبب. شعره قصير وحاد الأطراف، ويجب أن يكون صورة عن الشاب ابن العاصمة، لكنه شعر فجأة بأنه عجوز ومتعب وحزين جداً. ضغط بإصبعين على كل عين وحاول أن يفسّر سبب تلك الكآبة البائسة، لكنه عانى مشكلة في استحضار أفكار منطقية. شعر وكأن شخصاً ما قد أمسك برأسه وهزّه. تحوّلت الكلمات إلى عصيدة ولم يرَ طريقة ممكنة للخروج من ذلك الوضع. لا تنهَر، كما أخبر نفسه، ليس هنا أو الآن؛ تماسك.

لكن ساعةً وقتٌ طويل جداً في برنامج تلفازي على الهواء مباشرة. وقرر أنه قد يحتاج إلى بعض المساعدة. رأى قارورة ماء صغيرة على خزانة ملابسه، فأفرغها في البالوعة، ثم ألقى نظرة على الباب، وأخرج قارورة الشراب الذي يستخدم في البلدان شديدة البرودة من الدرج مرة أخرى وسكب ثلاث بوصات، لا، أربع بوصات من السائل اللزج في القارورة، وأعاد الغطاء إلى مكانه ورفعها إلى الضوء. لم يكن بمقدور أحد أن يعرف الفرق مطلقاً. وبالطبع، لن يشربها كلها، لكنها هنا، في يده، لمساعدته على المضي قدماً. جعلته الخدعة يشعر بالإثارة والثقة مجدداً، وأضحى مستعداً ليثبت لجمهور المشاهدين، وإيما، ووالده في المنزل، ما يمكن أن يفعله. لم يكن مجرد مقدّم برامج، وإنما مذيعاً.

فُتح الباب، وقالت سوكي ميدوز، مقدمة البرنامج المساعدة: «كيف الحال؟». سوكي حبيبة مثالية على مستوى الأمة، امرأة تُعَدُّ الإثارة بالنسبة إليها طريقة حياة، وتكاد تعيش في فوضى. تستطيع سوكي أن تبدأ رسالة تعزية بكلمتي «كيف الحال؟»، وقد يجد دكستر

هذا تعجرفاً قاسياً ومرهقاً قليلاً لو أنها ليست بارعة الجمال ومحبوبة وتهتم كثيراً به.

«كيف حالك يا حبيبي؟ سيئ كما أتوقع!». وهذه موهبة سوكي الأخرى بوصفها مقدّمة برامج تلفازية؛ إجراء كل حديث وكأنها تخاطب حشداً في عطلة على الواجهة البحرية في واتسون-سوبر-مير.

«أنا متوتر قليلاً، نعم».

«واو! بالله عليك!». لفّت ذراعيها حول رأسه وأمسكته مثل كرة قدم. سوكي ميدوز جميلة، ويمكنه أن يطلق عليها لقب صغيرة القد، وهي تفور وتئز مثل شريط سخّان ألقي في حمّام. كان هناك بعض الغزل بينهما مؤخراً، إن كان من الممكن تسميته غزلاً. وجذبت سوكي وجهه إلى صدرها، ومثل مراقب صف ومراقبة صف، بدا أن هناك صعوبة لتقريب النجمين من بعضهما، وذلك منطقي من وجهة نظر مهنية، لكن ليس عاطفية. ضغطت على رأسه - «ستكون رائعاً!» - ثم أمسكت فجأة أذنيه وشدّت رأسه نحوها. «أصغِ إلي. أنت رائع، وتعرف هذا، وسنكون فريقاً رائعاً، أنا وأنت. أمي هنا الليلة وتريد أن تلتقي بك بعد العرض. بيني وبينك أظن أنها معجبة بك. أنا معجبة بك، ولذا ينبغي أن تُعجب بك أيضاً. تريد توقيعك، لكن يجب أن تعدني ألا تواعدها!».

«سأبذل قصارى جهدي يا سوكي».

«هل سيأتي أحد من أفراد أسرتك؟».

«لا».

«أصدقاء؟».

«لا».

«ما رأيك بهذه الملابس؟». كانت ترتدي كنزة وتنورة ضيقتين، وتحمل قارورة ماء إلزامية. «هل يمكنك رؤية شيء؟».

هل تغازله؟ غازلها تلقائياً، وهو يبتسم بتكلّف: «فقط إن بحثت عنهما». وشعرت سوكي بشيء ما. أمسكت يديه إلى الجانب وقالت بمودة: «ما خطبك يا حبيبي؟».

هزَّ كتفيه. «كان توبي هنا، يزعجني...». وقبل أن ينتهي من كلامه شدّته ليقف على قدميه، ووضعت ذراعيها حول خصره، ويداها تربتان على حزام سرواله تعاطفاً. «تجاهله، إنه غيور لأنك أفضل منه في هذا العمل». رفعت بصرها إليه، وذقنها يضغط على صدره. «أنت موهوب، وتعرف هذا».

ظهر مدير الطابق عند الباب. «نحن مستعدون لكما الآن أيها الشابان».

«نحن رائعان معاً، أليس كذلك، أنا وأنت، سوكي ودكس، دكس وسوكي؟ سندهشهم». فجأة، قبّلته مرة، بقوة كبيرة؛ وكأنها تمهر وثيقة. قالت في أذنه: «مزيد من هذا لاحقاً، أيها الفتى الذهبي». ثم أمسكت قارورة الماء الخاصة بها وخرجت إلى طابق الإستوديو.

قضى دكستر لحظة وهو ينظر إلى انعكاس صورته في المرآة. الفتى الذهبي. تنهّد وضغط بأصابعه العشر معاً بقوة على جمجمته وحاول ألاّ يفكّر في والدته. تماسكْ، ولا تفسد هذا الأمر. كن بارعاً، وافعل شيئاً جيداً. ابتسم تلك الابتسامة التي يخصّ التلفاز بها، أمسك قارورة الماء التي أضاف إليها المشروب، واتجه إلى طابق الإستوديو.

انتظرته سوكي عند حافة المسرح الضخم، وأمسكت يده ثم ضغطت عليها. بدا أفراد فريق العمل مثل خلية نحل، وربتوا على كتفه وضربوا ذراعه برفق حين مرّوا بجواره، وعالياً فوق رؤوسهم ظهرت راقصات مفعمات بالحيويّة يرتدين بكيني وينتعلن أحذية رعاة بقر ويمددن سيقانهن في أقفاصهن الحديدية. شاهدا توبي موراي يقوم بالعرض التمهيدي، ويحصل على ضحكات كبيرة أيضاً، حتى قدّمهما فجأة، طالباً من الجمهور تصفيقاً حاراً لمضيفيهما تلك الليلة، سوكي ميدوز ودكستر ميهو!

لم يكن يرغب بالذهاب، لكن الموسيقى صدحت من المكبّرات: «ابدأوا الرقص» من فرقة بروديغي، وأراد البقاء حيث هو في الكواليس، لكن سوكي جذبته من يده، وخرجت فجأة إلى أضواء الإستوديو الساطعة، تصرخ:

«حسنٌ!».

تبعها دكستر، وهو يحاول أن يبدو مؤدباً ودمثاً نوعاً ما في أثناء التقديم. كالمعتاد، يضم موقع التصوير كثيراً من السقالات. صعدا على المنحدرات حتى أصبحا ينظران للأسفل إلى الجمهور تحتهما، وسوكي تثرثر كل الطريق: «انظروا إلى أنفسكم، أنتم جميعاً رائعون، هل أنتم مستعدون لقضاء وقت ممتع؟ أصدروا بعض الضوضاء!». وقف دكستر أبكمَ على الجسر الحديدي بجانبها، والمجهار صامت في يده حين أدرك أنه ثمل. كانت تلك فرصته الكبيرة للظهور على التلفاز الوطني في برنامج على الهواء مباشرة، وهو ثمل بالشراب الذي يستخدم في البلدان شديدة البرودة، ويشعر بدوار منه. بدا الجسر الحديدي عالياً على نحو مستحيل، وأعلى كثيراً مما كان عليه في التدريبات، وأراد أن يستلقي. لكن، إذا فعل ذلك

فهناك فرصة بأن يلاحظ الأمر مليونا شخص، لذا مضى قدماً وقال: «مرحباً بكم جميعاً، كيف تشعرون كلكم؟».

قال صوت ذكوري واحد وواضح في أثناء صعوده إلى الجسر: «بغيض!».

حاول دكستر معرفة المتطفل؛ رجل وضيع نحيل بشعر وندر ستف، لكنه سمع ضحكة كبيرة؛ حتى المصوّرون كانوا يضحكون. رد دكستر: «وكيلي، سيداتي وسادتي»، وسرت موجة ضحك خافتة، لكن ذلك كل شيء. لا بد أنهم قد قرأوا الصحف. هل هذا أبغض رجل على التلفاز؟ يا للهول! هذا صحيح، كما فكّر، إنهم يكرهونني.

صرخ مدير الطابق: «دقيقة واحدة جميعكم». وشعر دكستر فجأة أنه يقف على سقالة. بحث بين الجمهور عن وجه ودود، لكنه لم يجد أياً منها، وتمنّى مرة أخرى لو أن إيما كانت موجودة هناك. كان بمقدوره أن يتباهى من أجل إيما، وأن يكون في أفضل حالاته لو أن إيما أو والدته هناك، لكنهما لم تكونا موجودتين، وإنما ذلك الجمهور الساحر الذي ينظر إليه شزراً فقط، الأصغر كثيراً منه. كان عليه أن يستمد بعض المعنويات من مكان ما، ويتخذ موقفاً، وقرر مستنداً إلى أدنى منطق يتمتع به الثمل أن الشراب قد يساعد، ولِمَ لا؟ لقد وقع الضرر. وقفت الراقصات المفعمات بالحيوية متسمّرات في أقفاصهن، واتجهت آلات التصوير إلى هناك، ففتح غطاء قارورته المحظورة، ورفعها، وابتلع منها ووجِل. ماء؛ قارورة الماء تحتوي ماءً. لقد استبدل أحدهم الشراب الذي يستخدم في البلدان شديدة البرودة بقارورة الماء خاصته.

أخذت سوكي قارورته.

ثلاثون ثانية على البث المباشر. لقد اختارت القارورة الخطأ، وتمسكها في يدها آنذاك؛ أداة كمالية صغيرة.

عشرون ثانية على البث المباشر، وهي تفتح الغطاء.

صرَّ: «هل تجلبين هذه دائماً؟».

«لا بأس بذلك، صحيح؟». وثبت على أصابع قدميها مثل ملاكم محترف.

«لقد حصلت على قارورتك بالخطأ».

«إذاً؟ امسح أعلاها!».

عشر ثوانٍ على البث المباشر وبدأ الجمهور يهتف ويجأر، وأمسكت الراقصات بالقضبان الحديدية لأقفاصهن وبدأن يدرن حولها حين رفعت سوكي القارورة إلى شفتيها.

سبعة، ستة، خمسة...

مدَّ يده إلى القارورة، لكنها أبعدتها عنه وهي تضحك.

«ابتعد يا دكستر، لديك قارورة خاصة بك!».

أربعة، ثلاثة، اثنان...

قال: «لكنه ليس ماء».

تجرّعت منها.

بدأ عرض الأسماء.

وبدأت سوكي تسعل، أصبح وجهها أحمر، وبقبقت حين صدحت آلات الغيتار عبر المكبّرات، وضُربت الطبول، فتلوّت الراقصات وانزلقت آلة تصوير على أسلاك من السقف العالي مثل طائر كاسر، وحامت فوق رؤوس الجمهور نحو مقدّمي البرنامج، وبدا للمشاهدين في المنازل وكأن ثلاث مئة شاب يحيّون امرأة جذّابة حين وقفت على السقالة وتقيأت.

تلاشت الموسيقى، وكل ما تمكّن الجميع من سماعه هو سعال سوكي. كان دكستر قد تجمّد، وجفَّ حلقه، وتسمّر على الهواء وحطّم مجهاره. بدا السطح يهبط، والأرض ترتفع ليطبقا عليه. قال صوت في سمّاعته: «قل شيئاً يا دكستر. مرحباً؟ دكستر؟ قل شيئاً؟». لكن ذهنه لم يعمل، وفمه لم يتحرك، ووقف هناك، صامتاً بكل طريقة. امتدّت لحظات الصمت ثواني.

لكن، الحمد لله لأن سوكي، المهنية حقاً، مسحت فمها بقفا يدها. «حسنٌ، هذا يثبت أننا نظهر على الهواء مباشرة!». وسمعوا ضحك ارتياح مضطرباً قليلاً من الجمهور. «كل شيء بخير حتى الآن، أليس كذلك يا دكس؟». وكزته في أضلاعه، فعاد إلى طبيعته.

قال: «آسف بشأن سوكي هنا، فالقارورة تحتوي على الشراب الذي يستخدم في البلدان شديدة البرودة!». ونفّذ تلك الحركة الهزلية الصغيرة برسغه، وسمعوا ضحكة أخرى، فشعر بأنه أفضل حالاً. ضحكت سوكي أيضاً، ووكزته ورفعت قبضة، ثم قالت: «لماذا يجب أن...». كان أسلوبها ساحراً، لكنه لم يتمكن إلا من رؤية وميض ازدراء خلف ذلك التعبير. لجأ إلى أمان جهاز العرض الآلي.

«أهلاً بكم إلى حبس آخر الليل، أنا دكستر ميهو -».

«- وأنا سوكي ميدوز!».

وعادا إلى المسار المنشود، يقدّمان مأدبة ليلة الجمعة من الكوميديا والموسيقى الرائعة، والإغراء والجاذبية مثل طفلين رائعين في المدرسة. «إذاً، من دون صخب إضافي، دعونا نقدم ما لدينا...». طوى ذراعه خلفه، مثل مدير الحلبة، «... وحيّوا حبس آخر الليل بحرارة! سبعة!».

ابتعدت آلة التصوير عنهما وكأنها قد فقدت الاهتمام بهما، وبدأت الأصوات من الرواق تتزاحم في رأسه وتعلو فوق صوت الفرقة. قال المنتج: «هل كل شيء بخير هناك يا سوكي؟». نظر دكستر إلى سوكي ملتمساً مساعدتها، فنظرت إليهم، وضاقت عيناها. كان بمقدورها أن تخبرهم: دكستر احتسى الشراب، وهو في حال فوضوية، وهاوٍ، ولا يمكن الوثوق به.

قالت: «كل شيء بخير. خرجتُ قليلاً عن السياق المعتاد، وهذا كل شيء».

«سنرسل شخصاً لإصلاح زينتك. دقيقتان يا قوم. ودكستر، تماسك من فضلك».

نعم، تماسك، كما أخبر نفسه. لكن المراقبين أخبروه أنه لا تزال هناك ست وخمسون دقيقة واثنتان وعشرون ثانية، وهو غير واثق إن كان بمقدوره ذلك.

* * *

تصفيق! تصفيق لم تسمع مثله من قبل، ارتدّ صداه عن جدران القاعة الرياضية. نعم، كانت الفرقة رائعة والمغنون مدهشين. نعم، حدثت عدّة مشكلات تقنية تمثّلت في فقدان بعض الأثاث وانهيار بعض المعدّات، وبالطبع من الصعب تخيّل جمهور أكثر تسامحاً، لكن رغم ذلك بدا النجاح باهراً. جعل موتُ نانسي السيدَ روتليدج، مدرّس الكيمياء، يبكي أيضاً؛ وعُدّت المطاردة فوق سطوح لندن، والممثلون يقفون في الظل، حركةً مسرحية رائعة قوبلت بنوعٍ من الدهشة والإثارة التي تثيرها عادة عروض الألعاب النارية. وكما هو متوقع، تألقت سونيا ريتشاردز، ما ترك مارتن داوسون يصك أسنانه حين حظيت بأكبر قدرٍ من التصفيق. كان هناك تهليل حماسي واستحسان متكرر، وبدأ الناس يضربون على المقاعد، وتوقف التصفيق، وسحبت سونيا إيما إلى المسرح وهي تبكي، يا للهول! إنها تبكي حقاً. تمسك سونيا يد إيما وتقول: «أحسنتِ يا آنسة، مدهش، مدهش». مسرحية مدرسية، وهذا أصغر نجاح يمكن تخيّله، لكن قلب إيما يخفق في صدرها ولا يمكنها أن تتوقف عن الابتسام، في حين تعزف الفرقة «فكّر في نفسك» بنغمات متنافرة. تمسك يدي الولدين اللذين يبلغان من العمر أربعة عشر عاماً وتنحني مراراً وتكراراً. شعرت ببهجة القيام بشيء

جيد، ولأول مرة منذ عشرة أسابيع لم تعد ترغب بركل ليونيل بارت.

في حفل الشراب بعد المسرحية، قُدّمت الكولا التي كانت تنسكب مثل الشراب، وهناك أيضاً خمس قوارير من شراب الإجاص الفوّار ليتشاطره الراشدون. جلس إيان في زاوية القاعة الرياضية وهو يحمل طبقاً من الطعام وكوباً بلاستيكياً من مسحوق بيشام كان قد اشتراه من أجل الحفل خاصة، وكان يبتسم وينتظر بصبر في حين تتلقى إيما كل المديح. قال أحدهم، بطريقة غير واقعية: «جيد كفاية من الحي الغربي!». ولم تمانع حتى عندما أخبرها روندي تشانس، الذي أدّى دور فاغين ويتناول باندا بوبز، أنها «مدرّسة ماهرة تماماً». هنّأها السيد غودالمينغ (أرجوك، نادِني فيل)، في حين نظرت إليها فيونا وهي متوردة الخدّين مثل زوجة مزارع تشعر بالملل وسيئة المزاج. قال فيل: «يجب أن نتكلم، في أيلول، بشأن مستقبلك هنا»، ثم مال وقبّلها مودّعاً، ما جعل بعض الأولاد، وبعض الموظفين، يطلقون صيحات «واو».

بخلاف معظم حفلات المسرحيات المدرسية، انتهى كل شيء بحلول الساعة التاسعة وأربعين دقيقة، وبدلاً من الليموزين الطويلة، استقلت إيما وإيان الحافلتين 55 و19 وسلكا خط بيكاديلي إلى المنزل. قال إيان، ورأسه يرتاح على رأسها: «أنا فخور جداً بك، لكنني أظن أنني أعرف هذا سلفاً».

عندما دخلت الشقة شمّت رائحة الورود، ورأت باقة ضخمة تتدلّى من آنية خزفية على طاولة المطبخ.

«أوه يا إلهي! إيان، إنها جميلة».

تمتم: «ليست مني».

«آه، ممن هي إذاً؟».

«الفتى الذهبي كما أتوقع. جاءت هذا الصباح. إنها رائعة تماماً إن سألتني. سأستحم بمياه ساخنة».

نزعت معطفها وفتحت بطاقة صغيرة. «أعتذر عن التجهم. آمل أن يجري الأمر على ما يرام الليلة. محبتي الكبيرة. دكس». ذلك كل شيء. قرأتها مرتين، نظرت إلى ساعتها، وشغّلت بسرعة التلفاز لتشاهد برنامج دكستر المهم.

بعد خمس وأربعين دقيقة، وعندما عُرضت الشارة النهائية، عبست وحاولت أن تفهم ما قد رأته آنذاك. لم تكن تعرف الكثير عن التلفاز، لكنها كانت واثقة تماماً أن دكستر لم

يتألق. بدا متوعكاً، وخائفاً أحياناً. تلعثم في الكلام، ونظر إلى آلة التصوير الخطأ، وبدا هاوياً وعديم الكفاءة؛ مما جعل الأشخاص الذين قابلهم - قارع الباب والشباب المغرورون الأربعة — يشعرون باضطرابه وتجلّت ردود أفعالهم بالازدراء أو السخرية. حدّق جمهور الإستوديو إليه أيضاً، مثل مراهقين في عرض إيمائي، أذرعهم مطوية عالياً على صدورهم. بدا أنه يبذل جهداً كبيراً وذلك للمرة الأولى منذ التقت به. هل كان، حسنٌ، ثملاً؟ لم تكن تعرف الكثير عن وسائل الإعلام، لكن يمكنها تمييز سيارة تتحطّم. بحلول وقت عزف الفرقة الموسيقى الأخيرة، كانت يدها قد ارتفعت لتغطي وجهها، وأصبحت تعرف ما يكفي عن التلفاز لتدرك أن ذلك لم يكن مثالياً. كانت السخرية سائدة تلك الأيام، لكن بالتأكيد ليس إلى الحد الذي تبدو فيه صيحات الاستهجان جيدة.

أطفأت التلفاز، وسمعت من الحمّام صوت إيان. أغلقت الباب ورفعت السمّاعة، رسمت على فمها ابتسامة تهنئة، وفي شقة خاوية في متنزه بلسايز ردّت آلة التسجيل الآلية. قال دكستر: «إذاً، تكلم إلي!»، وبدأت إيما تتحدث. «مرحباً! كيف حالك؟ أعرف أنك في الحفل، لذا أردت فقط القول، حسنٌ، أولاً شكراً على الورود. إنها جميلة جداً يا دكس، وما كان ينبغي لك فعل ذلك. لكن أساساً - حسنٌ! انتهيت! أنت! كنت رائعاً، ومسترخياً وممتعاً حقاً. أظن أنه مدهش، وعرض رائع حقاً، فعلاً». تردّدت: لا تقولي حقاً. إذا قلتِ «حقاً» كثيراً فستبدو «ليس حقاً». تابعت: «لا أزال غير واثقة في ما يتعلق بالقميص التائي تحت سترة البزّة، وإن رؤية نساء يرقصن في أقفاص منعشة دائماً. لكن يا دكستر، باستثناء ذلك، كان الأمر رائعاً. حقاً. أنا فخورة بك جداً يا دكس. في حال كنت مهتماً، كان عرض أوليفر جيداً أيضاً».

شعرت أن أداءها غير مقنع آنذاك، وقررت إنهاء الرسالة.

«إذاً، ها نحن ذا. لدى كلينا شيء نحتفل به! شكراً مجدداً على الورود. عمت مساءً. لنتكلم غداً. سأراك الثلاثاء، صحيح؟ وأحسنت صنعاً، جدياً، أحسنت صنعاً. إلى اللقاء».

في الحفل بعد البرنامج وقف دكستر بمفرده عند المشرب، وذراعاه مطويتان، وكتفاه تندفعان إلى الأمام. جاء الناس ليهنئوه، لكن لم يقف أحد معه وقتاً طويلاً، وبدا التربيت على الكتف مثل مواساة أو، في أفضل الحالات، «أحسنت في تفادي العقاب». كان قد استمر في الشرب بثبات، لكن الشراب بدا غير طازج في فمه، ولا شيء يمكنه أن يزيل

إحساسه بخيبة الأمل والإحباط والخزي.

قالت سوكي ميدوز بمزاج تأمّلي: «كيف الحال؟». كانت النجم المساعد، وبدا واضحاً أنها أصبحت هي النجمة آنذاك، وجلست إلى جانبه. «انظر إلى نفسك، تبدو مكتئباً».

«مرحباً يا سوكي».

«إذاً! جرت الرياح كما تشتهي السفن، كما أظن!».

بدا دكستر غير مقتنع لكنهما رنّا كأسيهما في الوقت نفسه.

«آسف بشأن ذلك... الشراب، أدين لك باعتذار».

«نعم، هذا صحيح».

«كان شيئاً لجعلي أسترخي، كما تعلمين».

«رغم ذلك، يجب أن نتكلم عن هذا في وقت آخر».

«لا بأس».

«لأنني لن أذهب إلى هناك مجدداً وأنت تكاد تفقد وعيك يا دكس».

«أعرف. لن تفعلي ذلك، وسأعوّضك عن هذا».

مسّت كتفها كتفه، ووضعت ذقنها عليه. «الأسبوع القادم؟».

«الأسبوع القادم؟».

«اصطحبني إلى العشاء، في مكان مكلف إن كنت لا تمانع. الثلاثاء القادم».

كان جبينها يمس جبينه آنذاك، ويدها على فخذه. كان مقرراً أن يتناول العشاء مع إيما الثلاثاء، لكنه يعرف أن بمقدوره دائماً إلغاء الموعد مع إيما، فهي لن تمانع. «لا بأس، الثلاثاء القادم».

«لا يسعني الانتظار». قرصت فخذه. «إذاً، هل ستبتهج الآن؟».

«سأحاول».

مالت سوكي ميدوز وقبّلت وجنته، ثم وضعت فمها بجوار أذنه مباشرة.

«تعال الآن ورحّب بأمي!».

الفصل التاسع

لفائف التبغ والشراب

السبت 15 تموز 1995

والتهامستو وسوهو

صورة بالقرمزي

رواية

إيما ت. وايلد

الفصل 1

كانت منطقة بيني نوعاً ما مسرحاً لبعض الجرائم في أيامها، لكن ليس لواحدة مثل... هذه.

قالت بحدّة: «هل حُرّكت الجثة؟».

توهجت الكلمات بلون أخضر مصفر على شاشة برنامج معالج النصوص: نتاج عمل صباح كامل. جلست على مقعد مدرسي صغير في الغرفة الخلفية الصغيرة في الشقة الجديدة الصغيرة، وهي تقرأ الكلمات، ثم تقرأها مجدداً، في حين يقرقر السخّان خلفها.

تكتب إيما في عطلات نهاية الأسبوع، أو في الأمسيات إن كانت لديها طاقة. كانت قد ألّفت روايتين (تجري أحداث إحداهما في غولاغ [معتقل]، والأخرى في المستقبل البعيد)، وكتاب صور للأطفال – برسومها الخاصة – عن زرافة برقبة قصيرة، ودراما تلفازية غاضبة عن عمال اجتماعيين بعنوان هراءٌ قاسٍ، ومسرحية قصيرة عن الحياة العاطفية المعقدة لأبناء العشرين، ورواية خيالية عن مراهقين يؤدون أدوار مدرّسين آليين أشرار، ومسرحية إذاعية عن احتضار امرأة تطالب بمنح النساء حق الاقتراع، وقصيدة قصيرة لم يكتمل أيٌّ منها، ولا حتى أبيات القصيدة القصيرة الأربعة عشر، بالإضافة إلى رسمها رسوماً هزلية.

مثّلت تلك الكلمات على الشاشة آخر مشروعاتها، ومحاولة من سلسلة روايات جريمة نسائية تجارية. كانت قد قرأت كل روايات أغاثا كريستي بعمر الحادية عشرة، ولاحقاً الكثير من أعمال تشاندلر وجيمس إم. كين أيضاً. بدا أنه لا يوجد سبب يمنعها من محاولة كتابة شيء بينهما، لكنها كانت تكتشف مرة أخرى أن القراءة والكتابة ليستا متماثلتين؛

إذ لا يمكنك أن تنهل من ذلك كثيراً ثم تحاول أن تعتصر شيئاً منه. وجدت أنها لا تستطيع التفكير في اسم لمحققتها، فضلاً عن وضع حبكة أصلية متماسكة، حتى إن اسمها المستعار بدا سيئاً: إيما ت. وايلد؟ تساءلت إن كان مصيرها أن تصبح إحدى أولئك الأشخاص الذين يقضون حياتهم وهم يجرّبون أشياء. كانت قد حاولت الانضمام إلى فرقة، وكتابة مسرحيات وكتب أطفال، وجرّبت التمثيل والحصول على عمل في النشر. ربما كان أدب الجريمة مجرد مشروع فاشل آخر إلى جانب أرجوحة البهلوان، والبوذية والإسبانية. استخدمت ميزة عدّ الكلمات في البرنامج الحاسوبي: خمس وثلاثون كلمة، ومن ضمنها العنوان والاسم المستعار النتن. تأوهت إيما، حرّكت العتلة الهيدروليكية على جانب كرسيها المكتبي وهبطت إلى مكان أقرب إلى السجادة.

سمعت قرعاً على الباب الخشبي. «كيف هي الحال في جناح آن فرانك؟».

تلك الجملة مجدداً! بالنسبة إلى إيان، لم تكن الدعابة شيئاً يُستخدم مرة واحدة، وإنما شيئاً يقوله مراراً وتكراراً حتى ينهار في يديك مثل مظلة رخيصة. عندما بدأا يلتقيان، كان تسعون في المئة تقريباً مما يقوله إيان يندرج تحت عنوان «دعابة»، التي تعني أنها تتضمن صوتاً مضحكاً وتلاعباً بالألفاظ وبعض المعنى الهزلي. وبمرور الوقت، كانت قد تمنّت أن تنخفض النسبة إلى أربعين في المئة، التي تبدو معقولة، لكن بعد سنتين تقريباً توقف الرقم عند خمس وسبعين، واستمرت الحياة المنزلية رغم ذلك المرح الصاخب. هل يستطيع حقاً أي شخص أن يستمر على ذلك «المنوال» طوال سنتين؟ كانت قد تخلّصت من ملاءاته السوداء، وبُسط شراب الشعير، وانتقت سراً ثيابه الداخلية، ولم يبق إلا بعضٌ من «سمر روسترز» خاصته الشهيرة. لكن، على الرغم من ذلك، كانت قد وصلت إلى أقصى حد في قدرتها على تغيير رجل.

قال بلهجة كوكني اللندنية: «كوب رائع من الشاي للسيدة؟».

«لا شكراً يا حبي».

«خبز وبيض؟». بلهجة إسكتلندية آنذاك. «هل يمكنني أن أحضّر لك بعض الخبز والبيض يا قرة عيني؟».

كانت عبارة قرة عيني تطوراً حديثاً. عندما ضغطت عليه ليفسّر ذلك، شرح أنه يقول ذلك؛ لأنها أغلى من عينه. كان هناك اقتراح بأن ترد مغازلته بالمثل وتناديه «صميم قلبي»؛ قرة عين وصميم قلب، لكن الأمر لم ينجح.

«... أرغفة خبز مع البيض؟ جهّزي معدتك الليلة». الليلة. غالباً عندما كان إيان يقول شيئاً باللهجة العامية، يعزى السبب في ذلك إلى أن هناك شيئاً في ذهنه لا يمكن قوله بصوتٍ طبيعي.

«إنها ليلة مهمة. الخروج إلى البلدة مع مجهار تلفاز».

قررت أن تتجاهل الملحوظة، لكنه لم يكن يجعل الأمر سهلاً. وضع ذقنه على رأسها، وقرأ الكلمات على الشاشة.

«صورة بالقرمزي...».

غطّت الشاشة بيدها. «لا تقرأ من فوق كتفي من فضلك».

«إيما ت. وايلد. من هي إيما ت. وايلد؟».

«اسمي المستعار. إيان –».

«هل تعرفين ما يرمز إليه حرف ت؟».

«تعيسة».

«تدهش، تسلب الألباب».

«تعيسة، كما يحدث حين تمرض و –».

«إذا أردتني أن أقرأها –».

«لماذا تريد أن تقرأها؟ إنها هراء».

«لا شيء تفعلينه هراء».

«حسنٌ، هذه كذلك». أدارت رأسها بعيداً، وأغلقت الشاشة وعرفت من دون أن تستدير إليه أنه يرمقها بتلك النظرة البائسة. كانت تجد نفسها على تلك الحال مع إيان في أحيانٍ كثيرة، تتنازعها مشاعر التردد والندم. قالت، وهي تمسك يده من أصابعها وتهزّها: «آسفة!».

قبّل أعلى رأسها، ثم تكلم في شعرها: «هل تعرفين ما أظن أنه يرمز إليه؟ 'أل التعريف' كما في 'الهراء'. إيما ت. هـ. وايلد».

بعد ذلك، غادر؛ تقنية تقليدية، إطراء وهروب. عاقدة العزم على ألا تتوقف فوراً، دفعت إيما الباب خلفه، وشغّلت الشاشة، وقرأت الكلمات هناك، ارتعشت على نحو ظاهر للعيان، ثم أغلقت الملف وسحبته إلى أيقونة سلة المهملات. ضوضاء أزيز إلكتروني،

وصوت كتابة.

أشار زعيق الإنذار من الدخان إلى أن إيان يطبخ. وقفت وتبعت رائحة الدهن المحترق عبر الردهة إلى المطبخ/حجرة الطعام؛ ليست غرفة منفصلة، وإنما الجزء الأكثر تلوثاً بالدهن في غرفة المعيشة في الشقة التي اشترياها معاً. لم تكن إيما واثقة بشأن الشراء، وبدت من نوع الأماكن التي تُستدعى الشرطة إليها كما قالت، لكن إيان أقنعها. كان الاستئجار فكرة جنونية، ويستطيعان رؤية بعضهما معظم الليالي على كل حال، والشقة بالقرب من مدرستها، على بعد مرمى حجر... إلخ، وهكذا دفعا معاً العربون واشتريا بعض الكتب لتكون ديكوراً داخلياً، ومن بينها كتاب يخبرك عن كيفية طلاء الخشب ليبدو مثل رخام إيطالي رائع. تبادلا أطراف حديث ملهم عن وضع موقد هناك، ورفوف كتب وخزائن مناسبة، وحلول تخزين. ألواح أرضية مكشوفة! سيطلب إيان من مُرمّل أن يكشف ألواح الأرضية كما ينص القانون. قاما في يوم سبت ماطر من شباط برفع السجادة، والنظر بجزع تحتها إلى فوضى شظايا الخشب المتعفّنة، والأرضية المحطّمة والصحف القديمة، ثم ثبّتاها بالمسامير في مكانها وهما يشعران بالذنب؛ وكأنهما يتخلصان من جثة. كان هناك شيء غير مقنع وزائل بشأن تلك المحاولات الخاصة بتأسيس بيت؛ كأنهما طفلان يبنيان مختلى. وعلى الرغم من الطلاء الجديد، والرسوم على الجدران، والأثاث الجديد، إلا أن الشقة بقيت تعبق بالهواء المؤقت كريه الرائحة.

وقف إيان آنذاك في المطبخ الصغير في شعاع من ضوء الشمس وهو يدير ظهره لها. راقبته إيما من الباب، وأمعنت النظر إلى القميص التائي الرمادي القديم المألوف بالثقوب فيه، وبوصة من ثيابه الداخلية مرئية فوق سروال البزّة الرث، وحذائه البالي. استطاعت رؤية كلمتي كالفين كلين مقابل شعره البني وخطر لها أن ذلك لم يكن على الأرجح كل ما فكّر كالفين كلين فيه.

تكلمت لتكسر الصمت. «ألا يعد ذلك محترقاً قليلاً؟».

«ليس محترقاً، وإنما محمّصاً».

«أقول إنه محترق، وتقول إنه محمّص».

«لنوقف هذا الكلام كله!».

صمت.

قالت: «يمكنني رؤية أعلى سروالك الداخلي».

«نعم، هذا متعمّد. هذا يدعى الموضة يا حبيبتي».
«حسنٌ، إنها بالتأكيد مثيرة جداً».
لا شيء، باستثناء صوت الطعام يحترق.
لكن، حان دور إيان ليستسلم هذه المرة. قال من دون أن يستدير: «إذاً، إلى أين سيصطحبك الفتى ألفا؟».
«إلى مكان ما في سوهو، لا أعرف». في الواقع لم تكن تعرف، لكن اسم المطعم كان كلمة شائعة آنذاك لتناول الطعام العصري في العاصمة، ولم تكن ترغب بجعل الأمور أسوأ.
«إيان، إذا لم تكن تريد أن أذهب الليلة –».
«لا، اذهبي واستمتعي بوقتك –».
«أو إذا أردت المجيء معنا؟ –».
«ماذا؟! أنا وهاري وسالي؟ أوه، لا أظن ذلك. ماذا عنك؟».
«ستكون موضع ترحيب كبير».
«كلاكما يمزح وتتكلمان عني طوال الأمسية –».
«نحن لا نفعل هذا –».
«فعلتما ذلك في المرة الماضية!».
«لا، لم نفعل!».
«هل أنت واثقة أنكِ لا تريدين بعض هذا الطعام؟».
«لا!».
«وعلى كل حال، أنا مدعو إلى العشاء الليلة، أليس كذلك؟ منزل ها ها، في بوتني؟».
«عشاء مدفوع؟».
قال بحدّة: «نعم، عشاء مدفوع! أنا بخير، شكراً جزيلاً لك».
بدأ يبحث بصخب في الخزانة عن بعض الصلصة البنية. «لا تقلقي بشأني».
تنهّدت إيما بانزعاج. «إذا لم تكن تريد مني أن أذهب، فقل هذا وحسب».
«إم، نحن لسنا ملتصقين بالوركين. اذهبي إن أردت، واستمتعي بوقتك». أزّت قارورة الصلصة. «لا تقيمي معه علاقة فحسب. هلاّ انتبهت؟».
«حسنٌ، هذا لن يحدث أبداً، أليس كذلك؟».

«لا، هذا ما تقولينه باستمرار».

«إنه يخرج مع سوكي ميدوز».

«لكن، إذا لم يكن يفعل؟».

«إذا لم يكن يفعل فلن يشكّل ذلك أي فرق؛ لأنني أحبك».

لم يكن ذلك كافياً. لم يقل إيان شيئاً وتنهّدت إيما. مشت في المطبخ، وقدماها تصرّان على المشمّع، ولفّت ذراعيها حول خصره، وشعرت أنه يميل إليها حين فعلت ذلك. ضغطت وجهها على ظهره، وشمّت رائحة الجسد الدافئ المألوفة، قبّلت قماش قميصه، وتمتمت «توقف عن هذه السخافة». ووقفا على تلك الحال لبعض الوقت، حتى أصبح واضحاً أن إيان يريد البدء بتناول الطعام. قالت: «حسنٌ، من الأفضل أن أصحح تلك المقالات»، ومشت مبتعدة. ثمانية وعشرون رأياً خدراً عن وجهة نظر في قتل محاكٍ.

قال حين وصلت إلى الباب: «إم؟ ماذا ستفعلين هذا الأصيل؟ نحو الساعة الخامسة عصراً؟».

«ينبغي أن أكون قد انتهيت، لماذا؟».

رفع نفسه إلى طاولة المطبخ وهو يضع طبقاً على حجره. «أفكّر في أن نذهب إلى السرير من أجل، كما تعرفين، بعض المتعة بعد الظهر».

فكّرت: أنا أحبّه، لكنني لست واقعة في غرامه ولا أحبه أيضاً. لقد حاولت، وبذلت جهداً لأحبه لكنني لم أستطع. أنا أبني حياة مع رجل لا أحبه، ولا أعرف ماذا أفعل بشأن هذا.

قالت من حيث تقف عند الباب: «ربما، رب-ما»، وبوّزت شفتيها في قبلة، ثمّ ابتسمت وأغلقت الباب.

* * *

لم يعد هناك فجر، إنما وقت متأخر من الصباح.

استيقظ دكستر وقلبه يخفق بقوة، ويتصبب عرقاً، بعد منتصف الظهيرة تماماً على صوت رجل يصرخ في الخارج؛ لكن، تبين أنه «إم بيبل». كان قد غرق في النوم أمام التلفاز مجدداً، وهو متحفّز آنذاك للبحث عن البطل داخله.

كانت أيام السبت بعد حبس آخر الليل تنقضي دائماً على تلك الحال، في الهواء

الخانق، والمصاريع مغلقة لتمنع دخول أشعة الشمس. لو كانت والدته لا تزال حية، لصرخت عليه من أسفل السلالم لينهض ويفعل شيئاً ما في اليوم، لكنه بدلاً من ذلك جلس يدخّن على الأريكة الجلدية السوداء مرتدياً سروال الليلة الماضية الداخلي، وهو يلعب ألتيمت دووم على بلي–ستيشن ويحاول ألا يحرّك رأسه.

بحلول منتصف الأصيل، شعر أن عطلة نهاية الأسبوع تزحف عليه بكآبة، وهكذا قرّر أن يجرّب مزيجه. كان دكستر مثل مهندس صوت هاوٍ، ولديه مجموعة كبيرة من الأقراص المضغوطة وأسطوانات الفونوغراف النادرة في أكياس خاصة، وقرصان دوّاران ومجهار، كلها استقطاعات ضريبية، ويمكن دائماً رؤيته في متاجر التسجيلات في سوهو، وهو يضع زوجاً ضخماً من سماعات الرأس مثل جوزتي هند مشطورتين. لا يزال مرتدياً سرواله الداخلي، بحث بتكاسل في مجموعته الجديدة من الأقراص المضغوطة استعداداً لليلة الكبيرة الآتية مع زملاء. لكن شيئاً كان مفقوداً، وسرعان ما تخلّى عن ذلك، وأعلن: «الأقراص المضغوطة ليست أسطوانات». ثم أدرك أنه قد قال هذا إلى غرفة خالية تماماً.

مكتئباً مجدداً، تنهّد ومشى إلى المطبخ، وهو يتحرك ببطء مثل رجل يتعافى من جراحة. كانت الثلاجة الضخمة مملوءة كلها بقوارير من نوعٍ جديد ولذيذ من عصير التفاح. إضافة إلى تقديم البرنامج (يدعونه تلفاز حادث السيارة، وواضح أنه شيء جيد)، كان قد وسّع نشاطه أخيراً إلى الدبلجة. قالوا إنه «ليس نمطياً»، وذلك أيضاً شيء جيد، فقد أضحى مثالاً للجيل الجديد من الرجل البريطاني: حضري، ثري، لا يشعر بالإحراج من فحولته وإثارته الجنسية، وحبّه للسيارات والساعات الكبيرة المصنوعة من التيتانيوم والأدوات الفولاذية اللامعة. كان قد قام بالدبلجة حتى ذلك الوقت لمشروب التفاح الفاخر المعبّأ، المصمم لجذب جمهور شاب يرتدي ملابس تد بيكر، وسلالة جديدة من أدوات الحلاقة للرجال، وهي أداة خيال علمي استثنائية بشفرات متعددة وشريط مزيّت يترك أثراً مخاطياً؛ وكأن شخصاً قد عطس على ذقنك.

كان قد وطئ بإصبع قدمه عالم عرض الأزياء، وهذا طموح قائم منذ أمدٍ طويل لم يجرؤ على الإفصاح عنه من قبل، ويسارع إلى صرفه من ذهنه؛ لأنه «مجرد شيء ساخر». وفي ذلك الشهر فقط كان قد ظهر في عرض أزياء نُشرت صوره في مجلة رجال، والموضوع هو «أناقة قطّاع الطرق»، وعلى امتداد تسع صفحات مضغ السيجار، أو استلقى وهو يحمل رصاصات ويرتدي بزّات مخيطة باليد. كانت نسخ من المجلة مبعثرة كيفما اتفق في أنحاء

الشقة، حتى يعثر الضيوف عليها مصادفة، وهناك نسخة بجانب المرحاض أيضاً، ووجد نفسه أحياناً يجلس هناك ويحدّق إلى صورته، ميتاً لكنه يرتدي ملابس جميلة ومسجّى على غطاء محرك جاكوار.

كان تقديم تلفاز حادث السيارة رائعاً لبعض الوقت. لكن، لا يمكنك تحطيم السيارة إلا بضع مرات فقط. في مرحلة ما في المستقبل عليه أن يفعل شيئاً جيداً حتى تتضح جودته مقارنة بأي شيء سيئ، وفي محاولة لاكتساب بعض الصدقية أنشأ شركة إنتاج؛ مايهام التلفازية المحدودة، التي لم تكن موجودة آنذاك إلا بوصفها شعاراً أنيقاً على بعض القرطاسية المكلفة، لكن ذلك سيتغير بالتأكيد. يجب أن يحدث ذلك، كما كان وكيله آرون قد قال: «أنت مقدّم برامج شبابية رائع يا دكسي. المشكلة هي أنك لست شاباً». ما الذي يستطيع فعله غير هذا، نظراً إلى تلك الظروف؟ التمثيل؟ كان يعرف الكثير من الممثلين، على المستوى المهني والاجتماعي، ويلعب البوكر مع بعضهم، وبصراحة إذا كان بمقدورهم فعل هذا...

نعم، مهنياً واجتماعياً، كانت آخر بضع سنوات وقتاً للفرص: التعرّف إلى زملاء جدد رائعين، وكافيار وعروض افتتاحية، وجولات بالمروحية، وكثير من التذمر بشأن كرة القدم. برزت سلبيات بالطبع: الشعور بالقلق والفزع من إعاقة، حالة أو اثنتان من التقيؤ أمام الجمهور. كان هناك شيء بشأن حضوره في مشرب أو نادٍ يجعل رجالاً آخرين يريدون شتمه أو حتى ضربه. وتم مؤخراً رميه بقارورة فارغة على المسرح حين كان يقدّم حفلة كولا شاكر؛ لم يكن ذلك ممتعاً. في قائمة حديثة للرجال المثيرين والسيئين، وجد نفسه ضمن فئة غير المثيرين، وكان عدم الإثارة هذا قد غار عميقاً في ذهنه، لكنه حاول أن يصرفه عنه باعتباره حسداً، فالحسد هو الضريبة التي يدفعها المرء للنجاح.

كانت هناك تضحيات أخرى من جانبه. اضطر آسفاً إلى التخلص من بعض الأصدقاء القدامى من الجامعة؛ لأنها بالمحصلة لم تعد سنة 1988 آنذاك. استمر كالوم زميله القديم في السكن، الذي كان سيبدأ عملاً معه، بترك رسائل ساخرة له على نحو متزايد، لكن دكستر تمنّى أن يفهم قريباً. ماذا كان يفترض بهم أن يفعلوا؟ أن يعيشوا جميعاً في منزل كبير معاً باقي حياتهم؟ لا، كان الأصدقاء مثل الملابس: فهي ممتازة ما دامت مفيدة لكنها أخيراً تصبح رقيقة أو تضيق عليك. وبهذا في ذهنه، تبنّى سياسة قبول ثلاثة وإبعاد واحد، وبدلاً من الأصدقاء القدامى الذين تركهم، عقد صداقات مع ثلاثين، أو أربعين، أو خمسين

صديقاً ناجحاً أفضل مظهراً. كان الجدال مع عدد ضخم من الأصدقاء أمراً مستحيلاً؛ حتى إن لم يكن واثقاً أنه يحبهم حقاً جميعاً. كان مشهوراً، لا، ذائع الصيت في ما يتعلق بخليط مشروباته، وكرمه المفرط، وهندسته الصوتية، وحفلاته بعد البرامج التلفازية في شقته. وكثيرة هي الأيام التي استيقظ فيها في الصباح ثملاً تماماً ليكتشف أن محفظته قد سُرقت.

لم يهتم. لم يكن هناك مطلقاً وقت أفضل ليكون شاباً، ورجلاً، وناجحاً، وبريطانياً. كانت لندن تعج نشاطاً، وشعر أن ذلك يشير بطريقة ما إليه. فهو رجل مسجّل في قوائم القيمة المضافة، ويمتلك مودماً ومشغّل أقراص صغيراً، ولديه حبيبة مشهورة وعدد من الأزرار المعدنية، ويمتلك ثلاجة مملوءة بعصير تفاح فاخر، وحمّاماً مملوءاً بآلات حلاقة بشفرات متعددة. وعلى الرغم من أنه لا يحب عصير التفاح، وأدوات الحلاقة تسبب له حساسية، إلا أن الحياة جيدة جداً هناك، والمصاريع مغلقة في منتصف الأصيل، في منتصف السنة، في منتصف العقد، ومنزله قريب من مركز أكثر المدن إثارة على الأرض.

امتد الأصيل أمامه، وسرعان ما سيحين وقت الاتصال بموزّعه. كان هناك حفل تلك الليلة في منزل ضخم قبالة بستان لادبروك. سيكون عليه رؤية إيما على العشاء أولاً، لكنه سيتمكن على الأرجح من التخلص منها بحلول الحادية عشرة.

* * *

استلقت إيما في حوض استحمام أفوكادو، وسمعت الباب الأمامي يُغلق حين خرج إيان في رحلة طويلة إلى «منزل ها ها» في بوتني؛ لتقديم ذلك العرض الكوميدي وقوفاً: خمس عشرة دقيقة بائسة عن بعض الفروق بين القططة والكلاب. مدّت يدها إلى كأس الشراب على أرضية الحمام، أمسكتها بكلتا يديها، وعبست حين نظرت إلى الشراب. كانت السرعةُ التي تلاشت بها السعادة الناجمة عن امتلاك منزل جديرة بالملاحظة. إذ تبدو مقتنياتهما المشتركة رثّة في الشقة الصغيرة بجدرانها الرقيقة وسجادات شخص آخر. لم يكن المكان نفسه وسخاً - كان كل سطح قد فُرك بفرشاة معدنية - لكن الجو يعبق برطوبة مقززة ورائحة كرتون قديم بدا تبديله مستحيلاً. في ليلتهما الأولى، بعد إغلاق الباب الأمامي وفتح زجاجة الشراب الخفيف، كانت قد شعرت أنها على وشك أن تنفجر بالبكاء. استغرق الأمر منها وقتاً قبل أن تشعر بأنه منزلهما، كما كان إيان قد قال حين أمسكها في السرير تلك الليلة، وعلى الأقل وضعا أقدامهما على السلالم. لكن فكرة ارتقاء السلالم معاً، درجة بعد أخرى بمرور السنين، جعلتها تشعر بكآبة مريعة. ماذا يوجد في

الأعلى؟

اكتفت من ذلك. كان القصد أن تكون هذه الليلة مناسبة خاصة، احتفالاً، فأخرجت نفسها من حوض الاستحمام، ونظّفت أسنانها بالفرشاة والخيط حتى نزفت لثّتها، ورشّت نفسها بعطر منعش، ثم بحثت في خزانة ملابسها عن ثياب لا تجعلها تبدو مثل الآنسة مورلي مدرّسة الإنكليزية في ليلة ستخرج فيها مع صديقها المشهور. استقر رأيها على حذاء مؤلم وفستان أسود قصير كانت قد اشترته حين كانت في كارين ميلن.

نظرت إلى ساعتها واكتشفت أن الوقت لا يزال باكراً فشغّلت التلفاز. وفي مهمة على مستوى الأمة للعثور على «الحيوان الأليف الأكثر موهبة في بريطانيا»، كانت سوكي ميدوز تقف على واجهة سكاربوروغ البحرية، وتعرّف المشاهدين بكلب يمكن أن يقرع الطبول، والكلب يلوّح بأطرافه في اتجاه فخ صغير، وعصي طبل ملصقة ببراثنه. بدلاً من أن تجد تلك الصورة مزعجةً جداً، كانت سوكي ميدوز تضحك، وتقهقه وتئز، وفكّرت إيما للحظة في الاتصال بدكستر، واختلاق عذر، والعودة إلى السرير. لأنه، حقاً ما الفائدة؟

لم يكن الأمر يتعلق بالحبيبة المثيرة فقط، وإنما بحقيقة أن إم ودكس لا يتوافقان جيداً هذه الأيام. فقد قام مؤخراً؛ وأكثر من أي وقت مضى، بإلغاء لقاءاتهما في اللحظة الأخيرة. وعندما يريان بعضهما يبدو شارد الذهن، وغير مرتاح. تكلما إلى بعضهما بأصوات غريبة ومختنقة، وقد فقدا القدرة على جعل بعضهما يضحكان، والسخرية من بعضهما بنبرة تهكمية حاقدة. كانت صداقتهما مثل باقة من الورود الذابلة تصرُّ على سقايتها بالماء. لماذا لا تدعها تموت بدلاً من ذلك؟ لم يكن واقعياً توقع أن تدوم صداقتهما إلى الأبد، ولديها أصدقاء آخرون كُثر: جمهور الكلية القديم، وأصدقاؤها من المدرسة، وإيان طبعاً. لكن، من يمكنها أن تستودعه أسرارها بشأن إيان؟ ليس دكستر، ليس بعد الآن. ضرب الكلب على الطبول وضحكت سوكي ميدوز فأغلقت إيما التلفاز غاضبة.

في الردهة، نظرت إلى نفسها في المرآة. كانت تأمل في حياة أكثر إثارة، لكنها شعرت بأنها بمفردها في منتصف الطريق. مؤخراً، كانت تأكل سجقاً أكثر مما قد ظنّت أنه ممكن، وهذه هي النتيجة: بطن بدين قليلاً. لو كان إيان هنا، لقال إنها تبدو جميلة، لكن كل ما رأته هو انتفاخ بطنها عبر الحرير الأسود. وضعت يدها عليه، أغلقت الباب الأمامي، وبدأت الرحلة الطويلة من شقة في إي17 إلى دبليو سي 2.

«كيف الحال؟».

ليلة صيف حارة في الشارع الخامس، وكان يتكلم عبر الهاتف مع سوكي.

«هل رأيته؟».

«ماذا؟».

«الكلب؟ كان يقرع الطبول! وبدا الأمر مدهشاً!».

وقف دكستر خارج مشرب إيطاليا، أنيقاً وأسود باهتاً يرتدي قميصاً وبزّة، ويعتمر قبعة رجالية صغيرة يدفعها إلى الخلف على رأسه، ويبعد الهاتف الخلوي أربع بوصات عن أذنه. انتابه شعور أنه إذا أنهى المكالمة فسيتمكّن رغم ذلك من سماعها.

«... عصي طبول صغيرة على براثنه الصغيرة!».

قال رغم أنه في الحقيقة لم يستطع أن يتخيل ذلك: «كان هستيرياً!». لم يكن الحسد شعوراً مريحاً لدكستر، لكنه يعرف الهمسات - إن سوكي هي الموهبة الحقيقية، وهي من تسنده - وأراح نفسه بفكرة أن شعبية سوكي الكبيرة حالياً، وراتبها الضخم، وفتنتها الكبيرة نوعٌ من التعويض الفني. «الحيوان الأليف الأكثر موهبة في بريطانيا؟». لم يكن ليقدّم شيئاً مثل ذلك أبداً، حتى إن طلب شخص ما منه هذا.

«قدّروا عدد المشاهدين بتسعة ملايين هذا الأسبوع، وربما عشرة...».

«سوكي، هل يمكنني فقط أن أشرح شيئاً بشأن الهاتف؟ لست مضطرة إلى الصراخ عبره؟ الهاتف يقوم بذلك من أجلك...».

نفخت الهواء وأنهت المكالمة. ومن الجانب الآخر للطريق، انتظرت إيما لحظة وهي تقف وتراقب حين أطلق دكستر شتيمة على الهاتف في يده. كان لا يزال يبدو رائعاً في البزّة، رغم الخزي الذي تجلبه القبعة. لكن على الأقل لم يكن يضع تينك السماعتين السخيفتين. شاهدت أسارير وجهه تنفرج حين رآها وشعرت بأن أملها في الأمسية يزداد.

قالت وهي تومئ نحو الهاتف: «يجب أن تتخلص من هذا حقاً».

وضعه في جيبه وقبّل وجنتها. «إذاً، لديك خيار. فإما أن تتصلي بي هاتفياً، في الواقع بي شخصياً، أو يمكنك الاتصال بمبنى قد أكون فيه في ذلك الوقت -».

«أتصل بالمبنى».

«وإذا لم أجب على المكالمة؟».

«حسنٌ، لا سمح الله ألا تستطيع إجابة عن المكالمة».

«لم نعد في 1988 يا إم».
«نعم، أعرف هذا».
«ستة شهور، أقول إن أمامك ستة شهور قبل أن –».
«أبداً».
«أتراهنين؟».
«لا بأس، أقبل الرهان. إذا اشتريت هاتفاً خلوياً في أي وقت فسأدعوك إلى العشاء».
«حسنٌ، سيُحدث هذا فرقاً».
«إضافة إلى ذلك، إن هذه الأجهزة تسبب لك ضرراً في الدماغ».
«إنها لا تسبب ضرراً في الدماغ».
«كيف تعرف هذا؟».
وقفا لحظة بصمت، ينتاب كليهما شعور مبهم بأن الأمسية لم تبدأ جيداً.
قال متجهماً: «لا أصدّق أنكِ قد بدأت بانتقادي».
«حسنٌ، هذه مهمتي». ابتسمت وعانقته، ووضعت وجنتها على وجنته. «أنا لا أنتقدك، آسفة، آسفة».
كانت يده على عنقها المكشوف. «لقد مرَّ وقت طويل».
«وقت طويل جداً».
تراجع خطوة إلى الخلف. «بالمناسبة، تبدين جميلة».
«شكراً لك، وكذلك أنت».
«حسنٌ، لست جميلاً...».
«أنت وسيم إذاً».
«شكراً لك». أمسك يديها وشدّهما إلى الجانب. «يجب أن ترتدي الفساتين في مناسبات أكثر، فأنت تبدين أنثى تقريباً».
«أحب قبعتك، لكن انزعها الآن».
«والحذاء!».
فتلت كاحلها نحوه. «إنه أول حذاء تقويم عظام عالي الكعب في العالم».
بدأا يسيران عبر الحشود نحو شارع واردور، إيما تتعلق بذراعه ثم تمسك قماش بزّته بين

سبابتها وإبهامها، وتفرك زغب النسيج الغريب. «ما هذا بالمناسبة؟ أهو مخمل؟ قطيفة؟».

«فرو الخلد».

«امتلكت بزّة من تلك المادة سابقاً».

«نحن ثنائي رائع، ألسنا كذلك؟ دكس وإم -».

«إم ودكس. مثل روجرز وأستير -».

«بورتون وتايلور -».

«ماري وجوزيف -».

ضحك دكستر وأمسك يدها وسرعان ما وصلا إلى المطعم.

كان بوسيدون ملجأً ضخماً محفوراً في بقايا مرأب سيارات تحت الأرض، والبوابة على شكل سلالم مسرحية ضخمة تبدو معلّقة على نحو مدهش فوق الغرفة الرئيسة، وتمثّل عامل إلهاء دائماً للزبائن في الأسفل الذين يقضون معظم الأمسية وهم يقوّمون جمال الوافدين الجدد أو شهرتهم. شعرت إيما أنها ليست جميلة أو مشهورة، ونزلت على السلالم، إحدى يديها على الدرابزين، والأخرى تمسك بطنها حتى أمسك دكستر ذراعها وتوقف، وجال ببصره في الغرفة بفخر وكأنه المهندس المعماري الذي وضع التصميم للمكان.

«إذاً، ما رأيك؟».

قالت: «نادي تروبيكانا».

كان الديكور الداخلي مصمماً ليوحي بفخامة البطانة المترفة من العشرينيات: مقصورات مخملية، نُدُلٌ يرتدون بزّات مميزة ويحملون أشربة، كوّات مزخرفة لا تطل على شيء، وافتقار المكان إلى الضوء الطبيعي يمنحه مظهر الغوّاصة؛ غوّاصة اصطدمت للتو بجبل جليدي وفي طريقها إلى الغرق. كان يقوّض أناقةَ أجواء الحرب صخبُ القاعة وترفها، وجوّ الشباب والمال، ورائحة دهن القلي التي تنتشر في المكان. لم يكن بمقدور كل المخمل والكتان القرنفلي المضغوط في العالم أن يكتم الضوضاء المنبعثة من المطبخ المفتوح إلى المطعم الذي بدا غشاوةً من فولاذ ولونٍ أبيض. لقد وصلت إلى هناك أخيراً، كما فكّرت إيما: الثمانينيات.

«هل أنت واثق أنه لا بأس بذلك؟ يبدو مكلفاً؟».

«أخبرتك أن العشاء على حسابي». طوى الرقعة داخل فستانها، بعد أن نظر إليها أولاً،

ثم أمسك يدها وقادها باقي السلالم بطريقة أوستير الهادئة، إلى قلب كل ذلك المال والشباب.

أخبرهما رجل وسيم أنيق يضع رتبة بحرية سخيفة على كتفيه أن طاولتهما ستكون جاهزة بعد عشر دقائق، لذا شقا طريقهما إلى ردهة الشراب حيث شاهدا رجل بحرية آخر مشغولاً بالتعامل مع القوارير.

«ماذا تريدين يا إم؟».

«شراباً بارداً؟».

استهجن دكستر: «أنت لست في مشرب مانديلا الآن. يجب أن تتناولي شراباً ملائماً». حاولت إيما أن تتكلم، لكن دكستر رفع إصبعه معترضاً. «ثقي بي، سأطلب لك أفضل شراب في لندن».

طائعة، أبدت إيما إعجابها ودهشتها من أداء الساقي، ودكستر يعلّق على ذلك: «الخدعة أن تجعل كل شيء بارداً جداً قبل أن تبدأ. ماء مثلّج في الكأس، والشراب في المجمّدة».

«كيف تعرف كل هذا؟».

«علّمتني أمي هذا حين كنت في، ماذا، التاسعة؟». مسّا كأسيهما، وشربا نخب أليسون، وشعر كل منهما بالأمل يحدوه مجدداً؛ في ما يتعلق بالأمسية وصداقتهما. رفعت إيما الكأس إلى شفتيها. «لم أتناول شراباً مثل هذا من قبل». كانت الرشفة الأولى لذيذة، وجليدية. وحاولت ألا تريق الشراب حين ارتعشت. كانت على وشك أن تشكره حين وضع دكستر كأسه في يد إيما، بعد أن تناول نصف شرابه آنذاك.

«سأذهب إلى المرحاض. إنه رائع هنا، الأفضل في لندن».

قالت: «لا يسعني الانتظار!». لكنه كان قد ذهب آنذاك، ووقفت إيما بمفردها مع كأسين من الشراب في يدها، وهي تحاول أن تشع شذا ثقة وفتنة حتى لا تبدو مثل نادلة.

فجأة وقفت امرأة طويلة خلفها ترتدي مشد خصر من جلد النمر، وجوربين وحمّالتين، وبدا ظهورها مفاجئاً ومفزعاً، وجعل إيما تطلق صرخة صغيرة حين انسكب الشراب فوق رسغها.

«أتريدين لفائف تبغ؟». كانت المرأة فائقة الجمال ومثيرة وعارية تقريباً، مثل جسم انفصل عن جسد، يبدو صدرها متكئاً على صينية كبيرة من السيجار ولفائف التبغ.

كرّرت، وهي تبتسم عبر كريم الأساس، وتعدّل بإصبع واحدة الطوق المخملي الأسود حول عنقها: «هل تريدين شيئاً؟».

قالت إيما؛ وكأن ذلك عيب شخصي تحاول أن تخفيه: «أوه لا، أنا لا أدخّن». لكن المرأة كانت قد أعادت توجيه ابتسامتها فوق كتف إيما، وهي تهز رموش عينيها السوداوين. «لفائف تبغ يا سيدي؟».

ابتسم دكستر، وهو يُخرج محفظته من داخل سترته في حين ينظر إلى الأصناف المعروضة تحت صدرها. وبإيماءة ذوّاق، استقر رأيه على مارلبورو لايت، وأحنت «فتاة لفائف التبغ» رأسها؛ وكأن السيد قد اتخذ قراراً ممتازاً.

أعطاها دكستر ورقة نقدية من فئة خمسة جنيهات مطوية طولياً. ابتسم: «احتفظي بالفكّة». هل هناك عبارة أكثر مودة من «احتفظي بالفكّة»؟ اعتاد أن يشعر بالثقة بالنفس حين يقولها، لكن ليس آنذاك. ابتسمت ابتسامة مثيرة استثنائية، وفي لحظة قاسية واحدة تمنّى دكستر لو أن فتاة لفائف التبغ، وليس إيما، هي التي ستنضم إليه على العشاء.

انظري إليه، ذلك العزيز الضئيل، كما فكّرت إيما، ولاحظي تلك الخفقة الصغيرة من الرضا الذاتي. كان هناك وقت، لم يمضِ زمن طويل منذ أن أراد كل الفتيان أن يكونوا تشي غيفارا. لكنهم جميعاً يريدون الآن أن يكونوا هيو هفنر، مع جهاز ألعاب فيديو. عندما ابتعدت فتاة لفائف التبغ ضمن الحشد، بدا أن دكستر سيحاول حقاً أن يربت على مؤخرتها.

«يسيل لعابك على بزّة فرو الخلد».

«عفواً؟».

«ماذا كان كل ذلك؟».

«فتاة لفائف التبغ». هزَّ كتفيه، ووضع العلبة التي لم يفتحها في جيبه. «المكان مشهور بهذا. إنه السحر، وقليل من المسرح».

«إذاً، لماذا ترتدي ثياباً تشبه الغانية؟».

«لا أعرف يا إم، ربما ثوبها الصوفي الأسود في الغسيل». أخذ كأسه وتجرّع شرابه كله. «إنها حقبة ما بعد المساواة بين الجنسين، أليس كذلك؟».

بدت إيما متشككة. «أوه، هل هذا ما ندعوه بها الآن؟».

أومأ دكستر نحو مؤخرة فتاة لفائف التبغ. «يمكن أن تبدي هكذا إن أردت».

«لا أحد يسيء فهم المقصود مثلك يا دكس».

«ما أعنيه هو أن الأمر يتعلق بالاختيار».

«ذهن مثل الليزر -».

«إذا اختارت أن ترتدي الثوب، يمكن أن تفعل ذلك!».

«لكن، إذا رفضت فستُطرد من وظيفتها».

«وهذا ما سيحصل للنُّدُل! وبالمناسبة، ربما تحب ارتداء هذا، وربما تشعر أنه ممتع، أو أنها مثيرة فيه. تلك هي المساواة، أليس كذلك؟».

«حسنٌ، هذا ليس تعريف المعجم...».

«لا تجعليني أبدو متعصباً، فأنا أثق بالمساواة أيضاً!». استهجنت إيما، وحرّكت عينيها، وتذكّرت كم تستطيع أن تكون مزعجة وميّالة إلى الوعظ. «حقاً! أنا أثق بالمساواة!».

«... وأنا سأكافح حتى الموت، حتى الموت، هل سمعت؟ من أجل حق المرأة في عرض صدرها من أجل الحصول على إكرامية».

وحان دوره آنذاك ليحرّك عينيه، ويطلق ضحكة متغطرسة. «لم نعد في 1988 يا إم».

«ما الذي يعنيه هذا؟ تقول هذا باستمرار وما زلت لا أعرف معناه».

«المعنى: لا تستمري في خوض معارك خاسرة سلفاً. يجب أن تكون حركة المساواة من أجل رواتب وفرص متساوية وحقوق مدنية، لا أن تقرر ما يمكن للمرأة أن ترتديه بملء إرادتها ليلة السبت!».

فغرت فمها سخطاً. «هذا ليس ما -».

«وبالمناسبة، هذه دعوتي إلى العشاء! لا تجعليها وقتاً صعباً!».

وفي لحظات مثل تلك كان عليها أن تذكّر نفسها أنها تحبه، أو قد أُغرمت به سابقاً، قبل وقت طويل. توقفا عند حد جدال طويل لا طائل منه شعرت أن بمقدورها الفوز فيه، لكنه سيفسد الأمسية. بدلاً من ذلك، أخفت وجهها خلف كأسها، وأسنانها تعض عليها، وعدّت ببطء قبل أن تقول: «لنغيّر الموضوع».

لكنه لم يكن يصغي، بل يحدّق من فوق كتفها بدلاً من ذلك إلى رئيس النُّدُل الذي يشير إليهما. «هيا بنا. لقد تدبّرت أمر مأدبتنا».

استقرا في المقصورة المخملية الأرجوانية وأمعنا النظر إلى قائمتي الطعام بصمت. كانت إيما تتوقع شيئاً فاخراً وفرنسياً، لكن ما كُتب على القائمة كان طعام مقصف مكلفاً أساساً: فطائر سمك، فطيرة الراعي، شطائر لحم البقر، وعرفت بوسيدون على أنه من نوع المطاعم التي يأتي فيها الكتشاب على طبق فضي. شرح دكستر بصبر: «إنه بريطاني معاصر»؛ كأن دفع كل ذلك المال من أجل سجق وهريس معاصر جداً، وبريطاني تماماً.

قال دكستر: «سأتناول المحار المحلية كما أظن».

قالت إيما بوهن: «هل هي شهية؟».

«ماذا؟».

ثابرت: «المحار المحلية - هل هي شهية؟»، وفكّرت: يا إلهي! أنا أتحول إلى إيان.

لم يفهم دكستر المعنى فعبس وعاد إلى قائمة الطعام. «لا، إنها لذيذة، شبيهة باللؤلؤ وشهية وأفضل من المحار الصخري، وأكثر هشاشة. سأطلب اثنتي عشرة حبة».

«أصبحت واسع الاطلاع فجأة».

«أحب الطعام، ولطالما أحببت الطعام والشراب».

«أتذكر تلك التونا التي طهوتها لي بالطريقة الصينية سابقاً. لا يزال بمقدوري تذوق طعمها في مؤخر حلقي. نشادر -».

«ليس الطبخ، وإنما المطاعم. أتناول طعامي معظم الوقت في الخارج الآن. في الواقع لقد سُئلت إن كنت أرغب بكتابة شيء عنها أيام الأحد».

«المطاعم؟».

«المشارب. عمود أسبوعي يدعى «زير المقاهي»، نوعٌ من رجل البلدة».

«وهل ستكتبه بنفسك؟».

قال رغم أنه كان واثقاً أن شخصاً آخر سيفعل ذلك: «طبعاً سأكتبه بنفسي!».

«ماذا يمكن أن يقال عن الكوكتيل؟».

«ستُدهشين، الكوكتيل مشروب شديد التنوّع الآن. نوعٌ من فتنة الماضي. في الواقع -». وضع فمه على كأسه الفارغة. «- أنا أحضّر خلطات».

«مبغض للنساء؟».

«أحضّر خلطات».

«آسفة، ظننت أنك قلت عبارة مبغض للنساء».

«اسأليني كيف أصنع كوكتيلاً، أي كوكتيل تودين».

ضغطت بإصبعها على ذقنها. «لا بأس، مم... شراب شعير في الأعلى!».

«أنا جادٌ يا إم. إنها مهارة حقيقية».

«ما هي؟».

«تحضير الخلطات. يتّبع الناس دورات خاصة».

«ربما كان يجب أن تفعل ذلك لتحصل على شهادتك الدراسية».

«كان ذلك سيصبح بالتأكيد أكثر فائدة».

كانت الملحوظة عدائية وبغيضة جداً جعلت إيما تفزع على نحو ظاهر للعيان، وبدا أن دكستر قد ندم قليلاً على ما قاله، وأخفى وجهه في قائمة الشراب. «ماذا تريدين: أحمر أم أبيض؟ سأطلب كأساً أخرى، ثم سنبدأ بموسكاديت من المحار ثم ننتقل إلى شيء مثل مارغوس. ما رأيك؟».

طلب الطعام ثم ذهب إلى المرحاض مجدداً، وأخذ كأس الشراب الثانية معه، وهو ما عدّته إيما أمراً غريباً ومزعجاً على نحو مبهم. امتدت الدقائق، قرأت رقعة الشراب، ثم قرأتها مجدداً وحدّقت إلى الفراغ، وتساءلت في أي مرحلة كان قد أصبح... محضّر الخلطات؟ ولماذا تشعر بأنها متوترة ووضيعة وكئيبة جداً؟ لم تكن تهتم بما ترتديه «فتاة لفائف التبغ»، ليس حقاً، ليس إلى ذلك الحد. لكن، لماذا تبدو شديدة التزمّت وتصدر أحكاماً مسبقة؟ عقدت العزم أن تسترخي وتستمتع بوقتها. كان ذلك دكستر بالمحصلة، أفضل أصدقائها الذي تحبه، أليس كذلك؟

في أفضل مراحيض لندن، انحنى دكستر فوق حوض الماء وفكّر في الشيء نفسه. كان يحب إيما مورلي، ويُفترض أنه كذلك، لكنه يبغض كثيراً صفة ادّعاء الصلاح، وأنها مركز المجتمع، ونجمة المسرح التعاوني في 1988. كانت مثالية... جداً. لم يكن ما يحدث ملائماً، في وضع مثل ذلك خاصة، وفي مكان مصمم خصوصاً لجعل رجل يشعر بأنه عميل سري. بعد ذلك الهراء الأيديولوجي الكئيب من ثقافة منتصف الثمانينيات، وسياساتها البلشفية والشريرة، استطاع أخيراً أن يحظى ببعض المتعة، وهل كان أمراً سيئاً حقاً أن يحب الكوكتيل، ولفافة التبغ، والغزل مع فتاة جميلة؟

إنه يمزح، فلماذا تهاجمه دائماً، وتذكّره بعيوبه؟ لم يكن قد نسيها. ولماذا كل ذلك

الكلام عن أشياء «أنيقة»، ومؤخرتي البدينة، والكعبين العاليين اللذين يقوّمان العظام، والانتقاص من قدرها دائماً وأبداً؟ حسنٌ، ليحرسني الله من الكوميديين، كما فكّر، بعباراتهم الجارحة وذكائهم الكبير، وعدم استقرارهم واشمئزازهم من أنفسهم. لماذا لا تستطيع امرأة أن تتحلّى ببعض اللياقة والأناقة والثقة بالنفس، بدلاً من أن تتصرف طوال الوقت مثل كوميدي عصبي يلقي الدعابات واقفاً؟

والدرجة الرفيعة! لا تنسَ أبداً أن تذكر الدرجة الرفيعة. اصطحبها إلى مطعم رائع على نفقته، لكنهما يتصرفان مثل شخصين من الطبقة العاملة! كان هناك نوع من الغرور واحترام الذات في فعل البطل المخملي ذاك يدفعه إلى الجنون. لماذا لا يزال يضرب على وتر ذهابها إلى المعسكر، وعدم خروجها من البلاد في أي عطلة، وأنها لم تأكل محاراً قط؟ عمرها ثلاثون عاماً تقريباً، وكل ذلك حدث قبل وقت طويل جداً، وقد حان الوقت لكي تتحمّل مسؤولية حياتها. منح جنيهاً للرجل النيجيري الذي أعطاه منشفة يدوية، وخرج إلى المطعم. رأى إيما عبر القاعة تعبث بأدوات المائدة، مرتدية فستانها الأسود الرسمي، وشعر بموجة سخط جديدة. في المشرب، إلى يمينه، رأى «فتاة لفائف التبغ» تقف بمفردها. رأته وابتسمت، وقرر أن يحوّل وجهة سيره.

«مارلبورو لايت من فضلك».

«ماذا؟ مجدداً؟». ضحكت ومسّت رسغه بيدها.

«ماذا يسعني أن أقول؟ أنا مثل أحد كلاب الصيد الصغيرة؟».

ضحكت مجدداً، وتخيّلها على المقعد بجانبه، ويده تحت الطاولة على فخذها التي يغطيها جورب. مدَّ يده إلى محفظته. «في الواقع، سأذهب إلى حفل لاحقاً مع زميلتي القديمة من الكلية هناك -». كانت زميلة قديمة، كما فكّر، لمسة لطيفة. «- لا أريد أن تنفد لفائف التبغ مني». أعطاها ورقة خمسة جنيهات، مطوية طولياً، يمسكها بين إصبعيه الأولى والثانية. «احتفظي بالفكّة».

ابتسمت، ولاحظ بقعة صغيرة من أحمر شفاه ياقوتي على أسنانها الأمامية البيضاء. أراد بشدة أن يمسك ذقنها ويمسح البقعة بإبهامه.

«هناك أحمر شفاه...».

«أين؟».

مدَّ ذراعه حتى أضحت إصبعه على بعد بوصتين من فمها. «هنا، تماماً».

«لا يمكن أن يوصلني هذا إلى أي مكان!». مرّرت طرف لسانها الزهري يميناً ويساراً على أسنانها. كشّرت: «أفضل؟».

«كثيراً». ابتسم ومشى مبتعداً، ثم استدار عائداً إليها.

قال: «من باب الاهتمام فقط، في أي وقت تنتهين من العمل هنا الليلة؟».

كان المحار قد وصل، ويبدو لامعاً وغريباً على طبق من الجليد الذائب. كانت إيما تقضي الوقت وهي تشرب بنهم، وترسم على شفتيها ابتسامة شخص قد تُرك وحده ولا يهتم بذلك إطلاقاً. أخيراً رأته يشق طريقه عبر المطعم مترنحاً قليلاً. ألقى نفسه على المقعد.

«ظننت أنك ستنهار!». كان ذلك شيئاً اعتادت جدّتها على قوله، وبدا أنها تستخدم كلماتها.

قال: «آسف». لكن من دون أن يضيف شيئاً آخر، وبدأا بتناول المحار. «اسمعي، هناك حفل لاحقاً الليلة. زميلي أوليفر، الذي ألعب معه، لقد أخبرتك عنه». دفع المحار إلى داخل فمه. «إنه بارونيت».

شعرت إيما بمياه بحر تسيل على رسغها. «وما علاقة هذا بأي شيء؟».

«ماذا تقصدين؟».

«إنه بارونيت».

«أقول فحسب إنه رجل لطيف. هل أضع لك ليموناً على ذلك؟».

«لا، شكراً». ابتلعت الشيء، وهي لا تزال تحاول أن تفهم إن كانت مدعوة إلى الحفل أم إنها تُبلّغ فقط أن هناك حفلاً. قالت: «أين هذا الحفل إذاً؟».

«متنزه هولندا. منزل ضخم رائع».

«أوه، لا بأس».

لم تكن واثقة بما يحدث: هل كان يدعوها، أم يعتذر للانصراف باكراً؟ تناولت محارة أخرى.

قال أخيراً وهو يمدُّ يده إلى صلصة تاباسكو: «مجيئك موضع ترحيب كبير».

«أنا؟».

قال: «بالتأكيد». راقبته وهو يفتح غطاء قارورة تاباسكو بطرف شوكته. «لن تعرفي أحداً هناك، هذا كل شيء».

بدا واضحاً أنها ليست مدعوة. قالت بصوت خافت: «أنا أعرفك».

«نعم، أفترض هذا. وسوكي! ستكون سوكي هناك».

«ألا تصوّر فيلماً في سكاربورغ؟».

«سيعيدونها بالسيارة الليلة».

«إنها تبلي حسناً، أليس كذلك؟».

قال بسرعة وبصوت عالٍ قليلاً: «حسنٌ، كلانا نفعل هذا».

قرّرت أن تدع الملحوظة تمضي. «نعم، هذا ما عنيته. كلاكما تبليان حسناً». أمسكت محارة، ثم أعادتها إلى مكانها. قالت: «إنها تعجبني حقاً»، رغم أنها لم تلتقِ بها إلا مرة واحدة فقط، في حفل إستوديو 54 المروع في نادٍ خاص في هوكستون. وقد أُعجبت إيما - رغم أنها لم تستطع التخلص من الشعور بأن سوكي عاملتها مثل غريبة - بإحدى صديقات دكستر القديمات؛ وكأنها موجودة في الحفل فقط لأنها ستفوز بمسابقة.

فتح محارة أخرى. «إنها رائعة، أليس كذلك؟ سوكي».

«نعم، إنها رائعة. كيف تجري الأمور بينكما أنتما الاثنين؟».

«أوه، لا بأس. يتطلب الأمر بعض الحذر، كما تعرفين؛ لأننا في عين الجمهور طوال الوقت...».

قالت إيما: «أخبرني عن هذا!». لكن بدا أنه لم يسمع ذلك.

«وأنا أشعر أحياناً أنني أخرج مع نظام اللباقة العام هذا، لكن الأمر رائع. هل تعرفين أفضل شيء في العلاقة؟».

«تابع».

«إنها تعرف ماهية الأمر؛ أقصد الظهور على التلفاز. إنها تفهم ذلك».

«دكستر، هذا هو الشيء الأكثر رومانسية الذي سمعته في حياتي».

إنها تبدأ مجدداً، كما فكّر، وتطلق تلك التعليقات الصغيرة الفظّة. «حسنٌ، هذا صحيح». هزَّ كتفيه وقرر أنه حين يستطيع أن يدفع الفاتورة، فستنتهي أمسيتهما. أضاف؛ وكأن الفكرة خطرت على باله في ما بعد: «إذاً، هذا الحفل، أنا قلق فقط بشأن إيصالك إلى المنزل، وهذا كل شيء».

«والتهامستو ليست المريخ يا دكس، وهي الحي الشمالي الشرقي من لندن، وتدعم

الحياة البشرية».
«أعرف!».
«إنها على خط فيكتوريا!».
«لكنها طريق طويلة في النقل العام، والحفل لن يبدأ قبل منتصف الليل. ستصلين ثم ستضطرين إلى الانصراف، إلا إن منحتك مالاً لسيارة أجرة –».
«لدي مال فعلاً، فهم يدفعون لي أجراً».
«متنزه هولندا إلى والتهامستو؟».
«إذا كان ذهابي صعباً –».
«ليس كذلك! إنه ليس صعباً. أريدك أن تأتي. لنقرر لاحقاً، هل نفعل هذا؟». ومن دون أن يعتذر ذهب إلى المرحاض مجدداً، وأخذ كأسه معه؛ كأن لديه طاولة أخرى هناك. جلست إيما وشربت كأساً بعد أخرى من الشراب، واستمر مزاجها يجيش، ويصل بثبات إلى نقطة الغليان.
وهكذا تلاشت السعادة. عاد حين وصلت الأطباق الرئيسة، وفحصت إيما سمكة القد مع البازلاء المهروسة والمنكّهة بالنعناع. كانت البطاطا الباهتة السميكة قد قُطّعت آلياً إلى مستطيلات متماثلة ومكدّسة مثل أبنية سكنية، في حين وُضعت السمكة غير ثابتة فوقها، على ارتفاع ست بوصات عن الطبق؛ وكأنها سترمي نفسها إلى بركة الصلصة الخضراء الكثيفة في الأسفل. ماذا كانت تلك اللعبة؟ القطع الخشبية المكدّسة؟ بحرص، استخرجت شريحة من أعلى الكومة، واكتشفت أنها قاسية وباردة من الداخل.
«كيف حال ملك الكوميديا؟». منذ عودته من المرحاض، كانت نبرة دكستر قد أصبحت أكثر عدوانية واستفزازاً.
شعرت إيما بأنها خائنة. ربما كانت تلك إشارة لتستودع شخصاً سرها عن فوضى علاقتها، وحيرتها بشأن ما سيحدث لاحقاً. لكن، لم يكن بمقدورها أن تتحدث إلى دكستر، ليس آنذاك. ابتلعت قطعة بطاطا.
قالت بحزم: «إيان رائع».
«كيف تبدو حياتكما معاً؟ الشقة جاهزة، أليس كذلك؟».
«رائعة. لم تزها بعد، أليس كذلك؟ يجب أن تأتي لزيارتنا!». كانت الدعوة تفتقر إلى

الحماسة والرد «همم» غير ملزم؛ كأن دكستر متشكك في وجود سعادة خارج المنطقة 2. أطبق الصمت، وعادا إلى طبقيهما.

سألت أخيراً: «كيف شريحة اللحم خاصتك؟». بدا أن دكستر قد فقد شهيته، ويفحص اللحم الأحمر من دون أن يأكله في الواقع.

«رائعة، كيف السمكة؟».

«باردة».

«حقاً؟». نظر إلى طبقها ثم هزَّ رأسه بتأنٍّ. «إنها عاتمة يا إم. تلك هي الطريقة التي يجب أن تُطهى سمكة بها، حتى تصبح شفافة».

«دكستر -». كان صوتها قاسياً وحاداً. «- إنها عاتمة؛ لأنها جُمّدت كثيراً. لقد أُزيل الجليد عنها».

«حقاً؟». غمّس إصبعه بغضب داخل الصلصة. «حسنٌ، سنعيدها!».

«لا عليك، سأتناول شرائح البطاطا فقط».

«لا، اللعنة! أعيديها! لن أدفع ثمن سمكة مجمّدة لعينة! ما هذا الغش؟ سنطلب لك شيئاً آخر». لوّح لنادل لكي يأتي، وراقبت إيما دكستر وهو يشرح وجهة نظره، ويصر أن ذلك لم يكن جيداً كفاية، وأنهم ذكروا أنها سمكة طازجة على قائمة الطعام، ويريد أن يزيلوها من الفاتورة ويقدموا طبقاً آخر مجانيًّا. حاولت أن تؤكد أنها لم تعد جائعة، في حين أصرّ دكستر بالمقابل أنها يجب أن تتناول وجبة رئيسة ملائمة؛ لأنها مجانية. لم يكن هناك خيار إلا التحديق إلى قائمة الطعام مجدداً، في حين نظر النادل ودكستر إليها وشريحة اللحم خاصته موجودة هناك طوال الوقت، مهروسة لكن لم يتناول منها شيئاً، حتى استقر رأيها أخيراً، وحصلت على سلطة خضراء مجانية، وأصبحا بمفردهما مجدداً.

جلسا بصمت في حطام الأمسية أمام طبقين من طعام غير مرغوب فيه، وظنّت أنها ربما تبكي.

قال: «حسنٌ، لا بأس بهذا». وأبعد منديله.

أرادت أن تذهب إلى المنزل. لن تتناول التحلية، وستنسى الحفل - كان واضحاً أنه لا يريدها هناك على كل حال - وتذهب إلى المنزل. ربما ستجد هناك إيان اللطيف والحنون والمحب، ويمكن أن يجلسا ويتكلما، أو ربما سيتعانقان ويشاهدان التلفاز.

«إذاً». كانت عيناه تنظران في أرجاء الغرفة حين تكلم. «كيف التدريس؟».

عبست: «رائع يا دكستر».
ردَّ بسخط، وبصره يعود إليها بسرعة: «ماذا؟ ماذا فعلت؟».
تكلمت بصراحة: «إذا لم تكن مهتماً، فلا تسأل».
«أنا مهتم! فقط...». سكب لنفسه مزيداً من الشراب. «ظننت أنك تقومين بتأليف كتاب أو شيء ما؟».
«أنا أؤلف كتاباً - أو - شيئاً — ما. لكن، يجب أن أكسب قوتي أيضاً. الأهم أيضاً أنني أستمتع بذلك يا دكستر، وأنا مدرّسة جيدة جداً!».
«أنا واثق بذلك! إنه فقط، حسنٌ، تعرفين التعبير. أولئك الذين يستطيعون...».
فغرت إيما فمها. حافظي على هدوئك.
«لا، لا أعرفه يا دكستر. أخبرني ما ذلك التعبير؟».
«تعرفين... ليس أمراً مهماً». بدا عليه الارتباك.
«أود أن أعرف. أنهِ الجملة: أولئك الذين يستطيعون....».
تنهّد وهو يحمل كأساً من الشراب في يده، ثم تكلم بوضوح: «أولئك الذين يستطيعون يفعلون، أولئك الذين لا يستطيعون يدرّسون...».
نطقت الكلمات: «وأولئك الذين يدرّسون يقولون لتذهب إلى الجحيم».
أصبحت كأس الشراب آنذاك في حجره حين دفعت إيما الطاولة بعيداً عنها، ووثبت على قدميها، وهي تشد ساقها فأوقعت القوارير، وجعلت الأطباق تقعقع عند خروجها من المقصورة، وغادرت مسرعة ذلك المكان البغيض جداً. كان كل الناس حولهما يحدّقون إليهما آنذاك لكنها لم تهتم، وكل ما أرادته هو الخروج من ذلك المكان. أمرت نفسها لا تبكي، لن تبكي، ثم ألقت نظرة إلى الخلف فرأت دكستر يمسح حجره بغضب، ويسترضي النادل، ويلحق بها. استدارت وانطلقت تجري، ورأت «فتاة لفائف التبغ» تتقدم منها بسرعة بساقيها الطويلتين وكعبيها العاليين، وتكشيرة تعلو فمها القرمزي. وعلى الرغم من العهد الذي أخذته على نفسها، إلا أنها شعرت بدموع إذلال حارة تخز عينيها، وهي تصعد آنذاك على السلالم، وتتعثر بذلك الحذاء العالي الكريه، وسمعت شهيقاً من حشد الأشخاص الذين يتناولون العشاء خلفها حين وقعت على ركبتيها. كانت «فتاة لفائف التبغ» بجانبها، أمسكت بمرفقها، وقد بدت على وجهها نظرة اهتمام حقيقي تبعث على الجنون.

«هل أنتِ بخير؟».

«نعم، شكراً، أنا بخير -».

لكن دكستر كان قد وصل إليها آنذاك، وساعدها على الوقوف. حرّرت نفسها من قبضته بحزم.

«ابتعدْ عني دكستر!».

«لا تصرخي، اهدئي».

«لن أهدأ».

«حسنٌ، أنا آسف، آسف، آسف. أياً يكن سبب غضبك، فأنا آسف».

استدارت إليه على السلالم، وعيناها تتقدان. «ماذا؟! لا تعرف؟».

«لا! عودي إلى الطاولة، ويمكن أن تخبريني!». لكنها مضت قدماً، إلى الباب الدوّار آنذاك، وأغلقته خلفها بقوة جعلت الحافة المعدنية تضرب ركبته بقوة. لاحقها وهو يعرج. «هذا غباء، وكلانا لسنا على ما يرام؛ هذا كل شيء».

«لا، أنت لست على ما يرام! أنت دائماً فاقد صوابك بشأن شيء ما، في كل مرة أراك فيها. هل تدرك أنني لم أرك صاحياً منذ، ماذا، ثلاث سنوات؟ لقد نسيت كيف تكون صاحياً، وأنت مشغول جداً بالحديث عن نفسك أو أصدقائك الجدد أو الذهاب إلى المرحاض كل عشر دقائق. لا أدري إن كان السبب هو الزحار أو كمية كبيرة من الممنوعات. لكن، أياً يكن السبب فتصرفك فظ، والأهم أنه ممل جداً. وعندما تتكلم إلي تنظر دائماً من فوق كتفي تحسباً لوجود خيار أفضل...».

«هذا ليس صحيحاً!».

«إنه صحيح يا دكستر! تباً لهذا. أنت مقدّم برامج تلفازية يا دكس. لم تكتشف البنسلين، إنه التلفاز، وتلفاز سيئ أيضاً. تباً له، لقد طفح الكيل».

كانا في الخارج بين حشود في شارع واردور في ضوء الصيف الباهت.

«لنذهب إلى مكان ما ونتكلم عن هذا».

«لا أريد أن أتكلم عن الأمر. أريد فقط الذهاب إلى المنزل...».

«إيما، أرجوك».

«دكستر، دعني بمفردي فقط، هل تسمح؟».

«أنت تتصرفين على نحو هستيري. تعالي». أمسك ذراعها مرة أخرى وحاول، على نحو معتوه، أن يعانقها. دفعته بعيداً عنها، لكنه لم يفلتها. كان الناس يحدّقون إليهما آنذاك؛ ثنائي آخر يتشاجر في سوهو ليلة السبت، ولانت أخيراً، وسمحت له أن يسحبها إلى شارع جانبي.

أطبق الصمت عليهما آنذاك، وابتعد دكستر عنها خطوة حتى يستطيع أن ينظر إليها. كانت تقف وظهرها إليه، وهي تمسح عينيها بقفا يدها، وشعر فجأة بوخزة خجل.

أخيراً، تكلمت بصوت خافت، ووجهها إلى الجدار: «لماذا أنت على هذه الحال يا دكستر؟».

«أي حال؟».

«أنت تعرف ما أعنيه».

«أنا على سجيتي!».

استدارت بسرعة لتواجهه: «لا، لست كذلك. أعرف طبيعتك، وهذا ليس أنت. تبدو فظيعاً الآن. أنت بغيض يا دكستر. أعني، كنت دائماً بغيضاً قليلاً، بين الحين والآخر، ومغروراً بنفسك قليلاً، لكنك مسلٍّ أيضاً، ولطيف أحياناً، وتهتم بالناس وليس بنفسك فقط. لكنك الآن تفقد السيطرة على نفسك، مع الشراب، والممنوعات –».

«أنا أستمتع بوقتي فحسب!».

تنشّقت مرة، ثم رفعت بصرها إليه؛ عبر عينين سوداوين مغرورقتين بالدموع.

«وأحياناً أتمادى في ذلك، وهذا كل شيء. لو لم تكوني متكلّفة... جداً طوال الوقت –».

«أنا؟ لا أظن أنني كذلك. أحاول ألا أكون كذلك لا أريد فقط...». أحجمت عن متابعة الكلام وهزّت رأسها. «أعرف أنك عانيت كثيراً، في السنوات القليلة الماضية، وقد حاولت أن أفهم ذلك حقاً، مع كل ما حدث لأمك وغير ذلك، لكن...».

قال: «تابعي».

«لا أظن فحسب أنك الشخص الذي كنت أعرفه. لم تعد صديقي الآن، وهذا كل شيء».

لم يكن بمقدوره أن يفكر في شيء يقوله رداً على ذلك، لذا وقفا صامتين حتى مدّت

إيما يدها، أمسكت إصبعين من يده، وضغطت عليهما في راحة كفها.

قالت: «ربما... ربما هذه هي إذاً. ربما انتهى كل شيء».

«انتهى؟ ما الذي انتهى؟».

«نحن، أنا وأنت، صداقتنا. هناك أشياء أريد أن أتحدث معك بشأنها يا دكس، عني أنا وإيان. إذا كنت صديقي حقاً فيجب أن أشعر أنني أستطيع التحدث إليك لكنني لا أستطيع. وإذا لم يكن بمقدوري أن أتحدث إليك، حسنٌ، فما الفائدة منك؟ منا؟».

«ما الفائدة؟».

«قلت بنفسك إن الناس يتغيرون، وإنّه لا فائدة من التأثر عاطفياً بذلك. امضِ قدماً، واعثر على شخص آخر».

«نعم، لكنني لم أعنِ نحن...».

«لمَ لا؟».

«لأننا... نحن. نحن دكس وإم، أليس كذلك؟».

هزّت إيما كتفيها. «ربما نكون قد كبرنا على بعضنا بعضاً».

لم يقل شيئاً للحظة، ثم تكلم. «إذاً، هل تظنين أنني قد كبرت عليك؟ أو أنك قد كبرت علي؟».

مسحت أنفها بقفا يدها. «أظن أنك تظن أنني... كئيبة. أظن أنك تظن أنني لا أتوافق مع أسلوب حياتك. أظن أنك قد فقدت اهتمامك بي».

«إم، أنا لا أظن أنك كئيبة».

«ولا أنا أيضاً! ولا أنا أيضاً! أظن أنني رائعة جداً إن عرفت ذلك فقط، وأظن أنك كنت تظن ذلك أيضاً! لكن، إذا كنت لا تظن ذلك، أو ستعدّه أمراً مُسلّماً به، فلا بأس بذلك. أنا لم أعد مستعدة لتعاملني على هذا النحو بعد الآن».

«كيف أعاملك؟».

تنهّدت، وانقضت لحظة قبل أن تتكلم.

«وكأنك تريد دائماً أن تكون في مكان آخر، مع شخص مختلف».

كان بمقدوره أن ينفي ذلك، لكن «فتاة لفائف التبغ» كانت تنتظره في المطعم في تلك اللحظة تحديداً، ورقم هاتفه الخلوي مطوي تحت رباط جوربها. لاحقاً، سيتساءل إن كان

هناك شيء آخر ربما كان باستطاعته أن يقوله لإنقاذ الوضع، دعابة ربما، لكن لم يخطر شيء على باله وأفلتت إيما يده.

قالت: «أنت حرٌّ في الذهاب. اذهب إلى حفلك. لقد تخلّصت مني الآن، أنت حر».

بتبجحٍ فاشل، حاول دكستر أن يضحك. «يبدو أنكِ تتخلّصين مني».

ابتسمت بحزن. «أفترض أنني أفعل ذلك بطريقة ما. لم تعد من كنت عليه يا دكس. أعجبني حقاً الشخص القديم، وأود استعادته. لكن، في هذه الأثناء، أنا آسفة. لا أظن أنك يجب أن تتصل بي بعد الآن». استدارت وبدأت تبتعد، مترنحة قليلاً على طول الزقاق الجانبي في اتجاه ساحة ليسيستر.

للحظة، تذكر دكستر صورة عابرة لكنها واضحة تماماً عن نفسه في جنازة والدته، وهو مكوّر على أرضية الحمام، في حين تمسك إيما به وتداعب شعره. بطريقة ما استطاع إغفال هذا المشهد من حياته، ورميه بعيداً. تبعها مسافة قصيرة. «هيا يا إم، نحن لا نزال صديقين، أليس كذلك؟ أعرف أنني كنت غريب الأطوار قليلاً، لكنني...». توقفت لحظة، لكنها لم تستدر نحوه، وعرف أنها تبكي. «إيما؟».

استدارت بعد ذلك بسرعة كبيرة، ومشت إليه، وقرّبت وجهه من وجهها؛ وجنتها دافئة ورطبة على وجنته، وتكلمت بسرعة وهدوء في أذنه، وظنَّ للحظة واحدة أنها ستسامحه.

«دكستر، أحبك كثيراً؛ حباً جماً، وسأحبك دائماً على الأرجح». مسّت شفتاها وجنته. «لم تعد تعجبني. أنا آسفة».

واختفت بعد ذلك، ووجد نفسه في الشارع، يقف وحيداً في الزقاق الخلفي، ويحاول أن يتخيل ما يمكن أن يفعله.

عاد إيان قبل منتصف الليل بقليل ليجد إيما متكورة على الأريكة، وتشاهد فيلماً قديماً. «لقد عدت باكراً. كيف كان الفتى الذهبي؟».

تمتمت: «بغيضاً».

ربما كان إيان قد شعر بالفرح من ذلك، لكنه لم يدع شعوره يظهر في صوته. «لماذا؟ ماذا حدث؟».

«لا أريد أن أتكلم عن ذلك، ليس الليلة».

«لمَ لا؟ إيما، أخبريني! ماذا قال؟ هل تجادلتما؟».

«إيان، أرجوك! ليس الليلة، تعال إلى هنا، هلاّ فعلت؟».

أفسحت له مجالاً حتى يستطيع أن ينضم إليها على الأريكة، ولاحظ الفستان الذي ترتديه؛ من النوع الذي لا ترتديه من أجله أبداً. «هل هذا ما كنتِ ترتدينه؟».

أمسكت حاشية الفستان بين سبابتها وإبهامها. «كانت غلطة».

«أظن أنك تبدين جميلة».

تكوّرت بجانبه، ورأسها على كتفه. «كيف كان الحفل؟».

«ليس عظيماً».

«هل قدّمت فقرة القططة والكلاب؟».

«آه-ها».

«هل كانت هناك تعليقات؟».

«قليلة».

«ربما ليست أفضل ما يمكنك تقديمه».

«بعض أصوات الاستهجان».

«ذلك جزء من الأمر، كما أظن، أليس كذلك؟ كل شخص يعلّق أحياناً».

«أفترض هذا. أظن أحياناً أنني أقلق فقط...».

«ماذا؟».

«أنني لست... مضحكاً جداً».

تكلمت إلى صدره. «إيان؟».

«ماذا؟».

«أنت رجل مضحك جداً، جداً».

«شكراً إم».

أراح رأسه على رأسها، وفكّر في العلبة القرمزية الصغيرة المبطنة بحرير مجعّد والتي تحتوي خاتم الخطوبة. بقيت طوال الأسبوعين الماضيين مخفيّة داخل زوجٍ من الجوارب، في انتظار اللحظة المناسبة، لكن ليس آنذاك. سيكونان بعد ثلاثة أسابيع على الشاطئ في كورفو. تخيّل مطعماً يطل على البحر، وأن القمر بدرٌ، وإيما ترتدي فستانها الصيفي، وقد لوّحت الشمس بشرتها وتبتسم، وربما وعاء من الحبّار بينهما. تخيّل تقديم الخاتم لها بطريقة ممتعة.

كان يبتكر منذ بضعة أسابيع آنذاك سيناريوهات كوميدية-رومانسية مختلفة في ذهنه؛ ربما يُسقطه في كأس الشراب خاصتها حين تكون في المرحاض، أو تجده في فم سمكتها المشوية وتشتكي إلى النادل. فكّر في أنها قد لا تميز بينه وبين حلقات الحبّار. وربما يقدّمه إليها بكل بساطة. استعرض الكلمات في ذهنه: تزوجيني يا إيما مورلي، تزوجيني.

قال: «أحبك كثيراً يا إم».

قالت إيما: «أحبك أيضاً، أحبك أيضاً».

كانت «فتاة لفائف التبغ» تجلس إلى المشرب في استراحتها التي تمتد عشرين دقيقة، فستانها أقصر من سترتها، وترتشف الشراب الأصفر، وتستمع إلى ذلك الرجل الذي يسهب في الكلام عن صديقته؛ تلك الفتاة الجميلة المسكينة التي تعثرت على السلالم. بدا واضحاً أنهما قد خاضا نوعاً من الشجار. استمعت «فتاة لفائف التبغ» على نحو متقطّع إلى مونولوج الرجل، وهي تومئ بين الفينة والأخرى وتنظر إلى ساعتها خلسة. خمس دقائق قبل منتصف الليل، ويجب أن تعود إلى العمل. كانت الساعة بين الثانية عشرة والواحدة هي الفضلى للإكراميات، وذروة مد الرغبة والغباء لدى الزبائن الذكور. خمس دقائق أخرى وستذهب، فلم يكن بمقدور الرجل المسكين أن يقف جيداً على كل حال.

عرفته من برنامج التلفاز السيئ ذاك - وألا يخرج مع سوكي ميدوز؟ - لكنها لم تتذكر اسمه. هل يشاهد أحد ذلك البرنامج على كل حال؟ بزّة الرجل ملطخة، والجيوب منتفخة بعلب من لفائف تبغ لم تُدخّن، وهناك لمعان زيت على أنفه، وأنفاسه مجهدة. فضلاً على ذلك، لم يزعج نفسه حتى بسؤالها عن اسمها الحقيقي.

كانت «فتاة لفائف التبغ» تدعى شيرل تومسون، وتعمل معظم الأيام ممرضة، وهو عمل مرهق. لكنها تأتي أحياناً إلى المكان لأنها تذهب إلى الجامعة، والإكراميات لا تُصدّق إذا كنتِ مستعدة لقليل من الغزل. كان خطيبها ينتظرها في شقتها في كيلبورن؛ ميلو إيطالي، طوله نحو 6 بوصات، وهو لاعب كرة قدم سابق، ويعمل ممرضاً أيضاً آنذاك. وهو وسيم جداً، وسيتزوجان في أيلول.

كانت ستتكلم عن كل ذلك إلى الرجل إن سألها، لكنه لم يفعل. وهكذا، قبل منتصف الليل بدقيقتين، في احتفال سان سويذن، اعتذرت. يجب أن تعود إلى العمل، لا يمكنها الذهاب إلى الحفل. نعم لدي رقمك، وآمل أن تتصالح مع صديقتك. وتركت الرجل بمفرده في المشرب، يطلب شراباً آخر.

القسم الثالث

1996-2001

بداية الثلاثينيات

«تدرك أحياناً حدوث لحظات عظيمة في حياتك، وتنبعث تلك اللحظات أحياناً من الماضي. ربما يحدث الشيء نفسه مع الأشخاص».

جيمس سالتر، حرق الأيام

الفصل العاشر

اغتنام الملذات

الاثنين 15 تموز 1996

ليتونستون ووالتهامستو

كانت إيما مورلي تستلقي على ظهرها على أرضية مكتب المدير.

«أوه، بالمناسبة، يحتاج الصف التاسع إلى نسخ جديدة من سيدر مع روزي».

قال المدير، مغلقاً أزرار قميصه: «سأرى ما يمكنني فعله».

«إذاً، بينما أنا هنا على سجادتك، هل هناك شيء آخر تود أن نناقشه؟ قضايا الميزانية؟ تقرير التفتيش؟ أي شيء تريد أن تعيد النظر فيه مجدداً؟».

قال وهو يستلقي أرضاً مجدداً ويداعب عنقها بأنفه: «أريد أن أعيد ما فعلته معك مجدداً». إنه نوع من التلميح الخالي من المعنى المتخصص به السيد غودالمينغ – فيل.

«ما الذي يعنيه هذا؟ هذا لا يعني شيئاً». أطلقت صرخة استهجان ودفعته بعيداً عنها، وتساءلت لماذا تصبح سيئة المزاج بعد المتعة. استلقيا صامتين لحظة. كانت الساعة السادسة والنصف مساءً في نهاية الفصل، ومدرسة شارع كرومويل الشاملة تنعم بذلك الهدوء الغريب لبناء مدرسي بعد ساعات الدوام. كان عمال النظافة قد انصرفوا، وكان باب المكتب مغلقاً وموصداً من الداخل، لكنها لا تزال تشعر باضطراب وقلق. ألا ينبغي أن يكون هناك نوع من الارتياح، شعور بالحميمية أو السعادة؟ استمرت طوال الشهور التسعة الماضية تخضع لمداعباته على السجاد، وكراسٍ بلاستيكية، وطاولات مصفّحة. كان فيل يهتم بها دائماً، وقد أمسك الوسادة الإسفنجية من ذراع كرسي المكتب ووضعها آنذاك تحت ردفيها، لكن على الرغم من ذلك ستود يوماً ما أن تقيم علاقة على أثاث لا يمكن تكديسه فوق بعضه.

قال المدير: «هل تعرفين شيئاً؟».

«ماذا؟».

«أظن أنك رائعة. لا أعرف ما سأفعله من دونك طوال ستة أسابيع».

«على الأقل سيمنح ذلك سجادتك فرصة للتعافي».

«ستة أسابيع كاملة من دونك». بدأ يحك عنقها بلحيته. «سأجن من الرغبة –».

قالت وهي تسمع صوتها فظاً ومزعجاً: «حسنٌ، لديك دائماً السيدة غودالمينغ لتعتمد عليها، وبالمناسبة، كنت أظن أن العطلات الطويلة إحدى ميزات التدريس. هذا ما أخبرتني به، حين تقدّمت أول مرة...».

مستاءً، رفع بصره إليها من حيث يستلقي على السجادة. «لا تتصرفي على هذا النحو يا إم».

«ماذا؟».

«فعل ازدراء المرأة».

«آسفة».

«لا أحب هذا حين تقومين به».

«باستثناء أنني أظن أنك تحبه».

«لا، لا أحبه. دعينا لا نفسد الأمر، هه؟». وضع يده على ظهرها؛ وكأنه يواسيها. «هذه آخر مرة لنا حتى أيلول».

«حسنٌ، قلت إنني آسفة، لا بأس». لتغيير الموضوع، استدارت من الخصر وقبّلته، وكانت على وشك أن تبتعد عنه حين وضع يده على قفا عنقها وقبّلها مجدداً برقّة ولطف.

«يا للهول! سأشتاق إليك».

قالت، وهما يقبلان بعضهما: «هل تعرف ما أظن أنك يجب أن تفعله؟ إنه شيء جديد تماماً».

نظر إليها قلقاً. «تابعي...».

«هذا الصيف، عندما ينتهي الفصل...».

«أخبريني».

وضعت إصبعاً على ذقنه. «أظن أنك يجب أن تحلق هذه».

جلس بسرعة. «هذا محال!».

«كل هذا الوقت ولا أعرف كيف تبدو حقاً!».

«هذا ما أبدو عليه!».

«لكن، أريد رؤية وجهك، وجهك الحقيقي. ربما تبدو وسيماً جداً». وضعت يدها على ذراعه، وجذبته إلى الأسفل. «من خلف القناع؟ دعني أشاهده يا فيل، اسمح لي أن أعرف

حقيقتك».

ضحكا لبعض الوقت مرتاحين مجدداً. وقال وهو يفرك لحيته مثل حيوان أليف مفضّل لديه: «ستصابين بالإحباط. على كل حال، إما هذه الحال أو الحلاقة ثلاث مرات في اليوم. كنت أحلق في الصباح لكنني أبدو مثل لص بحلول وقت الغداء، لذا قررت إطلاقها، وأن تصبح علامة مميزة لي».

«أوه، علامة مميزة».

«إنها تمنحني مظهراً غير رسمي، والأطفال يحبونها. تجعلني أبدو غير سلطوي».

ضحكت إيما مجدداً. «لم نعد في 1973 يا فيل. اللحية تعني شيئاً مختلفاً هذه الأيام».

هزّ كتفيه بعدم اكتراث. «فيونا تحبها، وتقول إن ذقني يبدو ضعيفاً من دونها». أطبق الصمت بعد ذلك، كما يحدث دائماً حين تُذكر زوجته. للتخفيف من ذلك قال منتقصاً من قدره: «تعرفين طبعاً أن الأطفال يدعونني اللحية».

«لم أكن أعرف ذلك، لا». ضحك فيل وابتسمت إيما. «وعلى كل حال، إنها ليست اللحية، وإنما لحية فقط، من دون أل التعريف، أيها الفتى القرد».

جلس فجأة، وهو يعبس متجهماً. «الفتى القرد؟».

«هذا ما يدعونك به».

«من؟».

«الأطفال».

«الفتى القرد؟».

«ألم تكن تعرف؟».

«لا!».

«أوه، آسفة».

استلقى على الأرضية مجدداً، مقطّب الجبين ومنزعجاً. «لا أصدّق أنهم يدعونني الفتى القرد!».

قالت بلطف: «على سبيل الدعابة فقط، إنه تعبير عن المحبة».

«لا يبدو محباً جداً». فرك ذقنه وكأنه يداعب حيواناً أليفاً. «السبب أنني أتمتع بكثير من التوستسترون، هذا كل شيء». كانت كلمة «توستسترون» كافية لإنعاشه.

قالت: «سأصاب بطفح جلدي».

«إذاً؟».

«سيعرف الناس».

«ذهب الجميع إلى منازلهم».

بدأت العلاقة - كلمة شنيعة أخرى - في أيلول الماضي، بعد العطلة الكارثية في كورفو، وخاتم الخطوبة في الحبّار. كانت عبارة «أظن أننا نريد شيئين مختلفين» أفضل ما استطاعت قريحتها أن تجود به. وانقضى باقي الأسبوعين الطويلين في سديم الحروق الشمسية والتجهّم، والإشفاق على الذات، والقلق من احتمال عدم قبول الجوهريّ بإعادة الخاتم. لم يكن هناك شيء في العالم أكثر إثارة للكآبة من خاتم خطوبة غير مرغوب به، والذي قبع في العلبة في غرفة فندقهما، ينبعث منه الحزن مثل إشعاع.

عادت من العطلة سمراء وتعيسة. غضبت والدتها التي عرفت بشأن طلب الزواج، واشترت عملياً فستاناً من أجل حفل الزفاف، وتأوهت من إيما طوال أسابيع وهي تسألها عن سبب رفضها العرضَ. لكن الموافقة كانت تعني الانكفاء على الذات، وعرفت إيما من الروايات أن المرء يجب ألاّ ينكفئ على نفسه من أجل الزواج.

كان طلب الزواج قد حسم المسألة، فأجهشت بالبكاء في مكتب فيل في أثناء اجتماع روتيني، فخرج من خلف مكتبه، ووضع ذراعه حولها، وضغط فمه على قمة رأسها؛ وكأنه يقول «أخيراً». بعد العمل، اصطحبها إلى ذلك المكان الذي سمع عنه، مقهى معتم حيث يمكنك الحصول على شراب، لكن الطعام كان لذيذاً أيضاً. تناولا شرائح اللحم وسلطة الجبن. وعندما تماست ركبتاهما من تحت الطاولة الخشبية الكبيرة أفضت بمكنونات نفسها. وبعد قارورة الشراب الثانية، سلكت الأحداث مجراها الطبيعي: العناق الذي تحوّل إلى قبلة في سيارة الأجرة في أثناء العودة إلى المنزل، والمغلف الداخلي البني في علبة بريدها (بشأن الليلة الماضية، لا يمكنني التوقف عن التفكير فيكِ. لم يراودني هذا الشعور منذ سنوات، يجب أن نتكلم، متى يمكننا أن نتحدث؟).

كان كل ما عرفته إيما عن العلاقة غير الشرعية قد جاء من مسلسلات تلفازية من السبعينيات، وربطتها بسينزانو وترايمف ت - آر 7 - أس وحفلات الجبن والشراب، وظنّت أنها شيء يفعله الشخص متوسط العمر، ومن الطبقة الوسطى أساساً؛ غولف، ويخوت، وعلاقات غير شرعية. وبعد أن أصبحت آنذاك طرفاً في الواقع في علاقة من هذا

النوع – النظرات خلسة، إمساك الأيدي من تحت الطاولات، المداعبة في غرفة القرطاسية – أُصيبت بالدهشة من حميمية كل ذلك، وكم يمكن أن تصبح الرغبة شعوراً قوياً حين تترافق مع الإحساس بالذنب والاشمئزاز من الذات.

جالسة على غطاء محرك «البرق الساطع»، حدّقت إلى العلبة وتنهّدت. «حسنٌ، أفترض أنه كان مقدّراً لهذا أن يحدث في نهاية المطاف».

«ما الأمر؟ ألم يعجبك؟».

«لا، إنه رائع». ابتسمت، وهي تتذكر. «لقد خسرت رهاناً مع أحدهم، هذا كل شيء».

أحياناً، وهما يمشيان ويتكلمان في أمسية خريف صافية، في جزء بعيد عن الأنظار من مستنقعات هاكني، أو يقهقهان في أثناء الأناشيد المدرسية، وردفاهما متماسان كانت تظن أنها تحب فيل غودالمينغ. كان مديراً جيداً، وشريفاً، وشغوفاً بعمله؛ على الرغم من غروره الظاهر أحياناً. كانت عيناه جميلتين، ويستطيع أن يكون مضحكاً، ووجدت نفسها موضوع افتتان مفرط تقريباً لأول مرة في حياتها. طبعاً، بعمر الرابعة والأربعين كان أكبر سناً منها بكثير، ويتميز جسده، تحت الحزام، بالترهل. لكنه عاشق متيّم وولهان، وأحياناً شديد الولع بها؛ ثم إنه يجيد تغيير تعبيرات وجهه، ومتكلم فصيح. وجدت صعوبة في تصديق أن الرجل نفسه الذي يقف في اجتماع ليتكلم عن جمع التبرعات يمكن أن يستخدم ذلك النوع من اللغة. أحياناً أرادت أن تبتعد عنه في أثناء العلاقة وأن تقول «سيد غودالمينغ، قلت شتيمة!».

لكن تسعة شهور قد انقضت آنذاك، والمتعة تلاشت، ووجدت أنه من الصعب أن تفهم سبب وجودها هناك، متسكعة في رواق مدرسة في أمسية صيف جميلة. يجب أن تكون مع أصدقاء، أو مع حبيب تفخر به ويمكن أن تذكره أمام أشخاص آخرين. متجهمة نتيجة شعورها بالذنب والإحراج، انتظرت خارج مراحيض الفتيان، في حين كان فيل يغتسل بصابون المدرسة، وهي نائب المدير لقسم اللغة الإنكليزية والدراسات المسرحية وعشيقته. أوه، يا للهول!

قال وهو يخرج: «أنهيت!». أمسك يدها بيده التي لا تزال رطبة، وأفلتها بتحفّظ حين خرجا إلى الهواء الطلق. أوصد الباب الرئيس، وشغّل جهاز الإنذار، ومشيا إلى سيارته في ضوء المساء، بعيدين عن بعضهما كما ينبغي لمدرّسين، وحقيبته الجلدية تضرب قفا ساقها.

«سأقلّك إلى النفق، لكن –».
«– الأفضل أن نتوخى الحذر».
مشيا مسافة أطول قليلاً.
قال بمرح، ليكسر الصمت: «بقي أمامنا أربعة أيام!».
سألت، رغم أنها تعرف الإجابة: «إلى أين ستذهب هذه المرة؟».
«كورسيكا، مشياً. فيونا تحب المشي. مشي، مشي، مشي، دائماً مشي. يعجبها غاندي، ثم في المساء، تنزع حذاء المشي، وتصبح مثل...».
«فيل أرجوك – لا تقل».
«آسف، آسف». لتغيير الموضوع، سأل: «ماذا عنك؟».
«ربما أرى الأسرة في يوركشاير. وربما أبقى هناك، وأعمل معظم الوقت».
«تعملين؟».
«تعرف، أكتب».
«آه، التأليف». مثل الجميع، قال ذلك وكأنه لا يصدّقها. «ليس شيئاً عني وعنك، أليس كذلك؟ هذا الكتاب الشهير؟».
«لا، ليس كذلك». أصبحا بجانب سيارته آنذاك، وعقدت العزم على الذهاب. «وبالمناسبة، لا أعرف إن كنت أنا وأنت موضوعاً مثيراً للاهتمام».
كان يتكئ على سيارته فورد سيرا الزرقاء، متشوقاً إلى الوداع الكبير، لكنها أفسدت ذلك آنذاك. عبس، وشفته السفلية تبدو زهرية عبر لحيته. «ماذا يفترض أن يعني هذا؟».
«لا أعرف، فقط...».
«تابعي...».
«فيل، هذا، نحن. لا يجعلني أشعر بالسعادة».
«أنت تعيسة؟».
«حسنٌ، هذا ليس مثالياً، أليس كذلك؟ مرة أسبوعياً على سجادة مدرسية».
«بدوت لي سعيدة جداً».
«لا أعني راضية. يا للهول! هذا ليس عن المتعة والعلاقة، وإنما عن... الظروف».
«حسنٌ، إنه يسعدني –».

«حقاً؟ هل يسعدك حقاً؟».
«كما أتذكر كان يسعدك أيضاً».
«أثارني كما أفترض، لبعض الوقت».
«بحق الله يا إيما!». حدّق للأسفل إليها؛ وكأنها قد ضُبطت وهي تدخّن في مراحيض الفتيات. «يجب أن أذهب الآن! لماذا تثيرين هذا الموضوع في الوقت الذي يجب أن أنصرف فيه تماماً؟».
«آسفة، أنا –».
«أعني بحق الله يا إيما!».
«مهلاً! لا تتكلم معي بهذه الطريقة!».
«لا أفعل هذا، إنما أنا فقط... لنقض العطلة الصيفية فحسب، هلاّ فعلنا؟ ثم فلنكتشف ما يمكن أن نفعله».
«لا أظن أن هناك ما يمكن أن نفعله، أليس كذلك؟ إما أن نتوقف أو نتابع ما نفعله، ولا أظن أن بمقدورنا الاستمرار...».
أخفض صوته. «هناك شيء آخر يمكن أن نفعله... يمكن أن أفعله أنا». نظر حوله، ثم عندما توثق أن لا أحد في الجوار، أمسك يدها. «يمكن أن أخبرها هذا الصيف».
«لا أريدك أن تخبرها يا فيل...».
«عندما نكون في العطلة، أو قبل ذلك، في الأسبوع القادم...».
«لا أريدك أن تخبرها. لا فائدة ترجى...».
«لا فائدة؟».
«لا!».
«لأنني أظن أن هناك فائدة، أو ربما تكون».
«رائع! لنتكلم الفصل القادم. دعنا، لا أعرف – نحدد موعداً للاجتماع».
متشجعاً، لعق شفتيه، وتوثق مرة أخرى من عدم وجود متطفلين ثم قال: «أحبك يا إيما مورلي».
«لا، لا تحبني». تنهّدت. «ليس حقاً».
أخفض ذقنه؛ وكأنه يحدّق إليها من فوق نظارة خيالية. «أظن أنني أنا من يقرر هذا، ألا

تظنين ذلك؟». كانت تكره نظرة المدير ونبرة الصوت تلك. أرادت أن تضربه على قصبتي ساقيه.

قالت: «من الأفضل أن تذهب».

«سأشتاق إليك يا إم -».

«أتمنى لك عطلة رائعة، إذا لم نتكلم -».

«لا فكرة لديك كم سأشتاق إليك -».

«كورسيكا، مكان جميل -».

«كل يوم -».

«أراك بعدها، إلى اللقاء -».

«مهلاً...». رفع حقيبته، واستخدمها كستار، وقبّلها. إنه متحفّظ جداً، كما فكّرت، وهي تقف جامدة. فتح باب السيارة ووضع قدمه فيها. فورد سيرا زرقاء داكنة، سيارة مناسبة لمدير مدرسة، صندوق القفازات فيها مملوء خرائط مساحة تفصيلية. تمتم وهو يهز رأسه: «لا أزال لا أصدّق أنهم يدعونني الفتى القرد...».

وقفت لحظة في مرأب السيارات الخالي وراقبته وهو ينطلق مبتعداً. عمرها ثلاثون سنة، وبالكاد تحب رجلاً متزوجاً. لكن، على الأقل ليس هناك أولاد.

بعد عشرين دقيقة، وقفت تحت نافذة المبنى الطويل المنخفض من الآجر الأحمر الذي يضم شقتها، ولاحظت مصباحاً مضاءً في غرفة المعيشة. لقد عاد إيان.

أمعنت التفكير في الابتعاد عن المكان والاختباء في ملهى، أو ربما الذهاب لرؤية أصدقاء في المساء، لكنها كانت تعرف أن إيان سيجلس على ذلك الكرسي بذراعين في الظلام وينتظر، مثل قاتل. سحبت نفساً عميقاً، وبحثت عن مفاتيحها.

بدت الشقة أكبر كثيراً منذ انتقل إيان. فهي مجرّدة من علب الفيديو، وأجهزة شحن المدخرات والوصلات والكوابل، وأسطوانات الفونوغراف، وقطع القماش المطوية؛ بدا أنها قد تعرّضت للسطو أخيراً. ومرة أخرى، تذكرت إما أنه لم تكن لديها أشياء تعرضها على الآخرين في السنوات الثماني الأخيرة. سمعت خشخشة صادرة من غرفة النوم، فوضعت حقيبتها أرضاً ومشت بهدوء نحو الباب.

شاهدت محتويات خزانة الأدراج مبعثرة على الأرضية: رسائل، بيانات مصرفية، ألبومات

ورقية ممزقة للصور والصور السلبية. وقفت صامتة من دون أن يلاحظها عند الباب، وراقبت إيان للحظة، وهو يلهث من شدّة الجهد فيما كان يمدّ يده عميقاً إلى داخل الدرج. كان يرتدي خفّين غير مربوطين بشريط، وسروال بزّة، وقميصاً غير مكوي. وهذه ثياب اختيرت بعناية لتشير إلى أقصى درجات التشويش العاطفي؛ ملابس تثير الانزعاج.

«ماذا تفعل يا إيان؟».

فزع، لكن للحظة فقط، وحدّق بعد ذلك إلى الخلف ساخطاً؛ مثل لص يظن أنه أقوم أخلاقاً من الآخرين. قال بنبرة اتهام: «تأخرت في العودة إلى المنزل».

«ما علاقتك بهذا؟».

«أشعر بالفضول فقط بشأن مكان وجودك، هذا كل شيء».

«لدي بروفات يا إيان. ظننت أننا اتفقنا أنك لا تستطيع المجيء على هذا النحو».

«لماذا؟ هل اصطحبت أحداً معك؟ هل فعلت؟».

«إيان، مزاجي ليس جيداً لهذا...». نزعت معطفها. «إذا كنت تبحث عن مفكّرة أو شيء من هذا القبيل، فأنت تضيع وقتك. لم أحتفظ بمفكّرة منذ سنوات...».

«في الحقيقة، أنا آخذ أغراضي فقط. إنها أغراضي، كما تعرفين، وأنا أمتلكها فعلاً».

«لقد أخذت كل أغراضك».

«جواز سفري، لم أجد جواز سفري!».

«حسنٌ، يمكن أن أخبرك الآن أنه ليس في درج ثيابي الداخلية». كان يرتجل طبعاً، وهي تعرف أنه قد أخذ جواز سفره، ويريد فقط أن يبحث في مقتنياتها ويُظهر لها أنه ليس بخير. «لماذا تحتاج إلى جواز سفرك؟ هل ستذهب إلى مكان ما؟ هل ستهاجر ربما؟».

قال بسخرية: «أوه ستحبين هذا، أليس كذلك؟».

قالت، وهي تخطو فوق الفوضى وتجلس على السرير: «حسنٌ، لن أمانع».

قال بصوت متكلّف: «حسنٌ، هذا محض هراء يا حبيبتي؛ لأنني لن أذهب إلى أي مكان». كعاشق نبذته حبيبته، كان إيان قد اكتسب عدوانية لم يتمتع بها قط ككوميدي يلقي الدعابات واقفاً. وهو يقدّم بالتأكيد عرضاً رائعاً الليلة. «لا يمكن أن أتحمّل تكلفة الذهاب إلى أي مكان».

شعرت بأنها تضيق به ذرعاً. «أظن أنك لا تقدم الكثير من الكوميديا في هذه اللحظة

يا إيان؟».

قال رافعاً ذراعيه إلى الجانبين، ومشيراً إلى لحيته وإلى شعره الذي لم يغسل وجلده الشاحب؛ مظهر انظري إلى ما قد فعلتهِ بي. كان إيان يجعل من شفقته على نفسه موضوعاً للسخرية، ويقدّم عرض رجل واحد عن الوحدة والرفض الذي استمر يعمل عليه طوال الشهور الستة الماضية، لكن لم يكن لدى إيما - تلك الليلة على الأقل - وقت له.

«من أين جاءت كلمة حبيبتي تلك يا إيان؟ لا أظن أنها أعجبتني؟».

عاد إلى بحثه وتمتم شيئاً في الدرج ربما يكون «تباً لكِ يا إم». تساءلت إن كان ثملاً؟ رأت على منضدة التزيين علبة مفتوحة من شرب شعير رخيص وقويّ. ثمل؛ هذه فكرة جيدة. في تلك اللحظة، قررت إيما أن تسعى إلى أن تثمل في أسرع وقت ممكن. لمَ لا؟ يبدو أن هذا يجدي نفعاً مع الجميع. شعرت بحماسة للمشروع، فمشت إلى المطبخ لتحضّر المقبلات.

تبعها، وسأل: «إذاً، أين كنت؟».

«أخبرتك، في المدرسة، بروفات».

«علامَ كنت تتمرنين؟».

«بوغسي مالون، إنها مضحكة جداً. لماذا؟ هل تريد تذاكر؟».

«لا، شكراً».

«هناك بذخ واضح».

«ظننت أنك مع شخص ما».

«أوه، أرجوك. ها نحن نبدأ مجدداً». فتحت الثلاجة، ورأت نصف قارورة من الشراب. لكن هذا اليوم كان أحد الأوقات التي لا ينفع فيها إلا مشروب أقوى. «إيان، ما هذا الهاجس بشأن خروجي مع شخص ما؟ لماذا لا يكون الأمر أن كلينا لم نكن ملائمين لبعضنا؟». جذبت بقوة وتبعثر الجليد على الأرضية.

«لكن، نحن مناسبان لبعضنا!».

«لا بأس إذاً. إذا كنت تقول هذا، فلنعدْ إلى بعضنا!». كان خلف بعض فطائر اللحم المفروم الهشّة قارورة الشراب الذي يستخدم في البلدان شديدة البرودة. «مرحى!». مرّرت فطائر اللحم الهشة إلى إيان. «إليك - هذه لك. أمنحك الوصاية». أغلقت باب الثلاجة

بعنف، ومدّت يدها إلى كأس. «وبالمناسبة، ماذا إن كنت مع أحدهم يا إيان؟ ماذا في ذلك؟ لقد انفصلنا، هل تتذكر؟».

«خمّنت ذلك. إذاً من هو؟».

سكبت بوصتين من الشراب الذي يستخدم في البلدان شديدة البرودة. «من تقصد؟».

«حبيبك الجديد؟» هيا، أخبريني، لن أمانع». ظهر على وجهه الازدراء. «نحن لا نزال صديقين بالمحصلة».

تجرّعت إيما من كأسها ثم أحنت ظهرها لحظة، ومرفقاها على سطح الطاولة، وهي تضغط براحتي كفّيها على عينيها وتشعر بالسائل الجليدي ينزلق عبر حلقها. انقضت لحظة.

«إنه السيد غودالمينغ، مدير المدرسة. كانت هذه العلاقة تنشط وتخبو طوال الشهور التسعة الماضية، لكنني أظن أن الأمر يتعلق أساساً بالمتعة. لأكون صادقة، العلاقة كلها تحطُّ قليلاً من قدر كلينا، وتجعلني أشعر ببعض الخجل، والحزن أيضاً. على الرغم من ذلك، كما أقول دائماً، على الأقل ليس هناك أولاد! هذا هو النبأ -». تكلمت إلى كأسها. «أصبحت تعرف الآن».

أطبق الصمت على الغرفة. أخيراً...

«أنت تمزحين معي».

«انظر إلى الخارج، ألقِ نظرة، وشاهد بنفسك. إنه ينتظر في السيارة، سيرا زرقاء داكنة...».

تنشّق، متشككاً. «هذا ليس مضحكاً يا إيما».

وضعت إيما كأسها الفارغة على الطاولة وزفرت ببطء. «لا، أعرف أنه ليس كذلك. لا يمكن بأي طريقة وصف الوضع بأنه مضحك». استدارت وواجهته. «لقد أخبرتك يا إيان، أنا لا أرى أحداً، ولا أحب أحداً، ولا أريد ذلك. أريد فقط أن أُترك وشأني...».

قال بفخر: «لدي نظرية!».

«أي نظرية؟».

«أعرف من هو».

تنهّدت. «من هو إذاً يا شرلوك؟».

قال مبتهجاً: «دكستر!».

«أوه، بحق الله -». أفرغت كأسها.

«أنا محق، أليس كذلك؟».

ضحكت بمرارة. «يا إلهي، أتمنى -».

«ما الذي يعنيه هذا؟».

«لا شيء يا إيان، كما تعرف جيداً، لم أتكلم مع دكستر منذ شهور -».

«أو هذا ما تقولينه!».

«أنت سخيف يا إيان. ماذا!؟ هل تظن أننا نقيم علاقة الحب السرية هذه من وراء الجميع؟».

«هذا ما يبدو أن الدليل يشير إليه».

«الدليل؟ أي دليل؟».

وبدا إيان مرتبكاً قليلاً للمرة الأولى. «دفتر ملحوظاتك».

ساد الصمت لحظة، ثم وضعت كأسها خارج متناول اليد حتى لا ترميه بها. «هل كنت تقرأ دفتر ملحوظاتي؟».

«لقد ألقيت نظرة، مرة أو اثنتين، بمرور السنين».

«أيها الوغد -».

«أبيات الشعر القليلة، تلك الأيام العشرة الساحرة في اليونان، كل ذلك الاشتياق، وكل تلك الرغبة -».

«كيف تجرؤ! كيف تجرؤ على فعل ذلك من خلف ظهري!».

«أنت تركته في المكان! ماذا كنت تتوقعين!؟».

«توقعت بعض الثقة، وتوقعت أن تتحلى ببعض النبل -».

«وبالمناسبة، لم أكن بحاجة إلى قراءتها. بدا ذلك واضحاً جداً، فكلاكما -».

«لكن، لدي احتياطيات محدودة من التعاطف يا إيان! منذ شهور وأنت تنوح وتندب وتئن وتدور حولي مثل كلب تعرّض للضرب. حسنٌ، إذا ظهرت مجدداً فجأة على هذا النحو وبدأت تفتش أدراجي، أقسم إنني سأتصل بالشرطة -».

«هيا إذاً! هيا، اتصلي بهم!». وتقدم نحوها، وذراعاه مرفوعتان إلى الجانبين تملأان الغرفة

الصغيرة. «إنها شقتي أيضاً، هل تتذكرين؟».

«حقاً؟! كيف؟ لم تدفع الرهن العقاري مطلقاً! أنا فعلت هذا! لم تفعل شيئاً قطّ، استلقيت فقط في المكان وأنت تشعر بالأسى على نفسك -».

«هذا ليس صحيحاً!».

«وأنفقت كل المال الذي جنيته على شرائط فيديو غبية ووجبات سريعة -».

«أسهمت في ذلك! حين استطعت -».

«حسنٌ، لم يكن ذلك كافياً! أوه، يا إلهي، أنا أكره هذه الشقة، وأكره حياتي هنا. يجب أن أخرج من هنا أو سأصاب بالجنون -».

احتج يائساً: «كان هذا منزلنا!».

«لم أشعر بالسعادة قط هنا يا إيان. لماذا لا يمكنك أن ترى ذلك؟ أنا فقط... علقت هنا، كلانا في الواقع. أنا واثقة أنك تعرف هذا».

لم يكن قد رآها قط على تلك الحال، أو سمعها تقول تلك الأشياء. مدهوشاً، وعيناه متسعتان مثل طفل مذعور، تعثر وهو يتجه نحوها. «اهدئي!». أمسك ذراعها آنذاك. «لا تقولي أشياء مثل هذه -».

«ابتعد عني يا إيان! أعني هذا يا إيان! ابتعد عني فحسب!». بدأا يصرخان على بعضهما آنذاك وفكّرت: أوه، يا إلهي! لقد أصبحنا نتصرف مثل ثنائي مجنون يُسمع صوتاهما عبر الجدران في الليل. في مكان ما، هناك أحد يفكر: هل يجب أن أتصل بالشرطة؟ كيف وصل الأمر إلى هذا الحد؟ صرخت، وهو يحاول يائساً أن يضع ذراعيه حولها: «اخرج. أعطني مفاتيحك فقط وغادر المكان، لا أريد أن أراك بعد الآن -».

وعلى نحو مفاجئ، وبينما كان كلاهما يصرخان، انهار على الأرضية في الرواق الضيق للشقة التي كانا قد اشترياها معاً يحدوهما أمل كبير في المستقبل. كانت يد إيان تغطي وجهه، وهو يكافح ليتكلم بين نشيجٍ وشهيقٍ طالباً الهواء. «لا يمكن أن أتحمل هذا. لماذا يحدث هذا لي؟ أهذا هو الجحيم. أنا في الجحيم يا إم».

«أعرف، آسفة». وضعت ذراعيها حول كتفيه.

«لماذا لا يمكن أن تحبيني فحسب؟ لماذا لا تستطيعين أن تقعي في حبي؟ لقد أحببتني مرة، أليس كذلك؟ في البداية».

«طبعاً أحببتك».
«حسنٌ، لماذا لا يمكن أن تحبيني مجدداً؟».
«أوه يا إيان، لا يمكنني ذلك. لقد حاولت، لكنني لم أستطع. آسفة، أنا آسفة جداً».
استلقيا معاً لبعض الوقت على الأرضية في البقعة نفسها؛ وكأنهما قد استنزفا طاقتيهما هناك؛ رأسها على كتفه، وذراعها على صدره، وهي تتنشّق رائحته؛ الرائحة الدافئة المريحة التي أصبحت معتادة عليها تماماً. أخيراً، تكلم:
«يجب أن أذهب».
«أظن أنك يجب أن تفعل هذا».
أبقى وجهه الأحمر المنتفخ بعيداً عن بصرها، وجلس وأومأ نحو فوضى الأوراق، ودفاتر الملحوظات، والصور على أرضية غرفة النوم. «هل تعرفين ما يجعلني حزيناً؟».
«ماذا؟».
«أنه لا يوجد المزيد من الصور لنا، أعني معاً. هناك آلاف الصور لك مع دكستر، لكن القليل من الصور لي ولك. ليست حديثة على كل حال. يبدو أننا قد توقفنا عن التقاطها».
قالت بوهن: «لا توجد آلات تصوير جيدة». واختار أن يقبل ذلك.
«آسف... تعرفين، هذه الوقاحة، وتصفح دفترك. هذا سلوك غير مقبول أبداً».
«لا بأس. فقط لا تفعل هذا مجدداً».
«بالمناسبة، بعض القصص جيدة جداً».
«شكراً لك، رغم أنها كان ينبغي لها أن تبقى خاصة».
«ما فائدة ذلك؟ يجب أن تعرضيها على شخص في يوم ما. ضعي نفسك في هذا المجال».
«لا بأس. ربما سأفعل، يوماً ما».
«ليس القصائد. لا تريهم القصائد، وإنما القصص. إنها جيدة، وأنت مؤلفة بارعة وذكية».
«شكراً يا إيان».
بدأ وجهه يتجهم. «لم يكن الأمر سيئاً جداً، أليس كذلك؟ أقصد العيش هنا معي؟».

«كان رائعاً. أنا فقط ألقي باللوم كله عليك، هذا كل شيء».
«هل تريدين أن تخبريني عن الأمر؟».
«لا شيء أقوله لك».
«إذاً».
«إذاً». ابتسما لبعضهما. وقف بجانب الباب آنذاك، ويده على المقبض، لا يستطيع تقريباً أن يغادر.
«شيء واحد أخير».
«ما هو؟».
«أنتِ لا ترينه، أليس كذلك؟ أعني دكستر، فأنا مصاب بالارتياب».
تنهّدت وهزّت رأسها. «إيان، أقسم لك بحياتي إنني لا أرى دكستر».
«لأنني رأيت في الصحف أنه قد انفصل عن حبيبته، وظننت أنه بعد انتهاء علاقتنا أنا وأنت، وكونه عازباً مجدداً...».
«لم أرَ دكستر منذ، يا إلهي! وقت طويل».
«لكن، هل حدث أي شيء؟ عندما كنت أنا وأنت معاً؟ بينك وبين دكستر، من خلف ظهري؟ لأنني لا يمكن أن أتحمل الفكرة -».
قالت وهي تأمل أن يغادر من دون أن يطرح السؤال التالي: «إيان، لم يحدث شيء بيني وبين دكستر».
«لكن، هل أردت ذلك؟».
هل أرادته؟ نعم، أحياناً، غالباً.
«لا، لا، لم أرد ذلك. كنا مجرد صديقين، وهذا كل شيء».
«لا بأس، جيد». نظر إليها، وحاول أن يبتسم. «أشتاق إليك كثيراً يا إم».
«أعرف هذا».
وضع يده على بطنه. «أشعر بالمرض من هذا».
«هذا سيزول».
«حقاً؟! لأنني أظن أنني قد أُجن».
«أعرف. لكن، لا يمكنني مساعدتك يا إيان».

«يمكنك دائماً... تغيير رأيك».
«لا أستطيع، ولن أفعل. آسفة».
«حسنٌ». هزَّ كتفيه مبتسماً، وثنى شفته إلى الداخل؛ ابتسامة ستان لوريل خاصته. «على الرغم من ذلك، لا ضرر من السؤال إن كان الاحتمال موجوداً؟».
«أفترض أن الجواب لا».
«لا أزال أظن أنك الأكثر روعة».
ابتسمت؛ لأنه أرادها أن تبتسم. «لا، أنت الأروع يا إيان».
«حسنٌ، لن أقف هنا وأجادل بشأن هذا!». تنهّد، وهو غير قادر على الاستمرار على ذلك المنوال، ومدَّ يده إلى الباب. «لا بأس إذاً. انقلي حبي إلى السيدة (م). أراك لاحقاً».
«أراك لاحقاً».
«إلى اللقاء».
«إلى اللقاء».
استدار وفتح الباب بقوة، وركل أسفله فُخيّل لها أنه قد اصطدم بوجهه. ضحكت إنما بتكلّف، ثم سحب إيان نفساً عميقاً وغادر المكان. جلست على الأرضية دقيقة واحدة، ثم وقفت فجأة، وبإحساس بالعزيمة متجدد أمسكت مفاتيحها وخرجت بخطوات واسعة من الشقة.

سمعت صوت أمسية صيف في إي 17؛ سمعت صرخات وصياحاً تتردد من أرجاء المبنى، ورأت أن بضع رايات لا تزال تتدلّى في المكان. مشت في الساحة الأمامية وهي تتساءل: ألا يجب أن تكون لديها حلقة مقرّبة من الأصدقاء غريبي الأطوار لمساعدتها في اجتياز كل ذلك؟ ألا يجب أن تكون جالسة على أريكة متهالكة منخفضة مع ست أو سبع نساء جذّابات مغفلات من أهل العاصمة؟ أليس ذلك ما ينبغي أن تكون عليه حياة المدينة؟ لكنهن إما يعشن على بعد ساعتين أو مع أسرهن أو أحبائهن. وعلى الرغم من غياب الصديقات الساذجات، يوجد لحسن الحظ محل قريب يدعى على نحو يثير الحيرة والإحباط الشراب لنا.

شاهدت أطفالاً مخيفين يقودون دراجاتهم الهوائية في دوائر بطيئة قرب المدخل، لكنها كانت تتحلّى بالشجاعة آنذاك، وسارت في وسطهم، وعيناها ثابتتان إلى الأمام. في المتجر، انتقت قارورة الشراب الأقل إثارة للشك وانضمت إلى الصف. رأت على وجه

الرجل أمامها وشم شبكة عنكبوت، وفي أثناء انتظارها له ليعد قطعاً نقدية صغيرة تكفي ثمن لترين من عصير التفاح، لاحظت قارورة الشراب الموجودة في خزانة زجاجية موصدة، يعلوها الغبار، مثل تذكار لماضٍ مترف على نحو لا يمكن تخيله.

قالت: «سآخذ تلك القارورة أيضاً، من فضلك». بدا صاحب المتجر متشككاً، لكنها تحمل بكل تأكيد المال، وتمسكه بإحكام في يدها.

«احتفال، أليس كذلك؟».

«تماماً، احتفال كبير جداً»، ثم في نزوة: «علبة مارلبورو أيضاً».

خرجت من المتجر، والقاروارتان تتأرجحان في كيس رقيق قرب ردفها، وقد أقحمت لفافة التبغ في فمها وكأنها الترياق لشيء ما. سمعت صوتاً فوراً.

«آنسة مورلي؟».

نظرت حولها، وهي تشعر بالذنب.

«آنسة مورلي؟ هنا!».

ورأتها تمشي نحوها بساقيها الطويلتين؛ سونيا ريتشاردز، صنيعتها، مشروعها؛ الفتاة النحيلة المحدودبة التي أدّت دور آرتفول دودجر، والتي تبدو رائعة آنذاك. فهي طويلة، وقد أسدلت شعرها إلى الخلف، وتبدو واثقة بنفسها. كانت لإيما رؤية مثالية عن ذاتها التي يجب أن تراها سونيا؛ لكنها تقف آنذاك وهي تحني ظهرها، وعيناها محمرّتان، وعقب لفافة التبغ في فمها على عتبة «المشروب لنا»، ولم تعد قدوة ومصدر إلهام. أخفت - على نحو مضحك - لفافة التبغ المشتعلة خلف ظهرها.

«كيف حالك يا آنسة؟». بدت سونيا محرجة قليلاً آنذاك، وعيناها تتحركان من جانب إلى آخر؛ وكأنها نادمة على إيقافها.

«أنا بخير! بخير! كيف حالك يا سونيا؟».

«لا بأس يا آنسة».

«كيف الدراسة؟ هل كل شيء على ما يرام؟».

«نعم، جيد حقاً».

«أنت في المرحلة الثانوية هذه السنة، صحيح؟».

«هذا صحيح». كانت سونيا تنظر خلسة إلى كيس الشراب الذي يصدر صوتاً إلى

جانب إيما، وعمود الدخان الذي يتصاعد ملتوياً خلف ظهرها.

«في الجامعة السنة القادمة؟».

«نوتنغهام، كما آمل، إن حصلت على العلامات المناسبة».

«ستفعلين، ستحصلين عليها».

قالت سونيا، لكن من دون اقتناع كبير: «شكراً لك».

أطبق الصمت. يائسة، رفعت إيما القارورتين في يد، ولفافة التبغ في الأخرى وهزّتهما. قالت: «تسوق أسبوعي!».

بدا الارتباك على سونيا. «حسنٌ، من الأفضل أن أذهب».

«لا بأس يا سونيا. رائع حقاً أن أراك. سونيا؟ حظاً طيباً، هه؟ بالتوفيق حقاً». لكن سونيا كانت تبتعد آنذاك بخطوات واسعة من دون أن تنظر إلى الخلف. وراقبتها إيما وهي تفكر في أن سونيا تظنها إحدى أولئك المدرسات اللواتي ينغمسن في الملذات.

حدث شيء غريب لاحقاً تلك الليلة. فيما كانت شبه نائمة على الأريكة، والتلفاز يعمل، والقارورة الفارغة عند قدميها، استيقظت على صوت دكستر ميهو. لم تفهم تماماً ما كان يقوله. كان يقول شيئاً عن الألعاب الحربية، وخيارات اللاعبين المتعددين، وإطلاق النار عليهم من دون توقف. مرتبكة وقلقة، فتحت عينيها رغماً عنها، ورأته يقف أمامها مباشرة.

دفعت إيما نفسها للوقوف وابتسمت، فقد رأت هذا البرنامج من قبل. «اللعبة» برنامج تلفازي يعرض في آخر الليل، ويقدم أحدث الأخبار والآراء من عالم ألعاب الحاسوب. الإستوديو مكان مضاء بمصابيح حمراء، ومبني من ألواح بلاستيكية؛ وكأن لعب ألعاب الحاسوب نوعٌ من العذاب. وفي هذا المكان يجلس لاعبون وجوههم شاحبة، وهم يحنون ظهورهم أمام شاشة عملاقة، في حين يحثّهم دكستر ميهو على الضغط بسرعة أكبر على أزرارهم، وإطلاق النار على نحو متواصل.

تداخلت مع الألعاب المسابقات، ومشاهد متنوعة يناقش فيها دكستر وامرأة دمية شعرها برتقالي إصدارات الأسبوع الجديدة. ربما كان ذلك بسبب تلفاز إيما الصغير، لكنه بدا بديناً قليلاً آنذاك، يخط الشيب شعره. ربما كان السبب هو تلك الشاشة الصغيرة، لكن هناك شيئاً مفقوداً. كان الزهو الذي تتذكره قد اختفى، ويتكلم آنذاك عن ديوك نوكم ثلاثي الأبعاد ويبدو غير واثق بنفسه، ومحرجاً قليلاً أيضاً. على الرغم من ذلك، شعرت

بعاطفة جيّاشة نحو دكستر ميهو. لم يمض يوم واحد منذ ثماني سنوات من دون أن تفكّر فيه. كانت تشتاق إليه وتريد استعادته. أريد استعادة أفضل أصدقائي، كما فكّرت؛ لأن لا شيءٍ جيد أو صحيح من دونه. سأتصل به، فكّرت، حين غطّت في النوم.

غداً، أول شيء أفعله غداً، سأتصل به.

الفصل الحادي عشر

اجتماعان

الثلاثاء 15 تموز 1997

سوهو والضفة الجنوبية

«إذاً، الخبر السيئ أنهم ألغوا برنامج اللعبة».

«هل فعلوا ذلك؟ حقاً؟».

«نعم، فعلوا هذا».

«حسنٌ، لا بأس، حسنٌ. هل أفصحوا عن سبب هذا؟».

«لا يا دكسي، لكنهم لا يشعرون بأنهم قد شقوا طريقاً لنقل رومانسية ألعاب الحواسيب الرائعة إلى جمهور التلفاز آخر الليل. تظن القناة أنها لم تخلط المكوّنات جيداً، لذا قاموا بإلغاء البرنامج».

«فهمت».

«... سيبدأون مجدداً مع مقدم برامج آخر».

«واسم مختلف؟».

«لا، سيبقى العنوان اللعبة».

«حسنٌ. إذاً، لا يزال البرنامج نفسه».

«إنهم يقومون بكثير من التغييرات المهمة».

«لكن العنوان لا يزال اللعبة؟».

«نعم».

«الإستوديو نفسه، والشكل ذاته».

«نوعاً ما».

«لكن، مع مقدّم برامج مختلف».

«نعم، مقدم برامج مختلف».

«من؟».

«لا أعرف. لكن ليس أنت».

«لم يقولوا من؟».
«قالوا إنه أصغر سناً. شخص يصغرك سناً، هذا كل ما أعرفه».
«إذاً... بكلمات أخرى، لقد أقالوني من العمل».
«حسنٌ، أفترض أن هناك طريقة أخرى للنظر إلى الأمر. نعم، في هذه الحال، لقد قرروا الذهاب في اتجاه مختلف؛ اتجاه بعيد عنك».
«لا بأس، لا بأس. إذاً، ما الخبر الجيد؟».
«آسف؟».
«حسنٌ، قلت إن الخبر السيئ أنهم قد ألغوا البرنامج. ما الخبر الجيد إذاً؟».
«هذا هو، هذا كل شيء. هذه كل الأخبار التي لدي».
في تلك اللحظة تحديداً، على بعد ميلين تقريباً عبر التايمز، كانت إيما مورلي تقف في مصعد يرتفع مع صديقتها القديمة ستيفاني شو.
«الشيء المهم، ولا يمكنني القول إن هذا كافٍ: لا تشعري بالخوف».
«لماذا سأشعر بالخوف؟».
«إنها أسطورة في النشر يا إم، ومشهورة».
«مشهورة؟ بماذا؟».
«بأنها... شخصية كبيرة». وعلى الرغم من كونهما الشخصين الوحيدين في المصعد، إلا أن ستيفاني شو أخفضت صوتها إلى همس. «إنها مديرة نشر رائعة، لكنها... غريبة الأطوار قليلاً، هذا كل شيء».
ارتفعتا إلى الطوابق العشرين التالية بصمت. وقفت ستيفاني شو بجانبها وهي تبدو أنيقة، وصغيرة القد، ترتدي قميصاً أبيض مجعداً – لا، ليس قميصاً، وإنما كنزة – وتنورة سوداء ضيقة، وشعرها قصير ومصفف بأناقة؛ بعيدة سنوات عن الغول النكد الذي كان يجلس بجانبها في الصفوف قبل كل تلك السنوات، وأُصيبت إيما بالدهشة حين وجدت أن صديقتها القديمة تجعلها تشعر بالخوف، بتصرفها المهني وسلوكها الرزين. ربما كانت ستيفاني شو تطرد الناس، وربما تقول أشياء مثل «انسخي هذه لي!». إذا فعلت إيما الشيء نفسه في المدرسة فسيضحكون في وجهها. في المصعد، فيما كانت يداها متشابكتين أمامها، شعرت إيما برغبة ملحة في القهقهة. كان الأمر يشبه لعب لعبة تدعى «مكاتب».

فُتح باب المصعد جانبياً في الطابق الثلاثين؛ مساحة شاسعة لا تفصلها جدران، تطل نوافذها الزجاجية المعتمة العالية على التايمز ولامبث. عندما جاءت إيما إلى لندن أول مرة كانت قد كتبت رسائل مفعمة بالأمل إلى الناشرين، وتخيّلت أن تُفتح المغلفات بسكاكين ورق عاجية في منازل جورجية الطراز مبعثرة ومتداعية من قبل أمناء سر طاعنين في السن يضعون نظارات هلالية الشكل. لكن هذا مكان أنيق ومضاء ومفعم بالحيوية، ويعد نموذجاً لمقر وسيلة إعلامية حديثة. كان الشيء الوحيد الذي يطمئنها هو أكداس الكتب التي تتناثر على الأرضية والطاولات؛ أكوام مائلة من الأشياء الملقاة عشوائياً على ما يبدو. مشت ستيفاني بخطوات واسعة وتبعتها إيما. وظهرت وجوه موظفين من خلف جدران من الكتب وهي تنظر إلى الوافدة الجديدة التي تكافح لتنزع سترتها وتمشي في الوقت نفسه.

«الآن، لا يمكن أن أضمن أنها قد قرأت ذلك، أو ستقرأه في الواقع. لكنها طلبت رؤيتك، وهذا أمر رائع يا إم، رائع حقاً».

«أقدّر هذا كثيراً يا ستيفاني».

«ثقي بي يا إم، الكتابة جيدة حقاً. لو لم تكن كذلك لما كنت قد أعطيتها إياها. لا يهمني إطلاقاً أن أعطيها شيئاً سيئاً تقرأه».

كانت قصة مدرسية للأطفال، رومانسية حقاً، تجري وقائعها في معسكر في ليدز؛ نوع من أبراج مالوري الحقيقية، وتستند إلى مسرحية أوليفر المدرسية، وتُسرد من وجهة نظر جولي كريسكول، الفتاة الثرثارة التي لا تتحمل المسؤولية وتؤدي دور آرتفول دودجر. كانت هناك رسوم توضيحية أيضاً؛ خربشات أُنجزت على عجل، وكاريكاتير، وفقاعات تضم كلاماً ساخراً مثل تلك التي قد تجدها في مفكرة فتاة مراهقة؛ وكلها متداخلة مع النص.

كانت قد أرسلت أول عشرين ألف كلمة وانتظرت بصبر حتى تلقت رسالة رفض من كل ناشر؛ من دون استثناء. قالوا: ليس لنا، نحن آسفون لأننا لم نكن أكثر عوناً. نأمل أن يكون حظك أفضل في مكان آخر. والشيء الوحيد المشجع في كل ذلك الرفض هو عدم وضوحهم. لكن، بدا أن المسوّدة لم تُقرأ كما ينبغي، وإنما رُفضت برسالة معدّة سلفاً. من بين كل الأشياء التي قد كتبتها وتركتها جانباً، كانت تلك هي الأولى التي لم ترغب أن يُلقى بها، بعد القراءة، عبر الغرفة. كانت تعرف أنها جيدة، وبدا واضحاً أن عليها أن تلجأ إلى المحسوبية.

فعلى الرغم من علاقاتها المؤثرة والمتنوعة في الكلية، إلا أنها قد أخذت عهداً خاصاً على نفسها ألاّ تطلب أبداً مساعدة من أحد. وكان طلب مساعدة نظرائها الأكثر نجاحاً يشبه اقتراض المال من صديق. لكنها قد ملأت مجلداً ورقياً برسائل الرفض آنذاك، ولم تكن - كما اعتادت والدتها تذكيرها - قد أصبحت أصغر سناً. في إحدى استراحات الغداء، كانت قد وجدت صفاً هادئاً، فسحبت نفساً عميقاً وأجرت اتصالاً هاتفياً بستيفاني شو. كانت تلك أول مرة تتكلمان فيها منذ ثلاث سنوات، لكن على الأقل أُعجبتا حقاً ببعضهما، وبعد طرح بعض الأسئلة عن الحال، نطقت بما تفكر فيه: هل ستقرأ شيئاً؟ هذا الشيء الذي كتبته؛ بعض الفصول والموجز لكتاب سخيف للمراهقين؛ يتكلم عن حفلة موسيقية مدرسية.

وصلت إلى هناك أخيراً. وفي الواقع ستقابل ناشرة؛ ناشرة حقيقية. شعرت بالارتعاش بسبب الإفراط في تناول القهوة، وبأنها عليلة من شدة القلق. ولم تساعد حالتَها الانفعالية حقيقةُ أنها قد اضطرت إلى التغيب عن المدرسة. كان لديها اليوم اجتماع مهم للمدرسين؛ الأخير قبل العطلات. ومثل تلميذ مولع بالرحلات، استيقظت في الصباح، وأمسكت أنفها، واتصلت بأمينة السر، ونعقت شيئاً عن مرض في المعدة. بدا عدم تصديق أمينة السر مسموعاً عبر خط الهاتف، وعرفت أنها ستواجه مشكلة مع السيد غودالمينغ أيضاً، وأن فيل سيغضب كثيراً.

لم يكن هناك وقت لتقلق بشأن ذلك آنذاك؛ لأنهما في مكتب الزاوية؛ مكعب زجاجي بمساحة متوسطة رأت فيه سيدة نحيلة تدير ظهرها إلى إيما، ووراء ذلك منظر شاسع مدهش من سان بول إلى البرلمان.

أشارت ستيفاني إلى كرسي منخفض بجانب الباب.

«إذاً، سأنتظر هناك. تعالي لرؤيتي بعد هذا. أخبريني كيف سارت الأمور، وتذكري: لا تخافي...».

«هل ذكروا سبباً؟ لإقالتي من العمل؟».

«ليس حقاً».

«هيا يا آرون، أخبرني فحسب».

«حسنٌ، كانت العبارة بالضبط، حسنٌ، كانت العبارة تحديداً أنك من مواليد 1989».

«واو، واو. حسنٌ، لا بأس. لا بأس. حسنٌ، تباً لهم، صحيح؟».

«بالضبط، هذا ما قلته».

«حقاً؟».

«أخبرتهم أنني لست سعيداً أبداً».

«لا بأس. حسنٌ، ماذا لدينا غير هذا؟».

«لا شيء».

«لا شيء؟».

«هناك ذلك الشيء الذي يتقاتل فيه آليون، ويجب عليك أن تقدّم هؤلاء الآليين...».

«لماذا يتقاتل الآليون؟».

«من يعرف السبب؟ هذا من طبيعتهم، كما أفترض. إنهم آليون عدائيون».

«لا أظن ذلك».

«لا بأس. برنامج سيارات في رجال ومحركات؟».

«ماذا، قناة فضائية؟».

«القنوات الفضائية والكابل هي المستقبل يا دكس».

«لكن، ماذا عن الأرض؟».

«إنها هادئة جداً هناك».

«ليست هادئة لسوكي ميدوز، أو توبي موراي. لا يمكنني أن أمرَّ بجانب تلفاز من دون رؤية توبي موراي اللعين».

«ذلك هو التلفاز يا دكس، إنه يتعلق بالبدعة. أنت كنت البدعة، والآن هو البدعة».

«أنا كنت بدعة؟».

«لست بدعة. أعني فقط أنك تمر بأوقات جيدة وأخرى سيئة، هذا كل شيء. أظن أنك تحتاج إلى التفكير في تغيير الاتجاه. يجب أن نغير نظرة الناس إليك، شهرتك».

«مهلاً؛ أنا أتمتع بالشهرة».

جلست إيما على كرسي جلدي منخفض وانتظرت طويلاً، وهي تراقب المكتب في أثناء العمل، وتشعر بحسد فاضح قليلاً من هذا العالم المتعاون، والمهنيين الشبان الأنيقين الذين يعملون فيه. حسد مبرّدة الماء، ذلك ما تشعر به. لم يكن هناك شيء خاص أو مميز في

ذلك المكتب. لكن، مقارنة بشقة كرومويل، تبدو مستقبلية على نحو إيجابي، وعلى النقيض تماماً من صفها بأكوابه الملطخة، والأثاث الممزق، والتعفّن الكبير، والوجوه المشحونة بالتذمر والشكوى والاستياء. وطبعاً، الأولاد رائعون، بعضهم، لبعض الوقت، لكن المقارنات هذه الأيام تبدو أكثر تواتراً وإنذاراً بالخطر. كان قد طُلب منها للمرة الأولى أن «تتكلم بصوت خافت»، وهذا موقف جديد وجدت صعوبة في فهمه، أو ربما هي تفقد صبرها، وحافزها، وطاقتها. لم يكن الوضع مع مديرها ينفعها آنذاك بالتأكيد.

ماذا إن اتخذت الحياة مسلكاً مختلفاً؟ ماذا لو كانت قد واظبت على إرسال تلك الرسائل إلى ناشرين بعمر الثانية والعشرين؟ هل كان من الممكن أن تقوم إيما مورلي، بدلاً من ستيفاني شو، بتناول شطائر برت إيه مانجر وارتداء تنورة ضيقة؟ كان لديها اقتناع منذ بعض الوقت آنذاك بأن الحياة على وشك أن تتغير؛ لأنها يجب أن تفعل ذلك، وربما هذا ما يحدث؛ وربما هذا الاجتماع هو البداية الجديدة. اضطربت معدتها مرة أخرى توقعاً لما سيحدث حين وضعت أمينة السر هاتفها واقتربت منها، ثم قالت إن مارشا ستراها آنذاك. وقفت إيما، وشدّت تنورتها إلى الأسفل؛ لأنها قد رأت نساءً يفعلن هذا على التلفاز، ودخلت الصندوق الزجاجي.

مارشا - الآنسة فرانكمب؟ - طويلة ومهيبة. ملامحها القاسية تمنحها مظهراً مخيفاً، في أوائل العقد الرابع، وشعرها الأشيب قصير وممشط إلى الأمام بأسلوب سوفييتي، وصوتها أجش وقيادي. وقفت ومدت يدها.

«آه، لا بد أنك موعدي عند الثانية عشرة والنصف».

همست إيما رداً، نعم، هذا صحيح إنها الثانية عشرة والنصف. رغم أن الموعد عملياً عند الثانية عشرة وخمس عشرة دقيقة.

قالت مارشا على نحو لا يمكن تفسيره: «ستزن ساي، بيتي هين». الألمانية؟ لماذا الألمانية؟ أوه، حسنٌ، من الأفضل مجاراتها.

همست إيما مجدداً: «دانكه». نظرت حولها، واستقرت على الأريكة، وجال بصرها في أنحاء الغرفة: ميداليات على رفوف، أغلفة كتب مؤطرة، تذكارات عن سيرة مهنية لامعة. انتاب إيما شعور غامر بأنها يجب ألا تكون هنا. إنها لا تنتمي إلى هذا المكان، وتضيع وقت هذه المرأة المهيبة سدى؛ إنها تنشر كتباً، مؤلفات حقيقية يشتريها الناس ويقرأونها. لم تكن مارشا تسهّل الأمر عليها بالتأكيد. أطبق الصمت على المكان حين خفضت شفرات

الستائر المعدنية وعدّلتها لتحجب الرؤية عن المكتب الخارجي. جلستا في ضوء باهت، وانتاب إيما شعور مفاجئ بأنها على وشك أن تتعرض لاستجواب.

«آسفة جداً لأنني جعلتك تنتظرين. أنا مشغولة على نحو لا يُصدّق كما أخشى، ولم أستطع تخصيص جزء من وقتي لك حتى الآن. لا أريد الاستعجال في هذا. مع شيء مماثل، من المهم اتخاذ القرار الصائب، ألا تظنين هذا؟».

«هذا مهم، بالتأكيد».

«أخبريني، منذ متى تعملين مع الأطفال؟».

«مم، دعيني أفكّر، 1993؛ منذ نحو خمس سنوات».

مالت مارشا إلى الأمام، متشوّقة. «وهل تحبين هذا؟».

«أحبه، معظم الوقت على كل حال». شعرت إيما بأنها متكلّفة قليلاً، ورسمية أيضاً. «حين لا يجعلونني أواجه وقتاً صعباً».

«الأطفال يجعلونك تواجهين وقتاً صعباً؟».

«يمكن أن يصبحوا أوغاداً قليلاً أحياناً؛ لأكون صادقة».

«حقاً؟».

«تعرفين، صفاقة، إزعاج».

شمخت مارشا بأنفها، واسترخت إلى الخلف على كرسيها. «إذاً، ماذا تفعلين أنت، من أجل الانضباط؟».

«أوه، المعتاد، أرمي الكراسي عليهم! ليس حقاً! الأشياء المعتادة فحسب، أُخرجهم من الغرفة؛ ذلك النوع من الأفعال».

«فهمت، فهمت». لم تقل مارشا شيئا آخر، لكن بدا عليها استنكار كبير. عادت عيناها إلى الأوراق على الطاولة، وتساءلت إيما متى ستبدأان الحديث فعلاً عن العمل.

قالت مارشا: «حسنٌ، يجب أن أقول إن لغتك الإنكليزية أفضل كثيراً مما توقعت».

«عفواً؟».

«أعني، أنت فصيحة؛ وكأنك عشت في إنكلترا طوال حياتك».

«حسنٌ... هذا صحيح».

بدت مارشا منزعجة. «ليس وفقاً لسيرتك الذاتية».

«آسفة؟».
«تقول سيرتك الذاتية إنك ألمانية!».
ماذا يجب أن تفعل إيما لإصلاح الأخطاء؟ ربما يجب أن تتظاهر أنها ألمانية؟ هذا لن ينفع، فهي لا تجيد الألمانية. «لا، أنا إنكليزية بالتأكيد». وأي سيرة ذاتية؟ لم ترسل سيرة ذاتية.
هزّت مارشا رأسها. «آسفة، يبدو أننا نتكلم عن شيئين مختلفين. موعدك الثانية عشرة والنصف، أليس كذلك؟».
«نعم، أظن ذلك. حقاً؟».
«المربية؟ أنت هنا من أجل وظيفة المربية؟».
«أنا أتمتع بشهرة؟».
«قليلاً، في الصناعة».
«مثل ماذا؟».
«لا يُعتمد عليك... قليلاً، هذا كل شيء».
«لا يُعتمد علي؟».
«تفتقر إلى المهنية».
«بأي طريقة؟».
«بطريقة ثملة. بطريقة إدارتك وجهك إلى آلة التصوير».
«مهلاً، لم أكن قط –».
«– كما أنك متعجرف. يظن الناس أنك متعجرف».
«متعجرف؟ أنا واثق بنفسي، ولست متعجرفاً».
«أنا فقط أخبرك ما يقوله الناس يا دكس».
«الناس! من هم أولئك الناس؟».
«أشخاص قد عملت معهم».
«حقاً؟ يا للهول!».
«أقول فحسب، إن كنت تشعر أنك تعاني مشكلةً –».
«لكنني لا أعاني شيئاً».

«فقد يكون الوقت مناسباً الآن لمعالجتها».

«لا أعاني شيئاً».

«حسنٌ، إذاً نحن بخير. في هذه الأثناء، أظن أنك ربما ترغب أيضاً أن تراقب إنفاقك، بضعة شهور على الأقل».

«إيما، أنا آسفة جداً...».

مشت نحو المصعد وعيناها مغرورقتان بالدموع، وهي تشعر بالإحراج. سارت مارشا خلفها مباشرة، تتبعها ستيفاني. ظهرت رؤوس من حجيرات حين مررن خلف بعضهن. لا بد أنهم فكّروا أن ذلك سيلقّنها درساً؛ لأن لديها أفكاراً كبيرة.

قالت مارشا وهي تحاول إرضاءها: «أنا آسفة جداً لهدر وقتك سدى. كان يجب أن يتصل أحدهم ويُلغي –».

تمتمت إيما: «لا بأس، هذا ليس خطأك –».

«لا حاجة إلى القول إنني ومساعدتي سنتكلم معاً. هل أنتِ واثقة أنك لم تتلقي الرسالة؟ أكره إلغاء اجتماع، لكنني ببساطة لم أحظ بوقت لقراءة المادة. سأقرأها على عجل الآن، لكن هيلغا العجوز المسكينة تنتظر في قاعة الاجتماعات على ما يبدو –».

«أفهم تماماً».

«أكّدت لي ستيفاني أنك موهوبة جداً. أتطلع قدماً لقراءة عملك...».

وصلن إلى المصعد، وضغطت إيما على زر الاستدعاء. «نعم، حسنٌ...».

«على الأقل، ستكون لديك قصة مسلية».

قصة مسلية؟ ضغطت على زر الاستدعاء وكأنها تفقأ عيناً. لم تكن تريد قصة مسلّية، وإنما تغييراً، استراحة، لا حكاية. كانت حياتها ملأى بالحكايات، سلسلة لا تنتهي من الأوغاد، وتريد الآن شيئاً ملائماً. تريد النجاح، أو على الأقل الأمل فيه.

«أخشى أن الأسبوع القادم ليس ملائماً، ثم سأذهب في عطلة، لذا ربما بعد ذلك. لكن، قبل انتهاء الصيف، أعدك».

قبل انتهاء الصيف؟ ينقضي شهر بعد آخر ولا شيء يتغير. ضغطت مرة أخرى على زر المصعد ولم تقل شيئاً. كانت مراهقة فظة تجعلهم يعانون. انتظروا. راقبتها مارشا، من دون أن يبدو عليها أي ارتباك، بعينين زرقاوين حادتين. «أخبريني يا إيما، ماذا تفعلين حالياً؟».

«أدرّس الإنكليزية في ثانوية في ليتونستون».

«لا بد أن ذلك مجهد جداً. متى تجدين الوقت للكتابة فعلاً؟».

«في الليل، وعطلات نهاية الأسبوع، والصباح الباكر أحياناً».

ضاقت عينا مارشا. «لا بد أنك تشعرين بشغف كبير بشأن ذلك».

«إنه الشيء الوحيد الذي أريد حقاً أن أفعله الآن». فاجأت إيما نفسها، ليس فقط بمدى جدّيتها، وإنما لأنها أدركت أيضاً أن تلك الملحوظة صحيحة. فُتح باب المصعد خلفها، ونظرت من فوق كتفها وهي تتمنّى تقريباً أن يكون بوسعها البقاء.

أمسكت مارشا يدها. «حسنٌ، إلى اللقاء يا آنسة مورلي. أتطلع قدماً إلى إجراء المزيد من الحديث معك».

أمسكت إيما أصابعها الطويلة. «وأنا آمل أن تجدي مربية».

«آمل ذلك أيضاً. كانت الأخيرة مضطربة عقلياً حقاً. لا أفترض أنك تريدين الوظيفة على كل حال، هل ترغبين بها؟ أتخيّل أنك ستبرعين بها». ابتسمت مارشا، وابتسمت إيما لها أيضاً، وخلف مارشا عضّت ستيفاني شفتها السفلية، حرّكت فمها بكلمات آسفة – آسفة – آسفة، وحاكت بيدها هاتفاً صغيراً. «اتصلي بي!».

أُغلق باب المصعد واستندت إيما إلى الجدار حين هبط ثلاثين طابقاً، وشعرت بالغثيان في معدتها يتحوّل إلى خيبة أمل مريرة. عند الثالثة صباحاً، لا تستطيع النوم، كانت قد تخيّلت تناول غداء غير مجدول مع ناشرتها الجديدة، وقد تصوّرت نفسها تشرب شراباً أبيض معتقاً في برج أوكسو، وتفتن صاحبتها بقصص مدهشة عن الحياة المدرسية، لكن تلك هي حالها آنذاك، تنطلق إلى الضفة الغربية لتصلها في أقل من خمس وعشرين دقيقة.

في أيار، كانت قد احتفلت بنتيجة الانتخابات هناك، لكنها لم تعد تشعر بأي من ذلك آنذاك. بعد أن أعلنت أنها تعاني ألماً في المعدة، لم يكن بمقدورها حتى الذهاب إلى اجتماع المدرّسين. أحسّت أن هناك جدالاً آخر يتخمّر في ذلك المكان أيضاً، وستسمع اتهامات وملحوظات ماكرة. لتصفّي ذهنها قرّرت أن تمشي في نزهة، فاتجهت نحو جسر البرج.

لكن، حتى التايمز فشل في رفع معنوياتها. كان ذلك الجزء من الضفة الغربية يخضع للتجديد، ويعج بفوضى السقالات والمشمّع، ومحطة كهرباء ضفة النهر تبدو مهجورة وثقيلة الوطأة في ذلك اليوم من منتصف الصيف. شعرت بالجوع، لكن لم يكن هناك

مكان تأكل فيه، ولا أحد تتناول الطعام معه. رنَّ هاتفها، وبحثت عنه في حقيبتها، متشوقة إلى التنفيس عن إحباطها. ولم تدرك إلا في وقت متأخر جداً هوية المتصل.

قال المدير: «إذاً، ألم معدي؟».

تنهّدت. «هذا صحيح».

«وأنت تلزمين السرير بسببه، أليس كذلك؟ لأنه لا يبدو لي أنك في السرير. يبدو لي أنك في الخارج تستمتعين بالشمس».

«فيل، أرجوك، لا تصعّب الأمر علي».

«أوه، لا يا آنسة مورلي، لا يمكن أن تحظي بالأمرين. لا يمكنك إنهاء علاقتنا ثم توقّع نوع من المعاملة الخاصة». إنه الصوت الذي كان يستخدمه منذ شهور آنذاك؛ صوت متكلّف، رتيب، حاقد. وشعرت بنوبة غضب جديدة من الأفخاخ التي توقع نفسها فيها.

«إذا أردت أن يكون الأمر مهنياً تماماً، فيجب أن يبقى مهنياً تماماً! إذاً، إذا لم يكن لديك مانع، فهل يمكن أن تخبريني لماذا لن تحضري الاجتماع المهم جداً اليوم؟».

«لا تفعل هذا، أرجوك يا فيل. مزاجي ليس ملائماً».

«لأنني سأكره أن أجعل من هذا قضية تأديبية يا إيما...».

أبعدت الهاتف عن أذنها في حين تابع المدير كلامه. كان الهاتف ضخماً وقديم الطراز آنذاك. وهو نفسه الذي اشتراه لها حتى يستطيع «سماع صوتها كلما أراد ذلك». يا للهول! كانا قد تبادلا أحاديث كثيرة عبر ذلك الهاتف، أو هو من فعل ذلك على كل حال...

«لقد أُبلغتِ بوضوح أن الاجتماع إلزامي. لم ينته الفصل بعد كما تعرفين».

وفي لحظة واحدة، فكّرت في السعادة الكبيرة التي ستغمرها إن قذفت بالشيء البائس إلى التايمز، ورأت الهاتف وهو يصطدم بالماء مثل نصف قطعة آجر. لكن، سيتوجب عليها أن تنزع بطاقة الرقم أولاً، ممّا سيفسد الرمزية نوعاً ما. ثم إن مثل تلك الإشارات الدرامية خاصة بالأفلام والتلفاز. إضافة إلى ذلك، لا يمكنها شراء هاتف آخر.

ليس الآن؛ بعد أن قررت الاستقالة.

«فيل؟».

«لنلتزم بالسيد غودالمينغ، هلاّ فعلنا ذلك؟».

«لا بأس. سيد غودالمينغ؟».

«نعم يا آنسة مورلي؟».

«أنا أستقيل».

ضحك ضحكته الجنونية المزيفة تلك. كان بمقدورها رؤيته آنذاك وهو يهز رأسه ببطء. «إيما، لا يمكنك الاستقالة».

«يمكنني، وقد فعلت هذا. وهناك شيء آخر سيد غودالمينغ».

«إيما».

كانت الكلمات البذيئة على شفتيها، لكنها لم تتمكن من إرغام نفسها على نطقها. بدلاً من ذلك، غمغمت بها، وأنهت المكالمة، وألقت الهاتف في حقيبتها، ومشت شرقاً على طول نهر التايمز؛ مشوشة بين الارتياح والخوف من المستقبل.

«آسف لأنني لم أستطع استقبالك على الغداء فقد كان لدي اجتماع مع زبون آخر...».

«لا بأس. شكراً يا آرون».

«ربما في المرة القادمة يا دكسي. ما الأمر؟ تبدو مكتئباً يا صاحبي».

«لا، لا شيء. أنا قلق قليلاً فقط، وهذا كل شيء».

«بشأن ماذا؟».

«بشأن، تعرف... المستقبل، مهنتي. هذا ليس ما توقعته».

«لا يحدث ما نتوقعه أبداً، أليس كذلك؟ المستقبل. هذا ما يجعل الأمر مثيراً للاهتمام جداً! هيا، تعال إلى هنا. قلت تعال إلى هنا! لدي نظرية عنك يا صاحبي. هل تريد سماعها؟».

«تفضل».

«الناس يحبونك يا دكس، حقاً. المشكلة هي أنهم يحبونك بطريقة ساخرة، وصفيقة، وبنوعٍ من علاقة الحب-و-الكراهية. ما تحتاج إليه هو أن تجعل شخصاً ما يحبك بصدقٍ...».

الفصل الثاني عشر

قول «أنا أحبك»

الأربعاء 15 تموز 1998

تشيشستر، سوسكس

من دون أن يعرف كيف حدث ذلك، اكتشف دكستر أنه يحب، وأضحت الحياة فجأة استراحة ممتعة طويلة.

سيلفي كوب. اسمها سيلفي كوب، اسم جميل. وإذا سألته كيف تبدو؟ فسيهزّ رأسه وينفخ زفيراً من فمه ويقول إنها رائعة، رائعة فحسب... مدهشة! كانت جميلة طبعاً، لكن بطريقة مختلفة عن الأخريات. فهي لا تثير رغبة الرجال مثل سوكي ميدوز، أو فاتنة وأنيقة مثل نعومي أو إنغريد أو يولاند، لكنها ذات جمال تقليدي؛ وفي مخيلة مقدّم برامج تلفازية سابقاً، ربما كان سيدعوها «حسناء» أو «مليحة». شعر طويل مسترسل، ينفصل تماماً في الوسط، وملامح صغيرة جميلة تبرز بوضوح في وجه بيضاوي شاحب، وتذكّره بامرأة في لوحة لا يستطيع أن يتذكر اسمها؛ امرأة من العصور الوسطى مع ورود في شعرها. ذلك ما تبدو عليه سيلفي كوب؛ إنها من نوع النساء اللواتي يبدون رائعات في المنزل وهن يضعن أذرعهنّ حول أحادي القرن. طويلة ونحيلة، متزمتة قليلاً، صارمة جداً غالباً، وجهها لا يتحرك كثيراً إلا ليعبس، أو أحياناً لتحرك عينيها بسبب شيء غبي قاله أو فعله؛ سيلفي مثالية، وتطلب شخصاً مثالياً.

تبرز أذناها قليلاً فقط وتلمعان مثل المرجان حين يغمرها الضوء من الخلف. وفي الضوء نفسه يمكنك أن ترى شعراً أملسَ رائعاً على وجنتيها وجبينها. في أوقات أخرى أكثر حلكة في حياته، ربما كان دكستر سيعدّ تينك الصفتين - الأذنان اللامعتان، والجبين المغطى بالشعر - مزعجتين. لكن، عندما ينظر إليها آنذاك، وهي تجلس إلى الطاولة مقابله على مرج إنكليزي في منتصف الصيف، وذقنها الصغير المثالي يستند على يدها طويلة الأصابع، وطيور السنونو فوق رؤوسهم، والشموع تضيء وجهها مثل تلك اللوحات التي رسمها رجل الشمع، يجدها مدهشة تماماً. ابتسمت له عبر الطاولة، وقرر أنه سيخبرها تلك الليلة أنه يحبها. لم يكن قد قال حقاً «أحبك» من قبل، ليس وهو صاحٍ ويعني ذلك تماماً. كان قد قال «تباً أنا أحبك»، لكن ذلك شيء مختلف، وشعر أنه قد حان الوقت آنذاك لاستخدام

الكلمات في شكلها الأنقى. بدا مشغولاً جداً بتلك الخطة ولم يستطع أن يركّز لحظة على ما يُقال.

سألت والدة سيلفي، من الطرف البعيد من الطاولة: «إذاً، ماذا تفعل بالضبط يا دكستر؟». هيلين كوب، تشبه الطائر، وتضع شالاً كشميرياً أصفر اللون.

لم يسمع دكستر ما قالته، وتابع التحديق إلى سيلفي التي رفعت حاجبيها آنذاك تنبيهاً. «دكستر؟».

«همم؟».

«طرحت أمي عليك سؤالاً؟».

«أنا آسف، لقد شرد ذهني».

قال سام، أحد شقيقي سيلفي التوأم: «إنه مقدّم برامج تلفازية». كان عمر سام تسعة عشر عاماً، وهو عضو في فريق التجذيف في الكلية، وهو ضخم ومغرور بنفسه، مثل شقيقه التوأم موراي تماماً.

«حالياً أم سابقاً؟ هل ما زلت تقدم البرامج هذه الأيام؟». ابتسم موراي بتكلف، ونقرا شراريب القماش الذهبية نحو بعضهما. كانا يبدوان، ببنيتيهما الرياضيّتين، وجلدهما صافي اللون، وعيونهما الزرقاء وكأنهما أُنجبا في مختبر.

قالت سيلفي بحدة: «لم تكن أمي تسألك يا موراي».

قال دكستر: «حسنٌ، لا أزال مقدّم برامج، نوعاً ما»، وفكّر: سأنال منكما أيها الوغدان الصغيران. كانوا قد تشاجروا من قبل، دكستر والتوأم، في لندن، وقد كشفا عبر ابتسامات متكلّفة وغمزات أنهما لا يقدّران أبداً حبيب شقيقتهما الجديد، ويظنان أنها يمكن أن تحظى بشخص أفضل. أفراد أسرة كوب ناجحون ولن يقبلوا إلا ناجحين، ودكستر مجرد فتى وسيم، أفل نجمه، ومتكلّف على طريق الانحدار. أطبق الصمت على الطاولة. هل كان عليه مواصلة الكلام؟ سأل دكستر تائهاً لحظة، لكنه عاقد العزم على العودة إلى قمة اللعبة: «أنا آسف، ماذا كان السؤال؟».

كرّرت بصبر: «تساءلت عمّا تفعله هذه الأيام، في ما يتعلق بالعمل؟». ما أوضح بجلاء أن هذه مقابلة عمل لمنصب حبيب سيلفي.

«حسنٌ، أنا أعمل على برنامجين تلفازيين جديدين في الواقع. نحن ننتظر لنعرف أيهما سيجري إقراره».

«ما موضوعهما، هذان البرنامجان التلفازيان؟».

«حسنٌ، أحدهما عن حياة الليل في لندن؛ نوعٌ من ماذا يحدث في العاصمة؟ والآخر برنامج رياضي؛ رياضات متطرفة».

«رياضات متطرفة؟ ما الرياضات المتطرفة؟».

«مم، حسنٌ، تسلق الجبال، التزلج على الثلج، مزلجان...».

«وهل تقوم بأيٍّ من الرياضات المتطرفة بنفسك؟».ابتسم موراي بتكلّف.

قال دكستر على نحو دفاعي: «أتزلج على مزلجين قليلاً». ولاحظ أن سام قد وضع منديله في فمه على الطرف الآخر من الطاولة.

قال ليونيل، الوالد، وهو رجل وسيم ريّان معتد بنفسه ولا يزال أشقر على نحو غريب في أواخر الخمسينيات من عمره: «هل سنراك في أي برنامج في بي بي سي؟».

«غير محتمل، إنه برنامج في آخر الليل، كما أخشى». برنامج في آخر الليل، كما أخشى، أتزلج على مزلجين قليلاً. يا للهول! كما فكّر، كيف تبدو أمامهم؟ هناك شيء في الوجود مع أسرة كوب يجعله يتصرف وكأنه في مسرحية تاريخية. مصادفة، كان برنامج آخر الليل، لكن إذا كان هذا ما يتطلبه...

تكلم موراي آنذاك، التوأم الآخر - أم كان في الواقع سام؟ - بصوت مرتفع، وفمه مملوء سلطة: «اعتدنا أن نشاهد برنامج آخر الليل ذاك الذي كنت تقدّمه كبّره. الجميع يطلقون الشتائم، والحسناوات يرقصن في أقفاص. لم تحبي يوماً أن نشاهده، هل تتذكرين يا أمي؟».

«يا إلهي! ذلك الشيء؟». عبست السيدة هيلين كوب. «أتذكر ذلك، على نحو مبهم».

قال موراي أو سام: «كنت تكرهينه حقاً».

قال الآخر: «كنت تصرخين: أغلقا التلفاز! أغلقا التلفاز! ستؤذيان دماغيكما!».

قال دكستر: «مضحك، هذا بالضبط ما كانت والدتي تقوله أيضاً». لكن أحداً منهم لم يهتم بالملحوظة ومدَّ يده إلى قارورة الشراب.

قال ليونيل، والد سيلفي، وحاجبه مرفوع؛ وكأن النبيل الجالس إلى تلك الطاولة قد كشف عن نفسه بأنه وغد: «إذاً، كان ذلك أنت، أليس كذلك؟».

«حسنٌ، نعم، لكن لم يكن الأمر على هذا النحو. كنت أقابل نجوم الفرق الموسيقية والأفلام». تساءل إن كان يبدو مغروراً بذلك الكلام عن نجوم الأفلام. لكن، لم تكن هناك فرصة لذلك؛ لأن التوأم، هناك، مستعدان للانقضاض عليه.

قال أحدهما، بدهشة ساحرة، الفتى الآري الغر الغريب: «إذاً، هل لا تزال تخرج مع الكثير من نجوم الأفلام؟».

«ليس حقاً. لم أعد أفعل هذا». قرر أن يجيب بصدق؛ لكنْ من دون أي ندم أو إشفاق على الذات. «هذا كله... من الماضي الآن».

قالت سيلفي: «دكستر متواضع». أضافت بفخر: «إنّه يتلقى عروضاً طوال الوقت، لكنه انتقائي جداً بشأن عمله على الشاشة الصغيرة. ما يريده حقاً هو الإنتاج. ويمتلك دكستر شركة إنتاج خاصة به!». وأومأ والداها موافقين. رجل أعمال، منتج فني؛ هذا أفضل كثيراً.

ابتسم دكستر أيضاً، لكنْ في الحقيقة، كانت الحياة قد أصبحت أكثر هدوءاً مؤخراً. كان على شركة مايهم التلفازية أن تكسب عمولة، أو تجتمع مع سمسار، وفي تلك اللحظة لا تزال قائمة فقط على شكل ورق مكلف. كان آرون — وكيله - قد تخلى عنه، ولم تعد هناك أعمال دوبلاج، أو دعاية، أو عروض افتتاحية كثيرة. لم يعد صوتَ عصير التفاح الفاخر، حتى إنّ الرجل الذي يضرب على الطبول في جاميروكي لم يعد يتصل به. وعلى الرغم من كل هذا، ومن انخفاض حظوظه المهنية، كان بخير آنذاك؛ لأنه وقع في غرام سيلفي، الجميلة سيلفي، ويعيشان آنذاك أجمل أوقاتهما.

تبدأ عطلات نهاية الأسبوع وتنتهي في مطار ستانستد، حيث يطيران إلى جنوا أو بوخارست، روما أو ريكيافيك، رحلات تخطط سيلفي لها سلفاً بدقة جيش غزو. ثنائي أوروبي من العاصمة جذّابان على نحو مدهش، يقيمان في فنادق صغيرة، ويتنزهان ويتسوقان، ويتسوقان ويتنزهان، ويشربان أكواباً صغيرة من قهوة سوداء في مقاهي شوارع، ثم يوصدان على نفسيهما الباب في غرفة نومهما الأنيقة الصغيرة الرمادية الداكنة مع حمام وعصا وحيدة من الخيزران في الآنية الفخارية الطويلة والرفيعة.

إذا لم يكونا يستكشفان متاجر مستقلة صغيرة في مدينة أوروبية رئيسة، فإنهما يقضيان الوقت في غرب لندن مع صديقات سيلفي: فتيات أنيقات وجميلات، وأحباؤهن أصحاب الوجنات الزهرية والمؤخرات الضخمة الذين يعملون - مثل سيلفي وصديقاتها - في

التسويق أو الإعلان أو مجلس المدينة. في الحقيقة، لم يكونوا من النوع المفضل لديه، أولئك الأحباء الضخام الذين يثقون بأنفسهم بإفراط. ذكّروه بمراقبي الصف في المدرسة؛ ليسوا لطفاء. لم يكن لديه مانع، فلا يمكنك بناء حياتك باللطف فقط، وهناك فوائد لأسلوب الحياة الأقل فوضوية والأكثر تنظيماً ذاك.

لم يكن السكون وفقدان الرشد يتوافقان حقاً مع بعضهما، وباستثناء بضع كؤوس من الشراب على العشاء، لم تكن سيلفي تشبهه؛ فهي لا تدخن أو تتعاطى الممنوعات أو تتناول لحوماً حمراء أو خبزاً أو سكراً مكرراً أو بطاطا. الأهم أنه لم يكن لديها وقت لما يقوم به دكستر، ولا تعني قدراته الأسطورية شيئاً لها. وهي تعتبر فقدان الرشد أمراً محرجاً وغير لائق، وقد وجد نفسه أكثر من مرة وحيداً في نهاية الأمسية بسبب تلك الكأس الثالثة من الشراب. على الرغم من عدم الإفصاح صراحة عن ذلك، إلا أن الخيار أمامه بدا واضحاً: تصرف كما ينبغي، نظّم حياتك، وإلا فستخسرني. من ثمّ أضحت معاناة آثار الشراب، ونزيف الدم، وقضاء الصباح وهو يتلوى خجلاً ويشعر بالاشمئزاز من نفسه أقل تواتراً. لم يعد يذهب إلى السرير حاملاً قارورة من الشراب تحسباً لشعوره بالعطش في الليل؛ وهو شاكر لذلك، ويحس أنه رجل جديد.

لكن الشيء الأكثر تميزاً في علاقته بسيلفي هو أنها تعجبه أكثر مما يعجبها. تعجبه صراحتها وثقتها بنفسها ورباطة جأشها، ويحب طموحها الجامح الذي لا حدود له، وذوقها المكلف والنقي. يعجبه طبعاً مظهرها، والطريقة التي يبدوان فيها معاً، لكن يعجبه أيضاً افتقارها إلى العاطفة؛ فهي قاسية ولامعة ومرغوبة مثل ماسة، وقد اضطر للمرة الأولى في حياته إلى أن يلاحق امرأة. في موعدهما الأول، في مطعم فرنسي مكلف لكنّه متداع في تشلسي، تساءل بصوتٍ عالٍ إن كانت تستمتع بوقتها، وقالت إنها تقضي وقتاً رائعاً، لكنها لا تضحك أمام أشخاص آخرين؛ لأنها لا تحب ما يفعله الضحك بوجهها. وعلى الرغم من أن جزءاً منه شعر بقشعريرة من ذلك، إلا أن جزءاً آخر أيضاً أُعجب بالتزامها ذاك.

كانت تلك الزيارة – الأولى إلى منزل الأسرة – جزءاً من عطلة نهاية أسبوع طويلة، ومحطة توقف في تشيشستر قبل أن يتابعا الطريق إلى إم 3؛ إلى كوخ مُستأجَر في كورنول، حيث ستعلّمه سيلفي ركوب الأمواج. طبعاً لم يكن ينبغي أن يقضي كل ذلك الوقت في عطلة، ويجب أن يعمل، أو يبحث عن عمل. لكن، كان منظر سيلفي الصارمة ومتوردة

الخدّين في بزّة ركوب الأمواج، وشعرها معقود إلى الخلف أكثر مما يستطيع أن يتحمّل. نظر إليها آنذاك ليتوثق أن ما يفعله صائب، وابتسمت مطمئنة إياه في ضوء الشموع. كان يبلي حسناً حتى ذلك الوقت، فسكب لنفسه كأساً أخيرة من الشراب، وقرر ألا يشرب كثيراً؛ لأن عليه الحفاظ على حصافته مع هؤلاء الناس.

بعد التحلية - شراب مثلج من عصير الفراولة التي يزرعونها بأنفسهم، والذي مدحه كثيراً - ساعد دكستر سيلفي في إعادة الأطباق إلى المنزل؛ قصر مبني من آجر أحمر مثل بيت دمى ضخم. وقفا في المطبخ الفيكتوري الريفي، يملأان آلة غسل الصحون.

«أنا لا أميز بين شقيقيك».

«إليك طريقة جيدة لتميّزهما: سام بغيض وموراي أحمق».

«لا أظن أنني أعجبهما كثيراً».

«لا أحد يعجبهما باستثناء نفسيهما».

«أظن أنهما يعتقدان أنني متباهٍ قليلاً».

أمسكت يده فوق سلة أدوات المائدة. «هل يهمك رأي أسرتي بك؟».

«هذا يعتمد. هل يهمك أنت، رأي أسرتك بي؟».

«قليلاً، كما أفترض».

قال بصدق كبير: «حسنٌ، إنه يهمني أيضاً».

توقفت عن ملء آلة غسل الصحون، ونظرت إليه بإمعان. مثل الضحك علانية، لم تكن سيلفي مولعة بإظهار أي نوعٍ من العاطفة، سواء أكان ذلك عناقاً أو احتضاناً. كانت العلاقة الحميمة مع سيلفي مثل لعبة سكواش مجهدة جداً، وتتركه متألماً وينتابه إحساس عام بأنه ضائع. والتواصل الجسدي نادر، وعندما يحدث فهو ينبثق على حين غرة بعنف وسرعة. آنذاك، فجأة، وضعت يدها على قفا رأسه وقبّلته بقوة. نظر إلى عينيها الواسعتين اللتين تحدّقان إليه، فجعل وجهه يعبّر عن الرغبة؛ بدلاً من عدم الارتياح بسبب احتكاك باب آلة غسل الصحون بقصبتي ساقيه. سمع أفراد الأسرة يدخلون المنزل، وصوتي التوأم الفظين يترددان في الرواق. حاول أن يبتعد عنها، لكن شفته السفلية بقيت عالقة بإحكام بين أسنان سيلفي، تمتد إلى الخارج على نحو هزلي مثل رسوم متحركة من وارنر برذرز. أنَّ وضحكت ثم أفلتت شفته فارتدت بسرعة إلى الخلف مثل ستارة تلتف على أسطوانة.

«لا يسعني انتظار الذهاب إلى السرير لاحقاً». تنفّست، في حين تفقّد وجود دم بقفا يده.

«ماذا إن عرفت أسرتك؟».

«لا أهتم، أنا فتاة كبيرة الآن». تساءل إن كان يجب أن يفعل ذلك آنذاك؛ أن يخبرها أنه يحبها.

«يا إلهي يا دكستر! لا يمكنك وضع القدور الصغيرة في آلة غسل الصحون. يجب أن تشطفها أولاً». ذهبت إلى غرفة المعيشة، وتركته يشطف القدور.

لم يكن دكستر يخاف بسهولة من أي شخص، لكنْ هناك شيء في هذه الأسرة، شيء من الخيلاء والغرور يجعله يشعر بأنه في موقف دفاعي. لم تكن بالتأكيد مسألة الطبقات؛ فهو من أسرة ثرية أيضاً، لكنها أكثر تحرراً وبوهيمية من آل كوب المحافظين. ما جعله قلقاً هو ذلك الالتزام بإثبات أنه شخص ناجح. يستيقظ آل كوب من النوم باكراً، ويمشون في الجبال، ويسبحون في البحيرات؛ وهم معافون، ومتحمسون، ومتفوقون، وعقد العزم على ألا يدعهم ينالون منه.

عندما دخل غرفة المعيشة استدارت قوات «المحور» لتواجهه، وسمع صه سريعة؛ وكأنهم كانوا يناقشون أمره. ابتسم بثقة بالنفس، ثم جلس على إحدى الأرائك المنخفضة. كانت غرفة المعيشة مصممة لتبدو مثل فندق ريفي، وشاهد فيها نسخاً من كاونتري لايف، برايفت آي، إيكونومست، مبعثرة على الطاولة الصغيرة. أطبق الصمت لحظة، تكتكت ساعة ومدّ يده متعمداً إلى نسخة من ليدي جين.

قال موراي: «أعرف، لنلعب هل أنت هناك، موريارتي؟»، وسمع موافقة عامة من أفراد الأسرة، ومن بينهم سيلفي.

سأل دكستر: «ما هي هل أنت هناك، موريارتي؟»، وهزَّ كل آل كوب رؤوسهم معاً من ذلك الجهل المتطفل عليهم.

قالت هيلين، وهي مفعمة بالحيوية أكثر مما كانت عليه في كل الأمسية: «إنها لعبة منزلية رائعة جداً! نحن نلعبها منذ سنوات!». كان سام، في تلك الأثناء، يطوي نسخة من ديلي تلغراف ويحوّلها إلى عصا طويلة وقاسية. «أساساً، تُعصب عينا شخص واحد، وتوجد هذه الصحيفة المطوية على شكل عصا، ويجثو الجميع مقابل هذا الشخص الآخر...».

تابع موراي الحديث: «... معصوب العينين أيضاً»، وبحث في الوقت نفسه في أدراج

طاولة الكتابة العتيقة عن لفّة من شريط شفّاف. «يقول الشخص الذي يحمل الصحيفة المطوية: هل أنت هناك، موريارتي؟». رمى الشريط إلى سام.

«ويجب على الشخص الآخر أن يتلوى ويبتعد عن الطريق ثم يجيب نعم! هنا!». بدأ سام يلف الصحيفة إلى عصا قاسية. «وبناءً على تقدير الاتجاه الذي يأتي منه الصوت، يجب أن يحاول ضربه بالصحيفة المطوية».

قالت سيلفي مبتهجة من إمكانية مشاركته في لعبة منزلية فيكتورية: «لديك ثلاث محاولات، وإذا لم تنجح فيها كلها يجب أن تبقى مكانك وتتعرض للضرب من قبل اللاعب التالي، وإذا أصبت الشخص الآخر فبإمكانك اختيار المتسابق التالي. تلك هي الطريقة التي نلعب نحن بها على كل حال».

قال موراي وهو ينقر على راحة كفه بالعصا الورقية: «إذاً، من يريد بعض الرياضة المتطرفة؟».

قرروا أن يلعب سام ضد دكستر المتطفل وأن يحصل سام - مفاجأة مفاجأة - على العصا. كانت ساحة المعركة سجادة قديمة كبيرة في وسط الغرفة، وقادته سيلفي إلى الموقع ثم وقفت خلفه، وربطت منديلاً أبيض كبيراً على عينيه؛ وكأنها أميرة تكرّم فارسها الوفي. لمح سام يجثو مقابله، وهو يبتسم بتكلّف من خلف عُصبة عينيه وينقر بالعصا على راحة كفه، وشعر دكستر فجأة برغبة عارمة في الفوز بتلك اللعبة وإظهار معدنه الحقيقي للأسرة. همست سيلفي، وأنفاسها حارة في أذنه: «أرهم كيف يجري الأمر». وتذكر اللحظة في المطبخ. أمسكته آنذاك من مرفقه وساعدته على الجثو، وتقابل الخصمان وجهاً لوجه بصمت مثل محاربين على حلبة من سجاد فارسي.

قال ليونيل، مثل إمبراطور: «لتبدأ اللعبة!».

قال سام، وهو يكتم ضحكته: «هل أنت هناك، موريارتي؟».

قال دكستر: «هنا»، ثم مال بمهارة مثل راقص بارع إلى الخلف.

أصابته الضربة الأولى تحت العين مباشرة، وصدر عنها صوت صفعة قوية تردد صداها في أرجاء الغرفة. قال آل كوب وهم يضحكون على ألمه: «أوه، آه!». قال موراي: «لا بد أن هذا مؤلم». وشعر دكستر بوخزة إذلال قوية حين أطلق ضحكة أحسنت صنعاً حماسية. أقرَّ، وهو يفرك وجنته: «نلت مني!». لكن سام كان قد شم رائحة الدم وبدأ يسأل:

«هل أنت هناك، موريارتي؟».

«نعـ...».
قبل أن يتحرك، صفعت الضربة الثانية ردفه؛ ما جعله يفزع ويتعثر إلى الجانب، ومجدداً سمع ضحكاً من الأسرة، وهسيساً خافتاً «نعم» من سام.
قالت الأم، فخورة بابنها: «حركة بارعة يا سامي». وأحس دكستر فجأة بكراهية عميقة لتلك اللعبة الغبية التي يبدو أنها طقس أسرة غريبة الأطوار للإذلال...
قهقه موراي: «إصابتان من محاولتين. أحسنت صنعاً يا شقيقي».
... ولا تقل شقيقي أيضاً أيها الوغد الصغير، كما فكّر دكستر الذي استشاط غضباً آنذاك؛ لأن أكثر ما يكرهه هو أن يضحك آخرون عليه، خاصة هؤلاء الأشخاص الذين يظنون أنه فاشل ومقرف ولا يرقى إلى مستوى أن يكون حبيب سيلفي الرائعة. قهقه: «أظن أنني قد فهمت الطريقة الآن». متشبثاً بحس الدعابة، في حين أنه في الوقت نفسه يرغب بأن يوسع وجه سامي ضرباً بقبضتيه.
قال موراي، بذلك الصوت مجدداً: «لنستعد لجولة أخرى...».
- أو مقلاة، مقلاة من حديد الصب -
«ها نحن ذا. ثلاث إصابات من ثلاث محاولات كما يبدو لي...».
- مطرقة كبيرة، أو صولجان -
قال سام: «هل أنت هناك، موريارتي؟».
قال دكستر: «هنا!»، ومثل نينجا تلوّى من خصره، وانخفض إلى اليمين.
الضربة الثالثة وكزة وقحة على الكتف بنهاية مثلّمة جعلت دكستر يقع إلى الخلف على الطاولة الصغيرة. كانت الوكزة مباشرة ودقيقة وجعلته يقتنع بأن سام يغش بالتأكيد، ونزع العُصبة عن عينيه ليواجهه، لكنه وجد سيلفي تميل فوقه وهي تضحك! تضحك بغض النظر عمّا يفعله ذلك بوجهها.
صرخ ذلك الوغد الصغير موراي: «ضربة موفقة! ضربة حاسمة!». نهض دكستر على قدميه، وعلى وجهه تكشيرة سرور. سمع جولة قصيرة من تصفيق تشجيع.
زعق سام: «نعم!». أسنانه مكشوفة، ووجهه المتورد متغضن، وقبضتاه تتراجعان ببطء نحو صدره ابتهاجاً بالنصر.
تشدّقت هيلين، الإمبراطورة الرومانية الشريرة: «حظاً أفضل في المرة القادمة!».

همهم ليونيل: «ستتعلّم طريقة القيام بهذا!». ولاحظ دكستر ساخطاً، أن التوأم يضعان سبابتيهما وإبهاميهما على جبينيهما على شكل الحرف «ف»؛ أي: فاشل.

قالت سيلفي بتجهم وهي تعبث بشعره وتربت على ركبته حين جلس على الأريكة بجانبها: «حسنٌ، لا أزال فخورة بك». ألا يجب أن تكون إلى جانبه؟ عندما يتعلق الأمر بالإخلاص، كما فكّر؛ لا تزال واحدة منهم.

استمرت المسابقة، فضرب موراي سام، ثم أصاب ليونيل موراي، وتعرض ليونيل للضرب من قبل هيلين، وبدا الأمر كله مرحاً ومبهجاً؛ مع كل تلك الضربات والإصابات بالصحيفة المطوية، والجو أكثر مرحاً من الوقت الذي كان فيه دكستر يتلقى ضربات على الوجه بما بدا أنها ذراع سقالة. راقب من حيث يجلس على الأريكة ما يحدث وعبس، وكجزء من انتقامه تجرّع بهدوء قارورة من مؤونة ليونيل من الشراب الفاخر. انقضى وقت كان بمقدوره أن يفعل فيه ذلك النوع من الأشياء، ولو أن عمره أصبح ثلاثاً وعشرين سنة مجدداً فسيشعر بأنه جريء وفاتن وواثق بنفسه، لكنه فقد موهبته بطريقة ما وتعكّر مزاجه حين فرغت القارورة.

ثم ضربت هيلين موراي، وضرب سام هيلين، وحان دور سام آنذاك ليحاول ضرب شقيقته، وكان هناك على الأقل بعض السعادة والفخر في مشاهدة مدى براعة سيلفي في تلك اللعبة، فقد تفادت بسهولة ضربات شقيقها الصغير اليائسة، وهي تتلوى وتنخفض من الخصر، لينة ورياضية؛ فتاته الذهبية. راقب مبتسماً من الأريكة، وعندما ظنَّ أن الجميع قد نسوا أمره:

«تعال إلى هنا، حان دورك!». كانت سيلفي تشير بالعصا نحوه.

«لكنك فزت للتو!».

قالت بتجهم: «أعرف، لكنك لم تحظ بفرصة لتضرب أحداً بعد، أيها المسكين. هيا، جرّب مرة أخرى، وحاول أن تصيبني».

أحب آل كوب جميعاً تلك الفكرة. سمع أصوات إثارة خافتة، مثيرة على نحو غريب ومبهم، وبدا واضحاً ألا خيار لديه. كان شرفه، وشرف آل ميهو على المحك آنذاك. وضع دكستر كأسه جانباً ببطء، وقف وأمسك العصا.

قال جاثياً على السجادة على بعد ذراع: «هل أنت واثقة بهذا؟ لأنني لاعب كرة مضرب بارع».

قالت مكشّرة باستفزاز، ومحرّكة يديها مثل لاعبة جمباز حين عُصبت عيناها: «أوه، بالطبع».

«وأظن أنني قد أكون بارعاً في هذا».

خلفه، أحكم سام رباط عُصبة عينيه؛ وكأنها ضاغط لوقف نزيف. «سنرى، أليس كذلك؟».

أطبق الصمت على حلبة اللعبة.

قال دكستر: «لا بأس، هل أنت جاهزة؟».

«أوه، نعم».

أمسك العصا بكلتا يديه، رافعاً ذراعيه إلى مستوى كتفه. «هل أنت واثقة؟».

«أنا مستعدة عندما تكون كذلك...».

خطرت صورة في ذهنه لحظة واحدة - لاعب كرة قاعدة في موقعه - حين لوّح قطرياً بالعصا؛ حركة ضخمة هسّت على نحو مسموع في الهواء، ومن خلف عُصبة العينين بدا الشعور رائعاً؛ لأنها جعلت رعشات تسري على طول ذراعيه وصولاً إلى صدره. أطبق صمت مخيف لحظة واحدة بعد ذلك، وشعر دكستر للحظة بالثقة؛ لأنه أبلى حسناً، ثم سمع صوت تهشّم، وخرجت صرخة رعب متزامنة من كل أفراد الأسرة.

«سيلفي!».

«أوه يا إلهي!».

«حبيبتي، عزيزتي، هل أنت بخير؟».

نزع دكستر عُصبة العينين ليرى أن سيلفي قد انتقلت بطريقة ما إلى الطرف البعيد من الغرفة، وهي تتكوّر جانباً مثل دمية قُطعت كل أسلاكها. كانت عيناها تطرفان بقوة وهي تضع يدها على وجهها، لكن، بدا من الممكن رؤية الوَشَل الداكن من الدم يسيل تحت أنفها، وسماعها تئن بصوت خافت.

صرخ مرعوباً: «أوه يا إلهي! أنا آسف جداً!». مشى نحوها فوراً، لكن الأسرة أغلقت الطريق عليه.

صرخ ليونيل وهو أحمر الوجه، ويقف بكامل طوله: «يا إلهي يا دكستر! ما الذي كنت تفكر فيه؟».

زعقت والدتها: «لم تسأل حتى هل أنت هناك، موريارتي؟».

«ألم أفعل ذلك؟ آسف».

«لا، لقد ضربتها على نحو مفاجئ!».

«مثل مجنون».

«آسف، آسف، نسيت. كنت -».

قال سام: «فاقداً رشدك!». علق الاتهام في الهواء. «أنت فاقدٌ رشدك يا رجل تماماً».

استداروا جميعاً وحدّقوا إليه.

«كانت تلك حادثة حقاً. ضربت وجهها بزاوية غريبة».

جذبت سيلفي ردن هيلين، وسألت بصوت متهدّج حين أبعدت يدها بحذر عن أنفها: «كيف يبدو؟». بدا الأمر وكأنها تمسك كأساً من شراب فراولة مثلّج.

شهقت هيلين وهي تضم يدها إلى فمها رعباً: «ليس سيئاً جداً حقاً». وتغضّن وجه سيلفي حتى فاضت عيناها دموعاً. همست: «دعيني أرى، دعيني أرى! الحمّام!». وساعدها أفراد الأسرة لتقف على قدميها.

«كانت مجرد حادثة سخيفة حقاً...». تجاوزته سيلفي بسرعة، وهي تمسك ذراع والدتها، وتنظر بثبات إلى الأمام. «هل تريدين أن آتي معك؟ سيلفي؟ سيلف؟». لم يسمع رداً وراقب بتعاسة، في حين كانت والدتها ترافقها إلى الردهة ثم صعوداً على السلالم إلى الحمام.

أصغى إلى وقع الخطوات يتلاشى.

لم يبق آنذاك إلا دكستر ورجال آل كوب، الذين كانوا يحدّقون إليه في مشهد محرج. فطرياً، شعر بيده تشتد حول سلاحه؛ النسخة الملفوفة بإحكام من ديلي تلغراف ذلك اليوم، وقال الشيء الوحيد الذي استطاع التفكير في قوله:

«ياه!».

«إذاً، هل تظنين أنني تركت انطباعاً جيداً؟».

كان دكستر وسيلفي يستلقيان على السرير المزدوج المريح والكبير في غرفة الضيوف. استدارت سيلفي لتنظر إليه، ووجهها يخلو من أي انفعال، والأنف الصغير الجميل ينبض ألماً على نحو اتهامي. تنشّقت لكنها لم تقل شيئاً.

«هل تريدين أن أعتذر مجدداً؟».

«دكستر، لا بأس».

«هل سامحتني؟».

قالت بحدّة: «سامحتك».

«هل تظنين أنهم يعتقدون أنني قويم؟ هل يعتقدون أنني مضطرب عقلياً وعنيف أو شيء من هذا القبيل؟».

«أظن أنهم يعتقدون أن لا بأس بك، لننس ما حصل». استدارت إلى الجانب الآخر، بعيداً عنه، وأطفأت مصباحها.

انقضت لحظة، ومثل تلميذ يشعر بالخجل، انتابه إحساس بأنه لن ينام، إلا إن حصل على تأكيد آخر. قال: «آسف لأنني... أفسدت الأمر، مجدداً!». استدارت مرة أخرى، ووضعت يدها بمحبة على وجنته.

«لا تكن سخيفاً. كنت تبلي حسناً حتى ضربتني. لقد أعجبتهم حقاً».

قال وهو لا يزال متشككاً: «وماذا عنك؟».

تنهّدت وابتسمت. «أظن أن لا بأس بك أيضاً».

«هل هناك أي احتمال للحصول على قبلة إذاً؟».

«لا يمكنني. سيبدأ النزيف مجدداً، لكنني سأعوضك غداً». استدارت بعيداً مجدداً. راضياً آنذاك، نزل إلى الأسفل في الفراش، ووضع يديه خلف رأسه. كان السرير ضخماً ومريحاً وتفوح منه رائحة كتان غُسل حديثاً، والنوافذ مفتوحة في ليلة صيف هادئة. كانا يستلقيان من دون لُحفٍ أو بطانيات تحت ملاءة قطنية بيضاء واحدة، واستطاع رؤية ساقيها وردفيها الصغيرين، وتقوّس ظهرها الأملس الطويل. تبخّر احتمال القيام بعلاقة تلك الليلة في لحظة الضربة خوفاً من إمكانية إصابتها بارتجاج، لكنه رغم ذلك استدار إليها ووضع يده تحت الملاءة على فخذها، وشعر بالجلد بارداً وناعماً.

تمتمت: «ستكون الرحلة طويلة غداً. لنخلد إلى النوم».

استمر ينظر إلى قفا رأسها، حيث يخرج الشعر الطويل الناعم من مؤخر عنقها، ويكشف عن مغزلين داكنين أسفله. فكّر أن بمقدوره التقاط صورة لذلك المشهد الجميل جداً، وأن يدعوه «جوهرة». تساءل إن كان لا يزال بمقدوره أن يخبرها أنه يحبها أو – بتردد

أكبر – «يظن أنه ربما يحبها»؛ التي يبدو تأثيرها أكبر والتراجع عنها أسهل. لكن، بدا واضحاً أن هذا ليس الوقت الملائم، ليس آنذاك والمنديل الملطخ بالدماء لا يزال على الطاولة بجانبها.

شعر أن عليه أن يقول شيئاً، وتملّكته إثارة فقبّل كتفها، وهمس: «حسنٌ، تعرفين ما يقولونه...». توقف لإحداث التأثير المطلوب. «ضرب الحبيب زبيب!».

ظنَّ أن ذلك ذكي جداً وعبارة ساحرة، وأطبق الصمت في أثناء انتظاره وهو يرفع حاجبه توقعاً للرد، ومنتظراً أن تستوعب المعنى تماماً.

قالت: «لنحظَ ببعض النوم، هلاّ فعلنا هذا».

محبطاً، استلقى على ظهره وأرهف السمع لطنين إيه 259 الخافت. كان والداها يهجوانه بقسوة في مكان ما في المنزل آنذاك، وأدرك على نحو مرعب أن لديه رغبة مفاجئة بالضحك. بدأ يبتسم، ثم ضحك بصوت خافت وهو يكافح للحفاظ على الصمت، لكن جسده بدأ يرتعش؛ ما جعل الفراش يهتز.

تمتمت سيلفي في وسادتها: «هل تضحك؟».

قال دكستر وهو يغلق فمه بقوة لإخفاء الصوت: «لا!». لكن الضحكات بدأت تخرج في موجات آنذاك، وشعر بنوبة أخرى من الهستيريا تجيش في بطنه. هناك نقطة في المستقبل حيث تتحول أسوأ كارثة إلى حكاية، واستطاع رؤية إمكانية كتابة قصة مما حدث اليوم. كانت من نوع القصص التي سيود أن يسردها لإيما مورلي، لكنه لا يعرف أين هي إيما مورلي، أو ما تفعله، ولم يرها منذ أكثر من سنتين آنذاك.

سيكون عليه أن يتذكر القصة فحسب، ويخبرها بها في يوم آخر.

بدأ يضحك مجدداً.

الفصل الثالث عشر

الموجة الثالثة

الخميس 15 تموز 1999

سومرست

كانت قد بدأت تصل؛ شلال لا ينتهي من مغلّفات فاخرة مغلقة، تتراكم على ممسحة الأقدام: دعوات الزفاف.

لم تكن تلك أول موجة من حفلات الزفاف، فقد تزوج بعض زملائها في الجامعة، لكن بتلك الطريقة الغريبة الصاخبة في نهاية الأسبوع، في محاكاة لنتظاهر ساخرة عن حفل الزفاف، مثل حفلات عشاء طلاب ركوب الخيل التي يرتدي فيها الجميع ملابس رسمية ليتناولوا كعك معكرونة التونا. كانت حفلات استقبال أعراس الطلاب نزهات في متنزهات محلية، يرتدي الضيوف فيها بزّات أوكسفام وثياباً مستعملة، ثم ينتقلون إلى الملهى. في صور الزفاف يمكن رؤية العروسين يرفعان كأسي الشراب أمام آلة التصوير، ولفافة تبغ تتدلّى من فم العروس الأحمر، وهدايا الزفاف متواضعة: شريط مقتطفات رائع حقاً، مونتاج فوتوغرافي لقصاصات مؤطرة، علبة شموع. كان الزواج في الجامعة عملاً جريئاً ومدهشاً يدل على التمرد؛ مثل وشم صغير لا أحد يراه أبداً، أو حلق شعر الرأس من أجل عمل الخير.

تتميز الموجة الثانية، أي حفلات زفاف منتصف العشرينيات، بصفة منزلي الصنع. إذ تُقام حفلات الاستقبال في مراكز اجتماعية وحدائق الوالدين، وتُقال النذور بهدوء، ويبدو أن بعضهم يقرأ دائماً تلك القصيدة عن أن للمطر أيادي صغيرة. لكن حالة من المهنية الجادة والرزينة قد بدأت تتسلل إلى الأمر، وقد شرعت فكرة «قائمة الزفاف» تطل برأسها على الجميع.

هناك موجة رابعة متوقعة في مرحلة ما في المستقبل؛ الزواج الثاني: علاقات حلوة ومرّة لا يمكن تبريرها بسهولة، وتنتهي بحلول 9:30 بسبب كل الأولاد. سيقولون «ليست شيئاً مهماً، وإنما مجرد عذر من أجل حفل». لكن، كانت تلك سنة الموجة الثالثة، والموجة الثالثة هي الأقوى والأروع والأكثر رواجاً. تلك حفلات زفاف أشخاص في بداية الثلاثينيات إلى منتصفها، ولم يعد أحد يضحك فيها.

لا يمكن إيقاف الموجة الثالثة، ويبدو أن كل أسبوع يجلب معه مغلفاً أصفر فاخراً آخر،

بسماكة رسالة مفخخة تضم دعوة معقدة - روعة الهندسة الورقية - وملفاً شاملاً من الأرقام الهاتفية، وعناوين البريد الإلكتروني، ومواقع الإنترنت، وطريق الوصول إلى هناك، وما يجب ارتداؤه، ومن أين يمكن شراء الهدايا. كانت فنادق الريف تُحجز كلها، ومدارس السلمون الرائعة تقدم ما لديها، وسرادق كبيرة تظهر فجأة مثل مدن خيام بدوية، وتُستأجر بزّات رمادية حريرية رسمية، وقبعات عالية تُمزّق من دون أن يظهر على الوجوه أي انفعال. والأوقات ملائمة وذهبية لباعة الورود، ومتعهدي الطعام، والفرق الرباعية الوترية، وفرق الرقص، ونحّاتي الجليد، وصانعي آلات التصوير التي تُستخدم مرة واحدة. تشعر فرق ديسنت موتاون بالإرهاق الشديد، وتعود الكنائس إلى سابق عهدها، ويجتاز الثنائي السعيد تلك الأيام المسافةَ القصيرة من مكان العبادة إلى حفل الاستقبال على متن حافلات لندن المفتوحة من الأعلى، وفي مناطيد هواء ساخن، وعلى صهوتي حصانين أبيضين متماثلين، وفي طائرات صغيرة. تتطلب حفلات الزفاف احتياطيات ضخمة من الحب والالتزام والعمل في أوقات الفراغ، فضلاً عن الضيوف. يكلف النثار ثمانية جنيهات للعلبة الواحدة، فعلبة أرز من متجر الزاوية لم تعد تفي بالغرض آنذاك.

السيد أنطوني كيليك وحرمه يدعوان إيما مورلي وصديقها إلى حفل زفاف ابنتهما تيلي كيليك ومالكولم تايدويل.

على الطريق السريع، جلست إيما في سيارتها الجديدة، أول سيارة لها، فيات باندا متهالكة، وحدّقت إلى الدعوة، تعرف بثقة مطلقة أنها سترى هناك رجالاً يدخنون لفائف تبغ وشخصاً إنكليزياً يرتدي تنورة إسكتلندية.

«إيما مورلي وصديقها».

كان أطلسها نسخة قديمة، ويفتقر إلى عدّة تجمّعات سكانية رئيسة. قلبته مئة وثمانين درجة، ثم أعادته تسعين درجة، لكن بدا الأمر مثل محاولة الإبحار باستخدام نسخة من كتاب وعظي، ثم رمته على مقعد الراكب الخالي حيث كان يجب أن يجلس صديقها المفترض.

كانت إيما سائقة مريعة، خرقاء وذاهلة، وقادت السيارة في أول خمسين ميلاً من دون أن تنتبه أنها تضع نظارتها إضافة إلى عدستيها اللاصقتين. ولذا، بدا أن السيارات الأخرى تظهر على نحو خطر فجأة مثل مركبات فضائية غريبة. تطلّب الأمر التوقف عدّة مرات لتثبيت ضغط دمها ومسح العرق من شفتها العليا. مدّت يدها إلى حقيبتها وتوثقت من

زينتها في المرآة، وهي تحاول أن تختلس النظر إلى نفسها لترى كيف تبدو. كان أحمر الشفاه داكناً وأكثر إثارة مما ظنّت أنها تريد، والكمية الصغيرة من المسحوق التي وضعتها على وجنتيها تبدو آنذاك مبهرجة وسخيفة؛ مثل شيء من كوميديا إصلاحية. تساءلت لماذا تبدو دائماً مثل طفلة تجرّب زينة والدتها؟ كانت قد اقترفت خطأ فادحاً أيضاً بقص شعرها - لا تصفيفه - قبل يوم، ولا يزال ينسدل في نسق فني من طبقات وخصلات؛ وهو ما ستدعوه أمها «أمراً جميلاً».

شعرت بالإحباط فجذبت بقوة حاشية فستانها المصنوع بطراز صيني من حرير أزرق داكن، أو قماش بديل للحرير جعلها تبدو مثل نادلة ريّانة تعيسة في مطعم التنين الذهبي للوجبات السريعة. جالسة في مكانها، انتفخ القماش وتمدد، وجعلها مزيج شيء في «الحرير» واهتزازات الطريق السريع تتعرّق. كان لمكيف هواء السيارة وضعيتان، نفق الريح وساونا، وقد تبخرت كل الأناقة في مكان ما خارج ميدنهيد، ليحل محلها هلالان داكنان من العرق تحت ذراعيها. رفعت مرفقيها إلى رأسها، وحدّقت للأسفل إلى البقعتين، وتساءلت إن كان عليها أن تعود أدراجها، وتذهب إلى المنزل وتغير ملابسها، أم تستدير فقط وتذهب إلى المنزل وتبقى هناك؛ تعمل قليلاً على الكتاب. بالمحصلة، لم تكن هي وتيلي كيليك صديقتين حميمتين آنذاك. كانت الأيام الحالكة التي فرضت فيها تيلي نفسها زعيمة في الشقة الصغيرة في كلابتون قد ألقت بظلالها القاتمة، ولم تحسما مطلقاً النزاع بشأن العربون المرتجع الذي لم تسترده. بدا صعباً أن تتمنى للمتزوجين حديثاً كل الخير، في حين لا تزال العروس تدين لها بخمس مئة جنيه.

من ناحية أخرى، سيكون أصدقاء قدامى هناك؛ سارا سي. كارول، سيتا، التوأم واتسون، بوب، ماري صاحبة «الشعر الكثيف»، ستيفاني شو من دار النشر، كالوم أونيل مليونير الشطائر. سيكون دكستر هناك، مع حبيبته.

وفي تلك اللحظة تحديداً، في أثناء جلوسها وهي تضع إبطيها أمام فتحتي مكيف الهواء وتتساءل عما تفعله، تجاوزها دكستر من غير أن تلحظه في سيارته المازدا الرياضية، وسيلفي كوب إلى جانبه.

سألت سيلفي وهي تخفض صوت المسجل: «إذاً، من سيكون هناك؟». ترافيس - اختيارها على سبيل التغيير. لم تكن سيلفي تهتم كثيراً بالموسيقى، لكنها تستثني ترافيس من ذلك.

«الكثير من أصدقاء الجامعة: بول وسام وستيف أود، وبيتر وسارا، والأخوان واتسون، وكالوم».
«كالوم، جيد. يعجبني كالوم».
«... ماري صاحبة الشعر الكثيف، بوب. يا إلهي! سيتواجد أشخاص لم أرهم منذ سنوات. صديقتي القديمة إيما».
«أهي حبيبة سابقة أخرى؟».
«لا، ليست حبيبة سابقة...».
«علاقة قصيرة».
«لا، مجرد صديقة قديمة».
«مدرّسة الإنكليزية؟».
«كانت مدرّسة إنكليزية، وهي مؤلفة الآن. تكلمت معها في زفاف بوب وماري، أتتذكرين؟ في تشيشاير».
«على نحو مبهم. جذّابة جداً».
«أفترض هذا». هزَّ دكستر كتفيه بقوة. «تسكعنا معاً قليلاً. أخبرتك عن الأمر، أتتذكرين؟».
«أمر يقود إلى آخر». استدارت إلى النافذة. «إذاً، هل أقمت علاقة معها؟».
«لا، لم أقم علاقة معها».
«ماذا عن العروس؟».
«تيلي؟ ماذا عنها؟».
«هل أقمت علاقة من قبل مع العروس؟».
كانون الثاني 1992، تلك الشقة المريعة في كلابتون التي تفوح منها دائماً رائحة البصل المقلي. تدليك للقدمين كان قد خرج على نحو سيئ عن السيطرة حين كانت إيما في ولورثس.
«طبعاً لا، ألا تحسنين الظن بي؟».
«يبدو أننا في كل أسبوع نذهب إلى حفل زفاف تتواجد فيه نساء قد أقمت علاقة معهن».

«هذا ليس صحيحاً».

«ملء سرادق، مثل مؤتمر».

«ليس صحيحاً، ليس صحيحاً».

«بلى، صحيح».

«مهلاً، أنت الوحيدة في حياتي الآن». أبقى إحدى يديه على المقود، ومدَّ الأخرى ووضعها على بطن سيلفي الذي لا يزال مشدوداً تحت فستانها القصير الوردي، ثم وضعها على أعلى فخذها العارية.

قالت سيلفي: «لا تتركني أتكلم إلى غرباء من فضلك»، ورفعت صوت المسجل.

كان الأصيل قد انتصف قبل أن تجد إيما نفسها، متأخرة ومرهقة، عند البوابات الأمنية للمنزل الفخم، وهي تتساءل إن كانوا سيسمحون لها بالدخول. عقار ضخم في سومرست، وقد حوّل مستثمرون أذكياء متنزه مورتون مانور إلى نوعٍ من المجمّع الذي يضم كل ما يلزم للزواج، وفيه كنيسة صغيرة، وقاعة ولائم، ومتاهة خاصّة، ومنتجع، ومجموعة من غرف نوم الضيوف مع حمّامات داخلية، يحيط بها كلها سور عال تعلوه أسلاك شائكة؛ معسكر زواج. ومع مبانٍ لم يكتمل بناؤها وكهوف، وأسيجة منخفضة وأبراج، وقلعة وألعاب للأطفال بدا المكان ديزني-لاند فخمة، تُفتح في عطلات نهاية الأسبوع بتكلفة تخطف الأنفاس. بدا موقعاً غير معتاد لزفاف عضو سابق في حزب العمال الاجتماعي، وقادت إيما السيارة على طول الطريق المغطّى بالحصى، مرتبكة ومضطربة من كل ذلك.

عندما رأت الكنيسة، اندفع رجل يضع شعراً مستعاراً أبيض ويرتدي معطفاً فضفاضاً أمامها، ولوّح لها بطرفي ردنين مزركشين ومال نحو النافذة.

سألت: «هل هناك مشكلة؟». أرادت أن تقول أيها الضابط.

«أريد المفاتيح يا سيدتي».

«المفاتيح؟».

«لإيقاف السيارة في المرأب».

قالت: «أوه يا إلهي! حقاً؟». محرجة من الطحالب التي تنمو حول إطار النافذة، والقمامة المنتشرة في كل مكان، والقوارير البلاستيكية الفارغة المبعثرة على الأرضية. «لا بأس. حسنٌ، الأبواب لا تُوصد، ويجب أن تستخدم هذا المفك لإغلاقها، ولا توجد

مكابح يدوية، لذا أوقفها في مكانٍ مستوٍ أو أسندها إلى شجرة أو اترك علبة التروس عالقة. هل فهمت؟». أمسك الرجل المفاتيح بين سبابته وإبهامه وكأنه يحمل فأراً ميتاً.

كانت تقود حافية، واكتشفت آنذاك أن عليها أن تدفع قدميها في حذائها بقوة، مثل أخت قبيحة. كانت الطقوس قد بدأت آنذاك، وسمعت من الكنيسة «وصول ملكة سبأ» تعزفها أربع أيدٍ، وربما خمس، ترتدي قفازات. عرجت على الممر المفروش بالحصى نحو الكنيسة، وذراعاها مرفوعتان لتبخير بعض العرق؛ مثل طفل يتظاهر أنه طائرة. ثم بعد أن جذبت حاشية فستانها إلى الأسفل مرة أخيرة دخلت بتحفّظ عبر باب السنديان الضخم، ووقفت في مؤخر الحشد المزدحم. كانت مجموعة صغيرة تؤدي فقرتها آنذاك، يطقطق أفرادها أصابعهم بهوس، ويغنون «أنا سأفعل شيئاً جيداً»، في حين يكشّر الثنائي السعيد من دون إظهار أسنانهما لبعضهما بعضاً، وعيونهما مغرورقة بالدموع. كانت تلك أول مرة ترى إيما فيها العريس. إنه من نوع لاعبي الركبي، وسيم يرتدي بزّة رسمية رمادية فاتحة، حليق الرأس، يحرّك وجهه الضخم نحو تيلي، وتظهر عليه تعبيرات مختلفة من «أسعد لحظاتي». لاحظت إيما أن العروس قد اختارت، على غير المعتاد، نمط ماري أنطوانيت - حرير وشريط زهري، تنورة فضفاضة، شعر مرفوع عالياً، شامة - وجعلها ذلك تتساءل إن كانت شهادة تيلي الجامعية في التاريخ واللغة الفرنسية قد أثّرت في ذلك. بدت سعيدة جداً، وبدا شديد الغبطة، وبدا الحشد كله مسروراً جداً.

تبع الأغنية مشهد مسرحي، تبعته أغنية حتى بدأ حفل الزفاف يشبه «أداء منوعاً ملكياً»، ووجد دكستر أن ذهنه بدأ يشرد. كانت ابنة أخ تيلي متوردة الخدّين تقرأ قصيدة آنذاك؛ شيئاً عن زواج ذهنين لا يقرّان بالعوائق، أياً كان ما يعنيه ذلك. حاول جاهداً أن يركز على القصيدة وأن يقارن عاطفتها الرومانسية بمشاعره تجاه سيلفي، ثم أعاد ذهنه إلى التفكير في عدد النساء من ذلك الحشد اللواتي أقام علاقة معهن، ليس بإعجاب، لا أبداً، وإنما بنوعٍ من الحنين إلى الماضي. قرأت ابنة أخ العروس «الحب لا يتغير بانقضاء الساعات والأسابيعِ...»، حين وصل دكستر بالعد إلى خمسة؛ خمس حبيبات سابقات في كنيسة صغيرة. هل كان ذلك نوعاً من الرقم القياسي؟هل يجب أن تكون هناك نقاط إضافية للعروس؟ لا أثر لإيما مورلي بعد، مع إيما خمسة ونصف.

راقبت إيما من مؤخر الكنيسة دكستر وهو يعدُّ على أصابعه، وتساءلت عمّا يفعله. كان يرتدي بزّة سوداء وربطة عنق سوداء صغيرة؛ مثل كل الرجال تلك الأيام، ويحاول أن

يبدو قاطع طريق. جانبياً، رأت بداية ترهل الجلد تحت فكّه، لكنه لا يزال يبدو وسيماً؛ وسيماً على نحو غبي في الواقع، ورجلاً أقل شحوباً وانتفاخاً مما كان عليه قبل لقائه سيلفي. لم تره إيما منذ شجارهما إلا ثلاث مرات فقط، ودائماً في حفلات زفاف: وفي كل مرة، ألقى بذراعيه حولها وقبّلها وكأن شيئاً لم يحدث، وقال: «يجب أن نتكلم، يجب أن نتكلم». لكن ذلك لم يحدث مطلقاً، ليس حقاً. كان دائماً مع سيلفي، وكلاهما مشغولان بأن يبدوا جميلين. رأتها هناك، تضع يدها على ركبته وكأنها تملكه، ورأسها وعنقها مثل وردة طويلة الساق تمتد نحوه.

النذور آنذاك. نظرت إيما في الوقت الملائم لترى سيلفي تمد يدها إلى يد دكستر وتضغط على أصابعه الخمس؛ كأنها تتضامن مع الثنائي السعيد. همست في أذنه، ورفع دكستر نظره إلى سيلفي مبتسماً ابتسامة عريضة ونعساً قليلاً، أو هذا ما ظنّته إيما. قال شيئاً لها، وعلى الرغم من أنها ليست قارئة شفاه متمرنة إلا أن إيما ظنّت أن هناك احتمالاً كبيراً في أنه قال «أنا أحبك». خجولاً، نظر حوله ورأى إيما، فكشّر وكأنه ضُبط متلبساً يفعل شيئاً يجب ألا يفعله.

انتهى العرض، ولم يعد هناك وقت إلا لتقديم «كل ما تحتاجه هو الحب»، والحشد يكافح للغناء مع الفرقة، ثم تبع الضيوف الثنائي السعيد إلى الخارج، وبدأ لم الشمل فوراً. عَبْر حشد الناس الذين يتعانقون، ويتحدثون بصخب ويتصافحون، بحث دكستر وإيما عن بعضهما، وفجأة وقفا أمام بعضهما وجهاً لوجه.

قال: «حسنٌ».

«حسنٌ».

«ألا أعرفك؟».

«وجهك مألوف بالتأكيد».

«ووجهك أيضاً، لكنك تبدين مختلفة قليلاً».

قالت إيما وهي تشد القماش تحت إبطيها: «نعم، أنا المرأة الوحيدة هنا التي تتصبب عرقاً».

«تعنين ترشح عرقاً».

«في الواقع لا، العرق غزير. أبدو وكأنني قد أُخرجت من بحيرة. حرير طبيعي!».

«إنه شيء شرقي، أليس كذلك؟».

قالت: «أدعوه مظهر سقوط سايغون. صيني الصنعة. طبعاً المشكلة مع أحد هذه الفساتين هي أنك تريد واحداً آخر بعد أربعين دقيقة!». وانتابها ذلك الشعور في منتصف الجملة، وهو أنه كان من الأفضل ألا تبدأها. هل تخيلت ذلك، أم إنه حرّك عينيه قليلاً؟ «آسفة».

«لا بأس بذلك. أعجبني الفستان حقاً. في الواقع أحببته منذ زمن طويل».

حرّكت عينيها. «ها أنت ذا، نحن هنا الآن».

«ما عنيته هو أنك تبدين رائعة». كان ينظر إلى أعلى رأسها آنذاك. «هل ذلك...؟».

«ماذا؟».

«هل ذلك ما يدعونه رايتشل؟».

قالت وهي تحك شعرها فوراً بأطراف أصابعها: «لا تجرّب حظك يا دكس». نظرت إلى حيث تقف تيلي وزوجها الجديد لالتقاط الصور، وتيلي تلوح بمروحة أمام وجهها. «لسوء الحظ، لم أدرك أن هناك أجواء ثورة فرنسية».

قال دكستر: «مسألة ماري أنطوانيت؟ حسنٌ، على الأقل نعرف أن هناك كعكة».

«واضح أنها ستنتقل إلى حفل الاستقبال في عربة ريفية».

«أي عربة؟».

نظرا إلى بعضهما بعضاً. قالت: «لم تتغير، أليس كذلك؟».

ركل دكستر الحصى. «لقد تغيرت، قليلاً».

«يبدو هذا غريباً».

«سأخبرك لاحقاً. انظري -».

كانت تيلي تقف على لوح رولز - رويس الشبح الفضي الذي سينقلهما مسافة مئات الياردات إلى حفل الاستقبال، وهي تحمل باقة الزهور في كلتا يديها منخفضة، مستعدة لترميها مثل رمح.

«هل تريدين أن تذهبي وتجرّبي حظك يا إم؟».

قالت: «لا يمكنني التقاطها». ووضعت كلتا يديها خلف ظهرها حين رُميت الباقة إلى الحشد والتقطتها سيدة عجوز ضئيلة الحجم، ما بدا أنه أغضب الحاضرين بطريقة ما؛ وكأن آخر فرصة لشخص ما في السعادة المستقبلية قد تبددت. أومأت إيما نحو العجوز المحرجة،

والباقة تتدلى من يدها. قالت إيما: «هذه أنا بعمر أربعين سنة».

قال دكستر: «حقاً؟ أربعين؟». وضغطت إيما كعبها على إصبع قدمه. استطاع أن يرى من فوق كتفه سيلفي قريبة منه وتبحث عنه. «من الأفضل أن أذهب. لا تعرف سيلفي أحداً هنا، ولدي تعليمات مشدّدة بألاّ أبتعد عنها. تعالي وألقي التحية، هل ستفعلين؟».

«لاحقاً، سأذهب وأتكلم مع العروس السعيدة».

«اسأليها عن ذلك المبلغ الذي تدين به لك».

«هل تظن ذلك؟ اليوم؟».

«أراك لاحقاً. ربما سنجلس إلى جانب بعضنا في حفل الاستقبال». رفع أصابع متشابكة، وشبكت أصابعها أيضاً.

كان الصباح الملبّد بالغيوم قد تحول إلى أصيل جميل، وكانت غيوم عالية تمر في كبد السماء الزرقاء حين تبع الضيوف الشبح الذهبي تباعاً إلى «المرج الكبير» لتناول الشراب والخبز بالجبن. هناك، ومع شهقة كبيرة، رأت تيلي إيما أخيراً، وتعانقتا بأفضل ما تستطيعان بسبب تنورة العروس الفضفاضة.

«أنا سعيدة جداً؛ لأنك جئت يا إم!».

«أنا أيضاً يا تيلي. تبدين رائعة».

لوّحت تيلي بمروحتها. «ألا تظنين أن هذا مبالغ فيه؟».

«لا، على الإطلاق. تبدين فاتنة». وانتقل بصرها مرة أخرى إلى الشامة التي تجعلها تبدو وكأن ذبابة قد حطّت على شفتها. «كانت الطقوس رائعة أيضاً».

«أوووه، حقاً؟». كانت إحدى سمات تيلي القديمة أن تبدأ كل جملة بكلمة «أوه» المثيرة للعطف؛ وكأن إيما هرّة صغيرة قد آذت مخلبها الصغير. «هل بكيت؟».

«مثل يتيم...».

«أوووه! أنا سعيدة جداً لأنك جئت». ربتت بوقار على كتف إيما بمروحتها. «ولا أطيق صبراً للقاء حبيبك».

«حسنٌ، أنا أيضاً، لكن لسوء الحظ ليس لدي حبيب».

«أوووه، حقاً؟».

«لا، ليس منذ بعض الوقت».

«حقاً؟ هل أنت واثقة؟».

«أظن أنني سألاحظ هذا يا تيلي».

«أوووه! أنا آسفة. ستحظين بأحدهم! بسرعة!!!! لا، جدّياً، الأحباء رائعون! الأزواج أفضل! يجب أن نعثر لك على واحد!». قالت بحزم: «الليلة! سنرتب لك موعداً!». وشعرت إيما برأسها ينبض ألماً. «أوووه. إذاً! هل رأيت دكستر؟».

«وقتاً وجيزاً».

«هل التقيت حبيبته؟ صاحبة الجبين كثيف الشعر؟ أليست جميلة؟ تشبه أودري هيبورن، أم كاثرين؟ لا يمكنني أبداً التفريق بينهما».

«أودري، إنها بالتأكيد تشبه أودري».

سُكب الشراب وانتشرت موجة من الحنين إلى الماضي عبر المرج الكبير حين التقى أصدقاء قدامى، وتحولت الأحاديث إلى كم يجني الناس آنذاك، والوزن الذي قد كسبوه.

قال كالوم أونيل الذي كان يجني ويزن كثيراً تلك الأيام: «شطائر، ذلك هو المستقبل. طعام سريع التحضير، وعالي الجودة، ومقبول أخلاقياً؛ هذا ما سيكون عليه الأمر يا أصدقائي. الطعام هو الروك آند رول الجديد!».

«كنت أظن أن الكوميديا هي الروك آند رول الجديدة!».

«كانت، ثم ظهر الروك آند رول، والآن الطعام. تابع ما يحدث يا دكس!». كان زميل دكستر القديم في الشقة قد تغيّر إلى درجة أنه لم يعد أحد يعرفه في السنوات القليلة الماضية. فهو ناجح، وضخم ونشيط. كان قد انتقل من تجديد الحواسيب، وباع الشركة محققاً ربحاً طائلاً ليطلق سلسلة مواد طبيعية للشطائر. آنذاك، بلحيته القصيرة المشذّبة وشعره القصير جداً أضحى نموذجاً لرجل الأعمال الشاب والأنيق والواثق بنفسه. جذب كالوم طرفي ردني بزّته الرائعة، ووجد دكستر نفسه يتساءل إن كان هو الأيرلندي النحيل نفسه حقاً الذي ارتدى السروال ذاته كل يوم طوال ثلاث سنوات.

«كل شيء عضوي، ويُحضّر طازجاً. نحضّر عصيراً ومقبّلات بناء على الطلب، وقهوة أيضاً. لدينا أربعة فروع، وهي مملوءة طوال الوقت، حقاً، باستمرار. يجب أن نُغلق عند الساعة الثالثة؛ لأنه لا يبقى لدينا طعام. أخبرك يا دكس، ثقافة الطعام في هذا البلد تتغير، ويريد الناس أن تكون الأشياء أفضل. لم يعد أحد يريد علبة من التانغو أو كمية من رقائق البطاطا، وإنما صحون حُمّص، وعصير بابايا، وجراد البحر...».

«جراد البحر؟».

«في رغيف خبز، مع جرجير. جدّياً، جراد البحر هو شطيرة البيض في زماننا هذا، والجرجير هو الخس. جراد البحر رخيص الإنتاج، ويتكاثر بطريقة لا يمكن أن تصدّقها، ولذيذ، وهو كركند الإنسان الفقير! مهلاً، يجب أن تأتي وتتحدث معي عنه في وقت ما».

«عن جراد البحر؟».

«عن العمل. أظن أن هناك فرصاً كثيرة لك».

حفر دكستر المرج بكعبه. «كالوم، هل تعرض علي وظيفة؟».

«لا. أقول فقط أن تأتي و –».

«لا أصدق أن أحد أصدقائي يعرض علي وظيفة».

«– تعال وتناول الغداء! لا شيء من هراء جراد البحر ذاك أيضاً، في مطعم راقٍ، على حسابي». ألقى ذراعاً ضخمة على كتف دكستر، وقال بصوت خافت: «لم أعد أراك كثيراً على التلفاز هذه الأيام».

«هذا لأنك لا تشاهد قنوات الكابل والفضائيات. أقدم أعمالاً كثيرة على الكابل والفضائيات».

«مثل؟».

«حسنٌ، أقدم هذا البرنامج الجديد بعنوان رياضات متطرفة. مشاهد ركوب أمواج، مقابلات مع متزجلين على الثلج. تعرف، من كل أنحاء العالم».

«إذاً، أنت تسافر كثيراً؟».

«أنا أقدّم المشاهد فقط. الإستوديو في موردن، لذا نعم، أسافر كثيراً، لكن إلى موردن فقط».

«حسنٌ، كما قلت، إن شعرت برغبة بتغيير مهنتك... أنت تعرف الكثير عن الطعام والشراب، ويمكنك التعامل مع الناس إن ركّزت اهتمامك على ذلك. العمل هو الناس، وأظن أنك ستبلي حسناً في ذلك، هذا كل شيء».

تنهّد دكستر، ورفع بصره إلى صديقه القديم وحاول أن يكرهه. «كال، ارتديت السروال نفسه كل يوم طوال ثلاث سنوات».

«مرَّ وقت طويل الآن».

«طوال فصل كامل لم تأكل إلا لحماً معلباً».

«ماذا يمكنني أن أقول؛ الناس يتغيرون! إذاً ما رأيك؟».

«لا بأس إذاً. يمكنك أن تدعوني إلى العشاء، لكنني أحذّرك: لا أعرف شيئاً عن هذا العمل».

«لا بأس بذلك. سيكون رائعاً أن نلتقي مجدداً على كل حال». عاتباً تقريباً، ربت على مرفق دكستر. «لم تتحدث معي منذ بعض الوقت».

«حقاً؟ كنت مشغولاً».

«ليس كثيراً».

«مهلاً، كان بمقدورك أن تتصل بي أيضاً!».

«فعلت مراراً. لم ترد على اتصالاتي مطلقاً».

«حقاً؟ آسف. هناك أشياء تشغل ذهني».

«سمعت عن أمك». نظر إلى كأسه. «آسف بشأنها. كانت سيدة رائعة».

«لا بأس، حدث هذا منذ وقت طويل».

انقضت لحظة صمت - مريحة ورقيقة – فيما كانا ينظران إلى أرجاء المرج؛ نحو أصدقاء قدامى يتكلمون ويضحكون في شمس آخر الأصيل. قريباً منهما، كانت آخر حبيبات كالوم - فتاة إسبانية جميلة صغيرة القد، راقصة في فيديوهات الهيب هوب - تتكلم إلى سيلفي التي تحني ظهرها لتسمعها.

قال دكستر: «سيكون لطيفاً أن أتكلم مع لويزا مجدداً».

هزَّ كالوم كتفيه: «لا أحد يبقى إلى الأبد، أظن أن لويزا ستغادر!».

«بعض الأشياء لا تتغير إذاً». وصلت نادلة خجولة تعتمر قلنسوة لتملأ كأسيهما. كشّر كلاهما لها، لاحظ كل منهما ابتسامة الآخر، وملأا كأسيهما معاً.

«إحدى عشرة سنة منذ غادرنا». هزَّ دكستر رأسه، متشككاً. «إحدى عشرة سنة. كيف حدث ذلك بحق الله؟».

قال كالوم، فجأة: «رأيت إيما مورلي هنا».

«أعرف». نظرا إليها وشاهداها تتكلم إلى ميفي بوكانان؛ عدوة قديمة. حتى من بعيد، عرفا أن أسنان إيما تصطك.

«سمعت أنك وإيما قد تشاجرتما».

«نعم».

«لكنكما تصالحتما الآن؟».

«لست واثقاً، سنرى».

«إنها فتاة رائعة، إيما».

«إنها كذلك».

«وهي جميلة جداً هذه الأيام».

«نعم، نعم».

«هل حاولت قط...؟».

«لا، تقريباً. مرة أو اثنتين».

«تقريباً؟». تنشّق كالوم. «ماذا يعني هذا؟».

غيّر دكستر الموضوع. «لكنك بخير، صحيح؟».

تناول كالوم رشفة من الشراب. «دكس، عمري أربع وثلاثون سنة. لدي حبيبة جميلة، ومنزلي الخاص، وشركتي الخاصة، وأعمل جاهداً في عمل أستمتع به، وأجني مالاً وفيراً». وضع يده على كتف دكستر. «وأنت، تقدم برنامجاً في تلفاز آخر الليل! كانت الحياة جيدة لنا جميعاً».

ونتيجة الجرح الذي أصاب كبرياءه، وإحساسه الكبير بالمنافسة، قرر دكستر أن يخبره.

«إذاً، هل تريد أن تسمع شيئاً مضحكاً؟».

سمعت إيما كالوم أونيل يشهق من الطرف الآخر للمرج الكبير، ونظرت في الوقت المناسب لتراه يمسك دكستر من رأسه بإحكام، ويفرك مفاصله. ابتسمت، ثم ركّزت كل اهتمامها مجدداً على كره ميفي بوكانان.

كانت تقول: «سمعت أنك عاطلة عن العمل».

«حسنٌ، أفضّل أن أفكّر في نفسي على أنني صاحبة مهنة حرة».

«على أنك كاتبة؟».

«مدة سنة أو اثنتين فقط، في يوم الراحة».

«لكن، لم يُنشر لك شيء في الواقع؟».

«ليس بعد، لكنني حصلت فعلاً على دفعة مقدمة صغيرة عن –».

قالت ميفي، متشككة: «همم، نُشر لهاريت بوين ثلاث روايات حتى الآن».

«نعم، لقد أُبلغت بهذا، عدّة مرات».

«وأنجبت ثلاثة أولاد».

«حسنٌ، ها أنت ذا».

«هل رأيت ابنيَّ؟». قريباً منهما كان طفلان يرتدي كل منهما بزّة من ثلاث قطع يفركان خبزاً بالجبن بوجهي بعضهما.

«إيفان، لا تعض».

«إنهما فتيان رائعان».

قالت ميفي: «أليس كذلك؟ إذاً، هل أنجبت أي أطفال؟».

«لا –».

«هل تقابلين أحداً؟».

«لا –».

«لا أحد؟».

«لا –».

«أي شخص في الأفق؟».

«لا –».

«رغم ذلك، مظهرك أفضل كثيراً من إنجازك». نظرت ميفي إليها من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها تقوّمها؛ وكأنها تمعن النظر إليها لشرائها في مزاد علني. «أنت في الواقع إحدى الأشخاص القلائل هنا الذين خسروا حقاً بعض الوزن! أعني، لم تكوني بدينة جداً مطلقاً، وإنما ريّانة فقط، لكن هذا يناسبك!».

شعرت إيما بيدها تشتد حول كأس الشراب. «حسنٌ، جيد أن أعرف أن آخر إحدى عشرة سنة لم تذهب هباءً».

«وكنت تتكلمين بتلك اللهجة الشمالية القوية حقاً، لكنك تتحدثين الآن مثل أي شخص آخر».

قالت إيما، مشدوهة: «حقاً؟ حسنٌ، هذا مخجل. لم أتخل عنها عمداً».

«لأكون صادقة، ظننت دائماً أنك تتظاهرين بذلك. تعرفين - تكلّف».

«ماذا؟».

«لهجتك، تعرفين - آه نعم! هذا - الموضوع، ذلك - الموضوع، غوات-ي-مالا را-را-را! لكنك الآن تتكلمين على نحو طبيعي مجدداً!».

كانت إيما قد حسدت دائماً أولئك الأشخاص الذين يتكلمون عمّا يجول في خاطرهم، ويقولون ما يشعرون به من دون اكتراث للّباقة الاجتماعية. لم تكن مطلقاً إحدى أولئك الأشخاص، لكنْ على الرغم من هذا شعرت آنذاك أن حرف «ف» يتكوّن على شفتها السفلية.

«... وكنت دائماً غاضبة جداً من كل شيء طوال الوقت».

«أوه، ولا أزال أشعر بالغضب يا ميفي...».

«أوه يا إلهي، إنه دكستر ميهو». كانت ميفي تهمس في أذنها آنذاك، وإحدى يديها تضغط على كتف إيما. «هل كنت تعرفين أننا فعلنا ذلك مرة؟».

«نعم، أخبرتني مرات عديدة».

«لا يزال يبدو رائعاً. ألا يبدو رائعاً؟». وتنهّدت. «كيف لم تفعلا ذلك معاً مطلقاً؟».

«لا أعرف، ربما بسبب لهجتي، بدانتي...».

«لم تكوني سيئة جداً. مهلاً، هل رأيت حبيبته؟ أليست جميلة؟ ألا تظنين أنها فاتنة؟». واستدارت ميفي لتحصل على رد، لكنها دُهشت حين اكتشفت أن إيما قد اختفت.

كان الضيوف يتجمّعون عند السرادق آنذاك، ويتجمهرون متحمسين حول مخطط الجلوس؛ وكأنهم يحصلون على نتائج امتحاناتهم. وجد دكستر وإيما بعضهما في الحشد.

قال دكستر: «الطاولة الخامسة».

قالت إيما: «الطاولة الرابعة والعشرون. الطاولة الخامسة قريبة جداً من العروس، في حين أن الرابعة والعشرين بجانب المراحيض».

«يجب ألاّ تعدّي الأمر شخصياً».

«ما الوجبة الرئيسة؟».

«تقول الشائعات إنه السلمون».

«سلمون، سلمون، سلمون، سلمون، سلمون. آكل كثيراً من السلمون في حفلات

الزفاف هذه، ومرتين سنوياً أشعر بحافز للسباحة عكس التيار».
«تعالي إلى الطاولة الخامسة. سنبدل بطاقات الأسماء».
«أأتلاعب بمخطط الجلوس؟ يقتلون الناس من أجل ما هو أقل من هذا. هناك مقصلة في الخلف».
ضحك دكستر. «سنتكلم بعد ذلك، موافقة؟».
«تعال واعثر علي».
«أو يمكنك أنتِ المجيء والعثور علي».
«أو يمكنك العثور علي».
«أو يمكنكِ العثور علي».
كعقوبة على ازدراء ما في الماضي، وُضعت إيما بين العمّة العجوز للعريس وعمٍّ من نيوزلندا، وتكرّرت عبارات «طبيعة جميلة» و«نوعية حياة رائعة» ثلاث ساعات كاملة. أحياناً، كانت نوبةُ ضحك كبيرة من اتجاه الطاولة الخامسة تشتت انتباهها، دكستر وسيلفي، كالوم وحبيبته لويزا؛ الطاولة الساحرة. سكبت إيما لنفسها كأساً أخرى من الشراب وسألت مرة أخرى عن الطبيعة، ونوعية الحياة. حِيتَان: هل شاهدتم حيتاناً حقيقية من قبل؟ طرحت السؤال ونظرت بحسد إلى الطاولة الخامسة.
جالساً إلى الطاولة الخامسة، نظر دكستر بحسد إلى الطاولة الرابعة والعشرين. كانت سيلفي قد ابتكرت لعبة جديدة بأن تضع يدها بسرعة على كأس شراب دكستر كلما أمسك القارورة، ما حوّل الوجبة الطويلة إلى اختبار صارم لردود أفعاله. همست حين سجّل نقطة: «ستشرب باعتدال، أليس كذلك». وطمأنها أنه سيفعل هذا، لكن النتيجة كانت شعوره بملل وحسد متزايد من ثقة كالوم بالنفس التي تثير الجنون. إلى الطاولة الرابعة والعشرين، رأى إيما تتكلم بلطف وجدّية إلى ثنائي عجوز سفعت الشمس بشرتيهما، ولاحظ المجاملة التي تصغي بها إليهما، وهي تضع يدها آنذاك على ذراع الرجل العجوز وتضحك على دعابته، وتلتقط صورة لهما بآلة تصوير تُستخدم مرة واحدة، وتميل ليلتقطا صورة لها. لاحظ دكستر فستانها الأزرق؛ من النوع الذي لم تكن لترتديه مطلقاً قبل عشر سنوات، ولاحظ أيضاً أنه مفتوح ثلاث بوصات أو نحو ذلك على ظهرها، وأن الحاشية قد ارتفعت إلى نصف فخذها، وخطرت له صورة عابرة لكنها زاهية عن إيما في غرفة نوم أدنبره في شارع رانكيلور، وضوء الفجر يتسلل عبر الستائر، وسرير مفرد منخفض، وتنورتها حول

خصرها، وذراعاها فوق رأسها. ما الذي تغير منذ ذلك الوقت؟ ليس الكثير. التجاعيد نفسها تتكون حول فمها حين تضحك، لكنها أكثر وضوحاً الآن. لا تزال عيناها على حالهما؛ فهما لامعتان وثاقبتان. ولا تزال تضحك وهي تغطي فمها الواسع بإحكام؛ وكأنها تكتم سراً. بطرائق عديدة بدت أكثر جاذبية مما كانت عليه في الثانية والعشرين من العمر، ولم تعد تقص شعرها بنفسها، وقد فقدت بعضاً من شحوب الأماكن المغلقة، والنكد والفظاظة. تساءل كيف سيكون شعوره إن رأى هذا الوجه أول مرة آنذاك؟ إن كان قد جلس إلى الطاولة الرابعة والعشرين وعرّف بنفسه. فكّر أنه من بين كل الناس الموجودين هناك، سيرغب فقط بالتحدث إليها. حمل شرابه ودفع كرسيه إلى الخلف.

لكن الكؤوس كانت تُنقر بسكاكين: الخطابات. كما تقضي التقاليد، كان «والد العروس» ثملاً وفظاً، وكذلك مرافق العريس الذي نسي أيضاً أن يذكر «العروس». شعرت إيما مع كل كأس من الشراب الأحمر أن الطاقة تُستنفد منها، وبدأت تمعن النظر إلى غرفة نومها في أعلى المنزل الرئيس، وثوب الاستحمام الأبيض النظيف، والسرير عالي القوائم. سيكون هناك أحد تلك الحمامات التي يُغرم الناس بها، ومناشف كثيرة جداً لشخص واحد، وكأن الفرقة تقرأ أفكارها، بدأ أفرادها يضبطون إيقاعاتهم آنذاك، ويعزفون لحن أغنية «شخص آخر يقضم الغبار». قررت إيما أن الوقت قد حان للتوقف عن النشاط ذلك اليوم، وأن تضع قطعتها من كعكة الزفاف في كيسها المخملي الخاص المغلق بشريط، وتتجه إلى غرفتها وتنام.

«اعذريني، لكن ألا أعرفك من مكان ما؟».

يدٌ على ذراعها، وصوت خلفها. كان دكستر يجثم بجوارها، ويكشّر مصاباً بدوار، وقارورة شراب في يده.

رفعت إيما كأسها.

«هذا ممكن، كما أفترض».

مع صرخة عالية، بدأت الفرقة تعزف وتحوّل كل الاهتمام إلى حلبة الرقص، حيث يتحرك مالكولم وتيلي على وقع أغنيتهما الخاصة الفتاة بنية العينين، ويتلوّيان ببطء، وأصابع الإبهام الأربع مرفوعة عالياً.

«يا إلهي! متى بدأنا كلنا نرقص مثل العجائز؟».

قال دكستر وهو يجثم على كرسي: «تكلمي عن نفسك».

«هل يمكنك أن ترقص؟».

«ألا تتذكرين؟».

هزّت إيما رأسها. «لا أعني على منصة تحمل صفّارة بعد أن نزعت قميصك، أعني رقصاً ملائماً».

«طبعاً أستطيع». أمسك يدها. «هل تريدين مني أن أثبت ذلك؟».

«ربما لاحقاً». اضطرا إلى أن يصرخا آنذاك. وقف دكستر وجذب يدها. «لنذهب إلى مكان ما، فقط أنا وأنت».

«أين؟».

«لا أعرف، توجد متاهة هنا».

«متاهة؟». انقضت لحظة، ثم وقفت. «حسنٌ، لماذا لم تقل؟».

أخذا كأسين وخرجا خلسة من السرادق إلى الليل. كان الجو لا يزال دافئاً، والخفافيش تطير فوق الرؤوس في هواء الصيف الداكن حين مشيا ذراعاً بذراع عبر حديقة الورود نحو المتاهة.

سألت: «إذاً، كيف يبدو الأمر؟ خسارة حبيبة قديمة أصبحت بين ذراعي رجل آخر».

«تيلي كيليك ليست حبيبة قديمة».

«أوه، دكستر...». هزّت إيما رأسها ببطء. «متى ستتعلم؟».

«لا أعرف ما تتكلمين عنه».

«لا بد أنك تعلم، دعني أذكّرك... كانون الأول 1992، تلك الشقة في كلابتون التي تفوح منها رائحة البصل المقلي».

وجِل دكستر. «كيف تعرفين عن هذه الأشياء؟».

«حسنٌ، عندما غادرت إلى ولورثس كنتما تدلّكان أقدام بعضكما بزيت الزيتون خاصتي، وعندما عدت من ولورثس وجدتها تبكي، ورأيت آثار أقدام بزيت الزيتون على السجادة كلها والأريكة وعلى طاولة المطبخ ونصف الجدار أيضاً، كما أتذكر. لذا فحصت بعناية الدليل الشرعي وتوصلت إلى ذلك الاستنتاج. أوه، أيضاً، تركت وسيلة تحديد النسل على غطاء صندوق القمامة في المطبخ، لذا بدا ذلك لطيفاً».

«حقاً؟ آسف بشأن ذلك».

«إضافة إلى حقيقة أنها أخبرتني».

«فعلت ذلك!». هزَّ رأسه متعجّباً. «كان يجب أن يبقى ذلك سرنا!».

«تتكلم النساء عن تلك الأشياء كما تعرف. لا فائدة من القسم على إبقائها سراً، فكل شيء ينكشف في النهاية».

«سأتذكر هذا في المستقبل».

كانا قد وصلا آنذاك إلى بوابة المتاهة - نباتات وشائع مقلّمة بأناقة، ارتفاعها عشر أقدام — حيث يوجد باب خشبي ثقيل. توقفت إيما، ويدها على المقبض الحديدي. «هل هذه فكرة سديدة؟».

«ما مدى صعوبتها؟».

«وإذا تهنا؟».

«سنستفيد من النجوم أو ما شابه». صرّ الباب حين فُتح. «يميناً أم يساراً؟».

قالت إيما: «يميناً»، ودخلا المتاهة. كانت الوشائع العالية مضاءة بمصابيح ملونة مختلفة، والهواء يعبق برائحة الصيف تلك، القوية الزيتية تقريباً، من الأوراق الدافئة. «أين سيلفي؟».

«سيلفي بخير، إنها برعاية كالوم. إنه الحياة والروح، المليونير الفاتن. فكّرت في أن أتركهما معاً، فلم يعد بمقدوري أن أتنافس معه بعد الآن. هذا مجهد جداً».

«إنه يبلي حسناً، كما تعرف».

«هذا ما يخبرني به الجميع».

«جراد البحر، كما يبدو».

«أعرف، لقد عرض علي وظيفة».

«ما هي؟».

«لا أعرف بعد. يريد أن يتكلم معي عن فرص. العمل هو الناس كما يقول، أياً يكن معنى هذا». «لكن، ماذا عن رياضات متطرفة؟».

«آه»، ضحك دكستر وفرك شعره بيدٍ واحدة. «لقد رأيته إذاً؟».

«لم أفوّت حلقة واحدة. تعرفني، لا شيء أحبه في ساعات الصباح الباكر أكثر من رؤية أشياء عن الدراجات الجبلية. جزئي المفضل حين تقول إن تلك الأشياء متطرفة -».

«هم يجعلونني أقول تلك الأشياء».

«متطرفة وجميلة. شاهدوا هذه الحركات المدرسية القديمة الجميلة –».

«أظن أنني بالغت في ذلك».

«ليس دائماً يا صديقي، يساراً أم يميناً؟».

«يساراً، كما أظن». مشيا مسافة قصيرة صامتين، وهما يرهفان السمع إلى الأصوات المكتومة للفرقة التي كانت تعزف تطيّر. «كيف حال التأليف؟».

«أوه، لا بأس حين أقوم به. ففي معظم الوقت أجلس فحسب وأتناول البسكويت».

«تقول ستيفاني شو إنهم أعطوك دفعة مُسبقة».

«إنه مبلغ صغير، لا يكفي إلا لاحتفال الكرسمس، ثم سنرى. سأعود إلى التدريس بدوام كامل على الأرجح».

«ما الذي يتكلم عنه هذا الكتاب؟».

«لست واثقة بعد».

«إنه عني، أليس كذلك؟».

«بلى يا دكستر، إنه كتاب كامل وسميك عنك؛ كله. عنوانه دكستر دكستر دكستر دكستر. يميناً أم يساراً؟».

«لنجرّب يساراً».

«في الواقع، إنه مجرد كتاب للأطفال: يتحدث عن المراهقين، الفتيان، العلاقات، أشياء من هذا القبيل. إنه عن مسرحية مدرسية، ذلك العمل المعنون أوليفر الذي عملت عليه قبل سنوات، كوميديا».

«حسنٌ، بدوت رائعة فيه».

«حقاً؟».

«بالتأكيد. يبدو بعض الناس أفضل، وبعضهم الآخر أسوأ حالاً. أنت تبدين بالتأكيد أفضل».

«أخبرتني ميفي بوكانان أنني قد فقدت أخيراً دهن الطفولة».

«إنها تشعر بالغيرة فحسب، تبدين رائعة».

«شكراً لك. هل تريد مني القول إنك تبدو أفضل أيضاً؟».

«إذا كنت تظنين أن بمقدورك فعل هذا».

«حسن، تبدو رائعاً. يساراً؟».

«يساراً».

«أفضل من عملك الخاص بالروك آند رول قبل سنوات طويلة، حين كنت تقدّم كبّره أو أياً كان الذي تفعله آنذاك». مشيا قليلاً صامتين، حتى تكلمت إيما مجدداً: «كنت قلقة عليك».

«حقاً؟».

«كنا جميعاً قلقين».

«كانت مجرد مرحلة انقضت. يمرُّ الجميع بمرحلة مثل تلك، أليس كذلك؟ يجمح المرء قليلاً».

«حقاً؟ أنا لم أعشها. مهلاً، آمل أن تكون قد توقفت عن وضع تلك القبعة الكبيرة المزعجة أيضاً».

«لم أعتمر قبعة منذ سنوات».

«سعيدة لسماع هذا. كنا نفكّر أن نتدخّل في الأمر».

«تعرفين كيف هو الأمر، يبدأ المرء بقبعات صغيرة؛ للمتعة فقط، ثم قبل أن يدرك ما يحدث يبدأ باعتمار قبعات كبيرة، من أنواع مختلفة...».

تقاطع آخر. قالت: «يميناً أم يساراً؟».

«لا فكرة لدي».

نظرا في الاتجاهين. «مدهش، أليس كذلك، كم تتلاشى متعة هذا بسرعة؟».

«لنجلس قليلاً، هناك».

كان هناك مقعد رخامي صغير مثبّت عند أسوار الوشيع، مضاء من الأسفل بمصباح نيون أزرق. جلسا على الحجر البارد، وملأا كأسيهما، نقراهما معاً وحرّكا كتفيهما.

«يا إلهي، كدت أنسى...». مدَّ دكستر يده إلى جيب سرواله، وأخرج بحرص شديد منديلاً مطوياً، حمله على راحة كفه مثل ساحر وفتحه، زاوية بعد أخرى. كانت توجد في المنديل لفافتا تبغ مثل بيضتي عصافير.

همس مدهوشاً: «إنها من كال، هل تريدين واحدة؟».

«لا، شكراً لك. لم أمس واحدة منذ سنوات».

«أحسنت صنعاً. لقد أقلعت أيضاً، رسمياً، لكنني أشعر بالأمان هنا...». أشعل السلعة المهرّبة، ويده تهتز قليلاً. «لا يمكن أن تجدني هنا...». ضحكت إيما. كان الشراب والعزلة قد رفعا معنوياتهما، وكلاهما يشعران آنذاك بعواطف جيّاشة، وحنين إلى الوطن؛ كما ينبغي أن يشعر المرء بالضبط في حفل زفاف، وابتسما لبعضهما عبر الدخان. «يقول كالوم إننا جيل المارلبورو لايت».

تنشّقت إيما وقالت: «يا إلهي، هذا مخيب للآمال. جيل برمّته يُعرف بنوع لفائف تبغ. كنت آمل في شيء أكثر من ذلك». ابتسمت، واستدارت إلى دكستر: «إذاً، كيف حالك هذه الأيام؟».

«أنا بخير، وأكثر حكمة».

«هل فقدت العلاقات الحميمة في الحمامات سحرها الخاص؟».

ضحك ونظر إلى طرف لفافة التبغ. «كان يجب أن أُخرج شيئاً من جسمي، وهذا كل شيء».

«وهل خرج الآن؟».

«أظن هذا، معظمه».

«بسبب حب حقيقي؟».

«جزئياً. عمري أربع وثلاثون سنة الآن. تبدأ الأعذار تنفد من المرء في الرابعة والثلاثين».

«أعذار؟».

«حسنٌ، إذا كان عمرك اثنين وعشرين عاماً واقترفت خطأ، فيمكنك القول: لا بأس فأنا في الثانية والعشرين فقط. أنا في الخامسة والعشرين، أو في الثامنة والعشرين فحسب، لكن أنا في الرابعة والثلاثين؟». ارتشف من كأسه، ومال إلى الخلف نحو الوشيع. «يبدو أن الجميع يعاني مأزقاً كبيراً في حياته، وورطتي إقامة علاقة حب راشد وناضج وملتزم وأنا لا أزال في بداية العقد الثالث؟».

سألت بجدّية: «وما الجواب يا دكستر؟».

«الجواب هو لا يمكنني. عندما يكتشف المرء ذلك، يصبح الأمر أكثر بساطة».

«هذا صحيح، اللهو لن يبقيك دافئاً في الليل».

«اللهو لن يهتم بك حين تصبحين عجوزاً». تناول رشفة أخرى. «على كل حال، لم يدعُني أحد حتى إلى أي حفل لهو في المقام الأول، إنما أجعل من نفسي أضحوكة، وأفسد الأمر. أفسدت مهنتي، وأفسدت علاقتي بأمي -».

«حسنٌ، هذا ليس صحيحاً -».

«- أفسدت كل صداقاتي». لتأكيد ذلك، مال دكستر على ذراعها، ومالت نحوه. «ظننت فحسب أن الوقت قد حان لفعل الأشياء على نحو ملائم مرة واحدة. لقد التقيت سيلفي، وهي رائعة حقاً، وتبقيني على المسار الصحيح».

«إنها فتاة لطيفة».

«إنها كذلك حقاً».

«جميلة جداً، فاتنة».

«مخيفة قليلاً أحياناً».

«تشبه ليني ريفنشتال في لطفها ومودتها».

«ليني من؟».

«لا تهتم».

«طبعاً لا تتمتع بأي حس دعابة على الإطلاق».

قالت إيما: «ذلك مريح. أظن أن حس الدعابة يكتسب أهمية أكثر من اللازم. فهو يفسد العلاقة طوال الوقت، وهذا ممل. مثل إيان، إلا أنه ليس مضحكاً. لا، من الأفضل أن تحظى بشخص تحبه فعلاً، شخص يفرك قدميك».

حاول لكنه فشل في أن يتخيل سيلفي تمس قدميه. «أخبرتني مرة أنها لا تضحك أبداً؛ لأنها لا تحب ما يفعله ذلك بوجهها».

ضحكت إيما بصوت خافت. كانت كلمة ياه كل ما استطاعت قوله. «ياه! لكنك تحبها، صحيح؟».

«أنا مغرم بها».

«مغرم. حسنٌ، مغرم أفضل كثيراً».

«إنها رائعة».

«إنها كذلك».

«وقد جعلتني أتخلى عن أشياء كثيرة أيضاً. لقد أقلعت عن الممنوعات والشراب ولم أعد أدخّن». نظرت إلى القارورة في يده، ولفافة التبغ في فمه، فابتسم. «هذه مناسبة خاصة».

«إذاً، وجدك الحب الحقيقي في النهاية».

«شيء من هذا القبيل». ملأت كأسها. «ماذا عنك؟».

«أوه، أنا بخير». وقفت لتشتت انتباهه. «لنتابع المشي، هل نفعل؟ يساراً أم يميناً؟».

«يميناً». تنهّد، ونهض على قدميه. «هل لا تزالين ترين إيان؟».

«ليس منذ أعوام الآن».

«لا أحد آخر في الأفق؟».

«لا تبدأ يا دكستر».

«ماذا؟».

«التعاطف مع عانس. أنا قانعة تماماً، شكراً لك، وأرفض تمييزي بحبيبي، أو عدم وجوده». كانت قد بدأت تتكلم بحماسة حقيقية آنذاك. «عندما تقرر ألا تقلق بشأن تلك الأمور، أعني المواعدة والعلاقات والحب وكل ذلك، تتحرر لتمضي قدماً بحياتك الحقيقية. لدي عملي، وأحبه، ويجب أن أقضي سنة أخرى لأحقق شيئاً فيه. المال قليل، لكنني حرّة. أذهب لحضور الأفلام في الأصيل». توقفت لحظة. «سباحة! أسبح كثيراً. أسبح وأسبح وأسبح، ميلاً بعد آخر. يا إلهي، أكره السباحة حقاً. سننعطف يساراً، كما أظن».

«ينتابني الشعور نفسه، ليس بشأن السباحة، أعني ألاّ أواعد بعد الآن. منذ أن أصبحت مع سيلفي، يبدو أنني قد استنفدت مقداراً كبيراً من الوقت والطاقة والمساحة الذهنية».

«وماذا تريد أن تفعل بكل هذه المساحة الذهنية؟».

«ألعب توم رايدر معظم الوقت».

ضحكت إيما، ومشت مسافة بصمت، قلقة من أن تكون أقل تحفظاً مما عقدت العزم عليه. «وعلى كل حال، أنا لا أشعر، كما تعرف، بالملل والافتقار إلى الحب تماماً. لدي لحظاتي. قمت بعلاقة حميمة مع رجل يدعى كريس، يقول إنه طبيب أسنان لكنه في الواقع مختص بالصحة».

«ماذا حدث لكريس؟».

«فشلت العلاقة، كما يحدث دائماً. كنت مقتنعة أنه يحدّق دائماً إلى أسناني. أزعجني دائماً لأنظّف أسناني بالخيط، إيما، التنظيف بالخيط. كان الخروج في موعد مثل الذهاب إلى فحص طبي عام. ضغط كبير. وقبل ذلك كان هناك السيد غودالمينغ؟». ارتعشت. «السيد غودالمينغ، يا لها من كارثة!».

«من هو السيد غودالمينغ؟».

«في وقت آخر. يساراً أم يميناً؟».

«يساراً».

«على كل حال، إذا فقدت الأمل تماماً، يمكنني دائماً الاستفادة من العرض الذي قدّمته لي».

توقف دكستر عن المشي. «أي عرض؟».

«هل تتذكر أنك قلت إنني إذا بقيت عازبة حين أبلغ الأربعين فستتزوجني؟».

وجِل: «هل قلت ذلك؟ هذا غريب قليلاً».

«ظننت هذا في ذلك الوقت. لكن لا تقلق، لا أظن أنه ملزم قانونياً، ولن أطلب منك الوفاء به. إضافة إلى ذلك، لا تزال هناك سبع سنوات. وقت طويل...». بدأت تمشي مجدداً، لكن دكستر تسمّر في مكانه خلفها، وهو يفرك رأسه مثل فتى على وشك أن يكشف أنه قد كسر أفضل آنية خزفية.

«أخشى أنني سأضطر إلى إلغاء العرض على كل حال».

توقفت واستدارت.

قالت، رغم أن جزءاً منها كان يعرف ذلك سلفاً: «أوه حقاً؟ لمَ؟».

«أنا ملتزم».

طرفت عين إيما مرة، ببطء شديد.

«ملتزم بماذا؟».

«بالزواج، من سيلفي».

انقضت لحظة، ربما نصف ثانية حين أفشى وجهاهما ما يشعران به، ثم بدأت إيما تبتسم، تضحك، وذراعاها حول عنقها. «أوه دكستر، هذا مدهش! تهانينا!». ومشت إليه

لتقبّل وجنتيه حين أدار رأسه تماماً، وتلامس فماهما لحظة فذاقا طعم الشراب على شفاه بعضهما.

«هل أنت سعيدة؟».

«سعيدة؟ أنا أطير فرحاً! لكن حقاً، بجد، هذا خبر رائع».

«أتظنين هذا؟».

«إنه أكثر من رائع، إنه، إنه... مدهش! إنه مدهش وعذب».

ابتعد عنها وبحث داخل سترته. «في الواقع، لهذا جئت بك إلى هنا. أردت إعطاءك هذا شخصياً».

مغلّف سميك من ورق أرجواني ثقيل. أمسكته إيما بحرص، ونظرت إلى الداخل. كان المغلّف يضم ورقة شبه شفافة، وحواف الدعوة نفسها ممزقة باليد، ويبدو أنها مصنوعة من نوعٍ من البردي أو الرق. «الآن هذا...»، وازنتها إيما مثل لوحٍ على أطراف أصابعها المقلوبة إلى الأعلى، «هذا ما أدعوه دعوة زفاف».

«أليست كذلك؟».

«إنها قطعة فنية متقنة».

«ثمانية جنيهات لكل دعوة».

«هذا أغلى من سيارتي».

«شمّيها، هيا...».

«أشمّها؟». رفعتها إلى أنفها بحذر. «إنها معطّرة! دعوات حفل زفافك معطّرة؟».

«يجب أن يكون الخزامى».

«لا يا دكس. إنه المال. تفوح منها رائحة المال». فتحت البطاقة بحرص، وراقبها وهي تقرأها، متذكراً الطريقة التي تستخدم بها أطراف أناملها لتمس شعرها على جبينها. «السيد كوب وحرمه يدعوانك إلى حفل زواج ابنتهما سيلفي بالسيد دكستر ميهو. لا أصدّق أنني أرى هذا مطبوعاً فعلاً. السبت، الرابع عشر من أيلول. مهلاً، هذا...».

«بعد سبعة أسابيع...»، واستمر يراقب وجهها؛ ذلك الوجه الرائع ليرى كيف يمكن أن يتغير حين يخبرها.

«سبعة أسابيع؟ كنت أظن أن هذه الأشياء تتطلب سنواتٍ من التحضير؟».

«حسنٌ، إنها كذلك في الواقع، لكنني أظن أن هذا ما يدعونه زواجاً قسرياً...».

عبست إيما، ولم تفهم تماماً بعد.

«ثلاث مئة وخمسون ضيفاً، مع حفل راقص».

«أتعني؟...».

«سيلفي حامل تقريباً. ليس تقريباً، إنها كذلك، حامل. تحمل طفلاً في أحشائها».

«أوه، دكستر!». مرة أخرى، أصبح وجهها مقابل وجهه. «هل تعرف الوالد؟ أنا أمزح! تهانينا! يا دكس. يا إلهي! ألم يكن يفترض أن تنشر قنابلك قليلاً، وألا ترميها كلها دفعة واحدة؟». أمسكت وجهه بكلتا يديها، تنظر إليه. «ستتزوج؟».

«نعم!».

«وستكون أباً؟».

«أعرف! تباً لي - أب!».

«هل ذلك مسموح؟ أعني هل سيسمحون لك؟».

«يبدو أنهم سيفعلون».

«لا أفترض أنك لا تزال تحتفظ بلفافة التبغ تلك، أليس كذلك؟». مدَّ يده إلى جيبه من أجلها. «ما رأي سيلفي بهذا؟».

«إنها مسرورة! أعني، هي قلقة لأن ذلك سيجعلها تبدو بدينة».

«أظن أن الاحتمال قائم...».

أشعل لفافة تبغها. «... لكنها تريد المضي قدماً في هذا الزواج، وإنجاب أطفال، وإنجاح العلاقة. لا تريد أن ينتهي الأمر بها في منتصف العقد الثالث ووحيدة...».

«مثلي أنا!!!».

«بالضبط. لا تريد أن ينتهي الأمر بها مثلك!». أمسك يدها. «لم أقصد هذا، طبعاً».

«أعرف، أنا أمزح. دكستر، تهانينا».

«شكراً لك، شكراً لك». صمتا لحظة. قال، وهو يأخذ لفافة التبغ الأخيرة من فمها، ويضعها بين شفتيه: «دعيني أسحب مجّة من هذه، هلاّ فعلت. هنا، انظري إلى هذا...». أخرج من جيبه ورقة مربّعة داكنة، فتحها وأنزلها إلى ضوء النيون. «إنها صورة الأسبوع الثاني عشر. أليس هذا مدهشاً؟».

أمسكت إيما الورقة وأمعنت النظر إليها. كان جمال الصورة فوق الصوتية شيئاً لا يقدّره إلا الوالدان، لكن إيما شاهدت تلك الأشياء من قبل وتعرف المطلوب منها. «جميل»، تنهّدت رغم أنها في الواقع ربما كانت صورة سلبية لجيبه من الداخل.

«أترين؟ هذا هو العمود الفقري».

«عمود فقري رائع».

«يمكنك حتى تمييز الأصابع الصغيرة».

«ياه، صبي أم بنت؟».

«بنت كما آمل، أو صبي، لا يهم. لكن، هل تظنين أنه شيء جيد؟».

«بالتأكيد. أظن أنه رائع. تباً يا دكستر، أدِرْ ظهرك دقيقة واحدة...».

عانقته مرة أخرى، وهي تضع ذراعيها عالياً على عنقه. شعرت بأنها ثملة، وتنتابها عواطف جيّاشة وحزن أكيد أيضاً؛ وكأن شيئاً يقترب من النهاية. أرادت أن تقول شيئاً في ما يخص الأمر، لكنها فكّرت أنه من الأفضل فعل ذلك عبر دعابة. «طبعاً، لقد دمرت أي فرصة لي في السعادة مستقبلاً، لكنني سعيدة من أجلك، حقاً».

أدار رأسه لينظر إليها، وفجأة بدا أن شيئاً يتحرك بينهما؛ شيئاً حياً ويخفق في صدره. وضعت إيما يدها هناك. «هل ذلك قلبك؟».

«إنه هاتفي الخلوي».

تراجعت خطوات إلى الخلف فأخرج هاتفه من داخل جيبه. نظر إلى الشاشة، وهزَّ رأسه بوقار، وسلّم إيما لفافة التبغ وشعور بالذنب يبدو عليه؛ وكأنها دليل حاسم. قالت بسرعة: «لا تجعلها تعرف أنك ثمل»، ورسم على وجهه ابتسامة تلفاز مهنية وقال: «مرحباً حبيبتي!».

تمكّنت إيما من سماع سيلفي عبر السمّاعة. «أين أنت؟».

«لقد تهت نوعاً ما».

«تائه؟ كيف يمكن أن تتوه؟».

«حسنٌ، أنا في متاهة، لذا -».

«متاهة؟ ماذا تفعل في المتاهة؟».

«فقط... تعرفين... أتسكع. ظننت أن الأمر سيكون ممتعاً».

«حسنٌ، أنت تستمتع بوقتك يا دكس، في حين أنا عالقة هنا وأستمع إلى أغنية قديمة عن نيوزلندا...».

«أعرف، وقد حاولت الخروج منذ وقت طويل. لكن، حسنٌ، تعرفين - المكان يشبه متاهة هنا!». قهقه، لكن الصمت أطبق على الهاتف. «مرحباً؟ هل لا تزالين هناك؟ هل يمكنك سماعي؟».

قالت سيلفي بصوت خافت: «هل أنت مع أحد؟».

نظر إلى إيما التي كانت لا تزال تتظاهر أنها مفتونة بالصورة فوق الصوتية. فكّر لحظة، ثم أدار ظهره لها وكذب. «في الواقع، مجموعة كاملة منا هنا. سنجرّب هذا خمس عشرة دقيقة أخرى، ثم سنحفر نفقاً، وإذا لم ينجح ذلك فسنأكل أحدهم».

«الحمد لله أن مالكوم هنا. سأتكلم إلى مالكوم. أسرع، هلاّ فعلت؟».

«لا بأس، أنا في طريقي. إلى اللقاء يا عزيزتي، إلى اللقاء!». أنهى المكالمة. «هل بدوت ثملاً إذاً؟».

«لا، على الإطلاق».

«يجب أن نخرج من هنا حالاً».

«هذا يناسبني». نظرت في كلا الاتجاهين يائسة. «كان يجب أن نترك أثراً من فتات الخبز». جواباً لذلك، سمعا طنيناً وطقطقة، ثم انطفأ كلا المصباحين اللذين يضيئان المتاهة واحداً بعد الآخر، فغمرهما الظلام.

قال دكستر: «هذا ملائم». وقفا ساكنين لحظة حتى تلاءمت عيونهما مع العتمة. كانت الفرقة تعزف إنهم رجال المطر، وأرهفا السمع للصوت المكتوم وكأنه يدل على مكانهما.

قالت إيما: «يجب أن نعود، قبل أن تمطر السماء رجالاً».

«فكرة سديدة».

قالت إيما: «هناك خدعة، أليس كذلك؟ كما أتذكر، تضع يدك اليسرى على السور، وإذا لم تفلته تصل إلى المخرج في نهاية المطاف».

«إذاً، لنفعل هذا!». سكب آخر كأسين من قارورة الشراب، ووضع القارورة الفارغة على العشب. نزعت إيما حذاءها، ووضعت أطراف أصابعها على الوشيع، وبحرص شديد

في البداية، بدأا يسيران على طول حافة ممر الأوراق.

«إذاً، هل ستأتين؟ إلى حفل زفافي؟».

«طبعاً سأفعل. لا يمكن أن أعد بعدم إثارة الفوضى في الاحتفال».

«يجب أن أفعل أنا ذلك!». ابتسم كلاهما في الظلام ومشيا مسافة أطول.

«في الحقيقة، كنت سأطلب منك معروفاً».

«أرجوك، أرجوك لا تطلب مني أن أكون مرافقتك يا دكس».

«ليس هذا، لكنني فقط أحاول كتابة خطاب منذ وقت طويل الآن، وأتساءل إن كان بمقدورك مساعدتي؟».

«لا!». ضحكت إيما.

«لِمَ لا؟».

«أظن فحسب أنه سيكون أقل تأثيراً عاطفياً إن كتبته أنا؛ كتابة ما أشعر به حقاً».

«حسنٌ، لا أظن أن تلك فكرة سديدة. أود أن أشكر متعهّدي الطعام، وبالمناسبة أنا خائف جداً». حدّق إلى الظلام. «هل أنت واثقة أن هذا سينجح؟ يبدو أننا نمضي أكثر إلى الداخل».

«ثق بي».

«على كل حال، لا أريد أن تكتبي الخطاب كله، وإنما أن تنقّحيه...».

«آسفة، أنت وحدك في هذا». توقفا عند مفترق ثلاث طرق.

«كنا هنا بالتأكيد من قبل».

«ثق بي فحسب، سنتابع طريقنا».

تابعا السير بصمت، وفي مكان قريب سمعا الفرقة تبدأ عزف أغنية الأمير 1999، ما أثار تهليل الضيوف. قالت إيما: «عندما سمعت هذه الأغنية أول مرة، ظننت أنها ستكون من الخيال العلمي. أقصد سنة 1999. سيارات تطير وطعام على شكل أقراص وعطلات على القمر. لقد حانت السنة ولا أزال أقود فيات باندا لعينة، ولم يتغير شيء».

«باستثناء أنني سيد أسرة الآن».

«سيد أسرة. يا إلهي! ألا تخاف؟».

«أحياناً، لكنني أنظر إلى بعض الحمقى الذين استطاعوا تربية أطفال، وأقول لنفسي إذا

تمكّنت ميفي بوكانان من فعل هذا، فما مدى صعوبة الأمر؟».

«لا يمكنك اصطحاب أطفال إلى المقاهي التي تقصدها، كما تعرف. يصبح الأمر غريباً بشأن هذا النوع من الأشياء».

«لا بأس بهذا، سأتعلّم أن أحب البقاء في المنزل».

«لكن، هل أنت سعيد؟».

«نعم؟ أظن أنني كذلك، وأنت؟».

«أكثر سعادة، الأكثر سعادة على الإطلاق».

«الأكثر سعادة. حسنٌ، هذا ليس سيئاً جداً».

«هذا أقصى ما نتمناه». مرّت أطراف أصابع يدها اليسرى على سطح تمثال بدا مألوفاً، وعرفت إيما آنذاك مكانهما بالضبط. كان الانعطاف يميناً ثم يساراً سيوصلهما إلى حديقة الورود مجدداً؛ ما يعني عودتهما إلى الحفل، وإلى خطيبته وأصدقائهما، ولن يسنح لهما المزيد من الوقت ليتكلما. شعرت فجأة بحزن شديد، لذا توقفت لحظة، واستدارت وأمسكت كلتا يدي دكستر بيديها.

«هل يمكن أن أقول شيئاً؟ قبل أن نعود إلى الحفل؟».

«تفضلي».

«أنا ثملة قليلاً».

«أنا أيضاً، لا بأس بهذا».

«فقط... اشتقت إليك، كما تعرف».

«أنا اشتقت إليك أيضاً».

«لكن كثيراً يا دكستر. كانت هناك أشياء كثيرة أردت أن أتكلم معك بشأنها، ولم تكن موجوداً...».

«الأمر نفسه بالنسبة إلي».

«وأشعر بالذنب قليلاً؛ وكأنني هربت بعيداً».

«حقاً! لم أُلق اللوم عليك. انقضت أوقات كنت فيها... بغيضاً قليلاً».

«أكثر من قليلاً، كنت كريهاً جداً».

«أعرف -».

«وأنانياً ومغروراً ومملاً في الواقع».
«نعم، لقد أوضحت تلك النقطة –».
«لكن رغم هذا، كان يجب أن أبقى معك، بسبب ما حصل مع أمك وكل شيء...».
«هذا ليس عذراً».
«حسنٌ، لا. لكن، كان بمقدوري أن أساعدك».
«لا أزال أحتفظ بتلك الرسالة التي كتبتها. إنها رسالة جميلة جداً، وأقدّرها حقاً».
«لكن، على الرغم من ذلك، كان يجب أن أحاول الاتصال بك. كان ينبغي أن يبقى أصدقاؤك إلى جانبك، أليس كذلك؟ ليساعدوك على تحمّل الصدمة».
«لا ألومك».
«لكن على الرغم من ذلك». ولإحراجها، شعرت أن هناك دموعاً في عينيها.
«مهلاً، مهلاً، ما الأمر يا إم؟».
«أنا آسفة، شربت كثيراً...».
«تعالي إلى هنا». وضع ذراعيه حولها، ووجهه على جلد عنقها المكشوف، وشمَّ رائحة الشامبو والحرير الرطب، وتنفّست قرب عنقه، فشمّت رائحة العطر والعرق والشراب، ورائحة بزّته، ووقفا على تلك الحال لبعض الوقت حتى التقطت أنفاسها وتكلمت.
«سأخبرك ما الأمر. إنه... عندما لم أكن أراك، فكّرت فيك كل يوم، أعني كل يوم بطريقة أو بأخرى».
«وأنا كذلك».
«... حتى لو كان ذلك أتمنى لو استطاع دكستر رؤية هذا أو أين دكستر الآن؟ أو يا للهول، دكستر ذاك، يا له من أحمق، تعرف ما أعنيه. ورؤيتك اليوم، حسنٌ، ظننت أنني سأستعيدك... صديقي الحميم. والآن، كل هذا؛ الزفاف، الطفل... أنا سعيدة جداً من أجلك يا دكس، لكنني أشعر أنني قد خسرتك مجدداً».
«خسرتني! كيف؟».
«تعرف ما يحدث عادة. ستكون لديك أسرة، ومسؤولياتك ستتغير، وستفقد تواصلك بالناس...».

«ليس بالضرورة».
«لا، حقاً، يحدث هذا دائماً، أعرف ذلك. ستكون لديك أولويات مختلفة، وكل هؤلاء الأصدقاء الجدد، المتزوجين حديثاً ستلتقي بهم في صفوف ما قبل الولادة، وسترزقون بأطفال أيضاً، أو ستكون متعباً؛ لأنك بقيت مستيقظاً طوال الليل».
«في الواقع، سننجب أحد هؤلاء الأطفال ولن يسبب ذلك مشكلة كبيرة. سنتركه في غرفة بمفرده، مع أداة فتح علب، وموقد غاز صغير». استطاع أن يشعر بضحكتها على صدره، وفي تلك اللحظة فكّر أنه لا شعور أفضل من جعل إيما مورلي تضحك. «لن يكون الأمر على تلك الحال، أعدك».
«حقاً؟».
«بالتأكيد».
ابتعدت عنه لتنظر إليه. «هل تقسم؟ لا مزيد من الاختفاء؟».
«لن أفعل إذا لم تفعلي».
تماست شفاههما آنذاك، وهما يزمانها بإحكام، وعيونهما مفتوحة، وكلاهما متسمران في مكانيهما. استمرت اللحظة بنوعٍ من الارتباك.
قالت إيما وهي تبعد رأسها بفزع: «ما الوقت؟».
شدَّ دكستر ردن قميصه ونظر إلى ساعته. «قبل منتصف الليل بقليل».
«حسنٌ! يجب أن نذهب».
مشيا بصمت، غير واثقين بما قد حدث وما سيحدث آتياً. أوصلهما منعطفان آخران مرة أخرى إلى مخرج المتاهة، وعادا إلى الحفل. كانت إيما على وشك أن تفتح باب السنديان الثقيل حين أمسك يدها.
«إم».
«دكس».
أراد أن يمسك يدها بإحكام ويعيدها إلى المتاهة. كان سيغلق هاتفه، وسيبقيان هناك حتى ينتهي الحفل، يضيعان ويتكلمان عن كل ما حدث.
قال أخيراً: «هل نحن صديقان مجدداً؟».
«صديقان مجدداً». أفلتت يده. «الآن، لنذهب ونعثر على خطيبتك. أريد أن أهنئها».

الفصل الرابع عشر

الأبوة

السبت 15 تموز 2000

ريتشموند، سورري

ياسمين أليسون فيولا ميهو.

ولدت في وقت متأخر من مساء اليوم الثالث من الألفية الجديدة، ولذا سيرتبط عمرها دائماً بالقرن. إنها نحيلة لكنّ صحتها جيدة ويبلغ وزنها 6 أرطال و6 أوقيات. وبدت جميلة لدكستر على نحو لا يمكن التعبير عنه، وعرف أنه سيضحي بحياته من أجلها، وشعر في الوقت نفسه بثقة كبيرة بأن الوضع لن يسوء على الأرجح.

تلك الليلة، فيما كان جالساً على مقعد مستشفى بلاستيكي منخفض، يمسك الحزمة التي تضم الطفلة الصغيرة قرمزية الوجه، اتخذ دكستر ميهو قراراً جاداً. عقد العزم على القيام بالأمر الصائب منذ ذلك الوقت فصاعداً. سيضع كل حاجاته الخاصة جانباً، وستصبح كل كلماته وأفعاله آنذاك ملائمة لسمع ابنته وبصرها، سيعيش الحياة وكأنه معرض لفحص ياسمين الدائم. لن يفعل أبداً شيئاً يسبب لها الألم أو القلق أو الإحراج، ولن يكون هناك شيء في حياته يخجل منه بعد ذلك الوقت، لا شيء على الإطلاق.

صمد هذا القرار الجاد نحو خمس وتسعين دقيقة تقريباً. عندما جلس على كرسي المرحاض، محاولاً زفر دخان لفافة التبغ في قارورة شراب فارغة، أفلتت منه كمية صغيرة وأطلقت جهاز الإنذار، ما أيقظ زوجته المرهقة وابنته من نوم تحتاجان إليه. ولدى خروجه من الحمام، كان لا يزال يمسك القارورة منزوعة الغطاء والمملوءة دخاناً رمادياً مصفرّاً. عرف من نظرة زوجته المتعبة، وعينيها الضيقتين كل شيء: لم يكن دكستر ميهو ببساطة مؤهلاً لذلك.

كان النفور المتزايد بينهما قد تفاقم بحقيقة أنه وجد نفسه، مع بداية القرن، من دون وظيفة أو حتى احتمال حصوله على عمل. كان توقيت عرض رياضات متطرفة قد انزلق بثبات نحو الفجر، حتى أصبح واضحاً أن لا أحد يمكن أن يبقى مستيقظاً إلى ذلك الوقت المتأخر؛ بمن فيهم سائقو الدراجات الجبلية، بغض النظر عن جمال الحركات أو حرفيتها أو صعوبتها. ترنّحت السلسلة حتى توقفت تماماً وطالت «إجازة الأبوة» لتتحول إلى حالة غير

مألوفة من البطالة.

شتّت انتباهه مؤقتاً عن تلك الحال انتقالهم إلى منزل جديد. وبعد مقاومة كبيرة أُجّرت شقة العازب في متنزه بلسايز مقابل مبلغ شهري كبير، واستُبدل بها منزلٌ آخر في ريتشموند، قيل له إنه في منطقة زاخرة بالخدمات. احتج دكستر، وقال إنه يافع على الانتقال إلى سورري بعمر الخامسة والثلاثين تقريباً، لكن لم يكن هناك مجال للجدال مع نوعية الحياة، والمدارس الجيدة، ووسائل النقل، والغزلان التي تتجول في المتنزه. كان المكان قريباً من والديها، والتوأم يعيشان بجانبها؛ لذا وقع الاختيار على سورري. وفي أيار كانا قد بدأا المهمة المكلفة المتواصلة بتنظيف كل سطح خشبي بالرمل والعمل على كل جدار غير مدعّم. ذهبت سيارة المازدا الرياضية أيضاً، وضحّى بها مقابل مركبة أسرية مستعملة تفوح منها رائحة قيء أفراد الأسرة السابقة.

كانت سنة مهمة جداً لأسرة ميهو، إلا أن دكستر وجد أنه لا يستمتع ببناء عش الزوجية كما كان يظن. لقد تخيل الحياة الأسرية كنوع من دعاية بناء مجتمع طويلة: ثنائي شاب جذّاب يرتدي كل منهما سروالاً، ويحمل فرشاةً طلاء في يد، ويخرجان أوانيَ فخارية من صندوق شاي قديم، ويرتميان على أريكة عتيقة كبيرة. تخيّل إخراج كلاب شعثة إلى المتنزه ووجبات ليلية مجهدة لكنها مفرحة. في مرحلة ما في المستقبل القريب، ستكون هناك أحواض سباحة حجرية، ونيران على الشاطئ، وأسماك تُشوى على الحطب. سيبدع ألعاباً مبتكرة ويرتّب الرفوف، وسترتدي سيلفي قمصانه القديمة فوق ساقين عاريتين. ملابس محبوكة بالصنارة؛ سيرتدي الكثير من الثياب المحبوكة بالصنارة ويقدم لأسرته مستلزمات العيش.

لكنْ بدلاً من ذلك، كانت هناك نظرات خصام ولوم وتجهم عبر الضباب الرقيق من غبار الجص. بدأت سيلفي تقضي مزيداً من الوقت في منزل والديها، ظاهرياً لتتفادى عاملي البناء، لكن غالباً للابتعاد عن زوجها الكسول الذي لا يقوم بعمل مجْدٍ. أحياناً كانت تتصل به لتقترح أن يذهب ويرى صديقهما كالوم، بارون جراد البحر، وأن يقبل عرض العمل الذي قدّمه له، لكن دكستر رفض، وقال إن مهنته في تقديم البرامج قد تشهد تحولاً إيجابياً مجدداً، وإنه قد يعثر على عمل: كمنتج، أو ربما سيتمرن على التصوير، أو كمحرر. في تلك الأثناء يمكنه أن يساعد البناة ويخفض تكاليف العمالة، وهكذا بدأ يحضّر الشاي ويجلب البسكويت، وينتقي سائل التلميع، ويلعب بلي - ستيشن ليغفل عن

الصوت المدوّي لضرب الأرضية بالرمل.

كان قد تساءل مرة عمّا حدث لكل الأشخاص القدامى في صناعة التلفاز، وحصل على الجواب آنذاك. كان المحررون والمصورون المتمرنون في الرابعة والعشرين أو الخامسة والعشرين من العمر. وهو لا يمتلك أي خبرة في الإنتاج، ولم تعد مايهم للإنتاج التلفازي، شركته المستقلة، شركة بالمعنى الكامل، وإنما مجرد حجة لخموله. في نهاية السنة الضريبية، صُفّيت الشركة رسمياً لتفادي تراكم التكاليف، ووُضعت عشرون علبة من الورق المزخرف على نحو متفائل في العلية. سطعت بقعة ضوء وحيدة في تلك الظلمة من قضاء وقت مع إيما مجدداً، والذهاب إلى الأفلام في حين يجب أن يتعلم العمل بالجص مع جيرزي وليتش. لكن ذلك الشعور الكئيب؛ لدى الخروج من دار عرض إلى ضوء الشمس أصيل أيام الثلاثاء، قد أصبح لا يحتمل. ماذا عن العهد بأن يكون أباً مثالياً؟ كانت لديه مسؤوليات آنذاك، وفي بداية حزيران استسلم أخيراً وذهب لرؤية كالوم أونيل وانضم إلى أسرة «الغذاء الطبيعي».

وهكذا، في احتفال سان سويذن ذاك، وجد دكستر ميهو نفسه يرتدي قميصاً بنياً قصير الردنين وربطة عنق بلون الفطر، ويشرف على تسليم الطلبية اليومية الضخمة من الجرجير إلى الفرع الجديد في محطة فكتوريا. عدَّ صناديق المادة الخضراء في حين وقف السائق بجانبه وهو يحمل لوح كتابة، ويحدّق إليه بوضوح. وعرف دكستر فطرياً ما سيأتي لاحقاً.

«أَلم تكن تظهر على التلفاز؟».

وهكذا بدأ الأمر...

ردّ بفتور: «في غابر الزمان».

«ماذا كان يدعى؟ كبّره أو شيئاً مماثلاً؟».

لا ترفع بصرك.

«كان ذلك أحدها. إذاً، هل أوقّع على هذا الوصل أم ماذا؟».

«وكنت تخرج مع سوكي ميدوز؟».

ابتسم، ابتسم، ابتسم.

«كما قلت كان ذلك منذ وقت طويل. صندوق واحد، اثنان، ثلاثة –».

«إنها في كل مكان هذه الأيام، أليس كذلك؟».

«ستة، سبعة، ثمانية –».
«إنها رائعة».
«إنها لطيفة جداً. تسعة، عشرة».
«كيف كان الأمر آنذاك؛ أعني الخروج معها؟».
«صاخباً».
«إذاً، ماذا حدث لك؟».
«الحياة، هذا ما حدث». أخذ لوح الكتابة منه. «أنا أوقّع هنا، صحيح؟».
«هذا صحيح، توقّع هنا».
وقّع دكستر الفاتورة، ووضع يده على أعلى صندوق، وأخرج حفنة من الجرجير وتوثّق من أنها طازجة. «الجرجير خس الجبل الجليدي دو نو جور» كما يحلو لكالوم أن يقول، لكن دكستر يجده مراً.

توجد مكاتب الإدارة الرئيسة لشركة «الغذاء الطبيعي» في مستودعٍ في كليركنويل. وهي جديدة ونظيفة وعصرية، مع آلات عصر الفاكهة، وأكياس الفستق، والمراحيض المشتركة، وإنترنت عالي السرعة، وألعاب كرة، ودبابيس؛ ولوحات زيتية ضخمة لأبقار ودجاج وجراد بحر معلّقة على الجدران. يبدو المقر مزيجاً من مكان عمل وغرفة نوم مراهق، ولم يصنّفه المهندسون على أنه مكتب، وإنما «مساحة أحلام» في هلفتيكا. لكن، قبل أن يُسمح لدكستر بالانتقال إلى مساحة الأحلام، يجب أن يكتسب خبرة ملائمة. فقد كان كالوم مهتماً جداً بأن يلطخ كل مديريه أيديهم، لذا فإن دكستر في دورة تدريبية مدتها شهر، ويعمل بوصفه مديرَ ظل لآخر معاقل الإمبراطورية. في الأسابيع الثلاثة الأخيرة كان قد نظّف آلات عصر الفاكهة، واعتمر شبكة شعر لتحضير الشطائر، وجهّز القهوة، وخدم الزبائن، ولدهشته لم يمتعض من ذلك، فهذا بالمحصلة هو كل شيء؛ فالعمل هو الناس، كما يحب كالوم أن يقول.

أسوأ شيء بشأن العمل هو تعرّف الآخرين إليه، ونظرة الشفقة العابرة تلك التي تظهر على وجه الزبون حين يرى مذيعاً تلفازياً سابقاً يقدم الحساء، والأشخاص في منتصف العقد الثالث، هم الأسوأ. كان تمتع المرء بالشهرة، مجرد شيء منها، ثم فقدانها، والتقدم في العمر، وربما زيادة قليلة في الوزن نوعاً من حياة الموت. لذا، حدّقوا إلى دكستر خلف أداة تسجيل النقد كما يحدّق المرء إلى سجين مقيد بسلاسل. يقولون أحياناً: «تبدو أصغر في

الحياة الحقيقية». وهذا صحيح، فهو يشعر بأنه أصغر حجماً آنذاك. أراد أن يقول وهو يغرف من وعاء حساء العدس بسخاء: «لكن، لا بأس بهذا، أنا بخير، وأشعر بالسكينة. أحب العمل هنا، وهو مؤقت فقط. أتعلم عملاً جديداً، وأقدّم ما يلزم لأسرتي. هل تودون بعض الخبز مع هذا؟ أسمر أم أبيض؟».

تستمر مناوبة الصباح في «الغذاء الطبيعي» من 6:30 صباحاً إلى 4:30 مساءً، وبعد تسليم النقود، ينضم إلى متسوقي السبت على متن القطار إلى ريتشموند، ثم يسير عشرين دقيقة مملة للعودة إلى صف المنازل الفيكتورية التي تبدو جميعها من الداخل أكبر كثيراً مما تظهر عليه من الخارج، إلى أن يصل إلى بيته في بناء كوليك. عندما يمشي على درب الحديقة (هناك درب حديقة! كيف حدث ذلك؟)، يرى جيرزي وليتش يغلقان الباب الأمامي، فيتبنّى نبرة لطيفة ولهجة سكان لندن الإلزامية لدى التكلم إلى العاملَين؛ حتى لو كانا بولنديين أيضاً.

«سزيسك! جاك سي ماسز؟».

قال ليتش، وهو يجاريه في الكلام: «مساء الخير يا دكستر».

«السيدة ميهو، هل هي في المنزل؟». كان عليه أن يبدل الجمل هكذا، فهذه هي القاعدة.

«نعم، إنها في المنزل».

أخفض صوته. «اليوم، كيف الحال؟».

«متعبين... قليلاً، كما أظن».

عبس دكستر وحبس أنفاسه على نحو هزلي. «إذاً، هل يجب أن أقلق؟».

«قليلاً، ربما».

«إليكما». مدَّ دكستر يده إلى جيبه الداخلي، وأعطاهما لوحي شوفان-تمر-عسل جاء بهما من «الغذاء الطبيعي». «إنهما مسروقان. لا تخبرا أحداً، هل فهمتما؟».

«لا بأس يا دكستر».

«دو ويدزينا». صعد الدرجات إلى الباب الأمامي وأخرج مفاتيحه. كان يعرف أن هناك فرصة كبيرة لوجود شخص يبكي في مكان ما من المنزل. أحياناً يبدو الأمر وكأن لديهم محكمة عليا.

كانت ياسمين أليسون فيولا ميهو تنتظر في المدخل، وتجلس غير ثابتة على ملاءات الغبار البلاستيكية التي تحمي ألواح الأرضية المنتزعة من مكانها حديثاً. إنها فتاة صغيرة، ملامحها مثالية وسط وجه بيضاوي. وهي نسخة مصغّرة عن والدتها، ومرة أخرى انتابه ذلك الشعور بالحب الشديد الممزوج بالرعب المذل.

قال وهو يحملها إلى الأعلى، ويداه تحيطان ببطنها، ويرفعها فوق رأسه: «مرحباً ياس، آسف لأنني تأخرت. كيف كان يومك يا ياس؟».

سمع صوتاً من غرفة المعيشة. «»أتمنى ألا تناديها بهذا الاسم. إنها ياسمين، وليست ياس». كانت سيلفي تستلقي على الملاءة التي تغطي الأريكة، تقرأ مجلة. «ياس ميهو بغيضة. يجعلها ذلك تبدو مثل عازفة سكسافون في فرقة فتيات كئيبة. ياس».

وضع ابنته على كتفه ووقف في المدخل. «حسنٌ، إذا كنت ستسمّينها ياسمين، فستُدعى ياس».

«»أنا لم أسمّها، نحن سمّيناها. وكنت أعرف أن هذا سيحدث، لكنني أقول فقط إنني لا أحبه».

«لا بأس، سأغيّر تماماً الطريقة التي أتكلم بها إلى ابنتي».

«جيد، أود ذلك».

وقف عند نهاية الأريكة، ينظر إلى ساعته على نحو مبالغ فيه، ويفكّر: رقم عالمي جديد! لقد وصلت إلى المنزل، ماذا، قضيت خمساً وأربعين ثانية وقد فعلت شيئاً خاطئاً! كانت الملحوظة مزيجاً ملائماً تماماً من الإشفاق على الذات والعدائية، وهو يحب ذلك، وأوشك أن يقوله بصوتٍ عالٍ، حين جلست سيلفي وعبست، وعيناها مغرورقتان بالدموع، وهي تطوي ركبتيها إلى صدرها.

«أنا آسفة يا عزيزي، فقد قضيت يوماً مريعاً».

«ما الأمر؟».

«إنها لا تريد أن تنام أبداً. بقيت مستيقظة طوال اليوم، كل دقيقة منذ الخامسة صباحاً».

وضع دكستر قبضته على ردفه. «حسنٌ يا عزيزتي، لو أنك أعطيتها قهوة منزوعة الكافيين، كما أخبرتك...». لكن ذلك النوع من المزاح لم يكن مناسباً لدكستر، وسيلفي لم تبتسم.

«كانت تبكي وتئن طوال اليوم. والجو حار في الخارج، وممل جداً في الداخل، مع قيام جيرزي وليتش بطرق المسامير، ولا أعرف، أنا محبطة فحسب، هذا كل شيء». جلس، ووضع ذراعيه حولها، وقبّل جبينها. «أقسم، إذا اضطررت إلى السير حول المتنزه اللعين مجدداً فسأصرخ».

«لن يطول الأمر».

«أمشي حول البحيرة طويلاً حتى أصل إلى المراجيح ثم أعود حول البحيرة مجدداً. هل تعرف أفضل ما حدث في يومي؟ ظننت أن الحفاضات ستنفد، وأنني سأضطر إلى الذهاب إلى ويتروز للحصول على بعضها، ثم وجدت بعض الحفاضات. عثرت على أربعة حفاضات وسررت كثيراً».

«ستعودين إلى العمل الشهر القادم».

«الحمد لله!». مالت، ووضعت رأسها على كتفه وتنهّدت. «ربما ينبغي ألا أذهب الليلة».

«لا، يجب أن تذهبي! كنت تتطلعين قدماً إلى هذا منذ أسابيع!».

«مزاجي ليس ملائماً حقاً لهذا؛ ليلة الزوجات. أنا أكبر من المشاركة في ليالي الزوجات».

«هراء».

«وأشعر بالقلق».

«القلق بشأن ماذا؟ بشأني؟».

«تركك وحدك».

«حسنٌ، عمري خمسة وثلاثون عاماً يا سيلفي، وقد بقيت في المنزل بمفردي من قبل. وعلى كل حال، لن أكون وحدي، لدي ياس لتعتني بي. سنكون كلانا بخير، أليس كذلك يا ياس؟ أعني ياسمين».

«هل أنت واثق؟».

«بالتأكيد». إنها لا تثق بي، كما فكّر، تظن أنني سأشرب، لكنني لن أفعل. لا، لن أفعل.

كانت ليلة الزوجات من أجل ريتشل؛ الفتاة الأكثر نحافة وإحباطاً من بين صديقات

زوجته. وقد استأجرن جناحاً فندقياً ليقضين الليلة فيه، وفيه نادل مشروبات وسيم يستفدن منه كما يردن. سيارة ليموزين، مطعم، طاولة في نادٍ ليلي، إفطار في اليوم الآتي؛ خططن لكل ذلك عبر سلسلة من الرسائل الإلكترونية لضمان انعدام احتمال أي عفوية أو بهجة. لن تعود سيلفي حتى عصر اليوم الآتي، وسيجد دكستر نفسه لأول مرة مسؤولاً عن المنزل فجأة. وقفت في الحمام تتبرّج، وتراقبه حين جثا ليغسل ياسمين.

«ضعها في السرير عند الثامنة تقريباً، اتفقنا؟ أي بعد أربعين دقيقة».

«حسنٌ».

«يوجد الكثير من الأغذية، وقد حضّرت حساء الخضار». خضار! ذلك مزعج، الطريقة التي قالت بها خضار. «إنه في الثلاجة».

«الخضار في الثلاجة، أعرف هذا».

«إذا لم تحبه، فهناك بعض مرطبانات الطعام الجاهز في الخزانة، لكنها من أجل الطوارئ فقط».

«وماذا عن رقائق البطاطا؟ يمكنني إطعامها رقائق بطاطا، أليس كذلك؟ إذا قمت بإزالة الملح...».

طقطقت سيلفي بلسانها، وهزّت رأسها، ووضعت أحمر شفاه على شفتيها. «أمسك رأسها».

«وبندق مملح؟ إنها كبيرة كفاية، أليس كذلك؟ وعاء صغير من الفستق؟». استدار لينظر إليها من فوق كتفه على أمل أن تكون مبتسمة، ووجِل، كما يحدث معه غالباً، من جمالها. كانت ملابسها بسيطة لكنها أنيقة، وترتدي فستاناً أسود قصيراً وحذاء عالي الكعب، وشعرها لا يزال رطباً من الحمام. أخرج يداً من تحت الماء، وأمسك ساق زوجته السمراء. «تبدين مدهشة، بالمناسبة».

«يداك رطبتان». أدارت ساقها بعيداً عنه. لم يكونا قد أقاما علاقة منذ ستة أسابيع آنذاك، وقد توقع بروداً ونزقاً معيناً بعد الولادة. لكن، مرّ بعض الوقت، وأحياناً ترمقه بنظرة، نظرة... لا، ليست ازدراء، لكن...

قال: «أتمنى لو تعودين الليلة».

... خيبة أمل. تلك هي الكلمة؛ خيبة أمل.

«انتبه لياسمين. أسند رأسها!».

قال بحدّة: «أعرف ما أفعله! بحق الله!».

ورآها مجدداً، تلك النظرة. لم يكن هناك شك فيها، ولو أن سيلفي لديها وصل، لكانت قد استعادته آنذاك. ذلك كله خطأ، إنه ليس ما أردته.

رنَّ جرس الباب.

«هذه سيارة الأجرة. عند الضرورة، اتصل بهاتفي الخلوي، وليس الفندق، اتفقنا؟». وزمّت شفتيها ووضعتهما على أعلى رأس دكستر، ثم انحنت إلى حوض الاستحمام، وقبّلت ابنتها القبلة العادية نفسها. «تصبحين على خير يا غاليتي. اعتني بأبيك من أجلي...». عبست ياسمين وزمّت شفتيها، وعندما غادرت والدتها الحمام، بدا الرعب في عينيها. رأى دكستر ذلك وضحك، وهمس: «إلى أين تذهبين يا أمي؟ لا تتركيني مع هذا الأحمق!». في الأسفل، أُغلق الباب الأمامي أخيراً، وغادرت سيلفي المكان فبقي وحده، وأضحى حراً في نهاية المطاف ليقوم بسلسلة كاملة من الأفعال الحمقاء.

بدأ كل شيء مع التلفاز في المطبخ. كانت ياسمين تصرخ آنذاك في حين يكافح دكستر لتثبيتها إلى المقعد العالي. ورغم أنها تفعل ذلك بهدوء مع سيلفي، إلا أنها شرعت تتحرك وتصيح؛ وهي تبدو كحزمة مدمجة من العضلات والضوضاء، وتتلوّى بقوة مدهشة. ومن دون سبب واضح، وجد دكستر نفسه يفكّر: تعلّمي الكلام، هلاّ فعلت. تعلّمي بعض الكلمات اللعينة وأخبريني عن الخطأ الذي اقترفته. كم سيطول الوقت حتى تتكلم؟ سنة؟ ثمانية عشر شهراً؟ ذلك جنوني وخطأ سخيف؛ رفض إتقان الكلام حين تبرز الحاجة إليه. يجب أن يولدوا وهم يتكلمون، ليس حديثاً، وإنما أجوبة سريعة، ومعلومات عملية أساسية. أبي، أعاني تطبّلَ البطن. هذا النشاط يرهقني. أنا مصابة بالمغص.

أخيراً، جلست على الكرسي وهي تصرخ وتئن بالتناوب آنذاك، ووضع ملعقة طعام في فمها حين استطاع، وتوقف بين الحين والآخر لمسح بقايا الحساء بطرف الملعقة؛ وكأنه رغوة حلاقة. وعلى أمل تهدئتها شغّل التلفاز المحمول الصغير على النضد، الذي ترفض سيلفي وجوده هناك. ولأنه وقت ذروة المشاهدة يوم السبت، رأى وجه سوكي ميدوز يطل عليه من الشاشة، في بث مباشر من مركز تلفازي حيث تجأر بنتائج اليانصيب لأمة تنتظر. شعر بمعدته تتقلص بنوبة حسد صغيرة، ثم استهجن ذلك وهزَّ رأسه، وأوشك أن يغير القناة حين لاحظ أن ياسمين صامتة ولا تتحرك، مفتونة بحبيبته السابقة التي تصرخ «هيا».

«انظري يا ياسمين، إنها حبيبة والدك السابقة! أليست صاخبة؟ أليست فتاة صاخبة

جداً؟».

أضحت سوكي ثرية آنذاك وشهيرة جداً ومحبوبة من قبل الجمهور. وعلى الرغم من أنهما لم يتفقا مطلقاً ولم يكن بينهما شيء مشترك، إلا أنه شعر بالاشتياق إلى حبيبته القديمة، وسنوات الإثارة في أواخر العقد الثاني من عمره حين كانت صوره تظهر في الصحف. ماذا تفعل سوكي هذه الليلة؟ تساءل. قال بصوتٍ عالٍ: «ربما كان على أبي أن يبقى معها». وعاد بتفكيره إلى ليالي السيارات السوداء وحفلات الشراب، ومشارب الفنادق، وقناطر السكك الحديدية، والسنوات التي سبقت قضاءه أيام السبت وهو يضع شبكة شعر ويملأ منتجات البحر المتوسط.

بدأت ياسمين تبكي مجدداً آنذاك؛ لأنها وضعت بطريقة ما بطاطا حلوة في عينها، وعندما مسحها شعر بحاجة ملحّة إلى لفافة تبغ. لماذا لا يمكنه ذلك بعد اليوم الذي قضاه؟ لماذا لا يدلل نفسه؟ كان ظهره يؤلمه، ولصوق أزرق يتقشّر من إبهامه، وتفوح من أصابعه رائحة جراد بحر وقهوة قديمة، وقرر أن يستمتع بوقته، وأنه بحاجة إلى القليل من النيكوتين.

بعد دقيقتين أحكم تثبيت محمل الطفلة على صدره، وشعر بإثارة الثقة بالنفس من الأحزمة والمشابك؛ وكأنه يحمل حزمة قيّمة. حشر ياسمين التي كانت تصرخ في المقدمة، ثم انطلق عاقد العزم على طول الشارع الطويل الذي تصطف أشجار على جانبيه إلى تلك المجموعة الصغيرة من المتاجر. تساءل عن كيفية وصوله إلى هناك، إلى متاجر تسوق في سورري في ليلة سبت. إنها ليست حتى منطقة راقية من ريتشموند، إنما مجرد ضاحية، فكّر مرة أخرى في سوكي، تخرج إلى مكان ما في البلدة مع صديقاتها الحسناوات. ربما سيتصل بها بعد أن تنام ياسمين، فقط ليسلّم عليها. تناول شراباً، واتصل بحبيبة قديمة؛ لم لا؟

عند الدكان، شعر بحدس غريب حين فتح الباب وواجه فوراً جداراً كبيراً عالياً من المشروبات. منذ الحمل طُبّقت سياسة عدم الاحتفاظ بقوارير الشراب في المنزل لمنع احتساء الشراب المعتاد كل يوم. قالت سيلفي: «لقد سئمت الجلوس على الأريكة ليلة الثلاثاء، في حين تثمل وحدك». وعدَّ هذا تحدّياً فأقلع عن الشراب، تقريباً. لكنه وجد نفسه آنذاك في دكان مشروبات، وهناك أشياء رائعة فيه تبدو كلها مغرية، وسيكون سخيفاً ألا ينتهز الفرصة. هناك شراب شعير، وشراب أبيض، وآخر أحمر، نظر إليها كلها واشترى قارورتين من الشراب الجيد، حتى لا يخاطر كثيراً، وعشرين لفافة تبغ، ثم، لمَ لا، ذهب إلى المطعم التايلندي للوجبات السريعة.

سرعان ما غربت الشمس، وغطّت ياسمين في النوم على صدره حين مشى بنشاط في الشوارع الهادئة إلى المنزل الصغير الأنيق الذي سيبدو رائعاً حين ينتهي. ذهب إلى المطبخ، ومن دون أن يحرك الطفلة النائمة في الشبكة، فتح القارورة وسكب كأساً، وكوّر ذراعيه على نحو أخرق حول الحزمة مثل راقص باليه. نظر إلى الكأس، ثم تجرّع الشراب كله وفكّر: سيكون الامتناع عن الشراب أسهل لو لم يكن لذيذاً جداً. أغمض عينيه، واستند إلى النضد حين زال التوتر من كتفيه. كان هناك وقت يتناول فيه الشراب كمنبّه؛ شيء يرفع معنوياته ويمنحه طاقة. لكنه يشرب آنذاك كما يشرب كل الآباء، على أنه نوع من عقار مسكن في بداية المساء. شعر بسكينة، ووضع الطفلة النائمة في مأوى صغير من الوسائد على الأريكة ودخل الحديقة الصغيرة: سلك غسيل دائري محاط بألواح خشبية وأكياس إسمنت. أبقى محمل الطفلة معلقاً به، وتركه يتدلى مثل قراب مسدس حتى بدا مثل شرطي خارج أوقات الدوام، من قسم جرائم القتل، رومانسي منهك مزاجي لكن خطر، يعمل في وظيفة إضافية ليلاً ولا يتولى رعاية الأطفال في سوروري إلا قليلاً. كل ما يحتاج إليه لجعل الانطباع كاملاً هو لفافة تبغ، وهذه أول لفافة يدخّنها منذ أسبوعين، فأشعلها بوقار، مستمتعاً بذلك المذاق الأول الشهي، ومجَّ بقوة حتى سمع التبغ يطقطق. احترقت الأوراق والمشتقات النفطية، وبدا مذاقها من 1995.

توقف ذهنه تدريجياً عن التفكير في العمل، وشطائر الفلافل وقطع الشوفان، وبدأ يشعر بالأمل في الأمسية؛ ربما سينعم بتلك الحالة الهادئة من الخمول التي تمثّل السعادة القصوى لوالد مرهق. دفع العقب عميقاً في كومة الرمل، وأمسك ياسمين، وصعد السلالم على أطراف قدميه إلى غرفتها، وأغلق مصاريع النوافذ. ومثل لص يتقن سرقة الخزنات، سيغير حفاضها من دون أن يوقظها.

عندما وضعها على حصيرة تغيير الحفاضات استيقظت وبدأت تبكي مجدداً؛ ذلك البكاء المريع والمثير للأعصاب. تنفّس من فمه، وغيّر حفاضها بسرعة وكفاءة قدر استطاعته.

على الرغم من ذلك، لا تريد أن يدخل تحت أظفار أصابعك. ومع تناول الطفلة أغذية مختلفة ومواد قاسية أصبح برازها من دون جدال يتخذ قواماً أكثر صلابة. كانت ياسمين الصغيرة قد أخرجت ما يبدو أنه نصف رطل من زبدة الفستق التي استطاعت بطريقة ما أن تلطخ بها مؤخرتها. ولأنه يشعر بالدوار قليلاً لتناوله الشراب ومعدته فارغة، كشطه ونظّفه

بأفضل ما يستطيع بنصف علبة من حفاضات الأطفال، وعندما نفدت تلك الأشياء، استخدم حافة بطاقة حافلة يومية. جمع الكومة التي لا تزال رطبة في كيس حفاضات تفوح منه رائحة كيميائية، وألقاها في صندوق القمامة، ولاحظ بقرف أن هناك أثراً على الغطاء. استمرت ياسمين تبكي، وعندما أصبحت أخيراً نظيفة رفعها إلى الأعلى ووضعها على كتفه، ووثب على أطراف أصابع قدميه حتى آلمته ساقاه، فهدأت على نحو غريب مجدداً.

ذهب إلى المهد ووضعها فيه، فبدأت تصرخ. رفعها، فصمتت. وضعها في الأسفل، صرخت. أدرك نمط سلوكها، لكنه بدا غير منطقي، وخطأ كبير منها أن تطلب ذلك في حين يبرد العجين بالخضار، وقارورة الشراب مفتوحة، وتفوح من تلك الغرفة الصغيرة رائحة براز حار وقوية. كانت عبارة «حب غير مشروط» قد جالت كثيراً في ذهنه، لكنه شعر آنذاك أنها تفرض بعض الشروط. «هيا يا ياس، كوني منصفة ولطيفة. والدك مستيقظ منذ الخامسة، تذكري هذا؟». هدأت مرة أخرى، وأنفاسها دافئة وثابتة على عنقه، وحاول مرة أخرى أن يضعها في المهد، وفعل ذلك ببطء، على نحو راقص سخيف، ونقلها من دون أن تحس من الوضع العمودي إلى الأفقي. كان لا يزال يضع محمل الطفلة، وتخيل نفسه آنذاك كخبير تفكيك قنابل؛ بهدوء، بهدوء، بهدوء.

بدأت تبكي مجدداً.

أغلق الباب رغم ذلك وهرول إلى الأسفل. يجب أن يكون قاسياً، ومتحجر القلب، فهذا ما تقوله الكتب. لو كانت تعرف بعض الكلمات، لاستطاع أن يشرح لها: ياسمين، من الضروري أن نحظى كلانا بوقت خاص. تناول الطعام أمام التلفاز، لكن فاجأته مرة أخرى صعوبة أن يتجاهل طفلة تبكي. يدعون ذلك السيطرة على البكاء، لكنه فقد السيطرة ويريد أن يصرخ، وبدأ يشعر بسخط فيكتوري نحو زوجته. أي أم تفتقر إلى المسؤولية تترك طفلة مع والدها؟ كيف تجرؤ على ذلك؟ رفع صوت التلفاز وذهب ليسكب كأساً آخر من الشراب، لكنه تفاجأ حين وجد القارورة فارغة.

لا يهم، ليست هناك مشكلة أبوّة في العالم لا يمكن حلّها بإلقاء حليب عليها. حضّر وجبة أخرى، ثم صعد السلالم، وهو يشعر بدوار في رأسه، والدم ينبض في أذنيه. انفرجت أسارير الوجه الصغير الغاضب حين وضع قارورة الحليب بين يديها، لكنها بدأت تصرخ مجدداً، بنحيب حادّ، ورأى أنه قد نسي إغلاق غطاء القارورة فسال الحليب الدافئ آنذاك منها وبلل كسوة السرير، والفراش، وأصبح في عينيها وعلى أنفها، وهي تصرخ آنذاك

بصوت ثاقب. ولماذا يجب ألا تصرخ بعد أن دخل أبوها غرفتها وسكب نصف قارورة من الحليب الدافئ على وجهها. فزعاً، حاول أن يمسك قطعة قماش. لكن، بدلاً من ذلك أمسكت يده بأفضل كنزة كشمير لديها من كومة الغسيل النظيف، ومسح البقع الكبيرة من الحليب عن شعرها وعينيها، وهو يقبّلها طوال الوقت، ويشتم نفسه – «أحمق أحمق أحمق، آسف آسف آسف» – وبالذراع الأخرى بدأ عملية تغيير ملاءتها وملابسها وحفاضها المنقوع بالحليب، ورمى كل ذلك في كومة على الأرضية. ارتاح آنذاك لأنها لا تعرف الكلام بعد. كانت ستقول: «انظر إلى نفسك، انظر إلى نفسك، لا يمكنك حتى الاعتناء بطفلة». نزل إلى الأسفل مجدداً معها، وحضّر مزيداً من الحليب ثم حملها إلى الأعلى، وأطعمها في الغرفة المعتمة حتى استرخى رأسها مرة أخرى على كتفه، وهدأت، ثم نامت.

أغلق الباب بصمت، ثم نزل على أطراف أصابع قدميه على السلالم الخشبية، مثل لص في منزله. فتح في المطبخ قارورة الشراب الثانية، وسكب كأساً أخرى.

شارفت الساعة على العاشرة آنذاك، وحاول أن يشاهد التلفاز؛ ذلك البرنامج الذي يدعى الأخ الكبير، لكنه لم يفهم الهدف منه، وشعر برفض موظف قديم حاد الطباع تجاه حال صناعة التلفاز. قال بصوتٍ عالٍ: «لا أفهم». شغّل موسيقى، مجموعة مقتطفات مخصصة لجعل منزلك يبدو مثل ردهة فندق أوروبي، وحاول أن يقرأ المجلة التي طرحتها سيلفي جانباً، لكن بدا أن ذلك خارج استطاعته آنذاك. شغّل جهاز ألعاب الفيديو، غير أنّ ميتال غير سوليد وكويك أوف دوم، وحتى توم رايدر في أصعب مستوياتها لم تجعله يشعر بالسكينة. كان بحاجة إلى بعض الرفقة البشرية؛ إلى الحديث مع شخص لا يصرخ ولا يئن، وينام فقط، وأمسك هاتفه. كان فاقداً رشده تماماً آنذاك، وجاء مع ذلك الدافع القديم: قول شيء غبي لامرأة جذّابة.

كانت ستيفاني شو تضع أداة جديدة لتفريغ الحليب من صدرها، من أفضل طراز، فنلندية، تئز وتقرقر تحت قميصها مثل محرك صغير، في حين جلسوا على الأريكة وهم يحاولون مشاهدة الأخ الكبير.

كانت إيما قد ظنت أنها ستحضر حفل عشاء تلك الليلة. لكن، بعد أن وصلت إلى وايتشابل اكتشفت أن ستيفاني وآدم مرهقان ولا يستطيعان أن يطهوَا؛ ويأملان ألا تمانع. بدلاً من ذلك، جلسوا وشاهدوا التلفاز وتبادلوا أطراف الحديث، في حين أزّت الأداة

الجديدة وقرقرت، ما منح غرفة المعيشة جو حظيرة تربية الأبقار. ليلة مهمة أخرى في حياة عرّابة.

هناك أحاديث لا ترغب إيما بخوضها وكلها تركّز على الأطفال. وقد بدت هذه الأحاديث حين سمعتها أول مرة جديدة كفاية، ونعم، كان هناك شيء مثير ومسلٍ ومؤثر في رؤية ملامح أصدقائك تتغير على ذلك النحو. وطبعاً هناك دائماً متعة في رؤية بهجة الآخرين.

لكن، ليست متعة كبيرة. وبدا لها تلك السنة أنها في كل مرة تغادر فيها المنزل يظهر طفل صغير في وجهها، وتشعر بالفزع نفسه حين يعرض عليها شخص ما كومةً بحجم قطعة آجر من صور العطلة: رائع، إنكم تقضون وقتاً ممتعاً. لكن، ما علاقة هذا بي؟ يبدو وجه إيما ذاهلاً حين يخبرها صديق عن مشكلات العمل، والعقاقير التي تُستخدم، ومدى تأثيرها في الدماغ، والألم، والسرور.

لكن، لا شيء يرجح على ولادة طفل، أو الأبوة عموماً. لم تكن إيما ترغب بالحديث عن توتر اضطراب النوم، ألم يسمعوا إشاعات عن هذا سلفاً؟ أو أن تضطر إلى الإدلاء بملحوظة عن ابتسامة طفل، أو كيف كان يبدو مثل الوالدة لكنه أصبح بعد ذلك يشبه الوالد، أو كيف كان يبدو مثل الوالد وأضحى فمه آنذاك يشبه فم والدته. وما هذا الهاجس بشأن حجم اليدين؛ اليدين الصغيرتين النحيلتين والأظفار الصغيرة، في حين أن القول إنهما يدان كبيرتان سيكون أكثر واقعية. «انظر إلى يدي الطفل الكبيرتين الضخمتين!». سيكون الحديث عن ذلك جديراً بالاهتمام.

قال آدم، زوج ستيفاني، من حيث يجلس على كرسي بذراعين، وهو يسند رأسه على قبضته: «سأخلد إلى النوم».

قالت إيما: «ربما يجب أن أذهب».

قالت ستيفاني: «لا! ابقي!». لكنها لم تقدم سبباً لذلك.

تناولت إيما قطعة أخرى من رقائق كيتل. ماذا حدث لأصدقائها؟ كانوا مرحين ويحبون المرح، واجتماعيين ولطفاء المعشر، لكنها قضت أمسيات كثيرة جداً مثل هذه مع أزواج شاحبي اللون، ونزقين وغائري العيون في غرف كريهة الرائحة، وهي تعبّر عن دهشتها؛ لأن طفلاً ما يكبر بمرور الوقت، ولا يصبح أصغر حجماً. تعبت من الصراخ بهجة حين ترى طفلاً يزحف؛ وكأن ذلك تطور غير متوقع إطلاقاً؛ هذا «الزحف». ماذا كانوا يتوقعون؟ أن

يطير؟ لم تكن تبالي برائحة رأس الطفل، وعندما شمّته مرة، بدت لها مثل رائحة طوق ساعة.

رنَّ هاتفها في حقيبتها، فأخرجته ونظرت إلى اسم دكستر لكنها لم تزعج نفسها بالرد. لا، لم تكن تريد قطع كل تلك المسافة من وايتشابل إلى ريتشموند لرؤيته وهو ينثر عليقاً على بطن ياسمين، فقد سئمت ذلك تحديداً؛ أي أن يقوم أصدقاؤها الرجال بأفعال الأب الشاب الجديد: وهم مرهقون لكن مزاجهم حسن، وهم متعبون لكنهم أنيقون في ستراتهم العادية فوق سراويل الجينز، منهكون يرتدون سترات مقلّمة لكن تبدو عليهم نظرة الفخر واحترام الذات حين يقذفون الصغير في الهواء. رجال شجعان، أوائل الرجال في التاريخ الذين يبلل أطفالهم سراويلهم المخملية، ويتقيأون قليلاً على شعرهم.

طبعاً، لا يمكنها أن تقول أياً من هذا بصوتٍ عالٍ، فهناك شيء مخالف للطبيعة في امرأة تجد الأطفال، أو - أكثر تحديداً - الحديث عن الأطفال، شيئاً مملاً. سيظنون أنها تشعر بمرارة، وغيرة، ووحدة، لكنها سئمت من قيام الجميع بإبلاغها كم هي محظوظة، مع كل ذلك النوم والحرية والوقت الإضافي، والقدرة على الخروج في مواعيد، أو الذهاب إلى باريس وقت تشاء. بدا أنهم يواسونها، وامتعضت من ذلك، وشعرت بأنهم يعاملونها بتعالٍ. لم تكن حتى قد ذهبت إلى باريس! شعرت بالملل، خاصة من الدعابات، من أصدقائها، وأسرتها، وأفلام التلفاز. أسوأ وأغبى كلمة في اللغة الإنكليزية هي «الفردية»، تليها مباشرة عبارة «مدمن الشوكولا»، ورفضت أن تكون جزءاً من أي ظاهرة أسلوب حياة ملحق يوم الأحد. نعم، هي تفهم النقاش، والضرورات العملية، لكنه وضعٌ خارج عن نطاق سيطرتها تماماً. ونعم، حاولت أحياناً أن تتخيل نفسها في رداء مستشفى أزرق، تتصبب عرقاً وتشعر بالألم، لكن وجه الرجل الذي يمسك يدها بقي مشوشاً تماماً، وذلك حلم يقظة اختارت ألا تسهب في الحديث عنه.

عندما يحدث ذلك، إن حدث أصلاً، فستعشق الطفل، وتعلّق على يديه الصغيرتين؛ حتى على رائحة رأسه الكريهة. وستجادل بشأن الافتقار إلى النوم، والمغص، أو أي شيء آخر. يوماً ما ربما ستجبر نفسها على أن تتحدث بحب إلى زوجٍ من الأحذية الصغيرة. لكن، في هذه الأثناء، ستحافظ على تلك المسافة، وتبقى هادئة ورابطة الجأش. وفوق ذلك كله، بعد قول هذا، ستوجه إلى أول شخص يدعوها العمة إما لكمة في الوجه.

كانت ستيفاني قد أنهت ما تقوم به، وعرضت حليب صدرها على آدم، وهي ترفعه إلى

الضوءِ مثل شراب فاخر. وافقوا جميعاً على أنها أداة تفريغ حليب صغيرة رائعة.

قالت إيما: «دوري تالياً!». لكن، لم يضحك أحد، واستيقظ الطفل في الطابق الأعلى في تلك اللحظة تحديداً.

قال آدم: «ما يجب أن يبتكره شخص ما هو منديل أطفال مخدّر».

تنهّدت ستيفاني وخرجت من الغرفة تمشي مجهدة، وقررت إيما أن تتجه بالتأكيد إلى المنزل قريباً. كان بمقدورها السهر حتى وقت متأخر، والعمل على المخطوطة. طنَّ الهاتف مجدداً، ووصلت رسالة من دكستر يطلب منها فيها أن توافيه إلى سورري لقضاء الوقت معه.

أغلقت الهاتف.

«... أعرف أنها مسافة طويلة، لكنني أظن فقط أنني ربما أعاني إحباطَ ما بعد الولادة. استقلي سيارة أجرة، وسأدفع التعرفة. سيلفي ليست هنا! لا يمثّل هذا أي فرق، أعرف، لكن... توجد غرفة نوم إضافية، إن أردت المبيت هنا. على كل حال، اتصلي بي إن وصلتك هذه الرسالة، إلى اللقاء». تردّد، قال «إلى اللقاء» أخرى وأنهى المكالمة. رسالة لا طائل منها. طرف عينيه، وهزَّ رأسه، وسكب مزيداً من الشراب. بحث في أرقام الهواتف المحفوظة ورأى رقم سوكي الخلوي.

في البداية لم يلقَ رداً، ووجد نفسه مرتاحاً؛ لأنه بالمحصلة لا خير يُرجى من ذلك؛ الاتصال بحبيبة قديمة! أوشك أن ينهي المكالمة، حين سمع فجأة الصراخ المميز.

«مرحباً!».

«مرحباً!». رسم على وجهه ابتسامة مقدّم البرامج.

«من المتصل؟». كانت تصرخ ليعلو صوتها على ضوضاء حفل ربما في مطعم.

«تثيرين بعض الصخب!».

«ماذا؟ من المتصل؟».

«يجب أن تخمّني».

«ماذا؟ لا يمكنني سماعك...».

«قلت: خمّني من؟...».

«لا يمكنني سماعك، من أنت؟».

«يجب أن تخمّني!».

«من؟».

«قلت يجب أن...». كانت اللعبة قد أصبحت مجهدة، لذا قال فقط: «أنا دكستر!».

أطبق الصمت لحظة.

«دكستر؟ دكستر ميهو؟».

«كم دكستر تعرفين يا سوكي؟».

«لا أعرف أي دكستر، أنا فقط، مثل... مرحباً يا دكستر! مرحباً يا دكستر! انتظر لحظة...». سمع صوت كشط كرسي وتخيّل عيوناً فضولية تلاحقها، وغادرت طاولة المطعم ومشت إلى الرواق. «إذاً، كيف حالك يا دكستر؟».

«أنا بخير، على ما يرام. وأتصل فقط، كما تعرفين، لأقول إنني رأيتك الليلة على التلفاز، وجعلني هذا أفكّر بشأن الأيام الخوالي، ولذا اتصلت لأقول مرحباً. بدوت رائعة بالمناسبة، على التلفاز، وأعجبني البرنامج. تصميم جميل». تصميم جميل؟ أيها الأحمق. «إذاً، كيف حالك يا سوكي؟».

«أوه، أنا بخير، أنا بخير».

«أنتِ في كل مكان! تبلين حسناً حقاً! فعلاً!».

«شكراً لك، شكراً».

أطبق الصمت، ومسّت إبهام دكستر زر إغلاق الهاتف. أنهِ المكالمة، وتظاهر أن الخط قد انقطع. أنهِ المكالمة، أنهِ المكالمة...

«لقد انقضت، ماذا، خمس سنوات يا دكس؟!».

«أعرف. كنت أفكّر فيك منذ لحظات؛ لأنني رأيتك على التلفاز، وبدوت رائعة بالمناسبة. كيف حالك؟». لا تقل هذا، فقد قلته سابقاً! «أعني، أين أنت؟ أسمع صخباً...».

«في مطعم، أتناول العشاء مع بعض الزملاء».

«هل أعرف أحداً منهم؟».

«لا أظن هذا، إنهم أصدقاء جدد نوعاً ما».

أصدقاء جدد. هل هذه ضغينة؟ «حسنٌ، لا بأس».

«إذاً، أين أنت يا دكستر؟».

«أوه، أنا في المنزل».

«المنزل! ليلة السبت! هذا ليس من شيمك!».

«حسنٌ، تعرفين...»، وكاد يخبرها أنه متزوج ولديه طفلة ويعيش في الضاحية، لكنه شعر أن ذلك ربما يؤدي إلى تأكيد عبثية المكالمة الهاتفية، لذا بدلاً من ذلك بقي صامتاً. أطبق الصمت لبعض الوقت. لاحظ أن هناك مادة مخاطية على الكنزة القطنية التي ارتداها سابقاً حين ذهب إلى باشا، وأصبح مدركاً للرائحة الجديدة على أطراف أصابعه؛ إنها مزيج فظيع من رائحة أكياس الحفاضات وكسّارات القريدس.

تكلمت سوكي. «إذاً، لقد وصلت الوجبة الرئيسة للتو...».

«لا بأس، حسنٌ. على كل حال، كنت أفكّر بشأن الأيام الخوالي، وأظن أنه سيكون رائعاً أن أراك! تعرفين، لنتناول الغداء أو الشراب، أو أيّ شيء من هذا القبيل...».

تلاشت الموسيقى الخلفية؛ وكأن سوكي قد دخلت زاوية خاصة، وقالت بصوت قاسٍ: «هل تعرف أمراً يا دكستر؟ لا أظن أنها فكرة جيدة».

«أوه، حسنٌ».

«أعني، لم أرك منذ خمس سنوات الآن. وأظن أنه عندما يحدث هذا فسيكون هناك سبب، أليس كذلك؟».

«ظننت فحسب -».

«أعني أنك لم تكن قط لطيفاً جداً معي، أو مهتماً بي، وكنت قاسياً معظم الوقت».

«أوه، هذا ليس صحيحاً!».

«لم تكن حتى مخلصاً لي، بحق الله، وكنت تقيم علاقات عابرة مع ساعية أو نادلة أو غير ذلك، لذا لا أعرف ما ترمي إليه الآن. لِمَ تتصل بي وكأننا صديقان قديمان وتشعر بالحنين للأيام الخوالي، فقد كانت شهور علاقتنا الذهبية - بصراحة كبيرة - سيئة جداً لي».

«حسنٌ يا سوكي، لقد أوضحت قصدك».

«وعلى كل حال، أنا مع رجل آخر، مع شخص لطيف جداً، حقاً، وسعيدة جداً. في الواقع، إنه ينتظرني الآن».

«لا بأس! اذهبي إذاً! اذهبي!». في الأعلى، بدأت ياسمين تبكي، ربما ارتباكاً.

«لا يمكن أن تثمل وتتصل فجأة وتتوقع مني –».

«لست كذلك. أنا فقط، يا إلهي، لا بأس، حسنٌ، انسي الأمر!». تردد صدى صراخ ياسمين على السلالم الخشبية.

«ما هذا الضجيج؟».

«إنها الطفلة».

«طفلة من؟».

«طفلتي. رُزقت بابنة، ابنة صغيرة، عمرها سبعة شهور».

أطبق الصمت وقتاً طويلاً كفاية لتظهر الدهشة واضحة، ثم قالت سوكي: «إذاً، لماذا تطلب مني الخروج معك بحق الله؟».

«فقط، تعرفين، شراب صديقين».

قالت سوكي بسرعة كبيرة: «لدي أصدقاء. أظن أنه من الأفضل أن تذهب وتعتني بابنتك، أليس كذلك يا دكس؟». وأنهت المكالمة.

جلس لبعض الوقت وأرهف السمع إلى الخط الصامت. أخيراً، أخفض الهاتف، وحدّق إليه، ثم هزَّ رأسه بقوة؛ وكأنه قد تعرض لصفعة للتو. لقد صُفع حقاً.

تمتم: «حسنٌ، كان ذلك جيداً».

قائمة الأسماء، تحرير اسم، مسح اسم. سأل الهاتف: «هل أنت واثق أنك تريد إلغاء رقم سوكي؟». تباً لي، نعم، نعم، ألغه، نعم! ضغط على الأزرار. قال الهاتف إن الاسم قد مُسح. لكن، لم يكن ذلك كافياً؛ أي استئصال الاسم، فتبخير الاسم هو ما يريده. وصل بكاء ياسمين إلى ذروة دورته الأولى، لذا وقف فجأة، وقذف الهاتف الخلوي على الجدار حيث ترك علامة خدش سوداء، وقذفه مجدداً ليترك علامة أخرى.

شتم سوكي، وشتم نفسه لغبائه الشديد، وحضّر قارورة صغيرة من الحليب، وأغلق الغطاء بإحكام، ووضعها في جيبه، وأمسك كأس الشراب ثم صعد السلالم نحو ياسمين؛ صوت ثاقب أجش مروّع بدا أنه يمزّق مؤخر حلقها. اندفع إلى الغرفة.

صرخ: «بحق الله يا ياسمين، اخرسي فحسب، هلاّ فعلت هذا؟». لكنه وضع يده على فمه فوراً خجلاً حين رآها تجلس في المهد، وعيناها واسعتان ألماً. حملها، وجلس يسند ظهره

إلى الجدار، ويخفف من صرخاتها على صدره، ثم وضعها في حجره، ومسَّ جبينها بحنان كبير، وعندما لم يُجدِ ذلك نفعاً بدأ يداعب قفا رأسها بلطف. ألا ينبغي أن تكون هناك بقعة ضغط سرية تفركها بإبهامك؟ ضغط دائرياً على راحة كفها في حين كانت تشد قبضتها وترخيها بغضب. لم ينفع شيء، وحاول بأصابعه البدينة الكبيرة حركات كثيرة، لكنْ لم يُجْدِ شيء نفعاً. فكّر أنها ربما لا تكون بخير، أو ربما لأنه ليس والدتها فحسب. فهو والد وزوج وحبيب وابن عديم الفائدة.

لكن، ماذا إن كانت مريضة؟ قد يكون المغص هو السبب، كما فكّر، أو أن أسنانها تنبت. هل تنبت أسنانها؟ بدأ القلق يستحوذ عليه. هل يجب أن يأخذها إلى المستشفى؟ ربما، لكنه ثمل جداً ولا يمكنه أن يقود سيارة. إنه رجل عديم الجدوى، غير ذي فائدة. قال بصوتٍ عالٍ: «هيا، ركّز». هناك بعض الأدوية على الرف، عليها كلمات «قد تسبب نعاساً»؛ أجمل كلمات في اللغة الإنكليزية. كانت سابقاً «هل لديك قميص يمكنني استعارته؟»، والآن أصبحت «قد يسبب نعاساً».

جعل ياسمين تثب على ركبته حتى هدأت قليلاً، ثم وضع الملعقة المملوءة على شفتيها حتى قدّر أنها قد ابتلعت 5 مل. قضى الدقائق العشرين التالية وهو يغني لها، ويهزّها، ويتكلم على نحو جنوني. جرّب ذخيرته المحدودة من الأصوات الغريبة، وانتقل بين طبقات عالية ومنخفضة ولهجات إقليمية مختلفة لتسكت، وتخلد إلى النوم. أمسك كتب صور أمام وجهها، وقلّب الصفحات، ووكزها قائلاً: «بطة! بقرة! قطار تشو - تشو! شاهدي النمر المضحك، شاهديه!». قدّم لها عرض دمى مشوّشة. شمبانزي بلاستيكي يغني البيت الأول من «عجلات على الحافلة» مراراً وتكراراً، تينكي وينكي يؤدي «مكدونالد العجوز»، دبّ يقول «إلى البستان» من دون سبب. وضعها معاً تحت أقواس مهد الطفلة وأطبق الصمت عليها معاً. دفع هاتفه الخلوي بين يديها الصغيرتين، وتركها تضغط على الأزرار، ولعابها يسيل على لوحة المفاتيح، وهي تستمع إلى الساعة الناطقة حتى هدأت أخيراً لحسن الحظ، وبدأت تئن آنذاك، وهي لا تزال مستيقظة تماماً ولكنها قانعة.

كان يوجد مشغّل أقراص مضغوطة في الغرفة، من ماركة فيشر برايس على شكل قطار بخاري. ركل كتباً ودمى في طريقه، ثم ضغط زر التشغيل. موسيقى كلاسيكية تساعد على الاسترخاء، جزء من مشروع سيلفي للسيطرة على ذهن الطفلة. صدحت أغنية «رقصة جنّية الحلوى السكّرية» من المجهارَين الصغيرين، وصرخ: «مقطوعة موسيقية!»، ورفع

الصوت من مفتاح على شكل مدخنة القطار البخاري، وبدأ يرقص الفالس في الغرفة مصاباً بدوار، وياسمين قريبة من صدره. تمطّت آنذاك، وكوّرت أصابعها النحيلة إلى قبضتين ثم مدّتها، ونظرت لأول مرة إلى والدها من دون أن تعبس، وشاهد نظرة عابرة لوجهها وهي تبتسم له. تلمّظت بشفتيها، وبدت عيناها واسعتين؛ إنها تضحك. قال: «هذه فتاتي! هذه جميلتي!». ارتفعت معنوياته وخطرت له فكرة.

وضع ياسمين على كتفه، وضرب قبضتي الباب في طريقه، وأسرع بالنزول إلى المطبخ حيث توجد ثلاثة صناديق كرتونية ضخمة تحتوي مؤقتاً كل أقراصه المضغوطة إلى أن ينتهي تجهيز الرفوف. كانت هناك آلاف منها، معظمها صاخب، إرث الوقت الذي كان فيه صاحب نفوذ كبير. أعادته رؤيتها إلى الأيام التي تحوّل فيها في أرجاء سوهو وهو يضع تينك السماعتين السخيفتين. جثا وبحث في الصندوق بيدٍ واحدة. لم تكن الحيلة أن يجعل ياسمين تنام، وإنما أن يحاول إبقاءها مستيقظة. ومن أجل ذلك سيقيمان حفلاً، هما الاثنان فقط، أفضل من أي نادٍ ليلي في هوكستون. تباً لسوكي ميدوز! سيعمل مهندساً للصوت من أجل ابنته.

شعر بالنشاط، وبحث عميقاً عبر طبقات الأقراص المدمجة التي تمثّل عشر سنوات من الموسيقى، أخرج الأقراص المعتادة وكدّسها في كومة على الأرضية، متحمساً لفكرته. عثر على أقراص جاز وموسيقى عاطفية. أبعد الأعمال الصاخبة، ومقطوعات الأدوات الموسيقية الكهربائية، وموسيقى فرقة باليرك، ومقتطفات تحمل كلمة «مثير»، ومجموعة صغيرة غير مقنعة من موسيقى الطبول والأدوات الوترية. كان ينبغي للبحث في أقراص موسيقى قديمة أن يجعله سعيداً، لكنه تفاجأ حين اكتشف أن مجرد رؤية الأعمال الفنية يصيبه بالقلق والتوتر، وأنها ترتبط بذكريات الأرق، وليالي الارتياب بوجود غرباء في شقته، وأحاديث غبية مع أصدقاء لم يعد يراهم. كانت موسيقى الرقص تجعله قلقاً آنذاك، ولا بد أن ما يحس به صحيح - كما فكّر - وأن ذلك يعني التقدّم في العمر.

رأى بعد ذلك حافة قرص مضغوط؛ كتابة إيما، وأدرك أنها مقتطفات جمعتها على حاسوبها الجديد لعيد ميلاده الخامس والثلاثين في آب الماضي، قبل زفافه بقليل. كانت المقتطفات معنونة «إحدى عشرة سنة»، وتوجد صورة على قصاصة ورق مزخرفة منزلية الصنع، غير واضحة من طابعة إيما المنزلية الرخيصة، لكن رغم ذلك لا يزال ممكناً تمييزهما وهما يجلسان على سفح، ورؤية ذروة جبل آرثر، والبركان الخامد الذي يطل على أدنبره. لا

بد أنه كان ذلك الصباح بعد إنهاء التخرّج. ماذا؟ قبل اثنتي عشرة سنة؟! في الصورة، يرتدي دكستر قميصاً أبيض ويستند إلى صخرة كبيرة ولفافة تبغ تتدلى من فمه، في حين تجلس إيما بعيدة عنه قليلاً، وهي ترفع ركبتيها إلى صدرها، وذقنها على ركبتيها، وتضع حزاماً عريضاً ضيقاً على خصرها، وهي تبدو أكثر بدانة مما هي عليه الآن، وخرقاء ومرتبكة وخصلات متفرقة من شعرها المخضّب بالحنة تحجب عينيها. إنه التعبير الذي يظهر على وجهها في الصور منذ ذلك الوقت. فهي تبتسم بتكلف وفمها مغلق. نظر دكستر إلى وجهها وضحك، وعرض الصورة على ياسمين.

«انظري إلى هذه! إنها إيما! انظري كم كان والدك نحيلاً. انظري إلى عظمتي الوجنتين. كان لدى والدك عظمتا وجنتين ناتئتان سابقاً». ضحكت ياسمين بصمت.

عادا إلى غرفة ياسمين، وضعها في الزاوية وأخرج القرص المضغوط من العلبة. وجد بطاقة بريدية محشوة في الداخل عليها كتابة، بطاقة ذكرى ميلاده السنة الماضية.

الأول من آب 1999. هذه... هدية منزلية الصنع. أخبر نفسك باستمرار: - الفكرة هي المهمة، الفكرة هي المهمة. هذا قرص مضغوط أعدت إنتاجه من شريط مقتطفات جهّزته قبل سنوات. لا شيء من هراء الإثارة خاصتك، وإنما هناك أغانٍ ملائمة. آمل أن تستمتع به. مناسبة سعيدة يا دكستر، وتهانيَّ لكل أخبارك الرائعة.

زوج! أب! ستكون رائعاً في كليهما.

رائع أن أستعيدك. تذكر، أحبّك كثيراً.

صديقتك القديمة

إيما إكس

ابتسم ووضع القرص في المشغّل على شكل قطار بخاري.

بدأ بأغنية «تعاطف غير منته» لماسيف أتّاك، وحمل ياسمين وجعلها تثب على ركبتيه في حين ثبّت قدميه، وهو يتمتم الكلمات في أذن ابنته. اجتمعت موسيقى شعبية قديمة، وقارورتا شراب، وعدم النوم لجعله يشعر بدوار وتنتابه عواطف جيّاشة. رفع صوت فيشر برايس إلى أقصى حد ممكن.

ثم سمعا «هناك ضوء لا ينطفئ أبداً» للأخوين سميث. وعلى الرغم من أنه لم يهتم بموسيقى الأخوين سميث على نحو خاص إلا أنه تابع الإصغاء، ورأسه إلى الأسفل، وهو يتذكر العقد الثاني من عمره مجدداً، حين كان في ملهى طلابي. غنّى بصوت عالٍ، ورغم

أن ذلك محرج، لكنه لم يهتم. شعر فجأة، في غرفة النوم الصغيرة في المنزل، وهو يرقص مع ابنته على أنغام موسيقى منبعثة من قطار دمية، بقناعة كبيرة؛ أكثر من قناعة؛ شعر بالابتهاج. دار حول نفسه، وداس كلباً بلاستيكياً على الأرضية، فتعثر وثبّت نفسه بيده على الجدار. قال بصوتٍ عالٍ: «مهلاً، تماسك يا فتى». ثم نظر للأسفل إلى ياسمين ليرى أنها بخير وعلى ما يرام، وأنها تضحك؛ ابنته الجميلة جداً. هناك ضوء لا ينطفئ أبداً.

وسمعا بعد ذلك «سِرْ وتجاوزني»؛ أغنية اعتادت والدته أن تعزفها حين كان صغيراً. تذكر أليسون ترقص على أنغامها في غرفة المعيشة، ولفافة تبغ في إحدى يديها، وكأس شراب في الأخرى. وضع ياسمين على كتفه، شعر بأنفاسها على عنقه، وأمسك يدها الأخرى بيده، وتجوّل بين أكوام الفوضى في رقصة بطيئة قديمة الطراز. وفي غمرة الإرهاق ونتيجة تأثير الشراب الأحمر، شعر برغبة مفاجئة في الحديث إلى إيما، ليخبرها بما يستمع إليه. وكأنها إشارة ما، رنَّ هاتفه في اللحظة التي انتهت بها الأغنية تماماً. بحث عن الهاتف بين الدمى والكتب المتناثرة؛ ربما كانت إيما تتصل به. ظهر على الشاشة اسم «سيلفي» فأطلق شتيمة؛ وأدرك أن عليه أن يرد عليها. صاحٍ، صاحٍ، صاحٍ، كما أخبر نفسه. استند إلى المهد، ووضع ياسمين في حجره وأجاب على المكالمة.

«مرحباً يا سيلفي!».

في تلك اللحظة صدحت «حارب القوة» لبيبليك إينيمي فجأة من فيشر برايس، وزحف ليضغط على الأزرار الصغيرة.

«ماذا كان ذلك؟».

«بعض الموسيقى فقط. أنا وياسمين نقيم حفلاً صغيراً، أليس كذلك يا ياس؟ أعني ياسمين».

«ألا تزال مستيقظة؟».

«أخشى أنها كذلك».

تنهّدت سيلفي. «ما الذي كنت تفعله؟».

لقد دخّنت لفائف تبغ، واحتسيت الكثير من الشراب، وخدّرت طفلتنا، واتصلت بحبيبة سابقة، قلبت المنزل رأساً على عقب، ورقصت متمتماً لنفسي. لقد سقطت مثل ثمل في الشارع.

«أوه، أتسلّى، أشاهد التلفاز. ماذا عنك؟ هل تقضين وقتاً ممتعاً؟».

«لا بأس، الجميع يحتسي الشراب طبعاً –».
«باستثنائي أنا».
«أنا مرهقة جداً ولا يمكن أن أفعل ذلك».
«المكان هادئ جداً، أين أنت؟».
«في غرفة الفندق. سأستلقي قليلاً، ثم سأعود من أجل الموجة الآتية». عندما تكلّمت، نظر دكستر إلى فوضى غرفة ياسمين؛ الملاءات المبللة بالحليب، الدمى والكتب المبعثرة، قارورة الشراب الفارغة، الكأس الملطخة بالشراب.
«كيف حال ياسمين؟».
«إنها تبتسم، أليس كذلك يا عزيزتي؟ إنها ماما عبر الهاتف». بدافع الواجب ضغط الهاتف على أذن ياسمين، لكنها بقيت صامتة. لم يكن الأمر ممتعاً، لذا أبعد الهاتف عنها. «أنا مجدداً».
«لكنك تدبّرت أمرك».
«طبعاً، هل شككت فيّ مرة؟». أطبق الصمت لحظة. «يجب أن تعودي إلى حفلك».
«ربما يجب أن أفعل هذا. سأراك غداً، بحلول وقت الغداء تقريباً. سأعود عند، لا أدري، الحادية عشرة».
«لا بأس، عمتِ مساءً إذاً».
«عمتَ مساء يا دكستر».
قال: «أحبك».
«وأنا أيضاً».
كانت على وشك أن تنهي المكالمة، لكنه شعر بأنه مرغم على قول شيء آخر. «ويا سيلفي؟ سيلفي؟ هل أنت هناك؟».
أعادت الهاتف إلى أذنها. «همم؟».
ابتلع ريقه، ولعق شفتيه. «أردت فقط القول... أردت أن أقول إنني أعرف أنني لست جيداً جداً في هذا حالياً؛ دور الأب والزوج، لكنني أعمل عليه، وأحاول جهدي. سأصبح أفضل يا سيلف، أعدك».
بدا أنها تمعن التفكير في ذلك؛ لأن الصمت أطبق وقتاً قصيراً قبل أن تتكلم مجدداً،

وصوتها محرج قليلاً. «دكس، أنت تبلي حسناً. نحن فقط... نتحسس طريقنا، هذا كل شيء».

تنهّد. كان يأمل في أشياء أكثر نوعاً ما. «من الأفضل أن تعودي إلى حفلك».

«سأراك غداً».

«أحبك».

«أنا أيضاً».

وأنهت المكالمة.

بدا المنزل هادئاً جداً. جلس هناك دقيقة كاملة، وابنته نائمة آنذاك في حجره، وأرهف السمع إلى هدير دمه والشراب في رأسه. شعر لحظة بفزع ووحدة، لكنه تخلّص من ذلك، ثم وقف ورفع ابنته النائمة إلى وجهه، مسترخية الأوصال مثل هرّة صغيرة. استنشق رائحتها: حليب، حلو تقريباً، من لحمه ودمه. لحم ودم. العبارة مبتذلة لكن هناك لحظات عابرة يلمح فيها نفسه في وجهها، ويدرك الحقيقة لكنه لا يصدّقها. وسواء أكان ذلك جيداً أم سيئاً، إنها جزء منه. أنزلها بهدوء إلى مهدها.

داس على دمية بلاستيكية حادّة مثل حجر صوّان، ودفع نفسه على نحو مؤلم، فأطلق شتيمة وأطفأ مصباح غرفة النوم.

في غرفة فندق في ويستمنستر، على بعد عشرة أميال على طول التايمز، جلست زوجته عارية على حافة السرير وهي تحمل الهاتف في يدها وبدأت تبكي بهدوء. جاء من الحمّام صوت ماءٍ يتدفق. لم تكن سيلفي تحب ما يفعله البكاء بوجهها. لذا، عندما توقف الصوت، مسحت بسرعة عينيها بقفا يدها ورمت الهاتف على كومة ملابس ملقاة على الأرضية.

«هل كل شيء بخير؟».

«أوه، تعرف، ليس حقاً. بدا ثملاً جداً».

«أنا واثق أنه بخير».

«لا، لكنه ثمل حقاً. بدا غريباً، ربما يجب أن أذهب إلى المنزل».

شدَّ كالوم حزام رداء الاستحمام، وعاد إلى غرفة النوم، وانحنى من خصره ليقبّل كتفها العارية.

«كما قلت، أنا واثق أنه بخير». لم تقل شيئاً، لذا جلس وقبّلها مجدداً. «حاولي أن تنسي ذلك، استمتعي قليلاً. هل تريدين شراباً آخر؟».

«لا».

«هل تريدين الاستلقاء؟».

«لا يا كالوم!». أبعدت ذراعه عنها. «بحق الله!».

قاوم رغبة في أن يقول شيئاً، واستدار وعاد إلى الحمام لينظف أسنانه، وقد تبخرت آماله بشأن الأمسية. انتابه شعور فظيع بأنها تريد أن تتكلم عن أشياء – «هذا ليس عدلاً، لا يمكننا الاستمرار، ربما يجب أن أخبره»، كل تلك الأشياء. بحق الله! فكّر ساخطاً، لقد منحت الرجل وظيفة. أليس ذلك كافياً؟

بصق وغسل فمه، عاد إلى الغرفة وألقى بنفسه على السرير. مدَّ يده إلى أداة التحكم عن بعد، وقلّب بغضب قنوات الكابل، في حين جلست السيدة سيلفي ميهو وهي تنظر إلى خارج النافذة؛ إلى الأضواء على طول التايمز، وتساءلت عمّا ينبغي أن تفعله بشأن زوجها.

الفصل الخامس عشر

جين سبيرغ
الأحد 15 تموز 2001

بيلفيه، باريس

كان يُفترض أن يصل في الخامس عشر من تموز عند 15:55 من واترلو.

وصلت إيما مورلي إلى بوابة الوصول في غير دو نورد في وقت ملائم وانضمت إلى الحشد، ورأت المحبين المتشوقين يمسكون وروداً، والسائقين الضجرين يتعرّقون ويحملون لافتات مكتوبة بخط اليد. تساءلت: هل سيكون مضحكاً أن ترفع لافتة عليها اسم دكستر؟ أن تكتب اسمه على نحو خاطئ؟ قد يجعله ذلك يضحك، كما افترضت، لكن هل يستحق الأمر العناء؟ إضافة إلى ذلك، كان القطار يقترب آنذاك، وحشد المنتظرين يتقدم نحو البوابة. وقفت وقتاً طويلاً قبل أن تهسَّ البوابات وتُفتح، ثم فاض المسافرون إلى المنصة، واندفعت إيما إلى الأمام مع أصدقاء وأسر، ومحبين وسائقين؛ وجميعهم يمدون أعناقهم لرؤية الوجوه الوافدة.

رسمت على وجهها الابتسامة الملائمة. وضعا النقاط على الحروف في المرة الأخيرة التي رأته فيها. وقد حدث شيء ما آنذاك.

جلس دكستر على مقعده في آخر عربة من القطار المتوقف، وانتظر أن يغادر المسافرون الآخرون. لم يكن يحمل حقيبة، وإنما مجرد كيس صغير على الكرسي بجانبه، ويوجد على الطاولة أمامه كتاب زاهي الألوان، يظهر على غلافه رسم مشوش لوجه فتاة تحت عنوان جولي كريسكول ضد العالم الواسع بأسره.

كان قد أنهى قراءة الكتاب حين دخل القطار ضواحي باريس، وهذه أول رواية ينهيها منذ شهور، وخفّفت من إحساسه بالمهارة الذهنية حقيقة أن الكتاب مخصص للفئة العمرية من إحدى عشرة سنة إلى أربع عشرة، ويضم صوراً. انتظر أن تفرغ العربة، وعاد مرة أخرى إلى الغلاف الخلفي وصورة المؤلفة بالأبيض والأسود ونظر إليها بإمعان؛ وكأنه يطبع وجهها في ذاكرته. كانت ترتدي قميصاً أبيض مجعداً يبدو ثميناً، وتجلس بارتباك على حافة كرسي خشبي، ويدها تغطي فمها في اللحظة نفسها التي تنفجر فيها ضحكاً. تعرّف التعبيرَ والإيماءة أيضاً. ابتسم، ووضع الكتاب في كيسه، ثم حمله وانضم إلى المسافرين الأخيرين

القلائل في أثناء انتظارهم للنزول إلى المنصة.

وضعا النقاط على الحروف في آخر مرة رآها فيها، وقد حدث شيء ما. ماذا سيخبرها؟ ماذا ستقول؟ نعم أم لا؟

لعبت بشعرها في أثناء انتظارها، وهي ترغب أن يطول الوقت. بعد وصولها إلى باريس بوقت قصير حاملةً معجماً في يدها، استجمعت شجاعتها لتذهب إلى المزيّن - كوافير - ليقص شعرها. وعلى الرغم من شعورها بالإحراج من قول ذلك بصوتٍ عالٍ، إلا أنها أرادت أن تبدو مثل جين سبيرغ في نهاية نسمة؛ لأنه بالمحصلة إذا كنت ستصبحين روائية في باريس فيجب أن تفعلي ذلك كما ينبغي. بعد ثلاثة أسابيع، لم تعد تريد أن تبكي حين ترى انعكاس صورتها، لكن رغم ذلك بقيت يداها ترتفعان إلى رأسها؛ وكأنها تعدّل شعراً مستعاراً. حوّلت انتباهها إلى الأزرار على قميصها الرمادي الجديد الذي اشترته هذا الصباح من متجر، لا، من بوتيك، في شارع غرينيه. كان فتح زرّين فقط يبدو متزمتاً جداً، في حين أن فتح ثلاثة يجعلها تبدو مثيرة. فكّت الزر الثالث، طقطقت بلسانها وأعادت انتباهها إلى الركاب. تضاءل الحشد آنذاك وبدأت تتساءل إن كان قد فوّت القطار حين رأته أخيراً.

بدا مرهقاً وكئيباً ومتعباً. وجهه متوارٍ تحت شعر أشعث لا يناسبه، ولحية سجن، وتذكّرت احتمال الكارثة التي تحملها تلك الزيارة معها. لكن، عندما رآها بدأ يبتسم ويحثّ الخطى، وابتسمت أيضاً، ثم بدأت تشعر بالخجل في أثناء انتظارها عند البوابة متسائلة عمّا ينبغي أن تفعله بيديها، وعينيها. بدت المسافة بينهما شاسعة؛ ابتسمت وحدّقت، ابتسمت وحملقت خمسين متراً؟ خمسة وأربعين متراً. نظرت إلى الأرضية، ثم للأعلى نحو العوارض الخشبية. أربعون متراً، ونظرت مجدداً إلى دكستر، ثم أعادت بصرها إلى الأرض. خمسة وثلاثون متراً...

في أثناء اجتيازه تلك المسافة الشاسعة، تفاجأ حين لاحظ كم تغيّرت في الأسابيع الثمانية منذ رآها آخر مرة، في الشهرين الماضيين منذ حدث كل شيء. كان شعرها قد أضحى قصيراً جداً، وكانت هناك غُرّة تظهر على جبينها، وقد اكتسب وجهها لوناً جديداً؛ لون الصيف الذي يتذكره. أصبحت ترتدي ثياباً أفضل أيضاً: حذاءً عالياً، تنورة داكنة ضيقة، قميصاً رمادياً باهتاً لم تغلق ثلاثة من أزراره، يظهر منه جلد أسمر ومثلث من نمش داكن تحت عنقها. بدا أنها لا تزال لا تعرف ما تفعله بيديها أو إلى أين تنظر، وبدأ

يشعر بالخجل أيضاً. عشرة أمتار. ماذا سيقول؟ وكيف سيفعل ذلك؟ هل ستكون نعم أم لا؟

حثَّ خطاه نحوها، ثم تعانقا أخيراً.

«ما كان يجب أن تستقبليني».

«طبعاً يجب أن أستقبلك، أيها السائح».

«أحب هذه». مرّر إبهامه عبر غرّتها القصيرة. «هناك كلمة لها، أليس كذلك؟».

«مسترجلة؟».

«متشردة، تبدين متشردة».

«ألست مسترجلة؟».

«لا، أبداً».

«كان يجب أن تراه قبل أسبوعين. كنت أبدو مثل خائنة!». لم يختلج وجهه. «ذهبت إلى مزيّن باريسي للمرة الأولى. مروّع! جلست على كرسي، وأنا أفكّر أنت حمقاء، أنت حمقاء! الشيء المضحك أنهم حتى في باريس يسألونك عن العطلات. تظن أنهم سيتكلمون عن الرقص المعاصر أو هل يمكن أن يكون رجل حراً دائماً؟ لكنهم يقولون كيف اعتدت قضاء عطلاتك؟ هل ستخرجين هذا المساء؟». بقي وجهه خالياً من أي تعبير. كانت تتكلم كثيراً، وتحاول جاهدة. اهدئي، لا تكرّري ما تقولينه، أيتها الحمقاء.

مسّت يده الشعر القصير على قفا عنقها. «حسنٌ، أظن أنه يلائمك».

«لست واثقة أن ملامحي مناسبة له».

«حقاً، ملامحك مناسبة تماماً». أمسكها من أعلى ذراعها، ينظر إليها بإمعان. «يبدو أن هناك حفلاً تنكرياً وقد جئت باريسية متكلّفة».

«أو متكلفة كثيراً».

«لكن، للطبقة المخملية».

«حسنٌ، هذا أفضل». مسّت ذقنه بمفصلها، والشعر هناك. «إذاً، بأي حالٍ جئت؟».

«لقد جئت بوصفي مُطلّقاً انتحارياً فاشلاً». كانت الملحوظة عفوية وندم عليها فوراً. ابتعد بالكاد عن المنصة، وبدأ يفسد الأمور.

قالت: «حسنٌ، على الأقل أنت لست أفضل حالاً».

«هل تريدين أن أعود على متن القطار؟».

«ليس بعد». أمسكت يده. «تعال، لنذهب، هلاّ فعلنا؟».

خرجا من غير دو نورد إلى الهواء الخانق المملوء دخاناً؛ يوم صيفي باريسي معتاد، رطب، مع سحبٍ رمادية كثيفة تنذر بسقوط المطر. «فكّرت في أن نذهب لتناول القهوة أولاً، قرب القناة. إنها على بعد خمس عشرة دقيقة مشياً، هل يلائمك هذا؟ ثم خمس عشرة دقيقة أخرى إلى شقتي. يجب أن أحذّرك أنها ليست شيئاً خاصاً؛ في حال كنت تتخيل أرضيات خشبية ونوافذ كبيرة مع ستائر ثقيلة أو شيئاً من هذا القبيل. إنها مكوّنة من غرفتين فقط وتطل على ساحة».

«علّية».

«بالضبط، علّية».

«علّية كاتبة».

قبل تلك الرحلة، كانت إما قد حفظت مسار نزهة في الطبيعة، أو طبيعية قدر الإمكان في الغبار وحركة السير في الجزء الشمالي الشرقي. سأنتقل إلى باريس في فصل الصيف، لأكتب. في نيسان الماضي، بدت الفكرة متكلّفة ومشؤومة على نحو محرج، لكنها قد سئمت كثيراً من قيام أزواج بإبلاغها أن عليها الذهاب إلى باريس في أي وقت، ما دفعها إلى القيام بذلك في الواقع. كانت لندن قد تحولت إلى دار حضانة كبيرة، لذا لماذا لا تبتعد عن أطفال أشخاص آخرين لبعض الوقت، وتقوم بمغامرة؟ مدينة سارتر ودي بوفوار، بيكيه وبروست، وهي هنا أيضاً، تكتب أدباً للمراهقين، وإن لم تكن قد حققت نجاحاً تجارياً ملحوظاً. كانت الطريقة الوحيدة لجعل فكرة ما تبدو أقل ابتذالاً أن تستقر في أبعد مكان ممكن عن باريس السياحية، في الدائرة التاسعة عشرة التي تقطنها الطبقة العاملة على حدود بيلفيه ومينيلمونتان. لا مقاصد جذب سياحية، وقلّة من المباني الأثرية...

«- لكنها مفعمة بالحياة حقاً، ورخيصة، ومتعددة الثقافات، و... يا إلهي! كنت على وشك أن أقول إنها حقيقية».

«ماذا تعنين؟ هل هي سيئة؟».

«لا، فقط، لا أدري، باريس حقاً. أبدو مثل تلميذة، أليس كذلك؟ عمري خمس وثلاثون سنة، وأعيش في شقة صغيرة مكوّنة من غرفتين؛ كأنني في عام عطلة».

«أظن أن باريس تلائمك».

«إنها كذلك».

«تبدين رائعة».

«حقاً؟».

«لقد تغيرت».

« لم أتغير، ليس حقاً».

«لا، حقاً. تبدين جميلة».

عبست إيما وأبقت بصرها إلى الأمام، ومشيا مسافة أطول، وهرولا نزولاً على درجات حجرية إلى قناة سان مارتن، وصولاً إلى مقهى صغير بجانب حافة المياه.

قال بدماثة وهو يسحب كرسياً: «تبدو مثل أمستردام».

«في الواقع، إنها الوصلة الاصطناعية القديمة إلى السين». يا إلهي! أبدو مثل دليل سياحي. «تمر تحت دار الجمهورية، وتحت الباستيل، ثم تخرج إلى النهر». اهدئي فحسب. إنه صديق قديم، هل تتذكرين؟ مجرد صديق قديم. جلسا لحظة وحدّقا إلى الماء وندمت فوراً على اختيار ذلك المكان. بدا ذلك فظيعاً، مثل موعد من دون سابق معرفة، وحاولت أن تعثر في ذهنها على كلمات تقولها.

«إذاً، هل نتناول الشراب، أم...؟».

«من الأفضل ألا نفعل، فقد أقلعت تقريباً».

«أوه، حقاً؟ منذ متى؟».

«منذ شهر أو نحو ذلك. إنه ليس شيئاً ألتزم به تماماً، لكنني أحاول فقط أن أتفادى ذلك». هزَّ كتفيه. «لا شيء جيد يتمخض عنه، هذا كل شيء. ليس أمراً مهماً».

«أوه، لا – بأس. قهوة إذاً؟».

«قهوة فقط».

وصلت النادلة، سمراء حسناء وطويلة الساقين، لكن دكستر لم يرفع بصره إليها. فكّرت إيما أن هناك خطباً ما بالتأكيد، فهو حتى لم يغمز النادلة. طلبت بفرنسية عامية متباهية بلغتها، ثم ابتسمت بارتباك حين رفع دكستر حاجباً. «لقد كنت أحضر دروساً».

«هذا ما سمعته».

«طبعاً لم تفهم كلمة، وستحضر لنا على الأرجح دجاجة مشوية».

لا شيء. بدلاً من ذلك جلس يطحن حبات سكر على الطاولة المعدنية بظفر إبهامه. حاولت مجدداً شيئاً آخر.

«متى جئت إلى باريس آخر مرة؟».

«منذ ثلاث سنوات تقريباً. جئت وزوجتي إلى هنا في إحدى عطلاتنا القصيرة الشهيرة. أربعة أيام في جورج سان». قذف مكعب سكّر إلى القناة. «كان ذلك هدراً للمال اللعين».

فتحت إيما فمها وأغلقته مجدداً. لم يكن هناك شيء تقوله، فقد أدلت بملحوظة «على الأقل لا تشعر بالمرارة».

لكن دكستر طرف بعينيه بقوة، وهزَّ رأسه، ثم وكز يدها بيده. «إذاً، ما فكّرت في أن نفعله في اليومين القادمين هو أن ترافقيني للتعرف إلى معالم المدينة، وسأضيع الوقت سدى وألقي ملحوظات غبية».

ابتسمت ووكزت يده. «لم يكن مفاجئاً، ما قد مررت به، أو تمر به»، وغطّت يده بيدها. بعد دقيقة غطّى يدها بيده، وحذت حذوه، غطّت يديه بيديها، أسرع فأسرع؛ كأنهما في لعبة أطفال. لكن بدا أنه عمل ممثلين متوترين وخجولين أيضاً، وبسبب إحراجها قررت أن تتظاهر أنها بحاجة للذهاب إلى الحمام.

في الغرفة الصغيرة وكريهة الرائحة، حدقت إلى المرآة، وشدّت غرّتها وكأنها تحاول أن تسحب المزيد من رأسها. تنهّدت وأخبرت نفسها أن تهدأ. الشيء الذي حصل حدث مرة واحدة فقط، وليس أمراً مهماً، وهو صديق قديم. دفقت الماء في المرحاض، وخرجت إلى الأصيل الرمادي الدافئ. كانت على الطاولة أمام دكستر نسخة من روايتها. بحذر، جلست إلى الطاولة، ووكزته بإصبعها.

«من أين جاءت هذه إذاً؟».

«اشتريتها من محطة القطار. هناك أكوام كبيرة منها، إنها في كل مكان يا إم».

«هل قرأتها؟».

«لا يمكنني تجاوز الصفحة الثالثة».

«هذا ليس مضحكاً يا دكس».

«إيما، أظن أنها رائعة».

«حسنٌ، إنها مجرد كتاب سخيف للأطفال».
«لا، حقاً، أنا فخور جداً بك. أعني أنا لست فتاة مراهقة، لكنها جعلتني أضحك حقاً. قرأتها كله دفعة واحدة. وأتكلم بوصفي شخصاً كان يقرأ طريق هاورد في السنوات الخمس عشرة الأخيرة».
«تعني نهاية هاورد. طريق هاورد شيء مختلف».
«أياً يكن، لم أقرأ شيئاً حتى النهاية من قبل».
«حسنٌ، الحرف كبير جداً».
«وذلك ما أفضّله فيها حقاً؛ الحرف الكبير، والصور؛ الرسوم هزلية حقاً يا إم. لم تكن لدي فكرة».
«حسنٌ، شكراً لك...».
«إضافة إلى حقيقة أنها ممتعة ومسلية، وأنا فخور جداً بك يا إم. في الحقيقة -». سحب قلماً من جيبه. «أريد منك أن توقعيها».
«لا تكن سخيفاً».
«لا، يجب أن تفعلي هذا. أنت...». قرأ من الغلاف الخلفي للكتاب. «... أروع كاتبة للأطفال منذ روالد دال».
«هذا ما تقوله ابنة أخ الناشرة التي تبلغ من العمر تسع سنوات». وكزها بالقلم. «لن أوقّعه رغم ذلك يا دكس».
«هيا، أنا أصر». وقف، وهو يتظاهر أنه يرغب بالذهاب إلى المرحاض. «سأتركه هنا، ويجب أن تكتبي شيئاً، شيئاً شخصياً، بتاريخ اليوم، في حال أصبحت شهيرة واحتجت إلى المال».
في المقصورة الصغيرة، وقف دكستر وتساءل إلى متى يستطيع الاستمرار في ذلك. في مرحلة ما يجب أن يتكلما، فمن الجنوني أن يراوغا حول الموضوع على هذا النحو. دفق الماء في المرحاض، وغسل يديه وجفّفهما، ومرّرهما على شعره، ثم خرج إلى الرصيف، حيث كانت إيما تغلق الكتاب. أراد أن يقرأ الإهداء، لكنها وضعت يدها على الغلاف.
«حين لا أكون بجوارك، من فضلك».
جلس ووضعه في كيسه، وانحنت عبر الطاولة؛ وكأنها تعود إلى العمل. «إذاً، يجب أن

أسأل، كيف هي الأمور؟».

«أوه، رائعة. سيدخل الطلاق حيز التنفيذ في أيلول، قبل ذكرى زواجنا بقليل. سنتان كاملتان تقريباً من السعادة والهناء».

«هل تكلمت إليها كثيراً؟».

«ليس إن لم أضطر. أعني أننا قد توقفنا عن الصراخ والشتائم ورمي الأشياء، وأصبح كلامنا الآن: نعم، لا، مرحباً، وداعاً. كان ذلك ما قلناه تقريباً حين كنا متزوجين على كل حال. هل سمعت؟ لقد انتقلت للسكن مع كالوم الآن؛ إلى قصره السخيف في تلة موسويل حيث كنا نذهب إلى حفلات العشاء».

«نعم، سمعت».

نظر إليها بحدّة. «ممن؟ كالوم؟».

«طبعاً لا! فقط، تعرف - الناس».

«الناس يشعرون بالأسف علي».

«ليس أسفاً، وإنما... يشعرون بالاهتمام». غضّن أنفه اشمئزازاً. «هذا ليس شيئاً سيئاً يا دكس، الناس يهتمون بك. هل تكلمت إلى كالوم؟».

«لا، لقد حاول. وهو يترك رسائل باستمرار؛ وكأن شيئاً لم يحدث. حسنٌ يا صاحبي! اتصل بنا. يظن أننا يجب أن نخرج لنتناول شراب الشعير ونتكلم عن الأمور. ربما يجب أن أذهب. تقنياً، لا يزال يدين لي بأجرة ثلاثة أسابيع».

«هل تعمل الآن؟».

«ليس كما ينبغي. لقد أجّرنا المنزل اللعين في ريتشموند، والشقة، وأعيش على ذلك». شرب تفل قهوته وحدّق إلى القناة. «لا أعرف يا إم، قبل ثمانية عشر شهراً كانت لدي أسرة، ومهنة. ليست مهنة بالمعنى الصحيح، لكنني حظيت بفرص، ولا أزال أتلقّى عروضاً. مهنة حقيقية، منزل صغير أنيق في سورري...».

«وهو ما تكرهه».

«لم أكن أكرهه».

«كنت تكره تلك المهنة».

«حسنٌ، نعم، كنت أكرهها، لكنه عمل بالمحصلة. وفجأة، الآن أعيش في حجرة

واحدة في كيلبورن مع النصف الخاص بي من قائمة الزفاف ولم يعد لدي... شيء. أنا فقط وكثير من لو كروست. لقد انتهت حياتي عملياً».

«هل تعرف ما أظن أنه يجب أن تفعله؟».

«ماذا؟».

«ربما...». سحبت نفساً عميقاً، وأمسكت أصابع يده. «ربما يجب أن تتوسل إلى كالوم من أجل إعادتك إلى العمل». حدّق وحرّك يده. قالت: «أمزح! أنا أمزح!». وبدأت تضحك.

«حسنٌ، أنا سعيد أنك تجدين كارثة زواجي مضحكة يا إم».

«لا أجدها مضحكة، وإنما أظن فقط أن الإشفاق على الذات ليس الحل على الأرجح».

«إنه ليس الإشفاق على الذات، وإنما الحقائق. حياتي انتهت عمليًّا».

«أعني فقط، لا أعرف، مجرد... «. نظر إلى القناة وتنهّد بتكلّف. «عندما كنت أصغر سناً بدا كل شيء ممكناً. لكن، لا شيء يبدو محتملاً الآن».

قالت إيما التي كان العكس صحيحاً بالنسبة إليها آنذاك: «ليس الأمر سيئاً إلى هذا الحد».

«إذاً، هناك ناحية مشرقة، أليس كذلك؟ أن تهرب زوجتي مع أفضل أصدقائي...».

«ولم يكن أفضل أصدقائك، فأنتما لم تتكلما منذ سنوات. أعني، أقول فحسب... لا بأس، في البداية، إنها ليست حجرة واحدة في كيلبورن، وإنما شقة جيدة مكوّنة من غرفتي نوم في غربي هامستيد. كنت سأقتل نفسي لكي أحظى بشقة مثلها، وأنت ستبقى فيها حتى تستعيد شقتك القديمة فقط».

«لكنني سأبلغ السابعة والثلاثين من عمري بعد أسبوعين! أنا في منتصف العمر تقريباً!».

«السابعة والثلاثون لا تزال منتصف العقد الثالث! منتصفه تقريباً. لا، ليست لديك وظيفة في هذه اللحظة تحديداً، لكنك لا تعيش على الإعانات، ولديك دخل من الإيجار، وهذا حسن حظ لا يُصدّق إن سألتني. الكثير من الناس يغيرون مسارهم في وقت متأخر من حياتهم، ولا بأس بأن تكون بائساً لبعض الوقت، لكنك لم تكن سعيداً في زواجك يا دكس. أنا أعرف، لأنني اضطررت إلى الإصغاء إلى ذلك طوال الوقت. نحن لا نتكلم أبداً،

لا نستمتع أبداً، لا نخرج أبداً... أعرف أن هذا قاسٍ، لكن، في مرحلة ما ربما يمكنك أن تفكّر في هذه المرحلة على أنها انطلاقة جديدة! بداية جديدة! هناك أشياء كثيرة يمكن أن تفعلها، وكل ما يجب أن تفعله هو أن تتخذ قراراً...».

«مثل ماذا؟».

«لا أعرف. وسائل الإعلام؟ يمكن أن تحاول تقديم البرامج مجدداً؟». تأوه دكستر. «لا بأس، شيء خلف الكواليس؟ يمكن أن تعمل كمنتج أو مخرج أو شيء ما». وجِل دكستر. «أو، أو التصوير! كنت تتكلم عن التصوير طوال الوقت. أو الطعام، يمكنك، لا أدري، أن تفعل شيئاً في مجال الطعام. وإذا لم ينفع أي من هذا، لديك دائماً تلك الشهادة الجامعية في علم الإنسان لتستفيد منها». ابتسم، ثم تذكر أنه يجب ألا يبتسم. «أنت موفور الصحة، وماهر، ومستقر مادياً، وأب جذّاب قليلاً في منتصف إلى أواخر العقد الثالث. أنت... حسنٌ يا دكس. تحتاج إلى استعادة ثقتك بنفسك، هذا كل شيء».

تنهّد ونظر إلى القناة. «إذاً، هل كان هذا خطابك الحماسي؟».

«نعم، ما رأيك؟».

«لا أزال أريد أن أقفز إلى القناة».

«ربما يجب أن نذهب إذاً». وضعت نقوداً على الطاولة. «شقتي على بعد عشرين دقيقة تقريباً في ذلك الاتجاه. يمكن أن نمشي، أو نستقل سيارة أجرة...». بدأت تقف، لكن دكستر لم يتحرك.

«أسوأ ما في الأمر هو أنني أفتقد إلى ياسمين حقاً». جلست إيما مجدداً. «أعني، إنّ هذا يصيبني بالجنون، وأنا لم أكن أباً جيداً حتى أو شيئاً من هذا القبيل».

«أوه، هيا -».

«هذا صحيح يا إم. فقد كنت عديم الجدوى تماماً. امتعضتُ من ذلك، ولم أكن أرغب بالوجود هناك. كنا نتظاهر طوال الوقت أننا تلك الأسرة المثالية، وظننت دائماً أن تلك غلطة، وأن ذلك ليس لي. كنت أفكّر أنه سيكون رائعاً أن أنام مجدداً، وأذهب بعيداً في عطلة نهاية الأسبوع، أو أخرج فحسب وأبقى حتى وقت متأخر، وأستمتع بوقتي، وأن أكون حراً، ولا أتحمل أي مسؤولية. وقد استعدت كل ذلك الآن، وكل ما أفعله هو الجلوس في حين لا تزال أغراضي في صناديق كرتونية وأشتاق إلى ابنتي».

«لكنك لا تزال تراها».

«مرة كل أسبوعين، تقضي ليلة واحدة معي».

«لكن، بمقدورك رؤيتها أكثر، ويمكنك أن تطلب لقاءها مرات أكثر».

«وسأفعل! لكن، حتى الآن يمكنك رؤية الخوف في عينيها حين تقود أمها سيارتها بعيداً؛ وكأنها تقول لا تتركيني مع هذا الشخص الغريب الحزين! أشتري لها هدايا كثيرة، لكن الأمر محزن. هناك كومة كبيرة منها في كل مرة تأتي بها، ويبدو المكان مثل صباح الكرسمس كل مرة؛ لأننا إذا لم نكن نفتح الهدايا فأنا لا أعرف ما أفعله معها. إذا لم نكن نفتح الهدايا فستبدأ بالبكاء وتسأل عن أمها، وهي تعني أمها وذلك الوغد كالوم. ولا أعرف حتى ماذا أشتري لها؛ لأنني في كل مرة أراها تبدو مختلفة. تديرين ظهرك أسبوعاً واحداً، عشرة أيام ويتغير كل شيء! أعني، بدأت تمشي بحق الله ولم أرَ ذلك يحدث! كيف يصبح ذلك ممكناً؟ كيف يمكن أن أفوّت ذلك؟ أعني، أليست هذه مهمتي؟ أنا حتى لم أفعل شيئاً خاطئاً، وفجأة...». تهدّج صوته لحظة، وغيّر نبرته بسرعة، متحولاً إلى الغضب: «... وفي تلك الأثناء كان كالوم اللعين ذاك معهما، في قصره الكبير في تلة موسويل اللعينة...».

لكن زخم غضبه لم يكن كافياً ليمنع صوته من التهدّج. توقف فجأة عن الكلام، وضغط يديه على طرفي أنفه وفتح عينيه الواسعتين؛ وكأنه يحاول أن يكبت عطسة.

قالت ويدها على ركبته: «هل أنت بخير؟».

أومأ. «لن أكون على هذه الحال كل عطلة نهاية الأسبوع، أعدك».

«لا أمانع هذا».

«حسنٌ، أنا أمانع. هذا... يحط من قدرك». وقف فجأة، وأمسك كيسه. «أرجوك يا إم، لنتحدث عن شيءٍ آخر. أخبريني شيئاً، حدّثيني عنك».

مشيا على طول القناة، يلتفان حول دار الجمهورية ثم استدارا شرقاً على طول شارع ضاحية المعبد وهي تتكلم عن عملها. «الثانية تكملة، هذا ما أتخيله أنا. لقد أنهيت ثلاثة أرباع العمل. تذهب جولي كريسكول في تلك الرحلة المدرسية إلى باريس، وتُعجب بذلك الرجل الفرنسي، ويشتركان معاً في كل أنواع المغامرات، وتصادفهما مفاجأة بعد أخرى. هذا عذري للوجود هنا؛ بقصد البحث».

«والأولى؟ هل تلقى قبولاً جيداً؟».

«هذا ما قيل لي. إنها جيدة كفاية لهم كي يدفعوا مقابل روايتين أخريين».

«حقاً؟! تكملتان أخريان؟».

«أظن هذا. تمثّل جولي كريسكول ما يدعونه امتيازاً، وواضح أن هذا ما يأتي بالمال. يجب أن يكون امتيازاً! ونحن نتكلم إلى أشخاص يعملون في التلفاز، من أجل برنامج، برنامج للأطفال، بناءً على رسوماتي».

«أنت تمزحين معي!».

«أعرف، فكرة غبية، أليس كذلك؟ أنا أعمل في وسائل الإعلام! أنا المنتج المساعد!».

«ماذا يعني هذا؟».

«لا شيء على الإطلاق. أعني أنني لا أمانع. أنا أحب هذا، لكنني أود أن أؤلف كتاباً للراشدين يوماً ما. هذا ما أردت دائماً أن أكتبه؛ تلك الرواية الرائعة التي تثير الغضب وتهزُّ الأمة. أريد أن أكتب شيئاً جامحاً وسرمديًّا يكشف الروح الإنسانية، لا الكثير من الأشياء السخيفة عن ملاطفة رجال فرنسيين في ملاهٍ».

«إنه ليس عن ذلك فقط، أليس كذلك؟».

«ربما لا، وربما ذلك ما حدث. تبدأ الكتابة لتغيير العالم عبر اللغة، وينتهي الأمر بك وأنت تفكّر أن تقديم بضع دعابات جيدة كاف. يا إلهي! أصغِ إلي. حياتي في الفن!».

وكزها.

«ماذا؟».

«أنا سعيد من أجلك، هذا كل شيء». التفت ذراعه حول كتفيها وضغط عليهما. «كاتبة؛ مؤلفة رائعة. تفعلين أخيراً ما أردت دائماً القيام به». مشيا على تلك الحال، مرتبكين وخجولين قليلاً، والكيس في اليد الأخرى يرتطم بساقه، حتى أصبحت المشقة كبيرة فأبعد ذراعه عنها.

تابعا السير، وارتفعت معنوياتهما تدريجياً. كانت طبقة السحب الرقيقة قد انقشعت، وضاحية المعبد قد اكتست حلّة جديدة من الحياة حين بدأ المساء. بدا الحي مبهرجاً ومملوءاً ضجيجاً وحيوية، وأجزاء منه تشبه سوقاً. وبقيت إيما تختلس نظرات إلى دكستر، مثل دليل سياحي قلق. عبرا جادة بيليفه العريضة المزدحمة، وسارا شرقاً على طول حدود الدائرتين التاسعة عشرة والعشرين. صعدا التل، وأشارت إيما إلى الملاهي التي تحبها، وتكلمت عن التاريخ المحلي، بياف وبلدة باريس في العام 1871، وعن الجاليتين المحليتين الصينية والأفريقيّة الشمالية، وأصغى دكستر إليها وهو يتساءل عمّا سيحدث حين يصلان أخيراً

إلى شقتها. اسمعي يا إيما، بشأن ما حدث...

كانت تقول: «... إنه نوعٌ من عربة باريس». ابتسم دكستر تلك الابتسامة التي تثير الغضب.

وكزته. «ماذا؟!».

«فقط أفكر في أنك أتيت إلى باريس وعثرت على الشيء الأكثر شبهاً بالعربة».

«هذا مثير للاهتمام، أو هذا ما أظنه على كل حال».

استدارا أخيراً إلى شارع جانبي هادئ، ووصلا إلى ما بدا أنه باب مرأب، حيث قامت إيما بضغط رقم سري على لوحة ودفعت الباب الثقيل بكتفها. دخلا ساحة داخلية تبدو قديمة ومتداعية وتطل عليها شقق من كل الاتجاهات. شاهد غسيلاً يتدلى من شرفات صدئة، ونباتات في أوانٍ فخارية تذوي في شمس الأصيل. ترددت في الساحة أصداء أجهزة تلفاز مختلفة وأطفال يلعبون كرة القدم بكرة مضرب، وقاوم دكستر ارتعاش إثارة خفيفاً. استعداداً لتلك المناسبة، كان قد تخيّل ساحة تظللها الأشجار، ونوافذ مزوّدة بمصاريع، وربما منظر لنوتردام. بدا كل ذلك رائعاً كفاية، وأنيقاً حتى في الضاحية، بطريقة اصطناعية، لكن شيئاً أكثر رومانسية سيجعل ذلك أكثر سهولة.

«كما قلت، لا شيء فخم. الطابق الخامس، كما أخشى».

ضغطت على مفتاح المصباح المزوّد بمؤقت زمني، وبدأا يصعدان على السلالم الحديدية شديدة الانحدار، الملتوية بقوة، والتي تبدو بعيدة جداً عن الجدار في بعض الأماكن. أدركت إيما فجأة حقيقة أن عيني دكستر على مستوى مؤخرتها تماماً، وبدأت تمدُّ يدها بعصبية إلى تنورتها لتشد طيّات لم تكن موجودة. عندما وصلا إلى فسحة السلالم في الطابق الثالث انطفأ مؤقت المصباح، ووجدا نفسيهما في الظلام لحظة، وتحسست إيما المكان خلفها لتعثر على يده، وقادته صعوداً على السلالم حتى وقفا خارج باب. ابتسما لبعضهما بعضاً في الضوء الخافت المنبعث من النافذة فوق الباب.

«لقد وصلنا، إلى بيتي!».

أخرجت من حقيبتها مجموعة كبيرة من المفاتيح، وبدأت تعمل على سلسلة معقدة من الأقفال. بعد بعض الوقت فُتح الباب على شقة صغيرة لكنها مبهجة؛ أرضيتها مكسوة بألواح خشبية بالية رمادية اللون، وفيها أريكة كبيرة واسعة وطاولة صغيرة أنيقة، وتطل على الساحة، وتصطف على جدرانها كتب باللغة الفرنسية، وأعمدتها متماثلة وصفراء باهتة.

شاهد وروداً وفاكهة طازجة على الطاولة في مطبخ ملحق صغير، ولمح دكستر عبر باب آخر غرفة نوم. كان عليهما أن يناقشا ترتيبات النوم، لكنه لم ير إلا سريراً واحداً في الشقة؛ شيئاً كبيراً من الحديد الصلب، عتيق الطراز وثقيلاً؛ كأنه من بيت مزرعة. غرفة نوم واحدة، سرير واحد. لمع ضوء شمس الأصيل من النوافذ، ولفت الانتباه إلى حقيقة الأمر. ألقى نظرة على الأريكة ليتوثق من أنها لا تُفتح ولا يمكن تحويلها إلى سرير. لا، سرير واحد. شعر بالدم ينبض في صدره، رغم أن ذلك ربما كان بسبب الصعود الطويل فقط.

أغلقت الباب وأطبق الصمت.

«إذاً، نحن هنا!».

«إنها رائعة».

«لا بأس بها، المطبخ من هنا». كان الصعود والتوتر قد جعلا إيما تشعر بالعطش فسارت إلى الثلاجة، وفتحتها وأخرجت قارورة من المياه المعدنية. بدأت تشرب، وتتناول جرعات كبيرة، حين وضع دكستر يده فجأة على كتفها، ثم أصبح أمامها بطريقة ما، وقبّلها. كان فمها لا يزال مملوءاً ماءً معدنياً، فزمّت شفتيها بإحكام لتمنع تسربه إلى وجهه مثل سيفون صودا. مالت مبتعدة عنه، وأشارت إلى وجنتيها المنتفختين على نحو سخيف مثل سمكة كروية، وهي تلوّح بيديها وتصدر صوتاً يبدو مثل «انتظر لحظة».

بشهامة، تراجع دكستر خطوة إلى الخلف ليسمح لها بابتلاع الماء. «آسف بشأن هذا».

«لا بأس. لقد فاجأتني، هذا كل شيء». مسحت فمها بقفا يدها.

«لا بأس الآن؟».

«حسنٌ، لكن يا دكستر، يجب أن أخبرك...».

وكان يقبّلها مجدداً، ويضغط بقوة كبيرة في حين تميل هي إلى الخلف فوق طاولة المطبخ التي اهتزت بجلبة على الأرضية، فاضطر إلى أن يتلوّى مبعداً خصره حتى يمنع سقوط آنية الورود.

«ياه!».

«الأمر يا دكس -».

«آسف بشأن هذا، أنا فقط -».

«لكن الأمر –».
«خجولة قليلاً –».
«لقد التقيت شخصاً».
تراجع في الواقع خطوة إلى الخلف.
«التقيت شخصاً؟».
«التقيت رجلاً. أنا أرى هذا الرجل».
«رجل، حسنٌ، لا بأس. إذاً، من؟».
«يدعى جان–بيير دوسوليه».
«هل هو فرنسي؟».
«لا يا دكس، إنه ويلزي».
«لا، أنا متفاجئ فقط، هذا كل شيء».
«متفاجئ لأنه فرنسي، أم متفاجئ لأن لدي حبيباً فعلاً؟».
«لا، فقط، هذا سريع جداً، أليس كذلك؟ أعني أنكِ لم تقضي هنا إلا بضعة أسابيع. هل أفضيت بمكنونات صدرك أولاً، أم...».
«مضى شهران! أنا هنا منذ شهرين، والتقيت جان–بيير منذ شهر».
«وأين التقيت به؟».
«في مطعم صغير قريب».
«مطعم صغير. حسنٌ، كيف؟».
«كيف؟».
«– التقيت به؟».
«حسنٌ، مم، كنت أتناول العشاء بمفردي، أقرأ كتاباً، وكان هذا الرجل مع بعض الأصدقاء وسألني عمّا أقرأه...». تأوه دكستر وهزّ رأسه؛ كأنه حِرفيٌّ يهزأ من عمل شخص آخر. تجاهلته إيما ومشت إلى غرفة المعيشة. «وعلى كل حال، تكلمنا –».
قال دكستر: «ماذا، بالفرنسية؟».
«نعم، بالفرنسية، واتفقنا معاً ونحن الآن... نخرج معاً!». رمت نفسها على الأريكة.
«إذاً، أنت تعرف الآن!».

«حسنٌ، أفهم». ارتفع حاجباه ثم انخفضا مجدداً، وقسمات وجهه تتلوّى في أثناء محاولته استكشاف طرائق ليعبس ويبتسم في الوقت نفسه. «حسنٌ، مرحى لك يا إم، هذا رائع حقاً».

«لا تتكرّم علي يا دكستر؛ كأنني سيدة عجوز وحيدة».

«لا أفعل هذا!». برباطة جأش زائفة، استدار لينظر إلى خارج النافذة نحو الساحة في الأسفل. «إذاً، كيف يبدو؟ جان هذا...».

«جان-بيير. إنه لطيف، ووسيم جداً، وفاتن جداً، وطاهٍ مدهش. وهو يعرف كل شيء عن الطعام، والشراب، والفن، والعمارة. كما تعرف، إنه... فرنسي جداً».

«ماذا؟ أتعنين أنه فظ؟».

«لا -».

«قذر؟».

«دكستر!».

«يتقلّد خيطاً من البصل، ويركب دراجة هوائية؟».

«يا إلهي! أنت لا تُطاق أحياناً».

«حسنٌ، ماذا يُفترض أن يعني ذلك، فرنسي جداً؟».

«لا أعرف. إنه لطيف ومرح جداً و -».

«مثير؟».

«لم أقل كلمة مثير».

«لا، لكنك تبدين مثيرة، وأنت تلعبين بشعرك، وتفتحين أزرار قميصك...».

«إنها كلمة غبية، مثير».

«لكنكما تقيمان علاقات كثيرة، صحيح؟».

«دكستر، لماذا أنت...؟».

«انظري إلى نفسك، أنت تتألقين؛ ذلك التألق المرتبط بالتعرّق».

«لا سبب يدعوك إلى... لماذا تفعل هذا على كل حال؟».

«ماذا؟».

«أن تكون... وضيعاً جداً؛ وكأنني قد فعلت شيئاً خاطئاً».

«أنا لست وضيعاً، أنا فكّرت فقط...». توقف، واستدار لينظر إلى خارج النافذة، وجبينه على الزجاج. «أتمنّى لو أنك قد أخبرتني قبل أن آتي، كنت سأحجز في فندق».

«لا يزال بمقدورك البقاء هنا! سأنام مع جان-بيير الليلة». عرفت حتى وهو يدير ظهره لها أنه قد فزع. «سأنام في منزل جان-بيير الليلة». انحنت إلى الأمام على الأريكة، وهي تضم وجهها بكلتا يديها. «ماذا كنت تظن أنه سيحدث يا دكستر؟».

تمتم على لوح النافذة الزجاجي: «لا أدري، ليس هذا».

«حسنٌ، أنا آسفة».

«لماذا تظنين أنني جئت لرؤيتك يا إم؟».

«لقضاء عطلة، والابتعاد عن الأشياء، لرؤية المناظر!».

«جئت لأتكلم عمّا حدث. أنا وأنت، نصبح أخيراً معاً». التقط معجون زجاج النوافذ بظفره. «ظننت فقط أنها ستكون قضية أكثر أهمية لك، هذا كل شيء».

«لقد نمنا معاً مرة يا دكستر».

«ثلاث مرات!».

«لا أعني عدد مرات الفعل يا دكس، وإنما المناسبة، الليلة، فقد قضينا ليلة واحدة معاً».

«وأنا ظننت أنه شيء يستحق التعليق عليه! الشيء الآتي الذي أعرفه هو أنك هربت إلى باريس وألقيت نفسك تحت أقرب فرنسي...».

«أنا لم أهرب، فقد كانت البطاقة محجوزة سلفاً! لماذا تظن أن كل شيء يحدث بسببك؟».

«ولم تتمكني من الاتصال بي ربما، قبل أن...؟».

«ماذا!؟ لأطلب إذنك؟».

«لا، لتعرفي شعوري حيال ذلك!».

«تمهّل لحظة. أنت منزعج لأننا لم نمتحن مشاعرنا؟ أنت منزعج لأنك تظن أنه كان حرياً بي انتظارك؟».

تمتم: «لا أعرف، ربما!».

«يا إلهي يا دكستر! هل أنت... هل تشعر بالغيرة فعلاً؟».

«طبعاً لا!».

«إذاً، لماذا أنت متجهم؟».

«أنا لست متجهماً».

«انظر إلي إذاً!».

فعل ذلك نكداً، وذراعاه مطويتان عالياً على صدره، ولم يسع إيما إلا أن تضحك.

سأل ساخطاً: «ماذا؟ ماذا؟».

«هل تدرك أن هناك قدراً معيناً من السخرية في هذا يا دكس».

«ما السخرية في الأمر؟».

«أنت تقليدي جداً و... تؤيد العلاقة الأحادية فجأة».

لم يقل شيئاً للحظة، ثم استدار عائداً إلى النافذة.

قالت محاولةً أن تسترضيه: «اسمع، كنا ثملين قليلاً».

«أنا لم أكن ثملاً كثيراً...».

«خلعت سروالك من فوق حذائك يا دكس!». لم يستدر رغم ذلك. «لا تقف بجانب النافذة. تعال واجلس هنا، هلاّ فعلت». رفعت قدميها الحافيتين على الأريكة وكوّرت ساقيها تحتها. نقر اللوح الزجاجي برأسه مرة، مرتين، ثم من دون أن ينظر إلى عينيها مشى في الغرفة وارتمى إلى جانبها؛ مثل طفل أُرسل إلى المنزل من المدرسة. وضعت قدميها على فخذيه.

«حسنٌ، هل تريد أن نتكلم عن تلك الليلة؟ لنتكلم عنها».

لم يقل شيئاً. وكزته بأصابع قدميها، وعندما نظر إليها أخيراً، تكلمت. «لا بأس، دوري أولاً». سحبت نفساً عميقاً. «أظن أنك كنت منزعجاً جداً وثملاً قليلاً وجئت لرؤيتي تلك الليلة وقد... حدث ذلك. أظن أنه مع كل تعاسة الانفصال عن سيلفي، والانتقال من المنزل، وعدم رؤية ياسمين كنت تشعر بالوحدة قليلاً واحتجت إلى كتف تبكي عليها، أو امرأة تنام معها. وهذا ما كنت أنا عليه؛ كنت كتفاً تنام عليها».

«إذاً، هذا هو رأيك؟».

«هذا رأيي».

«... وأنت نمت معي فقط لتجعليني أشعر بتحسن؟».

«هل شعرت بتحسّن؟».

«نعم، أفضل كثيراً».

«حسنٌ وكذلك أنا. إذاً، نجح الأمر».

«... لكن ذلك ليس ما أقصده».

«هناك أسباب أسوأ للنوم مع شخص ما، ويجب أن تعرف هذا».

«لكن، علاقة شفقة؟».

«ليست شفقة، وإنما علاقة تعاطف».

«لا تضايقيني يا إم».

«لا أفعل هذا، وإنما فقط... لا علاقة لذلك بالشفقة، وتعرف هذا. لكن الأمر... معقد. نحن. تعال إلى هنا؟». وكزته مرة أخرى بقدمها، وبعد لحظة مال إليها وكأنه شجرة تسقط، واستقر رأسه على كتفها.

تنهّدت. «نحن نعرف بعضنا منذ وقت طويل يا دكس».

«أعرف، ظننت فقط أنها ربما تكون فكرة سديدة. دكس وإم، إم ودكس، نحن الاثنان، أن نحاول لبعض الوقت، ونرى كيف تجري الأمور. لقد ظننت أن هذا ما أردته أيضاً».

«نعم، هذا ما أردته، في أواخر الثمانينيات».

«إذاً، لماذا ليس الآن؟».

«لأن الوقت قد فات. لقد تأخرنا كثيراً، وأنا متعبة جداً».

«عمرك خمس وثلاثون سنة!».

قالت: «أشعر فقط أن وقتنا قد انقضى، هذا كل شيء».

«كيف تعرفين إن لم نحاول؟».

«دكستر، لقد التقيت شخصاً آخر!».

جلسا بصمت لحظة، يصغيان إلى صراخ الأطفال في الساحة في الأسفل، وأصوات أجهزة التلفاز البعيدة.

«وهل يعجبك هذا الرجل؟».

«يعجبني كثيراً حقاً».

مدَّ يده إلى الأسفل، وأمسك قدمها اليسرى، كانت لا تزال مغبرّة من الشارع. «توقيتي ليس ملائماً، أليس كذلك؟».

«لا، ليس حقاً».

فحص القدم التي يمسكها بيده. كانت الأظفار مطلية باللون الأحمر، لكنها مقلّمة، وأصغرها مشوّه وبالكاد موجود. «قدماك تثيران الاشمئزاز».

«أعرف هذا».

«إصبعك الصغيرة مثل نتوء ذرة سكرية صغير».

«توقف عن اللعب بها إذاً».

«إذاً تلك الليلة...». ضغط بإبهامه على جلدها القاسي. «إذاً، هل كانت فظيعة حقاً؟».

وكزته بقوة في وركه بقدمها الأخرى. «لا تحاول هذا يا دكستر».

«ليس حقاً، أخبريني».

«لا يا دكستر، لم تكن ليلة فظيعة جداً. وفي الواقع، كانت إحدى الليالي التي لا تُنسى في حياتي. لكنني لا أزال أظن أننا يجب أن نترك الأمر على تلك الحال». حرّكت ساقيها بعيداً عن الأريكة، وتزحزحت قليلاً حتى تماس ردفاهما، أمسكت يده، ووضعت رأسها على كتفه آنذاك. حدّق كلاهما إلى الأمام؛ إلى رفوف الكتب، حتى تنهّدت إيما أخيراً. «لماذا لم تقل كل هذا، لا أعرف... قبل ثمانية أعوام؟».

«لا أعرف، كنت مشغولاً جداً بقضاء... وقت ممتع، كما أفترض».

رفعت رأسها لتنظر إليه جانبياً. «والآن، لم تعد تقضي وقتاً ممتعاً، وتفكّر إيما العجوز الجيدة، حاول معها...».

«ليس هذا ما قصدته».

«أنا لست جائزة الترضية يا دكس. أنا لست شيئاً تلجأ إليه. وقد كنت أظن أنني أكثر قيمة من ذلك».

«وأنا أظن أنك أكثر قيمة من ذلك أيضاً، ولهذا السبب جئت إلى هنا. أنت أعجوبة يا إم».

بعد لحظة وقفت فجأة، وأمسكت وسادة، ورمتها بقوة على رأسه، ومشت نحو غرفة النوم. «اخرس يا دكس».

مدَّ يده نحوها حين مرت بجانبه، لكنها أبعدتها عنها. «إلى أين تذهبين؟».

«لأستحم، وأبدّل ثيابي. لا يمكنني الجلوس هنا طوال الليل!». صرخت من الغرفة الأخرى، وهي تسحب بغضب ثياباً من الخزانة وتلقيها على السرير: «بالمحصلة، سيكون هنا بعد عشرين دقيقة!».

«من سيكون هنا؟».

«من تظن؟ حبيبي الجديد!».

«جان-بيير قادم إلى هنا؟».

«آ-ها، عند الساعة الثامنة». بدأت تفك أزرار قميصها الصغيرة، لكنها تخلّت عن ذلك، وسحبته فوراً من فوق رأسها ورمته على الأرضية. «سنخرج جميعاً لتناول العشاء! ثلاثتنا!».

ترك رأسه يسترخي إلى الخلف وأطلق تأوهاً طويلاً خافتاً. «أوه يا إلهي! هل يجب أن نفعل هذا؟».

«أخشى ذلك، فقد جرى الترتيب لكل شيء». كانت عارية آنذاك، وغاضبة من نفسها ومن ذلك الوضع. «سنصطحبك إلى المطعم نفسه الذي التقينا فيه أول مرة! المطعم الصغير الشهير! سنجلس هناك إلى الطاولة نفسها ونمسك أيدي بعضنا ونخبرك كل شيء! سيكون الأمر رومانسياً جداً، جداً». أغلقت باب الحمام بعنف وهي تصرخ عبره: «ولن يكون الأمر بأي حال محرجاً».

سمع دكستر صوت الماء يتدفق في الحمام، واستلقى على ظهره على الأريكة، وهو ينظر إلى السقف، محرجاً آنذاك من تلك الرحلة السخيفة. كان قد ظن أن لديه الجواب، وأن بمقدورهما إنقاذ بعضهما بعضاً، في حين أن إيما في الحقيقة كانت بخير منذ سنوات. إذا كان أحد يحتاج إلى إنقاذ، فسيكون هو.

وربما كانت إيما محقة، ربما كان يشعر بالوحدة قليلاً فحسب. سمع الأنابيب العتيقة تقرقر حين هدأ تدفق الماء، وخطرت له مجدداً؛ تلك الكلمة المريعة المخزية؛ وحيداً. وأسوأ ما في الأمر أنه عرف أن ذلك صحيح. لم يكن قد تخيل في حياته قط أن يكون وحيداً، فقد ملأ في احتفال ذكرى ميلاده يوماً نادياً ليلياً كاملاً في شارع ريجنت. وكان الناس يقفون في صف على الرصيف لدخول المكان. كانت بطاقة هاتفه الخلوي في جيبه تفيض بأرقام هواتف مئات الأشخاص الذين التقى بهم في السنوات العشر الأخيرة، لكن الشخص الوحيد الذي أراد التحدث معه حقاً في كل ذلك الوقت يقف آنذاك في الغرفة

المجاورة.

هل ذلك حقيقي؟ محّص الفكرة مرة أخرى، وعندما اكتشف أنها صحيحة وقف فجأة عاقداً العزم على أن يخبرها فوراً. مشى نحو غرفة النوم ثم توقف.

استطاع رؤيتها عبر ثغرة الباب. كانت تجلس قرب خزانة ملابس صغيرة من الخمسينيات، وشعرها القصير لا يزال رطباً من الاستحمام، مرتدية فستاناً حريرياً أسود عتيق الطراز يصل إلى ركبتيها، زمامه غير مغلق على ظهرها إلى أسفل عمودها الفقري، وهو مفتوحٌ كفاية ليرى الظل تحت عظمتي كتفيها. جلست ساكنة ومنتصبة وأنيقة جداً؛ وكأنها تنتظر أن يأتي شخص ما ويغلق زمام الفستان إلى الأعلى، وبدت الفكرة مغرية جداً؛ وهناك شيء حميمي ومرضٍ جداً بشأن ذلك المظهر، مألوف وجديد. وكاد يدخل الغرفة فوراً. سيغلق زمام الفستان، ثم يقبّل الانحناءة بين عنقها وكتفها ويخبرها.

بدلاً من ذلك، راقب بصمت حين مدّت يدها إلى كتاب على خزانة الثياب؛ معجم فرنسي/إنكليزي ضخم وبالٍ. بدأت تقلّب الصفحات ثم توقفت فجأة، مال رأسها إلى الأمام، وهي تمرّر كلتا يديها على جبينها لتدفع غُرّتها إلى الخلف، وتتأوه بغضب. ضحك دكستر من سخطها، بصمت كما ظن، لكنها نظرت نحو الباب وتراجع بسرعة إلى الخلف. طقطقت ألواح الأرضية تحت قدميه حين وثب على نحو سخيف نحو منطقة المطبخ، فتح كلا الصنبورين وحرّك أكواباً كيفما اتفق تحت الماء المتدفق ليكون ذلك عذراً له. سمع بعد بعض الوقت رنين الهاتف عتيق الطراز، ورفْعَ السماعة في غرفة النوم، فأغلق الصنبورين حتى يسترق السمع إلى الحديث مع جان-بيير. تمتمة حبيب خافتة، بالفرنسية. كافح ليسمع، لكنه فشل في أن يفهم كلمة.

صدح الجرس مرة أخرى حين أغلقت السماعة. انقضى بعض الوقت، ثم رآها تقف في المدخل خلفه. سأل من فوق كتفه، من دون انفعال: «من كان يتكلم عبر الهاتف؟».

«جان-بيير».

«وكيف حال جان-بيير؟».

«إنه بخير، على ما يرام».

«جيد، إذاً، يجب أن أبدّل ثيابي. في أي وقت سيأتي إلى هنا؟».

«لن يأتي».

استدار دكستر. «ماذا؟».

«طلبت منه ألا يأتي».

«حقاً! هل فعلت هذا؟». أراد أن يضحك.

«أخبرته أنني مصابة بالتهاب اللوزتين».

أراد أن يضحك بقوة، لكن ينبغي ألا يفعل ذلك، ليس بعد. جفف يديه. «كيف يقولون هذا؟ التهاب اللوزتين، بالفرنسية؟».

ارتفعت أصابعها إلى حلقها، وقالت بصوت واهن: «جو سوي تري ديسولي، ماي مي غلاند سون غونفليه. جو بنس كو جو بو أفوار لاميغداليت».

«لامي...؟».

«لاميغداليت».

«مفرداتك اللغوية مدهشة».

«حسنٌ، تعرف». هزّت كتفيها بتواضع. «يجب أن تبحث عنها».

ابتسما لبعضهما، ثم - كأن فكرة قد خطرت لها فجأة - اجتازت بسرعة الغرفة في ثلاث خطوات طويلة، وأمسكت وجهه بين يديها، وقبّلته، ووضع يديه على ظهرها، ووجد أن زمام الفستان لا يزال مفتوحاً، والجلد عارٍ وبارد ولا يزال رطباً من الاستحمام. قبّلا بعضهما لبعض الوقت، ثم نظرت إليه بإمعان وهي لا تزال تمسك وجهه بيديها: «إذا عبثت معي يا دكستر...».

«لن أفعل».

«أعني هذا، إذا هزأت مني أو خذلتني أو خنتني من وراء ظهري، فسأقتلك. أقسم بالله، سآكل قلبك».

«لن أفعل ذلك يا إم».

«لن تفعل؟».

«أقسم إنني لن أفعل».

ثم عبست، وهزّت رأسها، ووضعت ذراعيها حوله مرة أخرى، ودفعت وجهها على كتفه، وأصدرت صوتاً بدا تعبيراً عن الغضب تقريباً.

سأل: «ما الأمر؟».

«لا شيء. أوه، لا شيء، فقط...». رفعت بصرها إليه. «ظننت أنني قد تخلصت منك

أخيراً».

قال: «لا أظن أنك تستطيعين ذلك».

القسم الرابع

2002-2005

أواخر العقد الثالث

«لم يتكلموا كثيراً عن مشاعرهم المشتركة. لم تكن العبارات الجميلة والمجاملات الحارة على الأرجح ضرورية بين هؤلاء الأصدقاء المقرّبين».

توماس هاردي، بعيداً عن الحشد المجنون

الفصل السادس عشر

صباح الاثنين
الاثنين 15 تموز 2002

متنزه بلسايز

صدح منبّه المذياع كالمعتاد عند الساعة 07:05. كانت الشمس ساطعة والجو صافياً في الخارج آنذاك، لكن أياً منهما لم يتحرك بعد. بدلاً من ذلك، استلقيا وذراعه حول خصرها، وسيقانهما متداخلة، على سرير دكستر المزدوج في متنزه بلسايز في ما كانت سابقاً شقة عازب، قبل سنوات عديدة.

كان مستيقظاً منذ بعض الوقت، وهو يتمرّن في ذهنه على نبرة صوته وصياغة عبارات عادية وذات مغزى في الوقت نفسه. وعندما شعر أنها تتحرك تكلم. قال عند قفا عنقها، وعيناه لا تزالان مغمضتين، وفمه دبق من النوم: «هل يمكنني أن أقول شيئاً؟».

قالت بحذر قليلاً: «طبعاً».

«أظن أن هذا جنون؛ أعني أن تكون لك شقتك الخاصة».

ابتسمت وظهرها له. «لا بأس».

«أعني، أنت تقضين هنا معظم الليالي على كل حال».

فتحت عينيها. «لا ينبغي أن أفعل هذا».

«لا، أريدك أن تكوني هنا».

استدارت في السرير لتواجهه، ورأت أن عينيه لا تزالان مغمضتين. «دكس، هل؟...».

«ماذا؟».

«هل تطلب مني أن أكون زميلتك في السكن؟».

ابتسم، ومن دون أن يفتح عينيه أمسك يدها من تحت الملاءة وضغط عليها. «إيما، هل بإمكانك أن تكوني زميلتي في السكن؟».

تمتمت: «أخيراً! دكس، هذا كل ما عشت من أجله».

«إذاً، ماذا؟ نعم؟».

«دعني أفكر في الأمر».

«حسنٌ، أخبريني بقرارك، هل ستفعلين؟ لأنك إذا لم تكوني مهتمة، فقد أجلب شخصاً آخر».

«قلت إنني سأفكّر في الأمر».

فتح عينيه. كان قد توقع موافقتها. «ما الذي ستفكّرين فيه؟».

«فقط، لا أعرف. العيش معاً».

«عشنا معاً في باريس».

«أعرف، لكن تلك كانت باريس».

«نحن نعيش معاً تقريباً الآن».

«أعرف، فقط...».

«وغير منطقي أن تستأجري مكاناً، فالإيجار هدر للمال، في سوق العقارات الحالية».

«تبدو مثل مستشاري المالي المستقل. هذا رومانسي جداً». زمّت شفتيها وقبّلته؛ قبلة صباحية حذرة. «لا علاقة لهذا بالتخطيط المالي الصحيح، أليس كذلك؟».

«أساساً، لكنني أظن أيضاً أنه سيكون أمراً... لطيفاً».

«لطيفاً».

«أن تعيشي هنا».

«وماذا عن ياسمين؟».

«ستعتاد على هذا. إضافة إلى ذلك، عمرها سنتان ونصف فقط، وهذا لا يتعلق بها، أليس كذلك؟ أو بوالدتها».

«ألا يمكن أن يصبح المكان...؟».

«ماذا؟».

«ضيقاً. ثلاثتنا في عطلة نهاية الأسبوع».

«سنتدبر أمرنا».

«أين سأعمل؟».

«يمكن أن تعملي هنا حين أكون في الخارج».

«وإلى أين ستأخذ حبيباتك؟».

تنهّد سئماً قليلاً من الدعابة بعد سنة من الإخلاص الجنوني تقريباً. «سنذهب إلى

فنادق بعد الظهر».

أطبق الصمت عليهما مجدداً حين غمغم المذياع. أغمضت إيما عينيها مرة أخرى، وحاولت أن تتخيل نفسها وهي تُفرّغ صناديق كرتونية، وتجد مكاناً لثيابها وكتبها. في الحقيقة، كانت تفضل جو شقتها؛ علّية بهيجة بوهيمية على نحو مبهم في شارع هورنسي. متنزه بلسايز أنيق جداً وفخم، وعلى الرغم من أنها بذلت جهوداً كبيرة، ونقلت تدريجياً بعضاً من كتبها وملابسها إليها، إلا أن شقة دكستر بقيت تعبق بجو سنوات العزوبية: جهاز الألعاب، التلفاز الضخم، السرير الذي يلفت الانتباه. «أتوقع باستمرار أن أفتح خزانة وأُدفن تحت، لا أدري... شلال من السراويل الداخلية أو شيء مماثل». لكنه بذل جهداً، وشعرت أن عليها أن تقدم شيئاً بالمقابل.

قالت: «ربما يجب أن نفكر في شراء مكان ما معاً، شقة أكبر». مرة أخرى، كانا قد تطرقا إلى الموضوع الشائك الذي لا يتكلمان عنه. أطبق الصمت وقتاً طويلاً، وتساءلت إن كان قد نام مجدداً، حتى قال:

«لا بأس، لنتكلم عن هذا الليلة».

وهكذا، بدأ يوم عطلة آخر مثل الذي سبقه والذي سيليه. فهما ينهضان، ويرتديان ملابسهما، وتستخدم إيما المخزون الصغير من الثياب الذي تحتفظ به محشواً في الخزانة المخصصة لها. يستحم أولاً، ثم يحين دورها بعده، وفي أثناء ذلك الوقت يمشي إلى المتجر، ويشتري الصحيفة والحليب إن كان ضرورياً. يقرأ الصفحات الرياضية، في حين تقرأ هي الأخبار. ثم بعد الفطور - الذي يتناولانه في معظم الأحيان صامتين - تُخرِج دراجتها الهوائية من المدخل وتركبها معه نحو النفق. يقبّلان بعضهما كل يوم قبلة الوداع عند الثامنة وخمس وعشرين دقيقة تقريباً.

قال: «ستجلب سيلفي ياسمين عند الساعة الرابعة، وسأعود عند السادسة. هل أنت واثقة أنك لا تمانعين أن تظلي هنا؟».

«طبعاً لا».

«وهل ستكونين بخير مع ياسمين؟».

«بخير. وسنذهب إلى حديقة الحيوانات أو مكان آخر».

ثم قبّلا بعضهما مجدداً، وذهبت إلى العمل، وذهب إلى العمل؛ وهكذا تمضي الأيام أسرع من ذي قبل.

العمل؛ كان يعمل مجدداً في شركته الخاصة، رغم أن «شركة» بدت كلمة مبالغاً فيها قليلاً في ذلك الوقت بالنسبة إلى ذلك المقهى الذي يقدم وجبات جاهزة في شارع سكني بين هايغيت وآرتشوي.

خطرت له الفكرة في باريس، في أثناء ذلك الصيف الغريب والطويل الذي فكّكا فيه حياتيهما، ثم أعادا تجميعهما معاً. كانت تلك فكرة إيما، حين كانا يجلسان خارج مقهى قرب متنزه تلة شامون في الشمال الشرقي. قالت: «أنت تحب الطعام، وتعرف بشأن الشراب، ويمكن أن تبيع قهوة جيدة حقاً، وجبناً مستورداً، وكل تلك الأشياء المكلفة التي يريدها الناس هذه الأيام. لا يجب أن يكون المكان فخماً، وإنما مجرد متجر صغير أنيق حقاً، مع طاولات في الخارج في الصيف». في البداية، لم يكن قد أحب كلمة متجر، أو أن يرى نفسه صاحبَ متجر، أو حتى أسوأ؛ بقّالاً. لكن عبارة متخصص بالطعام المستورد ضربت وتراً حساساً لديه. بدا من الأفضل أن يفكر في ذلك على أنه مقهى أو مطعم يبيع الطعام أيضاً، وأن يعد نفسه رجل أعمال.

لذا، في آخر أيلول، عندما بدأت باريس تفقد أخيراً، بعضاً من تألّقها، سافرا عائدين على متن قطار معاً. سارا، وبشرتاهما سمراوان، ويرتديان ملابس جديدة، ذراعاً بذراع على طول الرصيف، وبدا أنهما قد وصلا إلى لندن لأول مرة في حياتيهما، مع خطط ومشروعات، وقرارات وطموحات.

أومأ أصدقاؤهما بحكمة، على نحو عاطفي؛ وكأنهم عرفوا أن ذلك سيحدث. قدّم دكستر إيما مرة أخرى إلى والده – «طبعاً أتذكر، فقد دعتني فاشياً!» – وعرضا عليه فكرة العمل الجديد على أمل أنه قد يرغب بالمساعدة في التمويل. عندما تُوفيت أليسون برز استنتاج خاص بأن بعض المال قد يذهب إلى دكستر في وقت ملائم، وبدا أن هذه هي اللحظة المناسبة. سراً، كان ستيفن ميهو لا يزال يتوقع أن يخسر ابنه كل قرش. لكن، بدا ذلك ثمناً ضئيلاً يمكن أن يدفعه ليتوثق من أنه لن يظهر على التلفاز مجدداً أبداً. وقد ساعد وجود إيما في ذلك، فهي تعجب والد دكستر، ووجد نفسه لأوّل مرة منذ سنوات يحب ابنه بسببها.

كانا قد وجدا العقار معاً؛ محلاً كان سابقاً لتأجير أفلام الفيديو، يبدو غريباً برفوف الأشرطة التي يعلوها الغبار؛ وكأنه متجر أشباح. لكن، بتشجيع أخير من إيما، أقدم دكستر على تلك الخطوة واستأجر العقار اثني عشر شهراً. في أثناء شهر كانون الثاني الطويل

والماطر أزالا الرفوف المعدنية، ووزعا أجهزة فيديو ستفين سيغال الباقية على مراكز صدقات محلية. جرّدا الجدران من كل ما عليها، وقاما بطلائها بلون أبيض مصفر، ووضعا ألواحاً خشبية داكنة، وذهبا إلى مطاعم ومقاهٍ أخرى مفلسة للحصول على أجهزة جيدة لتحضير القهوة السريعة، وخزائن، وثلاجات بواجهات زجاجية؛ وذكّرته كل تلك الأعمال الفاشلة بما كان على المحك، وكيف يمكن أن يفشل.

لكن إيما كانت هناك دائماً، تشجّعه، وتبقيه مقتنعاً بأنه يفعل الصواب. قال سماسرة العقارات إن المنطقة ستشهد ازدهاراً كبيراً، وستمتلئ ببطء بموظفين شبان يريدون علباً من طعام جيد، زبائن لا يمانعون أن يدفعوا جنيهين مقابل رغيف خبز أو قطعة من جبن الماعز بحجم كرة السكواش. سيكون المقهى من نوع الأماكن التي يأتي إليها الناس ليتباهوا بكتابة رواياتهم.

في اليوم الأول من الربيع، جلسا في الشمس على الرصيف خارج المحل المجدد جزئياً، وكتبا قائمة بأسماء محتملة؛ مجموعة سخيفة من الكلمات مثل: مستودع، شراب، خبز، «باغي» كما تُلفظ في باريس، حتى استقرا على اسم مقهى بيلفيه، ما ينقل أجواء الدائرة التاسعة عشرة إلى جنوب المنطقة إيه1. أسّس شركة محدودة، الثانية بعد «مايهم» للتلفاز، تكون إيما أمينة السر فيها، وشريكة في نسبة ضئيلة لكنها مهمة في الاستثمار. كان المال قد بدأ يأتي من الكتابين الأولين لجولي كريسكول، وبدأت السلسلة التلفازية الكرتونية جزأها الثاني، وهناك حديث عن بضائع: علب أقلام رصاص، بطاقات ذكرى ميلاد، مجلة شهرية أيضاً. لم يكن من الممكن إنكار ذلك، فقد أضحت آنذاك ما تدعوه والدتها «موسرة». بعد أن تنحنحت عدّة مرات، وجدت إيما نفسها في موقف غريب يثير الأعصاب يتمثّل في قدرتها على أن تعرض مساعدة مادية على دكستر. وبعد أن حرّك قدميه قليلاً، وافق على ذلك.

افتتحا المكان في نيسان، ووقف أول ستة أسابيع بجانب النضد الخشبي الداكن، وهو يراقب الناس الذين يدخلون، وينظرون في الأرجاء، ويتنشقون الهواء ويخرجون مجدداً. لكن الخبر بدأ ينتشر بعد ذلك، وبدأت الأشياء تتسارع، ووجد أن بمقدوره توظيف بعض الأشخاص، واستقبال بعض الزبائن المنتظمين.

سرعان ما اكتسب المكان شهرة، وإن يكن ذلك بطريقة أكثر رزانة ومحلية مما توقع. وإذا كان يتمتع بالشهرة فإن ذلك على نطاق محلي فقط، وبسبب مجموعته المختارة من أنواع

مشروبات الأعشاب فقط، لكنه لا يزال محط إعجاب الأمهات اليافعات المتوردات اللواتي يدخلنه لتناول فطائر اللحم بعد صف العناية بالطفل، وسيحقق النجاح، وإن يكن على نطاق ضيق جداً. فتح القفل الثقيل الذي يثبّت مصراع الباب إلى الأرضية، الحار آنذاك بسبب تعرّضه لشمس الصيف القوية. رفعه إلى الأعلى، وفتح الباب، وشعر بأنه ماذا؟ أهو قنوع؟ أو فرح؟ لا، إنّه سعيد، ويحس سراً، ولأوّل مرة منذ سنوات عديدة، أنه فخور بنفسه.

طبعاً هناك أيام ثلاثاء ماطرة طويلة ومملة، يرغب فيها أن يغلق المصراع ويشرب كل الشراب، لكن هذا اليوم ليس كذلك. كان النهار حاراً، وسيرى ابنته الليلة، وسيقضي معها معظم الأيام الثمانية الآتية حين تذهب سيلفي وذلك الوغد كالوم في إحدى عطلاتهما المستمرة الأخرى. وبطريقة غريبة غامضة، كان عمر ياسمين قد بلغ سنتين ونصف السنة، وأصبحت هادئة وجميلة مثل والدتها، ويمكن أن تأتي وتلعب معه وتنزعج من شيء آخر. وعندما يرجع إلى المنزل الليلة ستكون إيما هناك. وجد نفسه، لأول مرة منذ سنوات عديدة، حيث يرغب أن يكون تقريباً. كانت لديه شريكة يحبها ويتوق إليها ويعتبرها أفضل أصدقائه أيضاً، وابنة جميلة وذكية، ويبلي حسناً. سيكون كل شيء على ما يرام، ما لم يتغير شيء.

على بعد ميلين، في نهاية شارع هورنسي، صعدت إيما السلالم، وفتحت قفل الباب الأمامي، وشعرت بالهواء البارد والخانق لشقة لم يدخلها أحد منذ أربعة أيام. حضّرت شاياً، وجلست إلى طاولتها، وشغّلت الحاسوب، وحدّقت إليه نحو ساعة. كان يجب عليها أن تنجز الكثير؛ نصوص السلسلة الثانية من جولي كريسكول لتقرأها وتوافق عليها، خمس مئة كلمة من النسخة الثالثة لتكتبها، والرسوم لتعمل عليها. تلقت رسائل بريد إلكتروني من قرّاء يافعين، وملحوظات شخصية جادة ومحرجة غالباً يجب أن توليها عناية كبيرة، عن الوحدة، والتعرض للمضايقات، وذلك الفتى الذي يعجبني حقاً.

لكن ذهنها عاد للتفكير باستمرار في عرض دكستر. في أثناء الصيف الطويل والغريب في باريس السنة الماضية، كانا قد اتخذا بعض القرارات بشأن مستقبلهما معاً - إن حظيا في الواقع بمستقبل معاً - وكان الشيء المركزي في الخطة أنهما لن يعيشا معاً: حياتان منفصلتان، شقتان منفصلتان، أصدقاء منفصلون. سيحاولان أن يكونا معاً، وسيبقيان مخلصين لبعضهما طبعاً، لكن ليس بطريقة تقليدية. لن تكون هناك زيارات إلى سماسرة عقارات في عطلة نهاية الأسبوع، أو حفلات عشاء مشتركة، أو ورود في مناسبة العشاق،

ولا ممتلكات زوجية أو حياة أسرية، فقد جرّب كلاهما ذلك، ولم ينجح أي منهما.

كانت قد تخيّلت أن ذلك الترتيب متطور ومعاصر، وتصميم جديد للعيش. لكن، بدا أنهما يبذلان جهداً كبيراً ليتظاهرا أنهما لا يريدان أن يكونا معاً، حتى بدا أخيراً أنه أمرٌ محتّم أن يطلب أحدهما ذلك، لكنها لم تتوقع فقط أن يكون دكستر من يفعل ذلك. بقي هناك موضوع واحد فقط لم يتكلما عنه، وبدا آنذاك أن لا طريقة لتفاديه، وأن عليها أن تسحب نفساً عميقاً وتقول الكلمة فحسب؛ أطفال. لا، ليس أطفال، فالأفضل ألا تخيفه، وأن تستخدم الكلمة المفردة، وتقول إنها تريد طفلاً.

كانا قد تكلما عن ذلك من قبل، بطريقة طريفة وغير مباشرة، وقد أصدر جلبة حينها بشأن ربما في المستقبل، حين تصبح الأمور أكثر استقراراً. لكن، كم يمكن أن تصبح الأمور أكثر استقراراً؟ جثم الموضوع هناك في وسط الغرفة، وبقيا يتفاديان التطرق إليه، لكنه يبرز في كل مرة يتصل بها والداها، وتتذكره في كل مرة تقيم فيها علاقة مع دكستر (أقل تواتراً آنذاك مما كان عليه الحال في الشقة في باريس، لكنه لا يزال يحدث كثيراً). أبقاها هذا الأمر مستيقظة في الليل، وبدا أحياناً أن بمقدورها التخطيط لحياتها وفقاً لما يقلقها عند الثالثة صباحاً. كان الأمر يتعلق سابقاً بالفتيان، ثم بالمال، ثم الوظيفة، ثم علاقتها بإيان، ثم الخيانة الزوجية؛ لكنه الآن يتعلق بهذا الموضوع. عمرها ستة وثلاثون عاماً، وهي تريد طفلاً، وإذا لم يكن يريده أيضاً، فربما من الأفضل حينها أن...

ماذا؟ أتنهي العلاقة؟ بدا محزناً ومخزياً أن تُصدر هذا النوع من الإنذار، ولم يكن من الممكن تخيّل فكرة تنفيذ التهديد، في هذا الوقت على الأقل؛ لكنها عقدت العزم على إثارة الموضوع الليلة. لا، ليس الليلة، ليس وياسمين معهما، لكن قريباً، في أقرب فرصة.

بعد صباح مشوّش من إضاعة الوقت، ذهبت إيما للسباحة وقت الغداء، وقطعت المسار ذهاباً وإياباً لكنها لم تستطع رغم ذلك تصفية ذهنها، ثم ركبت دراجتها الهوائية وشعرها لا يزال رطباً وقادتها عائدة إلى شقة دكستر، ووصلت لتجد سيارة دفع رباعي ضخمة سوداء تنتظر خارج المنزل. بدت مثل سيارة أفراد العصابات، واستطاعت رؤية ظلّين عبر الزجاج الأمامي، أحدهما عريض وقصير، والآخر طويل ونحيل؛ سيلفي وكالوم. كلاهما يومئذ بعنف في خضم جدال آخر. تمكنت إيما من سماعهما حتى من الجانب الآخر للطريق، واقتربت على دراجتها منهما حتى استطاعت رؤية وجه كالوم الغاضب. وكانت ياسمين جالسة على المقعد الخلفي، وعيناها ثابتتان على كتاب صور في محاولة للتغاضي عن

الشجار. نقرت إيما على النافذة الأقرب إلى ياسمين، ورأتها ترفع بصرها وتكشر، وظهرت أسنان بيضاء صغيرة في الفم الواسع، وتلوّت إلى الأمام في محاولة للتخلص من حزام الأمان.

أومأت إيما وكالوم لبعضهما عبر نافذة السيارة. كان هناك شيء غريب في آداب السلوك الخاصة بالخيانة الزوجية والانفصال والطلاق، لكن الإخلاص قد أُعلن، والعداوة قد بُيّنت. وعلى الرغم من أنها قد عرفته نحو عشرين سنة إلا أن إيما ينبغي ألا تتكلم مباشرة إلى كالوم. وفي ما يخص الطليقة، كانت سيلفي وإيما قد استقرتا على نبرة معينة؛ هادئة وبسيطة وخالية من الضغينة. لكن، رغم ذلك، برز الكره بينهما مثل ضباب باهت.

قالت سيلفي وهي تُخرج ساقيها الطويلتين من السيارة: «آسفة بشأن هذا! إنّه مجرد اختلاف بسيط في الرأي بشأن كمية الأمتعة التي يجب أن نأخذها معنا!».

قالت إيما من دون معنى: «يمكن أن تكون العطلات مجهدة». فكّت ياسمين حزامها من مقعد السيارة، وتعلّقت بذراعي إيما، وضغطت وجهها على عنقها، ولفّت ساقيها النحيلتين حول وركيها. ابتسمت إيما وهي محرجة قليلاً وكأنها تقول: «ماذا بوسعي أن أفعل؟». وابتسمت سيلفي أيضاً؛ ابتسامة متيبسة ومتكلفة جداً حتى بدا مفاجئاً أنها لم تضطر إلى استخدام أصابعها.

قالت ياسمين في عنق إيما: «أين أبي؟».

«إنه في العمل، لكنه سيعود قريباً جداً».

ابتسمت إيما وسيلفي مرة أخرى.

قالت سيلفي: «كيف يسير العمل في ذلك المقهى؟».

«إنه جيّد حقاً، جيّدٌ حقاً».

«حسنٌ، آسفة لأنني لن أراه. انقلي له محبتي».

مزيدٌ من الصمت، لم يخرجها منه إلا قيام كالوم بتشغيل المحرك.

سألت إيما وهي تعرف الجواب: «هل ترغبان بالدخول؟».

«لا، يجب أن ننطلق».

«إلى أين مجدداً؟».

«المكسيك».

«المكسيك، رائع».

«هل ذهبت إلى هناك من قبل؟».

«لا، لكنني عملت في مطعم مكسيكي سابقاً».

أطلقت سيلفي صيحة استهجان، وجأر صوت كالوم من المقعد الأمامي: «هيا! أريد أن أتفادى الازدحام!».

أُعيدت ياسمين إلى مقعد السيارة لتودّعهما وتسمع كلمات من قبيل «أحسني التصرّف»، و«لا تشاهدي التلفاز كثيراً». وأخرجت إيما بحرص أمتعة ياسمين من الداخل؛ حقيبة قماشية وردية ذات عجلات، وحقيبة ظهر على شكل باندا. عندما أنهت ذلك رأت ياسمين تنتظر بتحفظ على الرصيف، وهي تحمل كومة من كتب الصور قرب صدرها. كانت جميلة وأنيقة وبريئة، وحزينة قليلاً؛ ابنة والدتها بالتأكيد، ولا تشبه إيما في شيء.

«يجب أن نذهب. تسجيل الإقامة في الفنادق كابوس هذه الأيام». ثنت سيلفي ساقيها الطويلتين إلى داخل السيارة مثل سكين تطوى، وكالوم يحدّق إلى الأمام.

«إذاً، استمتعا في المكسيك. استمتعا بالسباحة تحت الماء».

قالت سيلفي بحدّة غير متعمدة: «لا سباحة، وإنما غوص. السباحة هي ما يفعله الأطفال».

كظمت إيما غيظها. «أنا آسفة. الغوص إذاً! لا تغرقا!». رفعت سيلفي حاجبيها، وشكّل فمها دائرة صغيرة. ماذا يمكن لإيما أن تقول؟ عنيت ذلك يا سيلفي، أرجوكما لا تغرقا، لا أريد أن تغرقا؟ فات الأوان، فقد وقع الضرر، وتبعثر وهم تضامن الفتيات. طبعت سيلفي قبلة على رأس ياسمين، وأغلقت الباب بعنف ورحلا.

وقفت إيما وياسمين ولوّحتا.

«إذاً يا حلوة، والدك لن يعود حتى السادسة. ماذا تريدين أن تفعلي؟».

«لا أعرف».

«الوقت باكر، هل يمكن أن نذهب إلى حديقة الحيوانات؟».

أومأت ياسمين بقوة. أخرجت إيما تذكرة أسرية لحديقة الحيوانات، ودخلت الشقة لتستعد لقضاء أصيل يوم آخر مع ابنة شخص آخر.

جلست السيدة ميهو سابقاً في السيارة السوداء الكبيرة وهي تصالب ذراعيها فوق

صدرها، وتسند رأسها على الزجاج الداكن، وتطوي قدميها تحتها على المقعد، في حين يطلق كالوم الشتائم على حركة السير في طريق إيوستون. لم يكونا يتكلمان إلا نادراً هذه الأيام، ويصرخان ويهسّان فقط. وهذه العطلة، مثل الأخرى؛ محاولة لإصلاح الأمور.

لم تكن السنة الأخيرة في حياتها ناجحة، وقد كشف كالوم عن أنه شخص فظ ووضيع، وتبين أن ما عدّته حافزاً وطموحاً هو عدم رغبة بالعودة إلى المنزل في الليل، وشكّت أنه يقيم علاقات جنسية. بدا أنه يستاء من وجود سيلفي في منزله، ووجود ياسمين أيضاً؛ ويصرخ عليها لأنها تتصرف مثل أي طفلة في مثل عمرها، أو يتفادى صحبتها، ويجأر بعبارات سخيفة: «مقابل ماذا يا ياسمين؟ مقابل ماذا؟»، رغم أن عمرها سنتان ونصف بحق الله! وعلى الرغم من عدم كفاءته أو تحمّله المسؤولية، إلا أن دكستر على الأقل كان لطيفاً، ورائعاً أحياناً. أما كالوم من جهة أخرى فيعامل ياسمين مثل موظف لا يجيد عمله. وإذا كان أفراد أسرتها حذرين من دكستر، فإنهم بالتأكيد يحتقرون كالوم.

آنذاك، كلما رأت طليقها تجده يبتسم ابتسامة واسعة تكشف عن سعادته؛ وكأنه عضو في جماعة ما، يقذف ياسمين في الهواء، ويحملها على ظهره وكتفيه، ويؤكد في كل مناسبة أنه أصبح أباً رائعاً. وتلك المرأة إيما أيضاً تحبها ياسمين كثيراً، وكل ما تتكلم عنه هو: إيما فعلت هذا، وإيما فعلت ذاك، وكيف أنها أفضل أصدقاء ابنتها. جلبت ياسمين إلى المنزل قطعاً من المعكرونة مرفقة ببطاقة ملونة، وعندما سألتها سيلفي عن ذلك قالت إنها إيما، ثم أسهبت في الكلام عن رحلتهما إلى حديقة الحيوانات معاً. كانت لديهما تذكرة أسرية على ما يبدو. يا للهول! اعتدادهما الذي لا يُطاق بنفسيهما، دكس وإم، إم ودكس؛ هو في متجره الصغير على الزاوية – يمتلك كالوم ثمانيةً وأربعين فرعاً من «الغذاء الطبيعي»، بالمناسبة – وهي بدراجتها الهوائية، وخصرها الذي يزداد بدانة، وسلوكها الطلابي، ومظهرها الغريب اللعين. في ذهن سيلفي كان هناك شيء فاسد وماكر أيضاً في حقيقة أن إيما قد تحوّلت من صديقة إلى زوجة أب؛ وكأنها كانت تتوارى هناك دائماً، وتحوم، وتنتظر أن تقوم بخطوتها. لا تغرقا! بقرة وقحة.

إلى جانبها، أطلق كالوم الشتائم على حركة السير في طريق ماريلبون، وشعرت سيلفي بامتعاض شديد من سعادة الآخرين؛ مترافقاً مع تعاسة أن تجد نفسها في الفريق الخطأ مرة واحدة، ومع الحزن أيضاً، بسبب بشاعة كل تلك الأفكار وفظاظتها وضغينتها. بالمحصلة، كانت هي التي تركت دكستر وفطرت قلبه.

كان كالوم يشتم آنذاك حركة السير في الطريق الغربي. أرادت أن تنجب طفلاً آخر قريباً، لكن كيف؟ كان ينتظرها أسبوع من الغوص في فندق فخم في المكسيك، وهي تعرف سلفاً أن ذلك لن يكون كافياً.

الفصل السابع عشر

ملف خطاب اليوم المهم
الثلاثاء 15 تموز 2003

شمالي يوركشاير

لم يكن كوخ العطلات يشبه مطلقاً ما يظهر في الصور. فهو صغير ومظلم وتفوح منه رائحة كوخ العطلات، ومعطّر الجو والخزائن العتيقة، ويبدو أنه احتفظ ببرودة الشتاء في جدرانه الحجرية السميكة، لذا كان بارداً ورطباً حتى في يوم تموزيٍّ حار.

على الرغم من ذلك، لم يبدُ ذلك مهماً، فالمكان ملائم ومنعزل، ومنظر مستنقعات شمالي يوركشاير مدهش، حتى عبر النوافذ الصغيرة. كانا يخرجان معظم الأيام ليتنزها أو يغوصا على طول الساحل، وليزورا منتجعات قديمة بجانب البحر تتذكرها إيما من رحلات طفولتها، بلدات صغيرة مغبرّة تبدو عالقة في 1976. كانا في ذلك اليوم – الرابع من رحلتهما – في فيلي، يمشيان على طول المتنزه الواسع الذي يطل على الشاطئ الشاسع الذي لا يزال خالياً تقريباً يوم الثلاثاء في أثناء الفصل الدراسي.

«انظر إلى هناك، إنه المكان الذي عضَّ فيه كلب شقيقتي!».

«هذا مثير للاهتمام، أي نوع من الكلاب؟».

«أوه، أنا آسفة، هل أجعلك تشعر بالملل؟».

«قليلاً فقط».

«عوّد نفسك إذاً، فلا تزال أمامنا أربعة أيام».

في الأصيل، كان يجب أن يذهبا إلى شلال في نزهة طموحة قد خططت لها إيما في الليلة السابقة، لكنهما وجدا نفسيهما بعد ساعة في المستنقعات يحدّقان بذهول إلى خريطة المساحة قبل أن يستسلما، ثم استلقيا على الخلنج الجاف واسترخيا في الشمس. كانت إيما قد أحضرت كتيباً عن الطيور ومنظاراً عسكرياً ضخماً؛ بحجم ووزن محرك ديزل، رفعته آنذاك بجهد ملحوظ إلى عينيها.

«انظر، في الأعلى هناك. أظن أنه صقر».

«همم».

«ألقِ نظرة. هيا، هناك في الأعلى».

«لست مهتماً بذلك، أنا نائم».
«كيف يمكن ألا تكون مهتماً؟ إنه جميل».
«أنا يافع جداً على مراقبة الطيور».
ضحكت إيما. «أنت سخيف، وتعرف هذا».
«نحن هائمان على وجهنا وهذا سيئ كفاية. الشيء الآتي سيكون الموسيقى الكلاسيكية».
«مراقبة الطيور أمر رائع جداً».
«إذاً، ستكون البستنة، ثم ستشترين جينزاً من مارك وسبنسر، وسترغبين بالانتقال إلى الريف. سندعو بعضنا عزيزي وعزيزتي. لقد رأيت هذا يحدث يا إم. إنه منحدر زلق».
رفعت نفسها على ذراع واحدة، ومالت نحوه وقبّلته. «ذكّرني مجدداً، لماذا سأتزوجك؟».
«لم يفت أوان إلغاء ذلك بعد».
«هل سنستعيد وديعتنا؟».
«لا أظن هذا».
«لا بأس». قبّلته مجدداً. «دعني أفكّر في الأمر».
كانا سيتزوجان في تشرين الثاني، وسيقيمان حفل زفاف صغيراً ومتواضعاً في مكتب زواج، يتبعه حفل استقبال صغير لعدد محدود من الأصدقاء المقرّبين وأفراد الأسرة في مطعم محلي مفضّل لديهما. لن يكون - كما أصرّا - زفافاً حقيقياً، وإنما مجرد عذر لإقامة حفلة. ستكون النذور مدنية وليست عاطفية جداً، ويجب عليهما كتابتها؛ وهذا شيء محرج جداً، كما تخيلا، أن يجلسا وجهاً لوجه ويكتبا تلك الوعود لبعضهما.
«ألا يمكننا فقط استخدام النذور التي قدّمتها لزوجتك السابقة؟».
«لكن، ستعدينني بأن تطيعيني، صحيح؟».
«فقط إن أقسمت أنك لن تلعب الغولف أبداً».
«وستحملين لقبي؟».
«إيما ميهو، ظننت أنه سيكون أسوأ».
«يمكن أن تستخدمي لقبك كصلة بينهما».
«مورلي-ميهو. يبدو مثل قرية في كوستولدز. لدينا مكان صغير خارج مورلي - ميهو

تماماً».

وكانت تلك طريقة مقاربتهما لليوم المهم: ثرثرة، لكن بهجة حذرة ومتحفّظة.

كان ذلك الأسبوع في يوركشاير آخر فرصة لهما لقضاء عطلة قبل يومهما المهم المتواضع. وإيما ملتزمة بموعد نهائي، ودكستر يشعر بالقلق بشأن ترك العمل أسبوعاً كاملاً. لكن، على الأقل ستسمح لهما الرحلة بزيارة والدي إيما، وهي مناسبة عدّتها والدتها مثل قيام أسرة ملكية بقضاء ليلة عندها. كانت مناديل المائدة على الطاولة، بدلاً من مشمّع المطبخ المعتاد، وكعكة وقارورة شراب في الثلاجة. بعد انتهاء علاقة إيما بإيان بدا أن سو مورلي لن تحب مجدداً أبداً، لكنها أصبحت أكثر تعلقاً بدكستر؛ فهي تجامله بصوت غريب وتلفظ الكلمات بوضوح، مثل ساعة ناطقة مغناج. من جانبه، جاملها دكستر، في حين لم يستطع باقي أفراد أسرة مورلي أن يفعلوا شيئاً إلا التحديق بصمت إلى بلاط الأرضية ومحاولة عدم الضحك. لم تهتم سو لذلك، وبدا لها أن وهماً قائماً منذ أمد بعيد قد تحقق: كانت ابنتها ستتزوج في الواقع من الأمير أندرو.

رأته إيما عبر عيون أسرتها، وقد شعرت بالفخر بدكستر الذي تلألأ أمام سو، وبدا مرحاً ومسلياً مع أبناء عمها، ومهتماً حقاً بحديث والدها وفرص اليونايتد في الفوز بالدوري. بدا أن شقيقة إيما الصغرى فقط تشكك في صدقه وإخلاصه. ولم يكن مزاج ماريان — المطلقة، والتي لديها طفلان آنذاك، والمستاءة والمرهقة دائماً – ملائماً لزفاف آخر. تكلما تلك الليلة في أثناء الجلي.

«لماذا تتكلم أمي بذلك الصوت السخيف، هذا ما أريد أن أعرفه».

«يعجبها». وكزت إيما ذراع شقيقتها. «يعجبك أيضاً، أليس كذلك؟».

«إنه لطيف، ويعجبني. ظننت فقط أنه شخصية مهمة أو شيء من هذا القبيل».

«قبل وقت طويل ربما، لكن ليس الآن».

أحجمت ماريان على نحو ظاهر للعيان عن قول شيء عن النمور وبقعها.

تخليا عن البحث عن الشلال، وقادا السيارة بدلاً من ذلك عائدين إلى المقهى المحلي، حيث تناولا رقائق البطاطا ولعبا ألعاباً مختلفة طوال بعد الظهر.

قال دكستر وهو يجمع الكرات من أجل اللعبة: «لا أظن أنني أعجبت شقيقتك كثيراً».

«طبعاً أعجبتها».

«بالكاد تكلمت معي».
«إنها خجولة فقط ونكدة قليلاً. إنها هكذا، شقيقتنا تلك».
ابتسم دكستر. «لهجتك».
«ماذا عنها؟».
«تتحدثين بلهجة شمالية قديمة منذ جئنا إلى هنا».
«حقاً؟».
«منذ وصولنا إلى هذه المنطقة».
«لا تمانع، أليس كذلك؟».
«لا أمانع إطلاقاً. دور من الآن؟».

فازت إيما باللعبة، ومشيا عائدين إلى الكوخ في ضوء الغروب. كانت عطلة عمل، والخطة تنص على قضاء اليوم معاً وترك إيما تعمل في الليل، لكن الرحلة تزامنت مع أكثر الأيام خصوبة في دورة إيما، وأصبحا ملزمين بالاستفادة إلى أقصى حد من تلك الفرص آنذاك. تمتم دكستر حين أغلقت إيما الباب وقبّلته: «ماذا؟ مجدداً؟».

«فقط إن كنت تريد».
«لا، أريد ذلك، لكنني أشعر فقط أنني في... مزرعة توليد أو شيء من هذا القبيل».
«أوه، أنت كذلك حقاً. أنت كذلك».

بحلول الساعة التاسعة، كانت إيما نائمة على السرير الكبير غير المريح، والضوء لا يزال قوياً في الخارج، واستلقى دكستر لبعض الوقت وهو يصغي إلى أنفاسها، وينظر إلى الخارج نحو البقعة الصغيرة من المستنقع الأرجواني التي يمكن رؤيتها عبر نافذة غرفة النوم. قلقاً آنذاك، انسلّ من السرير، وارتدى بعض الثياب ونزل بهدوء على السلالم إلى المطبخ، حيث كافأ نفسه بكأس شراب وتساءل عمّا يفترض بهما أن يفعلاه. وجد دكستر، المعتاد على براري أوكسفوردشاير تلك، هذا النوع من العزلة مثيراً للأعصاب، ولم يكن بمقدوره أن يأمل في اتصال حزمة عريضة، لكن في كتيّب الإعلان كان الكوخ قد تباهى بقوة أيضاً بافتقاره إلى تلفاز، وجعله الصمت قلقاً. اختار من جهاز آي - بود بعض أعمال ثيلونيوس مونك - وجد نفسه يستمع إلى المزيد من موسيقى الجاز هذه الأيام - ثم عاد إلى الأريكة، مثيراً سحابة من الغبار، وأمسك كتابه. على سبيل الدعابة، كانت إيما قد اشترت له نسخة من

مرتفعات ويذرينغ ليقرأها في الرحلة، لكنه وجد الكتاب غير مشوّق أبداً تقريباً، لذا بدلاً من ذلك مدَّ يده إلى حاسوبه المحمول، وفتحه وحدّق إلى الشاشة.

كان يوجد في ملف يدعى وثائق شخصية ملف آخر يدعى «متفرّقات» فيه ملف حجمه 40 كيلوباتياً فقط سمّاه خطاب اليوم المهم: وفيه نص خطابه كعريس. كان رعب أدائه الأحمق، وغير المتجانس، وشبه المرتجل في حفل زفافه السابق لا يزال ماثلاً في ذهنه، وبدا عاقد العزم على تقديم خطاب جيد، والبدء بالعمل عليه باكراً.

حتى ذلك الوقت، كان نص الخطاب كالآتي:

خطاب السيد العريس

بعد علاقة رومانسية عابرة... إلخ.

كيف التقينا؟! في الجامعة نفسها لكنني لم أعرفها قط. رأيتها في المكان، غاضبة دائماً بشأن شعرها الفظيع. هل نعرض صوراً؟ ظننت أنني أنيق، وأرتدي ملابس قطنية، أو هذا ما تخيّلته. تعرّفت إليها أخيراً. دعت والدي فاشياً.

صديقان رائعان تعرّضت علاقتهما لمد وجزر. أنا كنت أحمقَ. أحياناً لا أرى الشيء حتى لو كان أمام وجهي. (مبتذل).

كيف أصف إم، وسجاياها المتعددة؟! مضحكة، ذكية، راقصة جيدة حين تفعل، لكنها طاهية مريعة. ذوّاقة في الموسيقى. نتجادل، لكن يمكننا دائماً أن نتحدث ونضحك. جميلة لكنها لا تعرف هذا دائماً... إلخ إلخ. رائعة مع ياس، وتتوافق حتى مع طليقتي! ها ها ها. الجميع يحبها.

فقدنا الاتصال ببعضنا. تسكعنا قليلاً في باريس.

أصبحنا معاً أخيراً، والعلاقة الرومانسية العابرة قبل 15 سنة أضحت أخيراً تبدو منطقية. كل الأصدقاء يخبروننا هذا، ونحن أكثر سعادة من ذي قبل.

(توقف في حين يتثاءب الضيوف معاً).

أقر أنه الزواج الثاني. سيكون الأمر على ما يرام هذه المرة. شكراً يا متعهدي الطعام. شكراً يا سو وجيم على ترحيبكما بي. أشعر أنني شمالي مكرّم... إلخ. برقيات؟ أصدقاء غائبون. آسف؛ لأن أمي ليست هنا. كانت ستوافق على هذا، أخيراً!

نخب زوجتي الجميلة... إلخ، إلخ.

كانت تلك بداية، والبنية موجودة هناك. بدأ العمل جاداً، وبدّل الخطّ من أندلسي إلى كوفي إلى نسخ وبالعكس، وجعله كله مائلاً، تفقد تعداد الكلمات، وعدّل الفقرات والهوامش حتى يبدو أكثر واقعية.

أخيراً، بدأ ينطق الكلمات بصوتٍ عالٍ، ويستخدم النص كملحوظات، ويحاول أن يتذكر الفصاحة التي كان يتكلم بها سابقاً على التلفاز.

«أود فقط أن أشكر الجميع على مجيئهم إلى هنا اليوم...».

لكنه سمع طقطقة ألواح الأرضية فوق رأسه فأغلق غطاء الحاسوب بسرعة، ووضعه خلسة تحت الأريكة، وأمسك مرتفعات ويذرينغ.

عارية ونعسى، نزلت إيما على السلالم، وتوقفت في منتصف الطريق وجلست تلف ذراعيها حول ركبتيها. تثاءبت. «ما الوقت؟».

«العاشرة إلا ربعاً. الوقت ينقضي بسرعة يا إم».

تثاءبت مرة أخرى. «لقد أتعبتني». ضحكت. «أيها القوي».

«اذهبي وارتدي بعض الثياب، هلاّ فعلت».

«ماذا تفعل على كل حال؟». رفع مرتفعات ويذرينغ وابتسمت إيما. «لا يمكنني العيش من دون حياتي! لا يمكنني العيش من دون روحي!! أم إنها أن أحب من دون حياتي، أو أن أعيش من دون حبي؟ لا أتذكر».

«لم أصل إلى ذلك الجزء بعد. هناك امرأة تدعى نيلي تتكلم كثيراً».

«يصبح الأمر أفضل، أعدك».

«أخبريني مجدداً، لماذا لا يوجد تلفاز هنا؟».

«القصد أن نتسلى وحدنا. عد إلى السرير وتكلم معي».

وقف واجتاز الغرفة، ومال على الدرابزين وقبّلها. «عديني ألا تجبريني على إقامة علاقة أخرى».

«ماذا سنفعل غير ذلك إذاً؟».

قال وهو يبدو مرتبكاً قليلاً: «أعرف أن هذا يبدو غريباً، لكنني لن أمانع لعبةَ سكرابل».

الفصل الثامن عشر

المنتصف
الخميس 15 تموز 2004

متنزه بلسايز

بدا أن شيئاً غريباً يحدث لوجه دكستر.

كان شعر أسود خشن قد بدأ ينبت بكثافة على وجنتيه، ويتصل بالشعر الأشيب الطويل الذي يزحف من حاجبيه، وكأن ذلك لم يكن كافياً، فقد بدأ زغب ناعم يظهر حول فتحتي أذنيه وأسفل شحمتي أذنيه؛ شعرٌ بدا أنه ينبت بين عشية وضحاها مثل رشاد، ولا فائدة منه سوى لفت الانتباه إلى حقيقة أنه يقترب من وسط العمر. لقد أصبح في منتصف العمر.

كان هناك أيضاً حد الشعر، الملحوظ على نحو خاص آنذاك بعد الاستحمام؛ خطّان متوازيان يتسعان تدريجياً ويشقان طريقيهما إلى قمة رأسه، حيث سيلتقي الدربان يوماً ما وينتهي كل شيء. جفّف شعره بمنشفة، ثم فركه في هذا الاتجاه وذاك بأطراف أصابعه حتى غطّى الخط.

كان شيء غريب يحدث لعنق دكستر، وقد برز عنده ذلك الارتخاء، تلك الكتلة اللحمية تحت ذقنه، كيس منتفخ، مثل مريلة حول عنق طفل. وقف عارياً أمام مرآة الحمام ووضع يده على عنقه وكأنه يحاول إعادتها كلها إلى مكانها. بدا الأمر مثل العيش في منزل غائر في الأرض؛ فهو يستيقظ كل صباح ويفحص موقع الشقوق الجديدة، والانزلاق الجديد في الليل. بدا له أن اللحم ينفسخ بطريقة ما عن الهيكل العظمي، وتلك هي البنية المميزة لشخص كانت عضويته في النادي الرياضي قد انتهت منذ أمدٍ بعيد. شاهد بداية ظهور كرش، وأكثر ما أثار دهشته أن هناك شيئاً غريباً يحدث لحلمتَي صدره، وأصبح لا يستطيع إرغام نفسه على ارتداء بعض قطع الثياب آنذاك، كالقمصان الضيقة والكنزات الصوفية المضلّعة؛ لأن بمقدور المرء أن يشاهدهما هناك، مثل صدفتين؛ شيء خاص بالفتيات ومثير للاشمئزاز. بدا أيضاً سخيفاً في أي كنزة مع قلنسوة. وضبط نفسه في الأسبوع الماضي فقط يقف منتشياً وهو يصغي إلى برنامج أسئلة البستاني. سيبلغ عمره بعد أسبوعين أربعين عاماً.

هزَّ رأسه، وأخبر نفسه أن ذلك ليس كارثياً. إذا استدار ونظر إلى نفسه فجأة، ورفع رأسه بطريقة معينة، فسيبدو أنه، لنقل، في السابعة والثلاثين؟ كان مغروراً كفاية ليعرف أنه لا يزال رجلاً حسن المظهر، لكن لم يعد أحد يدعوه وسيماً آنذاك، ولطالما فكّر أنه سيتقدم في العمر على نحو أفضل من ذلك. كان قد تمنّى أن يشيخ مثل نجم سينمائي: نحيل، قوي، أشيب الصدغين، متكلّف. بدلاً من ذلك، كان يتقدم في العمر مثل مقدّم برامج تلفازية؛ مقدم برامج سابق، تزوج مرتين، مقدم برامج يتناول كميات كبيرة من الجبن.

جاءت إيما عارية من غرفة النوم، وبدأ تنظيف أسنانه الذي يمثّل هاجساً آخر له؛ شعر أن فمه قديم، وأنه لن يصبح نظيفاً مجدداً أبداً.

تمتم وفمه مملوء رغوة: «أنا أصبح بديناً».

قالت من دون اقتناع: «لا، لست كذلك».

«بلى، انظري».

قالت: «إذاً، لا تأكل كثيراً من الجبن».

«ظننت أنكِ قلت إنني لا أصبح بديناً».

«إذا كنت تشعر بهذا، فأنت بدين».

«وأنا لا أتناول كثيراً من الجبن. الأيض لدي يتباطأ، هذا كل شيء».

«إذاً، قم ببعض التمارين، اذهب إلى النادي الرياضي مجدداً، تعال للسباحة معي».

«لا وقت لدي، صحيح؟». عندما أخرج فرشاة الأسنان من فمه قبّلته مواسية. تمتم: «انظري، أنا في حالٍ يرثى لها».

«لقد أخبرتك من قبل يا عزيزي، لديك ثديان جميلان». ضحكت، ووكزته على ردفه ثم دخلت الحمام. غسل فمه، وجلس على كرسي المرحاض يراقبها.

«يجب أن نذهب ونرى ذلك المنزل هذا الأصيل».

تأوهت إيما وسمع صوتها رغم تدفق الماء. «هل يجب أن نفعل هذا؟».

«حسنٌ، لا أعرف كيف سنجد منزلاً بخلاف ذلك».

«لا بأس، لا بأس! سنذهب ونرى المنزل».

تابعت الاستحمام وظهرها له، ووقف ومشى إلى غرفة النوم ليرتدي ثيابه. كانا

عدوانيين ونزقين مرة أخرى، وأخبر نفسه أن السبب في ذلك يعزى إلى محاولتهما العثور على مكان يعيشان فيه. كانت الشقة قد بيعت آنذاك، وجزء كبير من مقتنياتهما في المخزن لإفساح مساحة لهما. إذا لم يجدا مكاناً ما قريباً فسيضطران إلى الاستئجار، وكل هذا يسبب التوتر والقلق.

لكنه عرف أن شيئاً آخر يجيش في صدرها، وبدا واثقاً كفاية بذلك، وعندما كانت إيما تنتظر المغلاة وتقرأ الصحيفة، قالت فجأة: «لقد جاءني الطمث».

سأل: «متى؟».

قالت بهدوء متعمّد: «الآن. يمكنني أن أشعر بها تحدث».

قال: «أوه، حسنٌ»، وتابعت إيما تحضير القهوة، وظهرها له.

وقف ليلفَّ ذراعيه حول خصرها ويقبّل مؤخر عنقها الذي لا يزال رطباً من الاستحمام. لم ترفع بصرها عن الصحيفة. قال وهو يقف هناك وذقنه على كتفها لبعض الوقت: «لا يهم، سنحاول مجدداً، صحيح؟». لم يكن موقفاً مريحاً، وعندما قلبت صفحة الصحيفة، عدَّ ذلك إشارة ليعود إلى الطاولة.

جلسا وقرأا: إيما الشؤون الحالية، ودكستر الرياضة، وتوتر كلاهما سخطاً حين أطلقت إيما صيحة استهجان وهزّت رأسها بتلك الطريقة الجنونية التي تفعلها أحياناً. هيمن استجواب كبير الموظفين بشأن أسباب الحرب على العناوين، وشعر أنها على وشك أن تُدلي بتعليق سياسي. ركّز على آخر نبأ من ويمبلدون، لكن...

«هذا غريب، أليس كذلك؟ كيف تدور رحى هذه الحرب، ولا احتجاج عملياً عليها؟ أعني، تظن أنه يجب تنظيم مسيرات أو شيء مماثل، أليس كذلك؟».

أغضبته نبرة الصوت تلك أيضاً، وهي نفسها التي يتذكرها من كل تلك السنوات الماضية: صوتها الطلابي المتعالي الذي يدّعي الصلاح. أصدر دكستر صوتاً هادئاً، غير متحدٍّ أو موافق، على أمل أن يكون ذلك كافياً. انقضى الوقت، وقُلبت صفحات الصحيفة.

«أعني ستظن أن هناك شيئاً مثل حركة مناهضة الحرب على فيتنام، لكن لا شيء. تلك المسيرة الوحيدة فقط، ثم هزَّ الجميع أكتافهم وذهبوا إلى منازلهم. حتى الطلاب لا يحتجون!».

قال، بلطفٍ كافٍ، كما اعتقد: «ما علاقة هذا بالطلاب؟».

«إنه تقليد، أليس كذلك؟ الطلاب يهتمون بالسياسة. لو أننا كنا لا نزال طالبين، لاعترضنا على ذلك». عادت إلى الصحيفة. «أنا كنت سأفعل على كل حال».

كانت تستفزّه. حسنٌ، إن كان ذلك ما تريده. «إذاً، لماذا لا تفعلين ذلك؟».

نظرت إليه بحدّة. «ماذا؟».

«الاحتجاج، إن كنت تشعرين بذلك بقوة».

«ذلك ما أقصده تماماً. ربما يجب أن أفعل! تلك كانت ملحوظتي بالضبط! إذا كان هناك نوعٌ من الحركة المتماسكة...».

عاد إلى الصحيفة، عاقد العزم على التزام الهدوء لكنه لم يستطع فعل ذلك. «أو ربما لأن الناس لا يمانعون».

«ماذا؟». نظرت إليه وقد عقدت حاجبيها.

«الحرب. أعني إذا كان الناس يكرهونها حقاً فسيكون هناك محتجّون، لكن ربما الناس سعداء لرحيله. لا أعرف إن لاحظت يا إم، لكنه لم يكن رجلاً لطيفاً جداً...».

«يمكن أن تشعر بالسعادة لأنه رحل وتكون ضد الحرب في الوقت نفسه».

«ذلك قصدي. الأمر ملتبس، أليس كذلك؟».

«ماذا؟ هل تظن أنها حرب عادلة قليلاً؟».

«ليس أنا بالضرورة، بل الناس».

«لكن، ماذا عنك؟». أغلقت الصحيفة، وانتابه إحساس غامر بعدم الارتياح. «ما رأيك؟».

«ما رأيي أنا؟».

«ما رأيك؟».

تنهّد. فات الأوان آنذاك، ولا مجال للتراجع. «أظن فقط أن كثيراً من الناس من اليسار كانوا ضد الحرب عندما كان الناس الذين يقتلهم هذا الرجل هم أنفسهم الذين ينبغي باليسار أن يدعمهم».

«مثل من؟».

«مثل النقابيين والمطالبين بالمساواة بين الجنسين». هل يجب أن يقول الأكراد؟ هل كان ذلك صحيحاً؟ قرر أن يجرب. «الأكراد!».

تنشّقت إيما. «أوه، تظن أننا نخوض هذه الحرب لحماية النقابيين؟ تظن أن بوش قام بالغزو لأنه كان قلقاً بشأن محنة النساء؟».

«كل ما أقوله هو أن المسيرة المناهضة للحرب ستحظى بصدقية أكبر لو أن الأشخاص أنفسهم احتجوا ضد النظام في المقام الأول! لقد احتجوا ضد سياسة التمييز العنصري، فلماذا لم يفعلوا ضد النظام؟».

«... والصين وروسيا وكوريا الشمالية!؟ لا يمكن أن تحتج ضد الجميع».

«لِمَ لا؟ كنت تفعلين هذا!».

«هذا خارج الموضوع!».

«حقاً؟ عندما عرفتك أول مرة، كل ما كنت تفعلينه هو مقاطعة أشياء. لم يكن بوسعك تناول لوح مارس من دون محاضرة عن المسؤولية الشخصية. ليست غلطتي أنك قد أصبحت قانعة...».

عاد إلى أخبار الرياضة السخيفة وابتسم بتكلف راضياً عن نفسه، وشعرت إيما أن وجهها بدأ يحمر. «أنا لم أصبح... لا تغيّر الموضوع! القصد هو أنه من السخف أن تدّعي أن هذه الحرب بشأن حقوق الإنسان، أو أسلحة الدمار الشامل، أو أي شيء مماثل. إنها بسبب شيء، وشيء واحد فقط...».

تأوه، وبدا ذلك محتماً آنذاك، كانت ستقول «النفط». أرجوك، أرجوك لا تقولي «النفط»...

«... لا علاقة له بحقوق الإنسان، وإنما يتعلق برمّته بالنفط!».

قال وهو يقف ويحك شعره: «حسنٌ، أليس ذلك سبباً وجيهاً؟ أم إنك لا تستخدمين النفط يا إم؟».

عندما نطق الكلمات الأخيرة، شعر أن ذلك مؤثر جداً، لكن بدا صعباً أن يبتعد عن جدال في شقة العزوبية تلك التي أضحت فجأة صغيرة جداً، وتعمّها الفوضى، وبالية. لم تكن إيما ستدع بالتأكيد ملحوظة سخيفة تمر مرور الكرام. تبعته إلى الردهة، لكنه كان بانتظارها، استدار إليها بقوة أزعجت كليهما.

«سأخبرك بحقيقة هذا الأمر. أنتِ في مرحلة طمث وغاضبة من ذلك، وتتخلّصين من غضبك بأن توجهيه إليّ! حسنٌ، لا أحب الاستماع إلى محاضرة وأنا أتناول فطوري!».

«أنا لا ألقي محاضرة عليك».

«إذاً تجادلين».

«نحن لا نتجادل، وإنما نتناقش».

«حقاً؟ لأنني أجادل».

«اهدأ يا دكس».

«لم تكن الحرب فكرتي يا إم! لم آمُرْ بالغزو، وأنا آسف. لكن، لا تنتابني مشاعر قوية بشأنها مثلك. ربما يجب أن أشعر بها، وربما سأفعل، لكنني لا أحس بشيء الآن. لا أعرف السبب، ربما أنا غبي جداً أو...».

بدت إيما ذاهلة. «من أين جاء هذا؟ لم أقل إنك...؟».

«لكنك تعاملينني على هذا النحو، أو كأنني أحمق من الجناح اليميني؛ لأنني لا أُدلي بملحوظات تافهة بشأن الحرب. أقسم، إذا جلست في إحدى حفلات العشاء وسمعت شخصاً يقول هذا كله بشأن النفط! وربما كان الأمر كذلك، لمَ لا؟ فسأحتجّ على ذلك، أو سأتوقف عن استعمال النفط، أو سأقبل بالأمر وأغلق فمي!».

«لا تجرؤ على أن تقول لي...».

«لم أفعل! لم أكن أتكلم إلى... أوه، انسي ذلك».

انطلق متجاوزاً دراجتها الهوائية اللعينة، وهو يحدث جلبة في الردهة، ووصل إلى غرفة النوم. كانت المصاريع لا تزال مغلقة، والسرير غير مرتب، والمناشف الرطبة على الأرضية، وتفوح من الغرفة رائحة جسديهما من الليلة السابقة. بدأ يبحث عن مفاتيحه في العتمة، وراقبته إيما من الباب، بنظرة الاهتمام الجنونية تلك، لكنه تفادى النظر إلى عينيها.

قالت بهدوء؛ وكأنه طفل مصاب بنوبة غضب: «لماذا أنت محرج جداً من النقاش في السياسة؟».

«أنا لست محرجاً، لكنني... سئمت ذلك فحسب». كان يبحث في سلة الغسيل، ويُخرج منها ثياباً يرميها جانباً، وتوثق من جيبي سرواله وهو يفتش عن المفاتيح. «أجد السياسة مملة. لقد قلت هذا الآن، أفصحت عنه».

«حقاً؟».

«نعم، حقاً».

«حتى في الجامعة؟».

«خاصة هناك! تظاهرت فقط بالاهتمام؛ لأنه كان شيئاً قمت به. اعتدت الجلوس هناك عند الثانية صباحاً وأنا أصغي إلى جوني ميتشل، في حين يثرثر أحمق ما عن سياسة التمييز العنصري، أو نزع السلاح النووي، أو إنصاف النساء، وكنت أفكّر، تباً، هذا ممل... ألا يمكننا أن نتحدث عن، لا أعرف، الأسرة أو الموسيقى أو شيء آخر، الناس مثلاً؟».

«لكن السياسة هي الناس!».

«ماذا يعني هذا يا إم؟ هذا لا معنى له، ومجرد كلام يقال».

«يعني أننا تكلمنا عن أشياء كثيرة!».

«حقاً؟ كل ما أتذكره عن تلك الأيام الذهبية هو قيام الكثير من الناس بالتباهي، معظمهم رجال، وإسهابهم في الحديث عن المساواة بين الجنسين حتى يستطيعوا الوصول إلى الثياب الداخلية لفتاة ما. قول ما هو معروف: أليس السيد مانديلا لطيفاً؟ أليست الحرب النووية بشعة؟ أليس بغيضاً أن بعض الناس ليس لديهم ما يكفي ليأكلوا؟».

«هذا ليس ما قاله الناس!».

«الأمر سيان الآن، إلا أن الأمور المعروفة قد تغيرت. أضحت الآن ارتفاع حرارة الأرض، وألم يخُنْ بلير بلاده!».

«أنت لا توافق على هذا؟».

«أنا أوافق طبعاً! أوافق! أظن فقط أنه سيكون مثيراً للاهتمام أن نسمع شخصاً نعرفه، شخصاً واحداً، يقول إن بوش لا يمكن أن يكون بذلك الغباء، والشكر لله لأن أحداً وقف في وجه ذلك الطاغية، وبالمناسبة أحب سيارته الكبيرة. ربما يكونون مخطئين، لكن على الأقل سيكون هناك شيء نتكلم عنه! على الأقل لن يربتوا على ظهور بعضهم، على الأقل سيمثّل ذلك تغييراً عن أسلحة الدمار الشامل والمدارس وأسعار المنازل اللعينة».

«مهلاً، أنت تتكلم عن أسعار المنازل أيضاً!».

«أعرف! وأُصيب نفسي بالملل أيضاً!». تردد صدى صراخه حين قذف ملابس الأمس على الجدار، ثم وقف كلاهما هناك في غرفة النوم المعتمة، والمصاريع لا تزال مغلقة، والسرير غير مرتب.

قالت بهدوء: «هل أُصيبك أنا بالملل؟».

«لا تكوني سخيفة! هذا ليس ما قلته». مرهقاً فجأة، جلس على السرير.

«لكن، هل أُصيبك بالملل؟».

«لا، لا تفعلين. لنغير الموضوع، هل يمكننا هذا؟».

قالت: «إذاً، ما الذي تريد أن تتكلم عنه؟».

جلس على حافة الفراش وهو يحني ظهره، ضغط يديه على وجهه، وتنفس عبر أصابعه. «نحن نحاول منذ ثمانية عشر شهراً فقط يا إم».

«منذ سنتين».

«منذ سنتين إذاً. لا أعرف، أكره فقط تلك... النظرة التي ترمقينني بها».

«أي نظرة؟».

«عندما لا ينجح الأمر؛ وكأن هذه غلطتي».

«لا أفعل هذا!».

«هذا هو شعوري».

«أنا آسفة، أعتذر. أنا فقط... محبطة. أريد هذا حقاً».

«وكذلك أنا!».

«حقاً؟».

بدا متألماً. «طبعاً!».

«لأنك لم تكن تريد هذا في البداية».

«حسنٌ، أريده الآن. أحبك، وتعرفين هذا».

اجتازت الغرفة وانضمت إليه، وجلسا لحظة وهما يمسكان يدي بعضهما، ويدفعان أكتافهما إلى الأمام.

قالت وهي تستلقي على السرير: «تعال إلى هنا». وتبعها؛ وسيقانهما تتدلى من فوق الحافة. تسلل شعاع من ضوء خافت من فتحات المصاريع.

قالت: «أنا آسفة؛ لأنني تصرفت على ذلك النحو».

«أنا آسف لأنني... لا أعرف».

رفعت يده وضغطت بقفاها على شفتيها. «أظن أننا يجب أن نُجري فحصاً، يجب أن نذهب كلانا إلى عيادة خصوبة».

«لا خطب فينا».

«أعرف. وهذا ما سنذهب لنتوثق منه».

«سنتان ليستا مدة طويلة. لماذا لا ننتظر ستة شهور أخرى؟».

«لا أشعر أن أمامي ستة شهور أخرى، هذا كل شيء».

«أنت مجنونة».

«سأبلغ التاسعة والثلاثين في نيسان المقبل يا دكس».

«سأبلغ الأربعين بعد أسبوعين».

«بالضبط».

تنفس ببطء، وطافت رؤى أنابيب اختبار أمام عينيه، وغرف مستشفى تثير الكآبة، وممرضات يرتدين قفازات مطاطية، ومجلات. «لا بأس إذاً، سنجري بعض التحاليل». استدار لينظر إليها. «لكن، ماذا سنفعل بشأن قائمة الانتظار؟».

تنهّدت. «أفترض أننا قد نضطر، لا أعرف، للذهاب إلى مستشفى خاص».

تكلم بعد بعض الوقت: «يا إلهي! هذا شيء لم أظن مطلقاً أنك قد تقولينه».

قالت: «لا، ولا أنا. ولا حتى أنا».

استعد للعمل مع عودة بعض الهدوء إلى المكان. كان الشجار السخيف سيجعله يتأخر، لكن على الأقل تجري الأمور في مقهى بيلفيه بسلاسة آنذاك، وقد وظّف مديرة صارمة يمكن الاعتماد عليها؛ مادي، أنشأ معها علاقة عمل جيدة، وهو يلاطفها بعض الأحيان، ولم يعد مضطراً إلى فتح المقهى في الصباح. اصطحبته إيما على السلالم وخرجا من المبنى إلى النهار المعتم والباهت.

«إذاً، أين يقع هذا المنزل؟».

«كيلبورن، سأرسل لك العنوان. يبدو جميلاً في الصور».

تمتمت وهي تسمع صوتها متجهماً وحزيناً: «كلها تبدو جميلة في الصور». اختار دكستر ألاّ يتكلم، وانقضت لحظة قبل أن تشعر أن بمقدورها أن تلف ذراعيها حول خصره وتتعلّق به. «لم نكن بخير اليوم، أليس كذلك؟ أو لم أكن أنا كذلك، آسفة».

«لا بأس بذلك. سنبقى معاً الليلة، أنا وأنت. سأطهو لك العشاء، أو سنخرج إلى مكان ما؛ إلى دار عرض مثلاً». ضغط وجهه على أعلى رأسها. «أحبك، وسنحل الخلاف، صحيح؟».

وقفت إيما صامتة على درجة الباب. كان الصواب الذي ينبغي أن تفعله هو أن تخبره أنها تحبه أيضاً، لكنها أرادت تأجيل ذلك قليلاً. عقدت العزم على أن تتجهم حتى وقت الغداء، ثم تعوّضه في الليل. ربما إذا أصبح الجو صحواً، يمكن أن يخرجا ويجلسا على تلة الوعد كما اعتادا سابقاً. المهم أنه سيكون هناك، وستصبح الأمور على ما يرام.

تمتمت عند كتفه: «يجب أن تذهب، ستتأخر على مادي».

«لا تبدئي».

كشّرت ورفعت بصرها إليه. «سأصبح أفضل حالاً بحلول الليل».

«سنفعل شيئاً ممتعاً».

«ممتعاً؟».

«لا نزال نستمتع معاً، صحيح؟».

قالت: «طبعاً نفعل هذا». وقبّلته مودّعة.

كانا يستمتعان معاً فعلاً، لكن بطريقة مختلفة آنذاك. كان كل ذلك الاشتياق والكرب والشغف قد استُبدل بنبضٍ مستمر من السعادة والرضا والإثارة أحياناً، وبدت تلك مقايضة سعيدة؛ كانت هناك لحظات في حياتها شعرت فيها أنها أكثر ابتهاجاً، إلا أن الأشياء لم تكن أكثر ديمومة.

كانت تظن أحياناً أنها تحن إلى الشغف، ليس في علاقتهما الرومانسية فقط، وإنما في الأيام الباكرة من صداقتهما. تذكرت كتابة رسائل من عشر صفحات في وقت متأخر من الليل؛ أشياء انفعالية تعبّر عن مشاعر جيّاشة ومعانٍ بالكاد مستترة، علامات تعجّب وخطوط تحت كلمات. انقضى وقت طويل منذ أن كتبت بطاقات بريدية يومياً أيضاً، إضافة إلى مكالمات هاتفية استغرقت ساعة كاملة قبل النوم. ذلك الوقت في الشقة في دالستون حيث بقيا مستيقظين يتكلمان ويستمعان إلى التسجيلات، ولا يتوقفان إلا عندما تبدأ الشمس بالشروق، أو في منزل والديه، وهما يسبحان في النهر في نيويورك، أو ذلك الأصيل حين كانا يحتسيان الشراب في ملهى في الحي الصيني؛ كانت كل تلك اللحظات وأكثر مسجّلةً ومخزّنة في دفاتر ملحوظات ورسائل ورزمٍ من الصور التي يبدو أنها لا تنتهي. انقضى وقت، في بداية التسعينيات كما ظنّت، لم يكونا فيه قادرين على اجتياز كشك هاتف من دون أن يدخلاه؛ لأنهما يعتبران وجود بعضهما الدائم أمراً مسلماً به.

لكن، مجرد النظر إلى شخص ما، والجلوس فقط والنظر والتحدث ثم إدراك أن الصباح

قد انبثق. من لديه الوقت أو الرغبة أو الطاقة هذه الأيام للبقاء مستيقظاً والكلام طوال الليل؟ ما الذي سيتكلم المرء عنه؟ أسعار العقارات؟ كانت تشتاق إلى تلك المكالمات الهاتفية في منتصف الليل. لكن، هذه الأيام إذا رنَّ الهاتف في وقت متأخر من الليل فذلك يعني أن هناك حادثة. وهل يحتاجان حقاً إلى مزيد من الصور في حين أنهما يعرفان وجهي بعضهما جيداً، ولديهما علب أحذية مملوءة بتلك الأشياء، أرشيف يمتد نحو عشرين عاماً؟ من يكتب رسائل طويلة في هذا العصر والأوان، وما الذي يهم كثيراً؟

تساءلت أحياناً عمّا ستظنه هي نفسها لو كانت في الثانية والعشرين من عمرها مجدداً. هل ستعتبرها أنانية؟ متواضعة؟ بورجوازية؟ مع رغبتها الكبيرة بملكية المنازل والسفر إلى بلدان أجنبية، وشراء ثياب من باريس وقص شعرها بتكلفة كبيرة؟ هل ستجدها تقليدية، مع لقبها الجديد وآمالها في حياة أسرية؟ ربما، لكن إيما مورلي في الثانية والعشرين من عمرها لم تكن مثالية أيضاً: بل كانت متباهية، نزقة، كسولة، تلقي خطباً رنّانة، تطلق أحكاماً على الآخرين، تتحسّر على نفسها، تظن أنها أقوم أخلاقاً من الآخرين، معتدّة بنفسها، باستثناء الثقة بالنفس؛ السجية التي كانت دائماً بأمسِّ الحاجة إليها.

لا، شعرت أن تلك حياة حقيقية، وإذا لم تكن مهتمة وعاطفية كما في السابق، فإن ذلك متوقع. لن يكون ملائماً، أو محترماً، وهي بعمر الثامنة والثلاثين، أن تقيم صداقات أو علاقات حب بحماسة وشغف ابنة الثانية والعشرين. الوقوع في الحب على تلك الحال؟ كتابة الشعر؟ البكاء لدى الاستماع إلى أغانٍ شعبية؟ جر أشخاص إلى أكشاك تصوير؟ قضاء يوم كامل لتحضير شريط مقتطفات؟ سؤال آخرين إن كانوا يريدون أن يشاطروك الفراش، للصحبة فقط؟ إذا اقتبست من بوب ديلون أو ت. إس. إيليوت أو، لا سمح الله، بريخت أمام شخص ما هذه الأيام، فسيبتسم بتهذيب ويتراجع بهدوء إلى الخلف، ومن سيلومه؟ ففي الثامنة والثلاثين، إنه سخف أن يتوقع المرء أن يغير كتاب ما أو فيلم ما حياته. لا، لقد اتضح كل شيء واستقر، وعاشت حياة بخلفية عامة من الراحة والرضا والألفة. لن يكون هناك مزيد من مدٍّ وجزرٍ يثيران الأعصاب. سيبقى أصدقاؤهم الآن أصدقاءهم بعد خمس سنين، عشر سنين، عشرين سنة، ولا يُتوقع أن يصبحا فاحشَيْ الثراء أو أكثر فقراً، ويُتوقع أن يتمتعا بموفور الصحة والعافية وقتاً أطول. إنهما في المنتصف؛ الطبقة الوسطى، منتصف العمر، وسعيدان لأن سعادتهما ليست مفرطة.

أخيراً، أحبت شخصاً وشعرت بثقة أنه يحبها بالمقابل. إذا سأل أحدهم إيما – كما

يفعلون أحياناً في الحفلات - كيف التقت زوجها، فستخبرهم: «ترعرعنا معاً».

ذهبا إلى العمل كالمعتاد. جلست إيما إلى حاسوبها بجانب النافذة التي تطل على الشارع المظلل بالأشجار تكتب رواية «جولي كريسكول» الخامسة والأخيرة التي تصبح فيها بطلتها الخيالية، على نحو يبعث على السخرية، حاملاً ويجب أن تختار بين الأمومة أو الجامعة. لم يكن الأمر يسير على ما يرام، فالنبرة كئيبة وباطنية، والدعابات ليست على المستوى المنشود. كانت متحمسة لإنهائها، لكنها غير واثقة بما ستفعله آتياً، أو ما يمكن أن تفعله. كتاب للراشدين ربما، شيء جدّي ووثائقي على نحو ملائم عن الحرب الأهلية الإسبانية، أو المستقبل القريب، شيء يشبه مارغريت آتوودي على نحو مبهم، شيء قد تحترمه وتُعجب به. كانت تلك هي الفكرة على كل حال. في تلك الأثناء، رتّبت الغرفة، وحضّرت الشاي، ودفعت بعض الفواتير، وغسلت الملابس الملونة، وأعادت الأقراص المدمجة إلى علبها، وحضّرت مزيداً من الشاي ثم شغّلت أخيراً حاسوبها وحدّقت إليه.

في المقهى، لاطف دكستر مادي قليلاً، ثم جلس في غرفة الخزن الصغيرة التي تفوح منها رائحة جبن قوية، وحاول إنهاء قسيمة استرداد الضريبة المضافة الربعية، لكن العتمة وشعوره بالذنب بسبب ثورة غضبه الصباحية كانا لا يزالان عالقين في ذهنه، وعندما لم يعد بمقدوره التركيز مدَّ يده إلى هاتفه. كانت إيما من يقوم بإجراء مكالمات المصالحة وتسوية النزاعات. لكن، بعد ثمانية شهور من زواجهما بدا أنهما قد تبادلا الأدوار، ووجد نفسه آنذاك عاجزاً عن فعل أي شيء حين يعرف أنها تعيسة. ضغط الأرقام، وهو يتخيل أنها تجلس إلى طاولتها، وتنظر إلى هاتفها الخلوي، وترى اسمه يظهر فتنهي المكالمة. كان يفضل أن يحدث الأمر بتلك الطريقة؛ من السهل أن تكون عاطفياً حين لا يرد عليك أحد.

«أنا هنا، أُنهي مسألة الضريبة المضافة، وأفكر فيك باستمرار، وأردت فقط القول لا تقلقي. لقد رتّبت أن نرى هذا المنزل عند الساعة الخامسة، سأبعث إليك العنوان في رسالة نصية. لذا، من يعرف؟ سنرى. غرف جيدة المساحة. يبدو أن فيه نضداً للفطور، وأعرف أنك قد حلمت دائماً بهذا. هذا كل شيء، باستثناء القول إنني أحبك ولا تقلقي. أياً يكن ما يجعلك تقلقين، فلا تقلقي. هذا كل شيء. أراك هناك عند الخامسة. أحبك. إلى اللقاء».

وفقاً للروتين، عملت إيما حتى الثانية، وتناولت الغداء، ثم ذهبت إلى السباحة. في تموز تحب أحياناً أن تذهب إلى أحواض سباحة السيدات في هامبستيد. لكن اليوم أصبحت

السماء داكنة وملبدة بالغيوم. لذا، بدلاً من ذلك شجّعت المراهقين في حوض السباحة الداخلي، وتحوّلت عشرين دقيقة غير سعيدة بينهم، في حين كانوا يغوصون ويغطسون ويغازلون بعضهم بعضاً، مهووسين بالحرية في نهاية الفصل الدراسي. بعد ذلك جلست في إحدى غرف تبديل الملابس، وحدّقت إلى رسالة دكستر وابتسمت. حفظت عنوان العقار عن ظهر قلب واتصلت برقمه.

«مرحباً، هذه أنا. أردت فقط القول إنني في الخارج الآن ولا يسعني الانتظار لرؤية نضد الفطور. ربما أتأخر خمس دقائق. أيضاً، شكراً على رسالتك وأردت القول... أنا آسفة؛ لأنني كنت مزعجة جداً اليوم، وذلك الجدال الغبي. لا علاقة لهذا بك، لكنني أشعر ببعض الغضب حالياً. المهم أنني أحبك كثيراً، أيها المحظوظ! أظن أن هذا كل شيء. إلى اللقاء يا حبيبي، إلى اللقاء».

خارج المركز الرياضي كانت الغيوم قد تجمعت وألقت حملها أخيراً، فنزلت قطرات رمادية كبيرة من مطر دافئ. شتمت الطقس ومقعد دراجتها المبلل وانطلقت عبر شمالي لندن نحو كيلبورن، وهي تسلك مساراً مرتجلاً عبر متاهة من الشوارع السكنية نحو طريق لكسينغتون.

هطل المطر بغزارة؛ قطيرات زيتية من ماء مدينة بني، وقادت إيما دراجتها واقفة على الدوّاستين، وهي تخفض رأسها، حتى لم تعد ترى إلا على نحو مبهم الحركةَ في الشارع الجانبي إلى يسارها. لم تشعر أنها تطير في الهواء، بل أن أحداً أمسكها وقذفها بقوة، وعندما استقرت على الحافة بجانب الطريق ووجهها على الرصيف المبلل بالماء، بحثت غريزياً عن دراجتها التي كانت قد اختفت بطريقة ما من تحتها. حاولت أن تحرّك رأسها، لكنها لم تتمكن من ذلك، أرادت أن تنزع خوذتها لأن الناس كانوا ينظرون إليها آنذاك، وهناك وجوه تمتد فوقها، وهي تبدو سخيفة حين تعتمر خوذة دراجة هوائية، لكن بدا الناس الذين يجثمون فوقها مخيفين وهم يسألونها مراراً وتكراراً: «هل أنت بخير؟». بدأ أحدهم يصرخ، وأدركت لأول مرة أنها ليست بخير. طرفت عيناها من المطر الذي يهطل على وجهها، وعرفت أنها ستتأخر بالتأكيد آنذاك، وأن دكستر سينتظر.

فكّرت على نحو واضح في شيئين:

الأول، صورة لها بعمر التاسعة في بزّة سباحة حمراء على الشاطئ. لم تتذكر المكان، فيلي أو ربما سكاربوروغ. إنها مع والدتها ووالدها اللذين يهزّانها في الأرجوحة أمام آلة

التصوير، ووجهاهما اللذان سفعتهما الشمس يتغضنان ضحكاً. ثم فكّرت في دكستر، وهو يختبئ من المطر على درجات المنزل الجديد، وينظر إلى ساعته، نافد الصبر؛ ويتساءل أين أنا، كما فكّرت. سيقلق.

ثم توفيت إيما ميهو، وكل ما فكّرت فيه أو شعرت به تلاشى واختفى إلى الأبد.

القسم الخامس

ثلاث ذكريات سنوية

«دوّنت بحكمة التواريخ بعد انقضائها في دورة السنة؛ ... ذكرى ميلادها، وكل يوم آخر تميّز بحوادث قد اشتركت فيها. في أصيل أحد الأيام، فكّرت فجأة، حين كانت تنظر في المرآة إلى جمالها، أن هناك تاريخاً آخر، أكثر أهمية لها من تلك الأيام، وهو يوم موتها، حين ستختفي كل تلك المفاتن؛ إنه يومٌ يختبئ بمكر غير مرئي بين كل أيام السنة الأخرى، لا علامة له أو صوت حين تتخطاه سنوياً، لكنه موجود هناك بالتأكيد. متى سيحين؟».

توماس هاردي، قصص دوبرفيل

الفصل التاسع عشر

الصباح التالي
الجمعة 15 تموز 1988

شارع رانكيلور، أدنبره

عندما فتحت عينيها مجدداً، كان الفتى النحيل لا يزال هناك، ظهره لها آنذاك ويجلس على حافة كرسيها الخشبي القديم، وهو يرتدي سرواله بهدوء قدر المستطاع. نظرت إلى ساعة منبه مذياعها: التاسعة وعشرون دقيقة. كانا قد ناما نحو ثلاث ساعات، وهو يخرج آنذاك خلسة. شاهدته يضع يده في جيب سرواله لإيقاف خشخشة نقوده المعدنية، ثم وقف وبدأ يرتدي قميص الليلة الماضية الأبيض. ألقت نظرة واحدة أخيرة على ظهره البني الطويل. إنه وسيم، بدا وسيماً حقاً. أرادته أن يبقى، بالقدر نفسه تقريباً الذي أراد هو فيه أن يغادر. قرّرت أنها يجب أن تتكلم.

«لن تذهب من دون وداع، أليس كذلك؟».

استدار إليها، متلبساً في فعلته. «لم أرد إيقاظك».

«لِمَ لا؟».

«بدوت لطيفة جداً وأنت نائمة هناك».

كان كلاهما يعرفان أن تلك محاولة فاشلة. «صحيح، صحيح، فهمت». سمعت نفسها، يائسة ومنزعجة. لا تجعليه يظن أنك تهتمين يا إم. اهدئي، أظهري أنك... لا تبالين.

«كنت سأترك ملحوظة لك، لكن...». تظاهر بالبحث عن قلم، غافلاً أن مرطبان المربّى مملوء بالأقلام على الطاولة.

رفعت رأسها عن الوسادة ووضعته على يدها. «لا أمانع، يمكن أن تغادر إن أردت. السفن التي ترحل في الليل لا تكون جيدة. ماذا تدعو هذا... الحلو المر».

جلس على الكرسي، وتابع إغلاق أزرار قميصه. «إيما؟».

«نعم يا دكستر؟».

«لقد قضيت وقتاً ممتعاً حقاً».

«أعرف. بالمناسبة، إنك تبحث عن حذائك».

«لا، جدّياً». مال دكستر إلى الأمام على الكرسي. «أنا سعيد حقاً لأننا تكلمنا أخيراً، والشيء الآخر أيضاً، بعد كل ذلك الوقت». غضّن وجهه، وهو يبحث عن الكلمات المناسبة. «أنت رائعة حقاً، حقاً يا إم».

«نعم، نعم، نعم...».

«لا، هذا صحيح».

«حسنٌ، أنت رائع أيضاً، ويمكنك الذهاب الآن». ابتسمت له ابتسامة باهتة متكلّفة. وردَّ بأن اجتاز الغرفة فجأة، فأدارت وجهها نحوه توقعاً، فقط لتكتشف أنه يبحث تحت السرير عن جورب أضاعه. لاحظ وجهها المرفوع.

قال: «جورب تحت السرير».

«لا بأس».

جثم مرتبكاً على إطار السرير، يتكلم بنبرة مرحة متكلّفة. «هذا يوم مهم! سأقود السيارة في طريق العودة!».

«إلى أين، لندن؟».

«أوكسفوردشاير، حيث يعيش والداي، معظم الوقت على كل حال».

قالت: «أوكسفوردشاير، جميل جداً»، مجروحة المشاعر من السرعة التي تبخرت بها الألفة، ومن استبدال الحديث القصير. كانا قد قالا الليلة الماضية وفعلا كل تلك الأشياء، وهما الآن مثل غريبين في صف انتظار حافلة. كانت الغلطة التي اقترفتها هي النوم وتحطيم السحر. لو أنهما بقيا مستيقظين، لكانا لا يزالان ربما يقبّلان بعضهما. لكن، بدلاً من ذلك انتهى كل شيء ووجدت نفسها تقول: «كم ستستغرق الرحلة إلى هناك؟ إلى أوكسفوردشاير؟».

«نحو سبع ساعات أو ثمانٍ، أبي سائق ممتاز».

«أو-ها».

«أنت لن تعودي إلى...؟».

«ليدز، لا سأبقى هنا في الصيف. أخبرتك، هل تتذكر؟».

«آسف، كنت ثملاً جداً الليلة الماضية».

«وتلك حجة الدفاع...».

«إنه ليس عذراً، لكن...». استدار لينظر إليها. «هل أنت منزعجة مني يا إم؟».
«إم؟ من إم؟».
«إي-ما، إذاً».
«لست منزعجة، إنما فقط... تمنيت أن توقظني بدلاً من أن تتسلل خلسة...».
«كنت سأكتب لك ملحوظة!».
«وماذا كانت ستقول، هذه الملحوظة القيّمة؟».
«كانت ستقول لقد أخذت محفظتك».

ضحكت؛ همهمة صباحية خافتة علقت في مؤخر حلقها، وبدا أن هناك شيئاً ساراً في ابتسامتها، وجعله الهلالان الغائران على طرفي فمها، والطريقة التي تُبقي فيها فمها مغلقاً بإحكام وكأنها تشد شيئاً إلى الخلف، يندم تقريباً على الكذب عليها. لم يكن ينوي أن يغادر وقت الغداء، فوالداه سيمكثان الليلة عنده ويصطحبانه إلى العشاء خارج المنزل، ثم يغادران غداً صباحاً. كانت الكذبة فطرية لتيسير هروب سريع. لكن، عندما مال آنذاك ليقبّلها تساءل إن كانت هناك طريقة لإلغاء تلك الخدعة بطريقة ما. كان فمها طرياً، وسمحت لنفسها أن تستلقي إلى الخلف على السرير الذي لا تزال تفوح منه رائحة الشراب. مسَّ جسدها الدافئ، وقرر أن عليه أن يحاول حقاً أن يكون أكثر صدقاً في المستقبل.

ابتعدت عن القبلة وقالت: «أريد الذهاب إلى المرحاض». فرفع ذراعه لتمر من تحتها. وقفت، ودسّت إصبعين تحت مطاط سروالها الداخلي لتدفع القماش إلى الأسفل نحو أعلى فخذيها.

سأل وهو يراقبها تمشي في الغرفة: «هل هناك هاتف يمكنني استخدامه؟».

«في الردهة. إنه هاتف بُدعة، كما أخشى، غريب جداً. تجده تيلي طريفاً. اخدم نفسك، ولا تنس أن تترك عشرة جنيهات». وخرجت إلى الردهة واتجهت نحو الحمام.

كان الماء يتدفق في الحوض آنذاك من أجل حمّام إحدى زميلات السكن؛ هذا الحمام الذي يستغرق اليوم كله. انتظرت تيلي كيليك إيما في ثوب الاستحمام، وعيناها تحدقان عبر البخار خلف إطار نظارة حمراء كبيرة، وهي تفغر فمها بشكل «دائرة» فضائحية.

«إيما مورلي، أيتها الفرس السوداء».
«ماذا؟».

«هل هناك أحد في غرفتك؟».

«ربما!».

«ليس من أظن...».

قالت إيما، بعدم اكتراث: «إنه دكستر ميهو!». وضحكت الفتاتان كثيراً.

وجد دكستر الهاتف في الردهة، على شكل شطيرة لحم واقعية على نحو مدهش. وقف وهو يحمل سمّاعة على شكل رغيف خبز السمسم في يده، ويصغي إلى الهمسات من الحمام، ويشعر بالرضا الذي ينتابه دائماً حين يعرف أن الناس يتكلمون عنه. استطاع سماع كلمات وعبارات غريبة عبر اللوح الجصي: إذاً، هل فعلتما؟ ماذا حدث؟ تكلمنا فحسب، وشيء آخر. شيء آخر؟ ماذا يعني ذلك، شيء آخر؟ لا شيء! وهل سيبقى لتناول الفطور؟ لا أعرف. حسنٌ، توثقي من بقائه لتناول الفطور.

راقب دكستر الباب نافد الصبر، منتظراً، حتى ظهرت إيما مجدداً. اتصل بالرقم 123، الساعة الناطقة، ووضع السماعة على أذنه وتكلم إلى فطيرة اللحم.

«... الوقت برعاية أكيوريست الآن التاسعة واثنتان وثلاثون دقيقة وعشرون ثانية...».

باشر خدعته بعد الرنّة الثالثة. «مرحباً أمي، هذا أنا... نعم، أشعر بأنني متوعك قليلاً!». نفش شعره بطريقة ظن أنها محبّبة. «... لا، قضيت الليل في منزل صديقة...». ونظر آنذاك إلى إيما التي تلكأت بجانبه مرتدية قميصاً تائياً وسروالاً داخلياً، ومتظاهرة أنها تنظر إلى البريد.

«... الوقت برعاية أكيوريست الآن التاسعة وثلاث وثلاثون دقيقة بالضبط...».

«اسمعي، طرأ أمر ما وتساءلت إن كان بمقدورنا تأجيل الذهاب إلى المنزل حتى صباح الغد، بدلاً من اليوم؟... أظن فقط أن الرحلة ستكون أسهل على أبي... لا أمانع إن كنتما لا تمانعان... هل أبي معك؟ اسألي أبي الآن».

ضبط الوقت من الساعة الناطقة، ومنح نفسه ثلاثين ثانية وابتسم لإيما ابتسامة ودودة جداً. ابتسمت له أيضاً وفكّرت: إنه رجل لطيف، يغيّر خططه من أجلي فقط، ربما أكون قد أسأت الحكم عليه. نعم، إنه أحمق، لكن لا داعي إلى أن يكون كذلك، ليس دائماً.

تشدّق: «آسف!».

قالت معتذرة: «لا أريد أن تغيّر خططك من أجلي».

«لا، أود ذلك».

«حقاً! إذا كان يجب أن تذهب إلى المنزل –».

«لا بأس، فالأمر أفضل على هذه الحال».

«عند الرنة الثالثة سيكون الوقت برعاية أكيوريست التاسعةَ وأربعاً وثلاثين دقيقة بالضبط».

«لا أمانع، لن أشعر بامتعاض أو شيء من هذا القبيل –».

رفع يده طالباً الهدوء. «مرحباً، أمي؟...». توقَف، أفسِح مجالاً للتوقع، لكن لا تبالغ. «حقاً؟ لا بأس، هذا رائع! حسنٌ، سأراكما في الشقة لاحقاً! لا بأس، أراكما، إلى اللقاء». أغلق الكعكة مثل صنج ووقفا وكشّرا لبعضهما.

«هاتف رائع».

«محبط، أليس كذلك؟ كل مرة أستخدمه فيها، يجعلني أرغب بالبكاء».

«هل لا زلت تريدين الجنيهات العشرة تلك؟».

«لا، لا عليك، على حسابي».

قال: «إذاً!».

قالت إيما: «إذاً، ماذا سنفعل هذا اليوم؟».

الفصل العشرون

الذكرى الأولى احتفال
الجمعة 15 تموز 2005

لندن وأوكسفوردشاير

متعة، متعة، متعة؛ المتعة هي الحل. تحرك باستمرار ولا تسمح لنفسك للحظة بأن تتوقف أو تنظر حولك أو تفكر؛ لأن الخدعة هي ألا تكتئب، وأن تستمتع وترى ذلك اليوم – تلك الذكرى الأولى – على أنه – ماذا؟ احتفال! بحياتها وكل الأوقات والذكريات السعيدة، والضحكات؛ كل الضحكات.

أبقى ذلك في ذهنه، وتجاهل احتجاجات مديرته مادي، وأخذ مئتي جنيه من صندوق المقهى، ودعا ثلاثة من الموظفين – مادي وجاك وبيت الذي يعمل أيام السبت – للخروج إلى البلدة والاحتفال باليوم الخاص بأسلوب مميز. بالمحصلة، كان هذا ما سترغب فيه.

وهكذا، قضى اللحظات الأولى من احتفال سان سويذن في ملهى في كامدن وهو يحمل كأس الشراب الخامسة في يد، ولفافة تبغ في الأخرى. لمَ لا؟ لماذا لا يستمتع قليلاً ويحتفل بحياتها؟ قال هذا، جمجم هذا لأصدقائه الذين ابتسموا له بفتور وارتشفوا شرابهم ببطء شديد حتى بدأ يندم على اصطحابهم معه. كانوا متجهمين ومملين جداً، يرافقونه من مكان إلى آخر، ليس بوصفهم رفاقاً جيدين، وإنما مثل خدمٍ في المستشفى يتبادلون معه الدعابات ويتوثقون من أنه لا يرتطم بأشخاص آخرين أو يشج رأسه حين يسقط من سيارة الأجرة. حسنٌ، لقد طفح كيله، ويريد بعض الانعتاق، وأن يطلق شعره، فهو يستحق ذلك بعد السنة التي قضاها. اقترح وهو يفكّر في ذلك أن يذهبوا جميعاً إلى النادي الذي ارتاده مرة في ليلة مخصصة للرجال فقط.

قالت مادي فزعة تماماً: «لا أظن هذا يا دكستر».

قال وذراعه تلتف حول كتفها: «أوه، هيا يا مادي! هذا ما كانت سترغب فيه!». وضحك من ذلك، ورفع كأسه مرة أخرى، ومدَّ فمه إليها لكنها بقيت بعيدة مسافة قصيرة فأراق الشراب على حذائه. «سيكون الأمر مضحكاً!». مدّت مادي يدها إلى الخلف لتمسك معطفها.

صرخ: «مادي، أنت من الوزن الخفيف».

قال بيت: «أظن حقاً أنك يجب أن تذهب إلى المنزل الآن يا دكستر».

«لكن الليل قد انتصف منذ قليل فقط».

«عمت مساءً يا دكس، أراك لاحقاً».

وتبع مادي إلى الباب. أراد أن تستمتع بوقتها. لكن، بدا أنها تذرف الدموع ومنزعجة. قال ممسكاً يدها من مرفقها: «ابقي، تناولي شراباً آخر!».

«ستهوّن على نفسك، أليس كذلك؟ أرجوك؟».

«لا تتركينا فتياناً وحدنا!».

«يجب أن أذهب. أنا أفتح المحل في الصباح، أتتذكر؟». استدارت وأمسكت كلتا يديه بيديها بتلك الطريقة الجنونية التي تنم على اهتمام بالغ وتعاطف شديد. «توخ... الحرص فحسب؟».

لكنه لم يكن يريد تعاطفاً، وإنما شراباً آخر، لذا أفلت يديها فجأة، واتجه عائداً نحو المشرب، ولم يواجه صعوبة في الحصول على ما يريده. قبل أسبوع فقط كانت قنابل قد انفجرت في إحدى وسائل النقل العام، وظهر غرباء يريدون أن يقتلوا عشوائياً. وعلى الرغم من كل العزم والتظاهر بالشجاعة إلا أن المدينة بدت تحت الحصار، والناس خائفون من الخروج من منازلهم، لذا لم يواجه دكستر مشكلة في إيقاف سيارة أجرة لتقلّه نحو شارع فارينغدون. أسند رأسه إلى النافذة وسمع بيت وجاك يتحدثان خائفين، ويقدّمان الأعذار المعتادة: الوقت متأخر، لديهما عمل في الصباح. قال بيت مازحاً: «لدي زوجة وأطفال كما تعرفان». وبدوا مثل رهينتين يطلبان إطلاق سراحهما. شعر دكستر أن الحفل يتداعى من حوله، لكنه لم يكن يتمتع بالطاقة لإصلاح الأمر، لذا أوقف سيارة الأجرة عند تقاطع كينغ وأخلى سبيلهما.

قال جاك، وهو يحدّق إليه من النافذة ونظرة الاهتمام الغبية تلك على وجهه: «هل ستعود معنا أيها الرفيق دكس؟ نعم؟».

«لا، أنا بخير».

قال بيت: «يمكنك دائماً قضاء الليلة في منزلي. هل تنام على الأريكة؟». لكن دكستر كان يعرف أنه لا يعني ذلك حقاً. فكما أوضح بيت سابقاً، لديه زوجة وأطفال. لذا، لماذا قد يرغب بوجود هذا الوحش في منزله؟ هذا الوحش الذي سيستلقي وهو كريه الرائحة وفاقد وعيه على الأريكة، يبكي في حين يستعد أطفال بيت للذهاب إلى المدرسة. كان

الحزن قد حوّل دكستر ميهو إلى أحمق مرة أخرى. لماذا يجب أن يفرض ذلك على أصدقائه؟ الأفضل أن يبقى مع غرباء هذه الليلة. وهكذا، لوّح مودّعاً، وطلب من سائق سيارة الأجرة الذهاب إلى شارع جانبي منعزل ومغلق قبالة طريق فارينغدون حيث يوجد نادي نيرو الليلي.

كانت الواجهة الخارجية تتميز بعمودين رخاميين أسودين، مثل مديري جنازة. خرج مترنحاً من سيارة الأجرة، وقلقاً من ألا يدعه الحرّاس يدخل المكان، لكنه في الواقع زبونهم المفضّل: فهو يرتدي ملابس أنيقة ويشرب بغباء. كشّر دكستر مداهناً الرجل الضخم حليق الرأس صاحب اللحية المشذّبة، الذي وضع يديه على نقوده، ولوّح له أن يدخل عبر الباب إلى القاعة الرئيسة، فولج إلى العتمة.

انقضى وقت، ليس بعيداً جداً، بدت فيه زيارة النادي سالف الذكر؛ شيئاً يدعو إلى السخرية ويدغدغ المشاعر في الوقت نفسه، لكن ليس هذه الليلة. كان نادي نيرو الليلي يشبه مقصورة مغادرة رجال الأعمال في بداية الثمانينيات، بأثاثه من الكروم الفضي، وأرائكه المنخفضة من الجلد الأسود، ونباتاته المزروعة في قدور بلاستيكية، ونثرياته الحضرية العتيقة. رأى جدارية هاوٍ، منسوخة من كتاب مدرسي للأطفال، عن جاريات يحملن أطباق عنب، تغطي الحائط الخلفي، وأعمدة رومانية بلاستيكية تتناثر هنا وهناك. وفي أرجاء الغرفة، تحت مخروطات من ضوء برتقالي، على ما بدا أنها طاولات صغيرة منخفضة تقف الراقصات، والفنانات جميعاً، وهن يؤدين عملهن بأساليب مختلفة، ويحدثن صخباً كبيراً؛ هنا رقصة واهنة، وهناك نوع من الفن الإيمائي البطيء، وفتاة أخرى تؤدي حركات بدنية مدهشة، وجميعهن غير محتشمات. كان الرجال يجلسون إلى الأسفل منهن، ومعظمهم يرتدون بزّات رسمية، وقد فكّوا ربطات أعناقهم، مسترخين على المقاعد المريحة ورؤوسهم تتدلّى إلى الخلف؛ كأن أعناقهم قد انقصمت فجأة: أصحابه. جال دكستر بنظره في أرجاء القاعة، وعيناه لا تركزان جيداً على ما يراه، وهو يكشّر بغباء من شعوره بالرغبة والخجل يمتزجان في فورة خدر. تعثّر على السلالم، وثبّت نفسه على درابزين الكروم اللزج، ثم وقف وصفع خدّيه، وشق طريقه بين المنصات نحو المشرب، حيث أخبرته نساء قاسيات الوجوه أنه لا يمكنه شراء كأس واحدة، وإنما قوارير شراب خفيف، وثمن كل منها مئة جنيه. ضحك من اللصوصية الوقحة وأعطاهن بطاقته الائتمانية متباهياً؛ وكأنه يتحدّاهن أن يفعلن أسوأ ما يمكن القيام به.

تناول قارورة شراب خفيف؛ نوعاً بولندياً يأتي في دلو من ماء فاتر، وكأسين بلاستيكيتين، حملها إلى مقصورة مخملية سوداء حيث أشعل لفافة تبغ وبدأ يشرب بشراهة. كان الشراب الخفيف سكّرياً مثل حلوى مغلية بنكهة التفاح لكنه لم يهتم بذلك. كان أصدقاؤه قد ذهبوا آنذاك ولا يوجد أحد ليأخذ الكأس من يده أو يصرف انتباهه بحديث، وبعد الكأس الثالثة بدأ الوقت نفسه يتميز بتلك الخاصية المرنة الغريبة. فهو يتسارع ويتباطأ، وتختفي اللحظات معاً حين تتلاشى رؤيته ويصبح كل ما يراه أسود ثم تعود مجدداً. كان على وشك أن يغفو، أو يفقد الوعي، حين شعر بيد على ذراعه ووجد نفسه يواجه فتاة نحيلة ترتدي فستاناً أحمر قصيراً جداً وشعرها أشقر طويل، يتحول إلى أسود على بعد بوصة من فروة رأسها. قالت وهي تجلس في المقصورة: «هل تمانع أن أحتسي كأساً من الشراب؟». بدا جلدها سيئاً جداً تحت كريم أساس سميك، وتكلمت بلهجة جنوب أفريقية، ما جعله يثني عليها. صرخ بصوتٍ يعلو على الموسيقى: «صوتك رائع!». تنشّقت وغضّنت أنفها وعرّفت بنفسها أنها باربرا بطريقة تشير إلى أن «باربرا» أول اسم خطر على بالها. كانت هزيلة. يداها نحيلتان، وصدرها صغير. حدّق إليه مباشرة، لكن لم يبدُ أنها تمانع ذلك؛ جسد راقصة باليه. قال: «هل أنت راقصة باليه؟». وتنشّقت وهزّت كتفيها. قرّر أن باربرا قد أعجبته حقاً.

سألت تلقائياً: «ما الذي جاء بك إلى هنا إذاً؟».

قال: «إنها ذكرى سنوية!».

قالت من دون اهتمام: «تهانيَّ!». وسكبت لنفسها بعض الشراب ورفعت كأسها البلاستيكية في الهواء.

قال: «ألن تسأليني عن طبيعة هذه الذكرى السنوية؟». لكن، بدا أنه يجمجم على نحو سيئ جداً؛ لأنها طلبت منه أن يكرّر ذلك ثلاث مرات، وأدرك أنه من الأفضل أن يحاول شيئاً أكثر وضوحاً. قال: «تعرضت زوجتي لحادثة في مثل هذا اليوم قبل سنة بالضبط». ابتسمت باربرا بعصبية وبدأت تنظر حولها؛ وكأنها ندمت على الجلوس هناك. كان التعامل مع أشخاص فاقدي الرشد جزءاً من العمل، لكن هذا الشخص غريب حقاً. فهو يخرج للاحتفال بحادثة ما، ثم ينتحب على نحو غير مترابط بشأن سائق لا ينظر إلى أين يتجه، وقضية جنائية لم تستطع أن تفهمها أو تزعج نفسها بفهمها.

قالت لتغيير الموضوع فقط: «هل تريد مني أن أرقص لك؟».

«ماذا؟». مال نحوها. «ماذا قلت؟». كانت أنفاسه نتنة وبصاقه بقّع جلدها.

«قلت: هل تريد مني أن أرقص لك، وأن أبهجك قليلاً؟ يبدو أنك تحتاج إلى القليل من الترفيه».

قال واضعاً يده آنذاك على ركبتها القاسية والمتصلّبة مثل درابزين: «ليس الآن، ربما لاحقاً». كان يتكلم مجدداً. لم يكن يلقي خطاباً عادياً، وإنما مزيجاً من ملحوظات مقزّزة وبغيضة: في الثامنة والثلاثين فقط من العمر كنا نحاول إنجاب طفل. أفلت السائق من دون عقاب. أتساءل عمّا يفعله الأحمق هذه الدقيقة. أخذ مني أفضل صديقة؛ آمل أن يعاني؛ أين العدالة؟ ماذا عني؟ ماذا يجب أن أفعل الآن يا باربرا؟ أخبريني ماذا يفترض بي أن أفعل الآن؟ توقف فجأة.

كان رأس باربرا منخفضاً، وكانت تحدّق إلى يديها اللتين وضعتهما في حجرها وكأنها تتضرّع. وفكّر لحظة أنه قد أثّر فيها بقصته، هذه الغريبة الجميلة، أثّر فيها بقوة بطريقة ما. ربما كانت تتضرّع من أجله، وربما تبكي. لقد جعل هذه الفتاة المسكينة تبكي، وشعر بعاطفة قوية تجاه باربرا تلك. وضع يده فوق يديها شاكراً، وأدرك أنها تبعث رسالة نصّية. فبينما كان يتكلم عن إيما، وضعت هاتفها الخلوي في حجرها وكتبت نصاً. شعر بنوبة غضب واشمئزاز مفاجئة.

سأل بصوت مرتعش: «ماذا تفعلين؟».

«ماذا؟».

بدأ يصرخ آنذاك. «سألت ماذا تفعلين بحق الله؟». ضرب بعنف على يديها، ما جعل الهاتف ينزلق على الأرضية. صاح: «كنت أتكلم إليك!». لكنها بدأت تصرخ عليه آنذاك، وتدعوه أحمقَ، ومعتوهاً، ثم أشارت إلى الحارس؛ الرجل الضخم صاحب اللحية المشذّبة نفسه الذي كان ودوداً جداً عند الباب، لكنه وضع ذراعه الضخمة آنذاك حول كتفي دكستر، والأخرى حول خصره، ورفعه مثل طفل وحمله عبر الغرفة. استدارت رؤوس مبتهجة حين جأر دكستر فوق رأسه: أيها الغبي، أيها الجبان الغبي، أنت لا تفهم. وألقى نظرة واحدة أخيرة على باربرا التي كانت تضحك عليه. فتح الرجل مخرج الحريق بركلة منه ووجد دكستر نفسه مرة أخرى في الشارع.

صرخ: «بطاقتي الائتمانية! لديكم بطاقتي الائتمانية اللعينة!». لكن، مثل كل شخص آخر ضحك الحارس عليه، وأغلق مخرج الحريق.

غاضباً آنذاك، نزل دكستر عن الرصيف ولوّح بذراعيه إلى سيارات الأجرة السوداء الكثيرة التي تتجه شرقاً، لكن أياً منها لم يتوقف له، ليس وهو يترنّح في الشارع على تلك الحال. سحب نفساً عميقاً، وتراجع خطوة إلى الرصيف، واستند إلى جدار، وتوثق من جيوبه. اكتشف أن محفظته قد اختفت، وكذلك مفاتيح شقته وسيارته. أياً يكن الشخص الذي حصل على مفاتيحه ومحفظته فسيعرف عنوانه أيضاً الموجود على شهادة القيادة. لذا، سيضطر إلى تغيير الأقفال. وتذكر أن سيلفي ستأتي في وقت الغداء، وستجلب ياسمين معها. ركل الجدار، ووضع رأسه على الآجر، وفتّش جيوبه مجدداً، ووجد ورقة نقدية مكوّرة في جيب سرواله من فئة عشرين جنيهاً، رطبة من بوله. كانت ورقة العشرين جنيهاً كافية لإيصاله سالماً إلى منزله، ويمكن أن يوقظ الجيران، ويحصل على المفاتيح الإضافية، وينام قرير العين.

لكن ورقة العشرين جنيهاً كانت كافية أيضاً لإيصاله إلى البلدة، وشراء شراب أو اثنين. المنزل أم النسيان؟ أرغم نفسه على الوقوف منتصباً، وأوقف سيارة أجرة، وطلب من السائق إيصاله إلى سوهو.

وجد عبر باب أحمر بسيط في زقاق متفرّع من شارع برويك ملهى اعتاد أن يذهب إليه قبل عشر سنوات، أو خمس عشرة سنة، على أنه ملاذ أخير. كان عبارة عن غرفة وضيعة تخلو من النوافذ، مظلمة وتفوح منها رائحة دخان قوية، ويشرب الناس فيها من علب ريد سترايب. مشى إلى طاولة الفورميكا التي تُطوى كمشرب، واستفاد من الحشد ليثبّت نفسه، لكنه اكتشف آنذاك أنه لا يحمل نقوداً، وقد أعطى آخر ما لديه إلى سائق سيارة الأجرة، وأضاع الفكّة. كان سيفعل ما اعتاد أن يفعله دائماً حين يفقد كل ماله، يمسك أقرب شراب ويتجرّعه كله. مشى عائداً في الغرفة، متجاهلاً شتائم الناس الذين اصطدم بهم، وأمسك ما بدا له أنها علبة منسية وشرب ما بقي فيها، ثم أمسك أخرى بجرأة وحشر نفسه في الزاوية، وهو يتعرّق، ورأسه إلى المجهار، وعيناه مغمضتان، والشراب يسيل على ذقنه وإلى قميصه، وشعر فجأة بيدٍ على صدره تدفعه إلى الخلف نحو الزاوية، وأحدهم يحاول أن يعرف ما الذي يظن بحق الله أنه يفعله بسرقته شراب الناس. فتح عينيه: الرجل أمامه عجوز، أحمر العينين، مربوع مثل ضفدع.

قال دكستر: «في الواقع، أظن أنك ستكتشف أنها لي». ثم كتم ضحكة؛ لأن الكذبة لم تكن مقنعة. زمجر الرجل، وكشف عن أسنانه الصفراء وأظهر قبضته، وأدرك دكستر ما

يريده: أراد من الرجل أن يضربه. جمجم: «أبعد يديك عني أيها العجوز البشع». ثم سمع غمغمة وضجيجاً مثل تشويش، ووجد نفسه مستلقياً على الأرضية، ويداه على وجهه، في حين يركل الرجل بطنه ويضرب مؤخرته بكعب حذائه. تذوق دكستر طعم السجادة القذرة في أثناء تلقيه الضربات، ثم فجأة وجد نفسه يطفو، ووجهه إلى الأسفل، وستة رجال يرفعونه من الساقين والذراعين، كما حدث في المدرسة في ذكرى ميلاده حين ألقاه كل زملائه في حوض السباحة، وبدأ يصيح ويضحك حين حملوه على طول الرواق عبر مطبخ مطعم إلى الزقاق حيث ألقوه على كومة من سلال المهملات البلاستيكية. استمر يضحك وانقلب إلى الأرضية القاسية المتسخة وشعر بالدم في فمه، وبمذاقه الحار، وفكّر، حسنٌ، كانت سترغب بهذا، كانت سترغب بهذا.

الخامس عشر من تموز 2005

مرحباً يا دكستر!

آمل ألا تمانع أن أكتب لك. إنه شيء غريب أفعله، أليس كذلك، أن أكتب رسالة في أيام الإنترنت هذه! لكن، هذا يبدو ملائماً أكثر. أردت أن أجلس وأفعل شيئاً لتمضية النهار، وهذا يبدو أفضل شيء.

إذاً، كيف حالك؟ وكيف تسير أمورك؟ تكلمنا وقتاً وجيزاً، لكنني لم أرغب أن أتطفّل؛ لأنه بدا واضحاً كم كان ذلك اليوم صعباً عليك. كان قاسياً، أليس كذلك؟ كنت أفكّر مثلك، أنا واثق بهذا، في إيما طوال اليوم. أجد نفسي أفكّر فيها دائماً، لكن اليوم قاسٍ على نحو خاص، وأعرف أنك تجده قاسياً أيضاً، لكنني أردت أن أكتب لك رسالة عن أفكاري قدر الإمكان (أعني ليس كثيراً!!!!). ها أنا ذا.

عندما تركتني إيما قبل كل تلك السنوات، ظننت أن حياتي ستتمزق إلى أشلاء، وهذا ما حدث لنحو سنتين. ولأكون صادقاً، أظن أنني أُصبت بالجنون قليلاً: لكن، عندما التقيت تلك الفتاة في المتجر حيث كنت أعمل، اصطحبتها في أول موعد لنا لتراني أقدّم الكوميديا وقوفاً. بعد ذلك قالت: أرجوك لا تفهم هذا خطأً لكنك كوميدي سيئ جداً وأفضل شيء يمكن أن تفعله هو أن تتخلّى عن ذلك وتكون على سجيتك. كانت تلك هي اللحظة التي شعرت فيها بالحب تجاهها، ونحن متزوجان الآن منذ أربع سنوات، وأنجبنا ثلاثة أطفال مدهشين (فريدون! ها

ها). نعيش في مدينة تانتون لنكون قرب والديَّ (أي: جليس أطفال مجاني!!!). أعمل في شركة تأمين كبيرة الآن، في قسم استفسارات الزبائن. لا شك أن هذا سيبدو مملاً قليلاً لك، لكنني بارع فيه ونضحك كثيراً حقاً. يشير كل شيء إلى أنني سعيد. أطفالنا صبي وبنتان. أعرف أن لديك طفلة أيضاً. شيء مرهق، أليس كذلك؟!!!

لكن، لماذا أخبرك كل هذا؟ لم نكن قط صديقين مقرّبين، ولم تكن تهتم كثيراً على الأرجح بما أفعله. أفترض أنه إذا كان هناك سبب يدفعني إلى كتابة هذه الرسالة لك فهو الآتي:

بعد أن تركتني إيما ظننت أنني انتهيت. لكن، لم يحدث هذا؛ لأنني التقيت زوجتي جاكي. لقد خسرت إيما الآن أيضاً، لكن لا يمكنك استعادتها أبداً، لا أحد منا يستطيع هذا، لكنني أردت أن أحثّك على عدم الاستسلام. أحبتك إيما دائماً وكثيراً. وطوال سنوات عديدة سبّب لي هذا ألماً كبيراً وغيرة، وكنت أسترق السمع إلى مكالماتكما الهاتفية، وأراقبكما معاً في الحفلات، ولطالما تألقت بهاءً معك بطريقة لم أرها عليها معي. أنا خجل من القول إنني اعتدت قراءة دفاتر ملحوظاتها حين تكون خارج المنزل، وكانت مملوءة بالحديث عنك وبصداقتكما؛ ولم أستطع أن أتحمّل ذلك. لأكون صادقاً يا صاحبي، لم أظن أنك تستحقها. لكن، لا أظن أن أياً منّا كان يستحقها حقاً. ستبقى دائماً الإنسانة الأكثر ذكاءً ولطفاً ومرحاً وإخلاصاً التي قابلناها في حياتنا. وحقيقة عدم وجودها هنا؛ حسنٌ، هذا ليس صائباً.

إذاً، كما قلت، لم أظن أنك تستحقها، لكنني أعرف من اتصالي الوجيز مع إيما أن كل ذلك تغير في نهاية المطاف. كنت وغداً ثم لم تعد كذلك. وأعرف أنك في السنوات التي قضيتماها معاً أخيراً جعلتها سعيدة جداً. تألقت، أليس كذلك؟ تألقت فحسب، وأشرق كل شيء معها، وأود أن أشكرك على هذا وأقول إنه لا ضغينة بيننا يا صاحبي، وإنني أتمنى لك حظاً طيباً باقي حياتك.

آسف إن كانت هذه الرسالة كئيبة قليلاً. الذكريات السنوية مثل هذه قاسية علينا جميعاً، على أسرتها وعليك خاصة. لكنني أكره هذا التاريخ، وسأكره دائماً هذا اليوم كل سنة من الآن وكلما حل. أفكاري معك اليوم. أعرف أن لديك ابنة جميلة،

وآمل أن تستمد بعض الراحة والسعادة منها.
يجب أن أختم الآن! كن سعيداً وصالحاً وتابع الحياة! انتهز اليوم وكل ذلك الهراء.
أظن أن هذا ما كانت إيما سترغب به.
أفضل الأمنيات (أو ربما الحب كما أفترض)
إيان وايتهيد

«دكستر، هل تسمعني؟ أوه يا إلهي! ماذا فعلت؟ هل تسمعني يا دكس؟ افتح عينيك، هلاّ فعلت؟»

عندما استيقظ رأى سيلفي، ووجد نفسه يستلقي بطريقة ما على أرضية شقته، محصوراً بين الأريكة والطاولة، وهي تقف مرتبكة فوقه، وتحاول أن تسحبه من ذلك المكان الضيق وتجعله يجلس. كانت ملابسه رطبة ودبقة وأدرك أنه كان مريضاً في نومه، وبدا فزعاً وخجلاً لكنه خائر القوى، ولا يمكن أن يتحرك، في حين همهمت سيلفي وشهقت، ويداها تحت إبطيه.

قال وهو يكافح ليساعدها: «أوه يا سيلفي! أنا آسف، لقد أفسدت الأمور».

«اجلس من أجلي، هلاّ فعلت هذا يا عزيزي».

«أنا فاشل يا سيلفي. أنا فاشل جداً...».

«ستكون بخير، أنت بحاجة إلى النوم وهذا كل شيء. أوه، لا تبكِ يا دكستر. أصغِ إلي، هلاّ فعلت». جثت ويداها على وجهه آنذاك، وهي تنظر إليه بحنان نادراً ما رآه حين كانا متزوجين. «سنجعلك تنظف نفسك، وتذهب إلى السرير، ويمكن أن تنام، اتفقنا؟».

ألقى نظرة خلفها ورأى شخصاً يتحرك بعصبية عند المدخل: ابنته. تأوه وظن أنه ربما سيمرض مجدداً، فقد كانت نوبة الخجل المفاجئة قوية جداً.

تبعت سيلفي نظرته، وقالت بوضوح قدر الإمكان: «ياسمين عزيزتي، أرجوك انتظري في الغرفة الأخرى، هل ستفعلين؟ والدك ليس على ما يرام». لم تتحرك ياسمين، فقالت سيلفي، والفزع يرتفع في صوتها: «طلبت منك أن تذهبي إلى الغرفة المجاورة».

أراد بشدّة أن يقول شيئاً ليطمئن ياسمين، لكن فمه كان متورماً ومملوءاً بالكدمات وبدا أنه لا يستطيع تشكيل الكلمات، وبدلاً من ذلك استلقى إلى الخلف على الأرضية، محبطاً. قالت سيلفي: «لا تتحرك، ابقَ حيث أنت بالضبط». وغادرت الغرفة، وأخذت ابنتهما معها. أغمض عينيه، وهو ينتظر، ويتضرّع كي ينتهي كل ذلك. سمع أصواتاً في الردهة،

وإجراء مكالمة هاتفية.

الشيء التالي الذي تيقن منه هو أنه مكوّر على نحو غير مريح على المقعد الخلفي لسيارة ما، تحت بطانية قماشية شدّها بقوة حوله - على الرغم من اليوم الدافئ بدا أن ارتعاشه لا يتوقف - وأدرك أنها بطانية النزهات القديمة التي تذكّره، إضافة إلى رائحة تنجيد السيارة الأحمر البالي، بأيام الأسرة الخوالي. رفع رأسه ببعض الصعوبة لينظر إلى خارج نافذة الراكب، لكنه لم يرَ الطريق. سمع موزارت عبر المذياع، ورأى قفا رأس والده؛ شعراً أشيب ناعماً ومشذّباً بأناقة بغض النظر عن ذاك الموجود في أذنيه.

«إلى أين نذهب؟».

«آخذك إلى المنزل، عد إلى النوم».

كان والده قد اختطفه، وفكّر لحظة في أن يجادل: أعدني إلى لندن، أنا بخير، لست طفلاً. لكن الجلد كان دافئاً على وجهه، ولم تكن لديه الطاقة ليتحرك، فضلاً عن الجدال. ارتعش مرة أخرى، وسحب البطانية إلى ذقنه وغطَّ في النوم.

استيقظ على صوت العجلات وهي تصر على الحصى أمام منزل الأسرة الكبير. قال والده، وهو يفتح باب السيارة مثل سائق: «تعال إذاً، لدينا حساء». ومشى نحو المنزل، وهو يقذف مفاتيح السيارة بمرح في الهواء في أثناء ذلك. بدا واضحاً أنه قد قرر أن يتظاهر أن لا شيء غير معتاد قد حصل، وكان دكستر شاكراً لهذا. خرج من السيارة منحنياً ومترنّحاً، وأبعد بطانية النزهات عن كتفيه وتبعه إلى الداخل.

فحص وجهه في مرآة الحمام الصغير في الطابق السفلي، وشاهد أن شفته السفلية مجروحة ومتورمة، وهناك كدمة صفراء - بنية كبيرة على جانب وجهه. حاول أن يحرّك كتفيه، لكن ظهره آلمه، وشعر بأن عضلاته ممزقة. فزع، ثم فحص لسانه فوجده متقرّحاً، ومجروحاً من الجانبين، وتغلّفه طبقة رمادية، فمرّر طرفه على أسنانه التي لم تكن تبدو نظيفة مطلقاً هذه الأيام، وشمَّ رائحة أنفاسه تنعكس عن المرآة، نتنة مثل براز؛ كأن شيئاً يتحلل داخله. رأى عروقاً متمزقة في أنفه ووجنته. كان يشرب بإحساس متجدد بالتصميم ليلاً، وكثيراً في أثناء النهار، وقد ازداد وزنه كثيراً. ووجهه مكتنز ورخو، وعيناه حمراوان ودامعتان دائماً.

أسند رأسه على المرآة وزفر. كان يتساءل أحياناً في السنوات التي قضاها مع إيما عمّا ستكون عليه الحياة إن لم تكن موجودة؛ ليس بطريقة رهيبة، وإنما عملياً، لأنه: ألا يفعل

كل العشّاق ذلك؟ تساءل عمّا سيفعله من دونها؟ رأى الجواب آنذاك في المرآة. لم يكن فقدانها قد أكسبه أي نوعٍ من جلال المأساة، وإنما جعله فقط غبياً وتافهاً. كان من دونها يفتقر إلى أي ميزة أو فضيلة أو هدف، مجرّد ثمل وضيع ووحيد في منتصف العمر، يتملّكه الندم والخجل. خطرت له ذكرى غير مرغوب بها عن ذلك الصباح، حين قام والده وطليقته بنزع ملابسه ومساعدته على الاستحمام. سيبلغ من العمر أربعين سنة بعد أسبوعين، ووالده يساعده في الاستحمام. لماذا لم يأخذاه إلى مستشفى لغسل معدته فحسب؟ كان سيشعر بكرامة أكبر هناك.

سمع والده في الردهة يتكلم إلى شقيقته، ويصرخ عبر الهاتف، فجلس على حافة حوض الاستحمام. لم يكن استراق السمع يتطلب أي جهد، وفي الواقع بدا مستحيلاً ألا يسمع.

«أيقظ الجيران، وحاول أن يحطّم بابه. أدخلوه... وجدته سيلفي على الأرضية... يبدو أنه قد شرب كثيراً، هذا كل شيء... مجرد جروح وكدمات... لا فكرة لدي إطلاقاً. على كل حال، لقد ساعدناه في الاستحمام، وسيكون بخير في الصباح. هل تريدين أن تأتي وتلقي التحية؟». في الحمام، تضرّع دكستر لكي تقول «لا»، لكن شقيقته لم ترَ على ما يبدو شيئاً مفرحاً في ذلك أيضاً. «لا بأس يا كيسي. ربما ستتصلين به في الصباح، هلا فعلت».

عندما توثق أن والده قد ابتعد، دخل دكستر الردهة ومشى نحو المطبخ، شرب مياهاً دافئة من الصنبور في كأسٍ مغبّرة، ونظر إلى الخارج نحو الحديقة في شمس الأصيل. كان حوض السباحة فارغاً ومغطى بمشمّع أزرق مرتخٍ، وملعب كرة المضرب تعمّه الفوضى وقد نما عشبه كثيراً. وشمَّ في المطبخ، أيضاً، رائحة عفنٍ. بدا أن منزل الأسرة الكبير قد أُغلق تدريجياً غرفة بعد أخرى، حتى لم يعد والده يستخدم إلا المطبخ، وغرفة المعيشة وغرفة نومه، لكنه لا يزال واسعاً كثيراً عليه. قالت شقيقته إنه ينام أحياناً على الأريكة، فشعرا بالقلق وتكلما معه عن الانتقال من المكان، وشراء منزل آخر؛ شقة صغيرة في أوكسفورد أو لندن، لكن والده لم يوافق. قال: «أنوي أن أموت في منزلي إذا لم تكونا ممانعين». وهي حجة عاطفية جداً لم يستطيعا الرد عليها.

وقف والده خلفه: «هل تشعر بتحسن؟».

«قليلاً».

«ما هذا؟». أشار إلى كأس دكستر.

«ماء فحسب».

«سعيد لسماع هذا. فكّرت أن بمقدورنا تناول الحساء الليلة، نظراً إلى أنها مناسبة خاصة. هل يمكن أن تشرب علبة حساء؟».

«أظن هذا».

رفع علبتين في الهواء. «حساء دجاج مع الكاري أم دجاج فقط؟».

تحرك الرجلان في المطبخ الكبير العفن؛ أرملان يثيران فوضى ليست ضرورية أبداً وهما يسخّنان علبتي حساء. منذ أن أصبح والده يعيش بمفرده، تحوّلت حميته إلى ما يأكله فتى كشّافة طموح: فاصولياء مطبوخة، سجق، أصابع السمك؛ وقد عُرف عنه أيضاً أنه يُحضّر لنفسه قدراً صغيراً من الحلوى الهلامية.

رنَّ الهاتف في الردهة فقال والده وهو يدهن رغيف خبز أبيض بالزبدة: «أجب على الهاتف». تردّد دكستر. «لن يعضك يا دكستر».

ذهب إلى الردهة ورفع السماعة: سيلفي. جلس دكستر على السلالم، وهو يعرف أن طليقته تعيش بمفردها آنذاك، فقد انتهت العلاقة مع كالوم أخيراً قبل الكرسمس بقليل. كانت تعاستهما المشتركة، والرغبة بحماية ياسمين من ذلك، قد جعلتهما أقرب إلى بعضهما على نحو غريب، وأصبحا لأول مرة منذ زواجهما صديقين تقريباً.

«كيف حالك؟».

«أوه، تعرفين، محرج قليلاً. آسف بشأن ذلك».

«لا بأس».

«يبدو أنني أتذكر أنك وأبي وضعتماني في الحمام».

ضحكت سيلفي. «لم يكن يبالي إطلاقاً. ليس لديه شيء لم أره من قبل!».

ابتسم دكستر ووجِل في الوقت نفسه. «هل ياسمين بخير؟».

«أظن ذلك، إنها بخير، ستكون على ما يرام. أخبرتها أنك أُصبت بتسمم غذائي».

«سأعوّضها عن ذلك. كما قلت، أنا آسف».

«هذه الأشياء تحدث، لكن لا تفعل ذلك مجدداً أبداً».

أصدر دكستر صوتاً يبدو مثل «لا، حسنٌ، سنرى...». أطبق الصمت. «يجب أن أذهب يا سيلفي، فالحساء يحترق».

«أراك ليلة السبت؟».

«أراك وقتها. حبي إلى ياسمين، وأنا آسف».

سمعها تعدّل وضعية السمّاعة. «نحن جميعاً نحبك يا دكستر».

تمتم محرجاً: «لا سبب يدعوكم إلى ذلك».

«لا، ربما لا، لكننا نحبك».

بعد لحظة، أعاد السماعة إلى مكانها، وانضم إلى والده أمام التلفاز وهو يتناول شراب الليمون بنسب علاجية. وضعا الحساء في طبقين بُطّنا من الأسفل ليكونا مريحين في أثناء وضعهما على الحجر لتناول الطعام؛ ابتكار حديث وجده دكستر محبطاً على نحو مبهم. ربما لأنه من نوع الأشياء الذي لم تكن والدته لتسمح بدخوله منزلها. كان الحساء نفسه حاراً مثل حمم، يلسع شفته المجروحة حين يرتشفه، ولم تكن شرائح الخبز الأبيض التي اشتراها والده مدهونة بالزبدة كما ينبغي، فتمزّقت إلى فتات بلون المعجون، لكنها كانت، وعلى نحو غريب، لذيذة، وذابت الزبدة السميكة في الحساء اللزج. أكلا وهما يشاهدان نهايات الشرق؛ أحد برامج والده الإلزامية. عند عرض شارة النهاية، وضع الطبق المبطّن على الأرضية، وضغط على زر إلغاء الصوت في جهاز التحكم عن بعد، واستدار لينظر إلى دكستر.

«إذاً، هل سيصبح هذا سنوياً برأيك؟».

«لا أعرف بعد». انقضى بعض الوقت، واستدار والده إلى التلفاز الصامت. قال دكستر: «أنا آسف».

«على ماذا؟».

«حسنٌ، اضطررت إلى وضعي في الحمام، لذا...».

«نعم، لن أفعل هذا مجدداً إن كنت لا تمانع». مع بقاء التلفاز صامتاً، بدأ يقلّب القنوات. «على كل حال، ستفعل هذا من أجلي قريباً جداً».

قال دكستر: «يا إلهي! آمل ألا يحدث هذا. ألا تستطيع كيسي فعله؟».

ابتسم والده ونظر إليه. «لا أريد حقاً إجراء حديث صريح. هل تريد أنت؟».

«أفضّل ألا أفعل هذا».

«حسنٌ، دعنا لا نفعل هذا إذاً. لنقل فقط إنني أظن أن أفضل شيء يمكن أن تفعله

هو أن تحاول عيش حياتك وكأن إيما لا تزال موجودة. ألا تظن أن الأمر سيكون أفضل على هذه الحال؟».

«لا أعرف إن كان بمقدوري فعل هذا».

«حسنٌ، يجب أن تجرّب». مدَّ يده إلى جهاز التحكم عن بعد. «ماذا تظن أنني كنت أفعل في السنوات العشر الأخيرة؟». في التلفاز، وجد والده ما كان يبحث عنه، واسترخى أكثر على كرسيه. «آه، البرنامج».

جلسا وشاهدا التلفاز في أمسية الصيف، في غرفة مملوءة بصور الأسرة. محرجاً، وجد دكستر نفسه يبكي مرة أخرى، بهدوء شديد. وبحذر، وضع يديه على عينيه، لكن والده سمعه يحبس أنفاسه ونظر إليه.

«هل كل شيء بخير؟».

قال دكستر: «آسف».

«ليس السبب طبخي، أليس كذلك؟».

ضحك دكستر وتنشّق. «لا أزال ثملاً قليلاً، كما أظن».

قال والده وهو يستدير نحو التلفاز: «لا بأس. شاهد صامت يُعرض عند التاسعة».

الفصل الحادي والعشرون

قمة آرثر

الجمعة 15 تموز 1988

شارع رانكيلور، أدنبره

استحم دكستر في الحمام العفن، ثم لبس القميص من الليلة الماضية، وشمَّ رائحة العرق ولفائف التبغ تنبعث منه، لذا ارتدى سترة البزّة أيضاً لإخفاء الرائحة. ضغط معجون الأسنان على سبابته ونظّف أسنانه.

انضم إلى إيما مورلي وتيلي كيليك في المطبخ، تحت ملصق ملوث بالدهن بحجم الجدار لفيلم تروفو جول وجيم. وقفت جين مورو فوقهم ضاحكة في أثناء تناولهم فطوراً يسبب عسر الهضم: الخبز المحمّص البني المدهون بالصويا، ومزيجاً من حبوب ومكسّرات متكتلة. ولأنها كانت مناسبة خاصة، غسلت إيما آلة تحضير الإسبرسو أوروبية الطراز، من النوع الذي يبدو دائماً عفناً من الداخل. وبعد أول كوب من الشراب الأسود الزيتي، بدأ دكستر يشعر بأنه أفضل حالاً قليلاً. جلس بهدوء وهو يستمع إلى مزاح زميلتي السكن المرح، ويتأمل نظارتيهما الكبيرتين اللتين تبدوان مثل وسام شرف، وانتابه شعور غامض بأن فرقة مسرحية متطرفة قد أخذته رهينة. ربما كان البقاء هناك غلطة بالمحصلة، ومغادرة غرفة النوم خطأ بالتأكيد. كيف سيقبّلها وتيلي كيليك جالسة هناك وهي تثرثر؟

من جانبها، وجدت إيما نفسها تنزعج على نحو متزايد من وجود تيلي. ألا تحسن التصرف على الإطلاق؟ إنها تجلس هناك وهي تضم يديها على ذقنها، وتلعب بشعرها، وتمص ملعقتها الصغيرة. كانت إيما قد اقترفت غلطة الاستحمام بقارورة من صابون الجسم السائل برائحة الفراولة التي لم تختبرها قبل ذلك، وأدركت على نحو مؤلم أن رائحتها مثل الفاكهة، وأرادت بشدة أن تذهب وتغتسل، لكنها لم تجرؤ على ترك دكستر مع تيلي، وثوب استحمامها مفتوح عند سروالها الداخلي الأحمر ذي النقوش المربعة والضيق جداً من نيكربوكس. يمكن أن تكون واضحة جداً أحياناً.

العودة إلى السرير، ذلك ما كانت إيما تريده. كما كانت تريد أن ترتدي بعض الملابس، لكن الوقت قد فات آنذاك، وهم جميعاً صاحون جداً. متشوقة إلى الابتعاد، تساءلت بصوتٍ عالٍ عمّا يجب أن يفعلوه ذلك اليوم؛ أول يوم في حياتهم بعد التخرّج.

اقترح دكستر بفتور: «يمكن أن نذهب إلى الملهى؟». تأوهت إيما اشمئزازاً.

قالت تيلي: «ما رأيكما بأن نذهب لتناول الغداء؟».

«لا نملك مالاً».

عرض دكستر: «الأفلام إذاً، أنا سأدفع...».

«ليس اليوم. الطقس جميل، ويجب أن نكون في الخارج».

«لا بأس. الشاطئ، شمالي برويك».

انكمشت إيما من الفكرة التي ستعني ارتداء بزّة سباحة أمامه، وهي لم تكن قوية كفاية لذلك النوع من الألم. «لا فائدة ترجى مني على الشاطئ».

«لا بأس إذاً. ماذا؟».

قالت تيلي: «يمكن أن نتسلّق إلى قمة آرثر؟».

قال دكستر غير مبالٍ: «لم أفعل هذا قطّ». نظرت كلتا الفتاتين إليه مذهولتين.

«لم تتسلق إلى قمة آرثر مطلقاً؟».

«لا».

«أنت في أدنبره منذ سنوات، ولم تفعل مطلقاً؟».

«كنت مشغولاً!».

قالت تيلي: «ماذا تفعل؟».

قالت إيما: «يدرس علم الإنسان». وضحكت الفتاتان بفظاظة.

قالت تيلي: «حسنٌ، يجب أن نذهب!». وأطبق الصمت وقتاً قصيراً حين اتقدت عينا إيما تحذيراً.

قال دكستر: «ليس لدي حذاء ملائم».

«إنها ليست جبلاً ضخماً، وإنما مجرد تلة كبيرة».

«لا يمكنني التسلق منتعلاً الخفّين!».

«ستكون بخير، هذا ليس صعباً».

«في بزّتي؟».

«نعم! يمكن أن نقوم بنزهة!». لكن إيما شعرت أن الحماسة بدأت تتلاشى، حتى تكلمت تيلي أخيراً:

«في الواقع، ربما يجب أن تذهبا أنتما الاثنان من دوني. لدي أشياء أفعلها».

تحولت عينا إيما نحوها، ورأت نهاية غمزة، وظنّت أن بمقدورها أن تميل نحوها بسهولة وتقبّلها.

قال دكستر منفرجَ الأسارير أيضاً: «لا بأس إذاً. لنفعل هذا!». وبعد خمس عشرة دقيقة، خرجا إلى صباح تموزيٍّ ضبابي، وجرف ساليسبوري يلوح فوقهم في نهاية شارع رانكيلور.

«هل سنتسلق هناك حقاً؟».

«يستطيع طفل فعل هذا، ثق بي».

في المتجر الكبير في شارع نيكلسون تسوّقا للنزهة، وهما غير مرتاحين قليلاً من ذلك الطقس الأسري الغريب في دفع سلة تسوّق واحدة، وواعيان تماماً لخياراتهما؛ هل الزيتون فاخر أكثر من اللازم؟ هل الأمر مضحك أن يأخذا آيرن برو؟ أم هل يجب عليهما شراء شراب خفيف؟ ملأا حقيبة إيما العسكرية الكبيرة بالمؤن - إيما مرحة، ودكستر متكلّف قليلاً - ثم قفلا عائدين نحو متنزه هوليرود وبدأا التسلق على طول قاعدة الجرف.

تخلّف دكستر وراءها، وهو يتصبّب عرقاً في بزّته وحذائه الزلق، ويضع لفافة تبغ بين شفتيه، ورأسه يؤلمه من تأثير الشراب الأحمر وقهوة الصباح. أدرك على نحو غامض أنه يجب أن ينظر إلى روعة المنظر. لكن، بدلاً من ذلك، كانت عيناه ثابتتين على إيما في قميصها الأزرق الفاتح المربوط بإحكام بحزام حول خصرها فوق سروال أسود.

«أنت رشيقة جداً».

«أنا مثل الماعز الجبلية. في الديار، كنت أخرج في نزهات كثيراً - كنت في مرحلة الطفولة - إلى البراري والمستنقعات العاصفة. كنت جريئة جداً. لا يمكنني العيش من دون حياتي! لا يمكنني العيش من دون روحي!».

شبه مصغٍ، افترض دكستر أنها تقتبس قولاً ما، لكن ذهنه انصرف إلى وَشَل من العرق الذي يتكوّن بين عظمتي كتفيه، ولمح شريط صدرية من فتحة العنق في قميصها. خطرت له صورة عابرة من الليلة الماضية في السرير، لكنها نظرت إلى الخلف نحوه وكأنها تحذّره لكي يمحوها من باله.

«كيف حالك يا شيربا تنزينغ؟».

«أنا بخير. أتمنى لو كان الحذاء أكثر ثباتاً، هذا كل شيء». كانت تضحك آنذاك.

«ما المضحك؟».

«لم أر قط شخصاً يدخن ويتسلّق في الوقت نفسه».

«ماذا ينبغي أن أفعل غير ذلك؟».

«انظر إلى المنظر!».

«منظر منظر منظر».

«هل تلك شيلي أم وردسورث؟».

تنهّد وتوقف، ويداه على ركبتيه. «لا بأس. حسنٌ، سأنظر إلى المنظر». استدار ورأى عقارات مجلس المدينة، والقمم، وفتحات شرفات البلدة القديمة تحت القلعة الرمادية الضخمة، ثم وراء ذلك في ضباب اليوم الدافئ رأى فيرث فورث. كان دكستر يعتمد سياسة عامة بألا يبدو متأثراً بأي شيء، لكنّ المنظر بدا رائعاً حقاً، ذاك الذي يتذكره من صور البطاقات البريدية. وتساءل: لماذا لم يره من قبل؟

سمح لنفسه بالقول: «جميل جداً». وتابعا التسلّق نحو القمة، متسائلَين عمّا سيحدث حين يصلان إلى هناك.

الفصل الثاني والعشرون

الذكرى السنوية الثانية

إفراغ الصناديق

السبت 15 تموز 2006

شمالي لندن وأدنبره

عند السادسة وخمس عشرة دقيقة ذلك المساء، أنزل المصاريع المعدنية لمقهى بيلفيه ووضع القفل الكبير في مكانه. انتظرت مادي قربه، وأمسك يدها حين مشيا معاً نحو محطة قطار الأنفاق.

لقد انتقل أخيراً إلى مكان جديد، وامتلك حديثاً منزلاً جميلاً في غوبسل أوك، لكنه ليس فخماً، ويتكوّن من ثلاث غرف نوم. كانت مادي تعيش في ستوكويل، بعيداً على الطرف الآخر من الخط الشمالي، وأحياناً يبدو منطقياً لها أن تقضي الليلة لديه، لكن ليس هذه الليلة؛ فلم تكن هناك أحداث مثيرة أو استثنائية، لكنه يود قضاء بعض الوقت وحده. كان قد كلّف نفسه بمهمة آنذاك، ولا يمكنه تنفيذها إلا بمفرده.

ودّعا بعضهما خارج قطار أنفاق متنزه توفنل. كانت مادي أطول منه قليلاً، وشعرها طويل أسود، واضطرت إلى أن تنحني قليلاً لتقبّله. «اتصل بي لاحقاً، إن أردت».

«ربما أفعل».

«وإذا غيّرت رأيك، وأردت مني الصعود -».

«سأكون بخير».

«لا بأس إذاً، ربما أراك غداً؟».

«سأتصل بك».

قبّلا بعضهما مودّعين مجدداً، لوقت وجيز، ولكن بشغف، وتابع طريقه وهو يمشي إلى أسفل التلة نحو منزله الجديد.

كان يواعد مادي، مديرة المقهى، منذ شهرين آنذاك، لكنهما لم يخبرا الموظفين الآخرين رسمياً، وإن كانا يظنان أنهم يعرفون هذا على الأرجح. لم تكن علاقتهما علاقة عاطفية جداً، وإنما كانت قبولاً تدريجياً على مر السنة الماضية لوضع محتم. بالنسبة إلى دكستر، كانت علاقة عملية وأمراً واقعياً، لكنه سراً لم يشعر بالارتياح بشأن التحوّل الذي أجرته مادي من كونها صديقة حميمة إلى حبيبة، فقد ألقى ذلك ظلاً على علاقتهما التي نشأت في مثل تلك العتمة.

لكنهما يتوافقان جيداً، والجميع يقول هذا، ومادي لطيفة وحسّاسة وجذّابة، وطويلة ونحيلة، وحمقاء قليلاً؛ يحدوها طموح بأن تصبح رسّامة، ودكستر يظن أنها جيدة، وهي تعلّق لوحات زيتية صغيرة في المقهى، وتُباع أحياناً. إنها أيضاً أصغر منه بعشر سنوات - تخيّل إيما تحرّك عينيها من ذلك - لكنها حكيمة وذكية، وقد حظيت بحصتها من البؤس: طلاق باكر، علاقات تعيسة مختلفة. إنها هادئة، ورابطة الجأش، وتهتم بالآخرين، وكئيبة قليلاً، وهذا يناسبه حالياً. مادي أيضاً حنون ومخلصة بقوة، ولقد أنقذت العمل في الوقت الذي كان فيه يشرب ولا يذهب إلى المقهى، وهو شاكر لها على ذلك. ياسمين تحبها، وهما تتفقان معاً كفاية، حتى اللحظة على الأقل.

كان مساء سبت جميلاً، ومشى بمفرده في شوارع سكنية حتى وصل إلى الشقة؛ القبو والطابق الأرضي من المنزل المبني من آجر أحمر ليس بعيداً كثيراً عن براح هامبستيد. كانت الشقة تحتفظ برائحة العجوزين اللذين عاشا فيها من قبل، ولم يفرّغ إلا بضعة أشياء أساسية: التلفاز وجهاز الدي - في - دي والمسجل. إنه نوع بالٍ من الأماكن، في ذلك

الوقت على كل حال، بسياجه المتداعي وحمّامه المروّع وغرفه الصغيرة العديدة الأخرى، لكن سيلفي أصرّت على أنه سيبدو رائعاً بعد أن يزيلوا ورق الجدران وينظّفوا الأرضيات بالرمل. هناك غرفة رائعة حين تأتي ياسمين للإقامة معه، وحديقة أيضاً؛ حديقة. ألقى دعابة لبعض الوقت بشأن تبليطها، لكنه قرّر آنذاك أنه سيتعلم البستنة، وقد اشترى كتاباً عن الموضوع. كان قد أدرك في مكان عميق في وعيه مفهومَ التقدم في العمر، وقريباً سيلعب الغولف ويغفو مرتدياً ثياب النوم.

بعد أن دخل وتجاوز الصناديق المبعثرة في الردهة، استحم ثم ذهب إلى المطبخ وطلب طعاماً تايلندياً. استلقى على الأريكة في غرفة المعيشة، وبدأ يعدّ في ذهنه قائمة بالأشياء التي يجب أن يفعلها قبل أن يباشر مهمته.

بالنسبة إلى دائرة ضيقة متنوعة من الأشخاص، كان هذا اليوم يعتبر مناسبة حزينة، وهناك مكالمات معينة يجب أن يقوم بها آنذاك. بدأ مع سو وجيم، والدي إيما في ليدز، وكانت المحادثة سارة وبسيطة كفاية، أخبرهما فيها عن العمل، وكيف تبلي ياسمين في المدرسة، وكرّر الحديث مرتين لكل من الوالدة والوالد. أخبر سو: «حسنٌ، هذه هي كل الأخبار حقاً. أود فقط القول إنني، تعرفين، أفكّر فيكما اليوم، وآمل أن تكونا بخير».

قالت بصوت متهدّج: «وأنت أيضاً يا دكستر. اعتنِ بنفسك». ثم أغلقت السماعة. تابع دكستر العمل على القائمة، وتكلم مع شقيقته، ووالده، وطليقته، وابنته. كانت الأحاديث موجزة ومرحة ظاهرياً، ولم تذكر أهمية اليوم، لكن السياق نفسه دائماً. «أنا بخير». اتصل بتيلي كيليك، لكنها بدت منفعلة وعاطفية جداً: «لكن، كيف أنت حقاً يا عزيزي؟ أعني حقاً؟ هل أنت وحدك؟ هل أنت بخير وحدك؟ هل تريد منا أن نأتي إليك؟». مستاءً، طمأنها، ثم أنهى المكالمة بسرعة وتهذيب قدر استطاعته. اتصل بإيان وايتهيد في تانتون الذي كان يضع الأطفال في السرير، الأشقياء الصغار، ولم يكن الوقت ملائماً. وعده إيان أنه سيتصل به خلال الأسبوع، وربما سيأتي لرؤيته في وقت ما. وقال دكستر إنها فكرة رائعة رغم أنه يعرف تماماً أن ذلك لن يحدث أبداً. ساد إحساس عام – كما حصل في كل المكالمات – بأن أسوأ العاصفة قد انقضى، وعقد دكستر العزم على عدم التحدث إلى إيان وايتهيد أبداً مجدداً، وبدا ذلك جيداً أيضاً، لكليهما.

تناول العشاء وهو يشاهد التلفاز، وقلّب القنوات، واقتصر الأمر على احتساء كأس شراب شعير واحدة تأتي مجاناً مع الطعام. لكن، بدا أن هناك شيئاً محزناً في تناول الإنسان

الطعام بمفرده، منحنياً على الأريكة في ذلك المنزل الغريب. وشعر لأول مرة ذلك اليوم بنوبة يأس ووحدة. كان الحزن هذه الأيام مثل المشي على نهر متجمّد؛ إذ يشعر المرء معظم الوقت أنه آمن كفاية، ولكن هناك دائماً ذلك الخطر بأنه سيغطس فيه. سمع آنذاك الجليد يطقطق تحته، وتملّكه إحساس قوي ومفزع بأن عليه الوقوف دقيقة، وضغط بيديه على وجهه، والتقط أنفاسه، وزفر ببطء عبر أصابعه، ثم أسرع إلى المطبخ ورمى الأطباق الوسخة في المغسلة محدثاً ضجيجاً. شعر برغبة عارمة بتناول الشراب، والاستمرار في ذلك، فالتقط هاتفه.

قالت مادي، والقلق بادٍ في صوتها: «ما الأمر؟».

«خائف قليلاً، هذا كل شيء».

«هل أنت واثق أنك لا تريد أن آتي إليك؟».

«أنا بخير الآن».

«يمكن أن أطلب سيارة أجرة؟ أستطيع أن أكون معك بعد -».

«لا، حقاً. أفضّل أن أبقى بمفردي». اكتشف أن صوتها كافٍ لتهدئته، وطمأنها مرة أخرى، ثم ودّعها. عندما توثق من عدم وجود سبب معقول يدفع أحداً إلى الاتصال به، أغلق الهاتف، وشدَّ المصاريع إلى الداخل، وصعد إلى الأعلى وبدأ.

لم تكن غرفة النوم الإضافية تحوي شيئاً إلا الفراش، وحقيبة مفتوحة، وسبعة صناديق كرتونية أو ثمانية، كُتب على اثنين منها «إيما 1» و«إيما 2» بخط يدها بقلم تخطيط أسود عريض؛ آخر مقتنيات إيما من شقته، وتضم دفاتر ملحوظات، ورسائل، وألبومات صور. حمل الصندوقين إلى الأسفل إلى غرفة المعيشة، وقضى ما تبقى من فترة المساء وهو يفرغهما، ويصنّف أوراقاً لا معنى لها - بيانات مصرفية قديمة، إيصالات، قوائم وجبات جاهزة قديمة؛ وضعها كلها في كيس بلاستيكي أسود - ويفرزها إلى أشياء سيرسلها إلى والديها، وأخرى سيحتفظ بها.

استغرقت العملية بعض الوقت، لكنه نفّذها كلها من دون أن يذرف دمعة، بطريقة نشيطة، ولم يتوقف إلا نادراً. تفادى قراءة دفاتر اليوميات والملحوظات بإضافاتها من شعر ومسرحيات للشبان. بدا الأمر جائراً - تخيّل إيما تفزع خلفه أو تحاول انتزاعها من يده - وبدلاً من ذلك ركّز على الرسائل والصور.

كانت الطريقة التي وُضّبت بها المواد تعني أن يعمل عليها بترتيب زمني معكوس، وأن

ينقّب في التواريخ؛ بدءاً من سنواتهما معاً كثنائي، وبالعودة إلى التسعينيات، وأخيراً، في قاع الصندوق رقم 2، إلى الثمانينيات. أولاً، وجد أغلفة من روايات «جولي كريسكول»، ومراسلات مع محررتها مارشا، ومقتطفات صحفية. كشفت الطبقة التالية عن بطاقات بريدية وصور من باريس، وفيها لقطة للشهير جان-بيير دوسوليه، داكن البشرة والوسيم جداً؛ الشخص الذي لم يعرفه جيداً. في مغلّف يضم تذاكر قطار أنفاق، وقوائم طعام مطوية، واتفاقية تأجير بالفرنسية، عثر على شيء مدهش ومؤثر جداً كاد أن يلقيه على الأرض.

كانت صورة سلبية التُقطت في باريس في أثناء ذلك الصيف، لإيما التي كانت تستلقي على السرير، وساقاها تلتفان عند الكاحل، وذراعاها ممتدتان بتراخٍ فوق رأسها. التُقطت الصورة في أمسية غرام بعد مشاهدة تيتانيك بالفرنسية عبر تلفاز أبيض وأسود. وعلى الرغم من أنه وجد الصورة جميلة آنذاك، إلا أنها قد انتزعتها منه وأصرّت على أن تتلفها. كان ينبغي أن تسعده حقيقةُ احتفاظها بالصورة السلبية وإخفائها عنه، فهي تشير إلى أن إيما أحبتها أكثر مما صرّحت به، لكنها صدمته أيضاً بغيابها مرة أخرى. واستغرق الأمر منه لحظة ليلتقط أنفاسه. أعاد الصورة السلبية إلى المغلّف وجلس بصمت ليستجمع قواه؛ وشعر بأن الجليد يطقطق تحته.

تابع العمل، ووجد من أواخر التسعينيات حزمة من شهادات الميلاد، ودعوات الزفاف، وأوامر الخدمة، وبطاقة وداع كبيرة من موظفي مدرسة طريق كروموبل الشاملة وتلاميذها محشوة في المغلّف نفسه، ومجموعة من الرسائل من شخص يدعى فيل مملوءة إيحاءات ومناشدات، فطواها بسرعة وأعادها إلى المغلف. كانت هناك طبقات من عروض إيان الكوميدية الليلية، وبعض الأوراق المملة من محامين تخص شراء الشقة في المنطقة السابعة عشرة. وجد مجموعة من بطاقات بريدية قديمة أرسلها لها في أثناء سفره في بداية التسعينيات؛ «أمستردام تجنن»، «دبلن تذهل». تذكّر الرسائل التي تلقاها بالمقابل؛ رزماً صغيرة رائعة من ورق البريد الجوي الأزرق الفاتح التي قرأها مجدداً أحياناً، وشعر بالحرج مرة أخرى من قلّة خبرته بعمر الرابعة والعشرين: «البندقية مغمورة بالماء تماماً!!!!». عثر على نسخة من برنامج نسخ «كرويل للشحن - مسرحية لصغار السن من إيما موريلي وغاري تشيدل»، ثم عثر على مقالات قديمة، وأطروحتين عن «نساء دون» و«إليوت والفاشية»، ورزمة من بطاقات بريدية تمتلئ ثقوباً صغيرة من ألواح إعلانات في مساكن طلابية. وجد

أنبوباً بلاستيكياً ملفوفاً بإحكام، وفيه شهادة تخرّج إيما، بقيت سليمة على حالها - كما تخيّل - نحو عشرين سنة. توثق من ذلك بالنظر إلى التاريخ: 14 تموز 1988؛ قبل ثماني عشرة سنة من الأمس.

وجد في مغلف ورقي ممزق صور إنهاء التخرّج، فقلبها من دون أن ينتابه شعور قوي بالحنين إلى الماضي. ولأن إيما نفسها هي التي التقطت الصور، فلم تظهر فيها إلا نادراً، وقد نسي العديد من الطلاب الآخرين على كل حال، فقد كانت عضواً في مجموعة مختلفة في تلك الأيام. وعلى الرغم من ذلك دُهش من صبا الوجوه، وأيضاً من حقيقة أن تيلي كيليك تمتلك قدرة على إزعاجه؛ حتى في صورة التُقطت قبل ثماني عشرة سنة. أمسك بصورة لكالوم أونيل، الذي بدا نحيلاً ومغروراً، فمزّقها بسرعة إلى قطعتين، وألقاها في كيس المهملات.

لكن، في مرحلة ما، لا بد أنها قد سلّمت آلة التصوير إلى تيلي؛ لأنه وجد أخيراً سلسلة من الصور لإيما بمفردها، وهي ترسم علامات سخرية على وجهها بعباءتها وقلنسوتها الجامعية، ونظارتها تجثم على أرنبة أنفها. ابتسم، ثم أنَّ خجلاً حين عثر على صورة قديمة له.

كان وجهه مثل عارض أزياء سخيف، وهو يشد عظمتي وجنتيه إلى الداخل ويبوّز، في حين تلف إيما إحدى ذراعيها حول عنقه، ووجهها قريب من وجهه، وتضع يدها الأخرى على وجنتها وكأنها مولعة بنجم التلفاز. كانا قد ذهبا بعد التقاط تلك الصورة إلى حفل التخرّج، والملهى، ثم إلى الاحتفال في ذلك المنزل. لم يتذكر من عاش هناك، لكنه تذكّر أن المنزل كان مكتظاً ومدمّراً عملياً، وأن الحفل خرج إلى الشارع والحديقة الخلفية، وأنهما تواريا عن الأنظار بعيداً عن الفوضى، وعثرا على بقعة على أريكة في غرفة المعيشة، وبقيا عليها كل المساء، وهناك قبّلها أول مرة. أمعن النظر إلى صورة التخرّج مرة أخرى، وبدت إيما خلف أُطرٍ سوداء سميكة، وشعرها أحمر داكن ومصفَّف على نحو سيئ، ووجهها أكثر امتلاءً مما يتذكرها آنذاك، وفمها يشرق بابتسامة واسعة، ووجنتها تلامس وجنته. وضع الصورة إلى جانبه، ونظر إلى التالية.

كانت تلك الصورة قد التقطت في صباح اليوم التالي، وهما يجلسان معاً على سفح الجبل. إيما ترتدي قميصاً ضيقاً عند الخصر وسروالاً أسود، ودكستر بعيد قليلاً عنها، ويرتدي قميصاً أبيض وبزّة سوداء قد لبسها في اليوم السابق.

كانت قمة جبل آرثر مزدحمة على نحو مخيب للآمال بسيّاح وخريجين آخرين، جميعهم شاحبو الوجوه ومتوعكون من احتفالات الليلة الماضية. رفع دكس وإم يديهما بارتباك تحية لبعض معارفهما، لكنهما حاولا البقاء بعيدين عن بعضهما، عاقدي العزم على تجنّب الأقاويل؛ حتى إن بدا أن أوان ذلك قد فات.

تجولا بتكاسل على الهضبة التي كانت بلون الصدأ، وهما يشاهدان المنظر من كل الزوايا. وقفا على العمود الحجري الذي يدل على القمة، وقالا الملحوظات الإلزامية في مثل تلك الأوضاع: المسافة التي قطعاها، وكيف يمكن أن يشاهدا المنزل من هناك. كان العمود نفسه قد مُلئ خدوشاً: دعابات خاصة، «دي جي كان هنا»، «إسكتلندا إلى الأبد»، «تاتشر خارج الحكم».

اقترح دكستر، واهناً: «يجب أن نحفر أول حرفين من اسمينا».

«ماذا؟ دكس إلى إم؟».

«إلى الأبد».

تنشّقت إيما متشككة، وفحصت الرسم الأكثر تميزاً؛ المرسوم بحبر أخضر لا يمكن إزالته. «تخيل تسلق كل تلك المسافة لرسم هذا! هل أحضر القلم معه، ما رأيك؟ إنه منظر رائع، جمال طبيعي، لكن ما تحتاج إليه هذه البقعة حقاً أعضاء حسّاسة كبيرة».

ضحك دكستر تلقائياً. لكن، مرة أخرى، بدا أن الخجل قد بدأ يتسلل إليهما. وبعد وصولهما إلى هناك شعرا أن ما فعلاه غلطة، وتساءل كل منهما بمفرده إن كان يجب أن يُنهي النزهة ويعود ببساطة إلى الأسفل ويتجه إلى المنزل. لكن أياً منهما لم يكن مستعداً تماماً لاقتراح هذا. وبدلاً من ذلك، وجدا تجويفاً لا يبعد كثيراً عن القمة حيث تتخذ الصخور شكل أثاث طبيعي، وجلسا هناك، وفتحا حقيبة الظهر.

أخرج دكستر الشراب الخفيف الدافئ آنذاك، فسال على يده، وعلى الأرض في الأسفل. أمسكا الزجاجة بالتناوب ليتجرّعا منها، لكن لم يكن هناك إحساس كبير بالاحتفال. وبعد صمت قصير، عادت إيما مرة أخرى للتعليق على المنظر. «جميل جداً».

«همم».

«لا أثر للمطر!».

«همم؟».

«احتفال سان سويذن، كما قلت أنت. إذا حلَّ احتفال سان سويذن، فسيهطل

المطر...».
«بالتأكيد، لا أثر للمطر».
الطقس؛ كانت تتكلم عن الطقس! محرجة من ابتذالها، التزمت الصمت قبل أن تجرّب طريقة أكثر وضوحاً. «إذاً، كيف تشعر يا دكس؟».
«مضطرب قليلاً».
«لا، أعني بشأن الليلة الماضية؟ أنا وأنت».
نظر إليها وتساءل عمّا تتوقع منه قوله! توخى الحرص من المواجهة من دون وسائل مباشرة للهرب، باستثناء إلقائه نفسه عن سفح الجبل. «ينتابني شعور رائع! ماذا عنك؟ ما شعورك بشأن الليلة الماضية؟».
«لا بأس. محرجة قليلاً، كما أفترض، من الحديث عن كل ذلك. تعرف، عن المستقبل، وتغيير العالم وكل هذا. يبدو ذلك مبتذلاً قليلاً في وضح النهار، ولا بد أنه كان مبتذلاً على كل حال، خاصة بالنسبة إلى شخص ليست لديه مبادئ أو أهداف...».
«مهلاً، لدي أهداف!».
«النوم مع امرأتين في الوقت نفسه ليس هدفاً».
«حسنٌ، ربما؟!».
أطلقت صرخة استهجان. «يمكن أن تكون وضيعاً حقاً أحياناً، هل تعرف هذا؟».
«لا يمكنني فعل شيء حيال هذا».
«حسنٌ، يجب أن تحاول». أمسكت حفنة من الخلنج ورمتها ببطء نحوه. «أنت أكثر لطفاً حين تريد ذلك، على كل حال. القصد هو أنني لم أرغب أن أبدو مملة».
«لم تكوني كذلك. كان أمراً رائعاً. وكما قلت، لقد قضيت وقتاً ممتعاً حقاً. من المؤسف فقط أن التوقيت لم يكن ملائماً».
كان يبتسم لها ابتسامة مواساة مزعجة، وغضّنت أنفها انزعاجاً. «ماذا؟ هل تعني أننا بخلاف ذلك كنا سنصبح حبيبين؟».
«لا أدري. من يعرف؟».
مدَّ يده وراحته إلى الأعلى، ونظرت إليها للحظة باشمئزاز، ثم تنهّدت وأمسكتها بإذعان، وجلسا هناك، ويداهما مرتبطتان على نحو عديم الجدوى. وشعرا بالسخف حتى

تعبت ذراعاهما، وأفلت كل منهما يد الآخر. قرر أن أفضل حل هو التظاهر بالنوم حتى يحين وقت المغادرة، ونزع سترته وهو يفكّر في ذلك، وطواها على شكل وسادة، وأغمض عينيه من الشمس. آلمه جسده، وشعر بآثار الشراب في رأسه، وبدأ يشعر بأنه سيغفو حين تكلمت.

«هل يمكن أن أقول شيئاً؟ فقط لأجعل ذهنك يرتاح؟».

مسترخياً، فتح عينيه، ورآها تجلس رافعةً ساقيها إلى صدرها، وهي تلف ذراعيها حولهما، وتضع ذقنها على ركبتيها. «تفضلي».

استنشقت الهواء وكأنها تستجمع أفكارها، ثم تكلمت.

«لا أريد أن تظن أنني منزعجة. أعني بالنسبة إلى ما حدث الليلة الماضية؛ فقط لأنك كنت ثملاً...».

«إيما...».

«دعني أنهي كلامي. لكنني قضيت وقتاً رائعاً حقاً على كل حال. لم أفعل الكثير... من تلك الأشياء. لم أهتم كثيراً بذلك، ليس مثلك، لكن الوقت الذي أمضيناه معاً كان رائعاً. أظن أنك لطيف يا دكس، حين تريد ذلك. وربما كان التوقيت سيئاً كما قلت، ولكنني أظن أنك يجب أن تتجه إلى الصين أو الهند أو أي مكان آخر وتعثر على نفسك، وسأمضي قدماً في حياتي هنا بسعادة كبيرة. لا أريد أن أرافقك، أو أن أتلقى بطاقات بريدية كل أسبوع، ولا أريد حتى رقم هاتفك. لا أريد أن أتزوجك وأنجب أطفالك أيضاً، أو حتى أن أقيم علاقة أخرى معك. قضينا ليلة واحدة رائعة حقاً معاً، وسأتذكرها دائماً. إذا التقينا في وقت ما في المستقبل، في حفل مثلاً، فسيكون ذلك رائعاً أيضاً، وسنتبادل أطراف حديث ودّي. ولن نشعر بالحرج؛ لأنك وضعت يدك على مؤخرتي، ولن نحس بالارتباك، وسنبقى دائماً رصينين بشأن هذا، صحيح؟ أنا وأنت. سنبقى... صديقين. هل اتفقنا؟».

«لا بأس، اتفقنا».

«حسنٌ، هذا كل شيء. الآن -». مدّت يدها إلى حقيبة الظهر وتحسست داخلها، وأخرجت بنتاكس أس - أل - آر تعمل بالمدخرات.

«ماذا تفعلين؟».

«ماذا يبدو لك؟ ألتقط صورة، شيئاً أتذكرك به».

قال وهو يسوّي شعره: «أبدو فظيعاً».

«لا تقل لي ذلك، أنت تحب هذا...».

أشعل لفافة تبغ من أجل الصورة. «لماذا تريدين الصورة؟».

«من أجل الوقت الذي ستصبح فيه مشهوراً». كانت توازن آلة التصوير على صخرة آنذاك، وتؤطر الصورة عبر الشاشة. «أريد أن أقول لأولادي يوماً، انظروا إليه هناك».

«أنت بدأت هذا!».

«لا، أنت من بدأ يا صاحبي!». شغّلت مؤقت الآلة، وحكّت رأسها بأطراف أصابعها، في حين وضع دكستر لفافة التبغ في أحد طرفي فمه ثم في الطرف الآخر. «حسنٌ، ثلاثون ثانية».

عدّل دكستر وقفته. «ماذا سنقول؟ ابتسامة؟».

«ليس ابتسامة، لنقل وقفة ليلة – واحدة!». ضغطت الزر وبدأت آلة التصوير تئز. «أو جزافاً». مشت فوق الصخور.

«أو لصوص رحلوا في الليل».

«اللصوص لا يرحلون في الليل، وإنما السفن».

«ماذا يفعل اللصوص؟».

«اللصوص أغبياء».

«ما الخطأ في قول ابتسامة فحسب؟».

«دعنا لا نقول شيئاً، ولنبتسم فقط، ولنبدُ طبيعيين؛ شابين لدينا مُثلٌ عليا وآمال. هل أنت مستعد؟».

«مستعد».

«لا بأس إذاً، ابتسم و...».

الفصل الثالث والعشرون

الذكرى السنوية الثالثة
الصيف الماضي
الأحد 15 تموز 2007

أدنبره

«رن، رن. رن، رن».

أيقظه إبهام ابنته الذي كان يضغط على أنفه وكأنه جرس باب.

«رن، رن. رن، رن. مَن خلف الباب؟ ياسمين خلف الباب!!».

«ماذا تفعلين يا ياس؟».

«أوقظك. رن، رن». وضعت إبهامها على عينه آنذاك، وشدّت الجفن. «استيقظ أيها الكسول!».

«ما الوقت الآن؟».

«النهار!».

مدّت مادي يدها إلى ساعتها وهي تستلقي بجانبه على سرير الفندق، وتأوهت في الوسادة: «السادسة والنصف». فضحكت ياسمين بحقد، وفتح دكستر كلتا عينيه، ورأى وجهها على الوسادة بجانبه، وأنفها على بعد بوصات منه. «أليس لديك كتب تقرئينها أو دمى تلعبين بها أو شيء ما؟».

«لا».

«اذهبي ولوّني شيئاً، هلاّ فعلت».

«أنا جائعة. هل يمكن أن نطلب طعاماً إلى الغرفة؟ في أي وقت يُفتح حوض السباحة؟».

كان فندق أدنبره فخماً وتقليدياً وضخماً، ترى فيه ألواح السنديان وحمامات الخزف. أقام والداه هنا مرة، من أجل مناسبة تخرّجه، وهو قديم الطراز ومكلف أكثر مما يرغب، لكنه ظنَّ أنهم إذا فعلوا ذلك فيجب أن يكون بأسلوب معين. كانوا سيقضون ليلتين – دكستر ومادي وياسمين – قبل أن يستأجروا سيارة ويستقلوها إلى كوخ عطلات قرب لوتش لوموند. كانت غلاسكو أقرب طبعاً، لكن دكستر لم يذهب إلى أدنبره منذ خمس عشرة

سنة، ليس منذ أن قضى عطلة نهاية الأسبوع وقدّم فيها برنامجاً تلفازياً من المهرجان. بدا أن كل ذلك قد حدث قبل وقت طويل جداً آنذاك، وفي حياة أخرى. لكن، خطرت له ذلك اليوم فكرة أبوية عن اصطحابه ابنته في جولة في المدينة. وقرّرت مادي - التي تعرف أهمية ذلك التاريخ - أن تتركهما يقومان بذلك بمفردهما.

سأل في خلوة الحمام: «هل أنت واثقة أنكِ لا تمانعين؟».

«طبعاً لا. سأذهب إلى بَهْوِ العرض، وأرى ذلك المعرض».

«أريد أن أُريها بعض الأماكن في جولة للذكرى، ولا داعي لأن تعاني معنا أيضاً».

«كما قلت: لا أمانع حقاً».

نظر إليها بإمعان. «ولا تظنين أنني مجنون؟».

ارتسمت على وجهها ابتسامة باهتة. «لا، لا أظن أنك أحمق».

«لا تظنين أن هذا رهيب أو غريب؟».

«لا، إطلاقاً». إذا كانت تمانع، فإنها لا تُظهر ذلك بالتأكيد. قبّلها برفق على وجنتها، وقالت: «يمكن أن تفعل ما يحلو لك».

كانت فكرة هطول المطر لمدة أربعين يوماً متتالياً قد بدت سابقاً بعيدة الاحتمال، لكن ليس السنة. فقد انهمر المطر في كل أنحاء البلاد يومياً طوال أسابيع آنذاك، واختفت الشوارع تحت الماء المتدفق بغزارة، وبدا الصيف فريداً جداً؛ حتى أضحى نوعاً جديداً تقريباً من الفصول؛ فصل رياح موسمية. لكن، عندما خرجا إلى الشارع، اكتشفا أن النهار لا يزال ساطعاً والغيوم عالية، وقد انحبس المطر في ذلك الوقت. وضعا خططاً لتناول الغداء مع مادي، ثم سيمضي كلٌّ في سبيله.

كان الفندق في البلدة القديمة، قبالة رويال مايل، واصطحب دكستر ياسمين في الجولة المعتادة، وسارا في الأزقّة، وصعدا سلالم متوارية عن الأنظار حتى وجدا نفسيهما في شارع نيكلسون، وهما يتجهان جنوباً إلى خارج مركز المدينة. تذكر أن الشارع مزدحم وضبابي من أدخنة الحافلات، لكنه بدا في صباح الأحد هادئاً وحزيناً قليلاً، وبدأت ياسمين تتذمر وتعبّر عن الملل آنذاك؛ لأنهما ابتعدا عن خط السيّاح. شعر دكستر بيدها تصبح ثقيلة في يده، لكنه تابع المشي، فقد وجد العنوان القديم في إحدى رسائل إيما وسرعان ما لاحظ لافتة: شارع رانكيلور. استدارا إلى الشارع السكني الهادئ.

«إلى أين نحن ذاهبان؟».

«أبحث عن مكان، رقم سبعة عشر». كانا خارجه آنذاك، ورفع دكستر بصره إلى نافذة الطابق الثالث، ورأى الستائر مسدلة ولا يمكن تمييز شيء من خلالها.

«هل ترين تلك الشقة هناك؟ كانت إيما تعيش هناك حين كنا في الجامعة معاً. في الواقع، إنها المكان الذي التقينا فيه». رفعت ياسمين بصرها مذعنة. لكن، لم يكن هناك شيء يميز المنزل العادي في الطابق الأعلى عن تلك المنازل التي تقع إلى جانبيه، وبدأ دكستر يشكك في الحكمة من القيام بهذه الجولة. بدا المكان قديماً وكئيباً ويثير العواطف. لكن، هل كان ذلك ما يتوقعه؟ لم يكن هناك شيء يتذكره في تلك الشقة، والسعادة المستمدة من تذكر الماضي طفيفة وغير ذات جدوى. أمعن التفكير لحظة في إلغاء الجولة، والاتصال بمادي وترتيب لقائهم في وقت أبكر قليلاً، لكن ياسمين أشارت إلى نهاية الشارع، نحو الجرف الغرانيتي الذي يطل على العقار تحته.

«ما هذا؟».

«إنه جرف سالزبوري، وهو يقود إلى تلة آرثر».

«هناك أشخاص عليه!».

«يمكننا أن نتسلّقه، فتسلّقه ليس صعباً. ما رأيك؟ هل نحاول؟ هل تظنين أن بمقدورك القيام بهذا؟».

اتجها إلى متنزه هوليرود، وعلى نحو يثير الإحباط صعدت ابنته التي يبلغ عمرها سبعَ سنوات ونصف السنة على الدرب الجبلي بنشاط؛ أكثر مما فعله والدها، ولم تتوقف إلا لتستدير إلى الخلف وتضحك عليه، وهو يصفر ويتصبب عرقاً في الأسفل.

احتج: «هذا لأن حذائي ليس ثابتاً على الأرض». وتابعا الصعود، وابتعدا عن الدرب الرئيس، ومشيا على الصخور قبل أن يصلا أخيراً إلى هضبة بلون الصدأ في قمة تلة آرثر. عثر على العمود الحجري الذي يحدد أعلى نقطة، وفحص النقوش والكتابات، وهو يأمل أن يرى الحروف الأولى خاصته: «حاربوا الفاشية»، «ألكس إم 5/5/2007»، «فيونا إلى الأبد».

لتشتيت انتباه ياسمين عن الرسم، رفعها وأجلسها على العمود، ووضع يده حول خصرها، وتدلّت ساقاها نحو الأسفل في حين أشار إلى المعالم الطبيعية. «تلك هي القلعة، قرب الفندق. تلك هي المحطة، وذلك فيرث فورث الذي يقود إلى بحر الشمال. النرويج هناك في مكان ما. وتلك هي البلدة الجديدة، حيث كنت أعيش قبل عشرين سنة يا

ياس، في القرن الماضي. وهناك، بجانب البرج، تلة كالتون. يمكن أن نتسلقها أيضاً إن أردت، هذا الأصيل».

سألت متهكمة: «ألست متعباً جداً؟».

«أنا؟ أنت تمزحين. أنا رياضي بالفطرة». صفرت ياسمين تقليداً له، وهي تضم إحدى قبضتيها إلى صدرها. «كوميدية». رفعها عن العمود، ويداه تحت إبطيها، وأوهمها أنه يريد رميها عن حافة الجبل قبل أن يؤرجحها، وهي تصرخ وتضحك.

ابتعدا عن القمة قليلاً، ووجدا تجويفاً طبيعياً قريباً يطل على المدينة. استلقى ويداه خلف رأسه، في حين جلست ياسمين بجانبه تأكل رقائق بطاطا بالملح والخل وتشرب العصير بتركيز كبير. كانت الشمس دافئة على وجهه، لكن الاستيقاظ باكراً بدأ يفعل فعله، وشعر بعد دقائق أن الكرى يداعبه.

سألت ياسمين: «هل جاءت إيما إلى هنا أيضاً؟».

فتح دكستر عينيه ورفع نفسه على مرفقيه.

«جاءت، أتينا إلى هنا معاً. عثرتُ على صورة لنا في المنزل، سأريك إياها. في غابر الزمان حين كان أبوك نحيلاً».

نفخت ياسمين وجنتيها، ثم بدأت تلعق الملح العالق بأصابعها. «هل تشتاق إليها؟».

«من؟ إيما؟ طبعاً، كل يوم. كانت أفضل صديقة لي». وكزها بمرفقه. «لماذا، هل تشتاقين إليها أنت أيضاً؟».

عبست ياسمين حين تذكرت. «أظن ذلك. كنت في الرابعة فقط، ولا أتذكرها جيداً، إلا حين أنظر إلى الصور فقط. أتذكر الزفاف. كانت رائعة جداً، أليس كذلك؟».

«رائعة جداً».

«إذاً، من أفضل أصدقائك الآن؟».

وضع يده على قفا عنق ابنته، وإبهامه يلائم التجويف هناك. «أنت طبعاً. لماذا؟ من أفضل أصدقائك؟».

تغضّن جبينها وهي تمعن في التفكير. قالت: «أظن أنها فيبي على الأرجح». ثم مصّت العصير بواسطة القشة فقرقرت العلبة الفارغة بفظاظة.

قال: «يمكن أن تزعجي الناس». فضحكت والقشة عالقة بين شفتيها. همهم: «تعالي

إلى هنا». وأمسك بها وسحبها إلى الخلف حتى استلقت على التواء ذراعه، ورأسها على كتفه. بقيت ساكنة لحظة، وأغمض دكستر عينيه مرة أخرى، وشعر بدفء شمس الضحى على أجفانه.

تمتم: «يوم جميل، لا مطر اليوم، ليس بعد». وبدأ النوم يتسلل إليه مرة أخرى. شمَّ رائحة شامبو الفندق على شعر ياسمين، وشعر بأنفاسها المنكّهة بالملح والخل على عنقه؛ البطيئة والمنتظمة، في حين كاد أن يستغرق في النوم.

بقي مغمضاً عينيه نحو دقيقتين قبل أن يشعر بمرفقيها النحيلين يكزان صدره.

«أبي، أشعر بالملل. هل يمكن أن نذهب الآن، من فضلك؟».

قضت إيما ودكستر باقي ذلك الأصيل على سفح الجبل وهما يضحكان ويتكلمان، ويكشفان معلومات عن نفسيهما: ماذا يعمل والداهما، كم عدد أقربائهما، ويسردان حكاياتهما المفضّلة. في منتصف الأصيل؛ وكأنهما اتفقا معاً، غطّا في النوم، واستلقيا ببساطة متوازيين حتى استيقظ دكستر عند الخامسة وجِلاً، وجمعا معاً القوارير الفارغة وبقايا النزهة وبدأا ينزلان ثملين إلى أسفل التلة نحو المدينة والمنزل.

عندما وصلا إلى مخرج المتنزه، أدركت إيما أنهما سيودّعان بعضهما قريباً، وأن هناك احتمالاً ألا يشاهد أحدهما الآخر مجدداً. افترضت أنه ربما تُقام حفلات، لكنهما كليهما ينتميان إلى مجموعة مختلفة، وإضافة إلى ذلك سيسافر دكستر قريباً. حتى إذا شاهدا بعضهما فسيكون ذلك عابراً ورسمياً، وسينسى قريباً كل ما حدث في تلك الغرفة الصغيرة المستأجرة في ساعات الصباح الباكر. عندما كانا ينزلان على التلة بدأت تشعر بالندم يتسلل إليها، وأدركت أنها لا تريد منه أن يذهب بعد. إنها تريد ليلة ثانية؛ أرادت ليلة واحدة أخرى على الأقل، حتى يستطيعا إنهاء ما قد بدأاه. كيف يمكن أن تقول هذا؟ لا يمكنها ذلك طبعاً. خائفة كالمعتاد، تركت الأمر حتى وقت متأخر جداً. في المستقبل، سأكون أكثر شجاعة، كما أخبرت نفسها، في المستقبل، سأتكلم دائماً عما يجول في خاطري، ببلاغة وحماسة. وصلا إلى بوابات المتنزه آنذاك؛ المكان الذي يجب أن تقول فيه على الأرجح وداعاً.

ركلت الحصى على ممر المشاة وحكّت رأسها. «حسنٌ، أفترض أنني...».

أمسك دكستر يدها. «اسمعي، لماذا لا تأتين لتناول شراب؟».

أجبرت نفسها على عدم إظهار أي بهجة. «ماذا؟ الآن؟».

«أو على الأقل بإمكانك أن تعودي معي مشياً؟».
«ألن يأتي أبوك وأمك إلى شقتك؟».
«ليس قبل المساء، والساعة الآن الخامسة والنصف».
كان يفرك مفصل سبابتها بإبهامه. تظاهرت أنها تتخذ قراراً. «لنذهب إذاً». وهزّت كتفيها غير مكترثة، فترك يدها وبدأا يمشيان.

عندما تجاوزا السكة الحديدية عند الجسر الشمالي واتجها نحو البلدة الجورجية الجديدة، بدأت خطة تتكوّن في ذهنه. سيصل إلى المنزل عند السادسة، وسيتصل فوراً بوالديه في فندقهما ويرتّب لقاءهما في مطعم عند الثامنة بدلاً من الشقة عند السادسة والنصف، وسيمنحه ذلك نحو ساعتين كاملتين. سيكون كالوم مع حبيبته، وستكون الشقة لهما نحو ساعتين تقريباً، ويمكن أن يقبّلها مجدداً. كانت الغرف عالية السقف ذات الجدران البيضاء خاوية باستثناء حقائبه وبعض قطع الأثاث، وفراش غرفة نومه، والكرسي الطويل القديم. لم يكن المكان يحتاج إلا إلى بضع ملاءات ليبدو موقعاً لمسرحية روسية. كان يعرف كفاية عن إيما ليدرك أنها ستعجز عن مقاومة الإغراء، وأنه سيتمكّن بالتأكيد تقريباً من أن يقبّلها، حتى وهو صاحٍ. أياً يكن الذي يحدث بينهما في المستقبل، وبغض النظر عن المشكلات وآثارها، عرف أنه أراد بقوة أن يقبّلها آنذاك. كان المشي سيستغرق خمس عشرة دقيقة أخرى، ووجد نفسه يلهث قليلاً، وعرف أن عليهما أن يستقلا سيارة أجرة.

ربما راودتها الفكرة نفسها؛ لأنهما كانا يمشيان بسرعة كبيرة في طريقهما إلى أسفل التلة إلى شارع دونداس، ومرفقاهما يتماسان أحياناً، وضباب فورث يبدو واضحاً من بعيد. بعد كل تلك السنوات كانت لا تزال تفرح من منظر النهر الأزرق الحديدي بين سطوح المنازل الجورجية. قالت مستنكرة، لكن بحسد: «كان يجب أن أعرف أنك تعيش هنا». وعندما تكلمت وجدت نفسها تلهث. كانت ستعود إلى شقته كاملة الأثاث، وسيفعلان ذلك، وشعرت بالإحراج؛ لأن عنقها تورد توقعاً لما سيحدث. مرّرت لسانها فوق أسنانها، وهي تحاول أن تلمّعها من دون طائل. هل يجب أن تنظّف أسنانها؟ الشراب الخفيف يجعل رائحة أنفاسها كريهة دائماً. هل يجب أن يتوقفا لشراء علكة؟ هل سيكون لدى دكستر واقٍ؟ طبعاً، سيكون لديه؛ وكأنها تسأل إن كان لديه حذاء. لكن، هل يجب أن تنظّف أسنانها أم ترمي نفسها عليه عند إغلاق الباب؟ حاولت أن تتذكر الملابس الداخلية التي ترتديها، ثم تذكرت أنها الثياب الداخلية الخاصة بتسلق الجبال. فات الأوان على ذلك، فقد استدارا

إلى طريق فيتس.

قال: «لم يعد بعيداً». وابتسم فابتسمت أيضاً، وضحكت، وهي تمد يدها إلى رأسه، وتوافق على ما يوشك أن يحدث. كانا يركضان تقريباً آنذاك. قال إنه يعيش في المبنى رقم خمسة وثلاثين، ووجدت نفسها تعد تنازلياً في ذهنها؛ خمسة وسبعون، ثلاثة وسبعون، واحد وسبعون؛ كادا يصلان. كان صدرها ينقبض، وشعرت بأنها مريضة. سبعة وأربعون، خمسة وأربعون، ثلاثة وأربعون. أحسّت بوخز في خاصرتها وألم في أطراف أناملها وهو يسحب يدها ويضحكان معاً في أثناء جريهما في الشارع. صدح بوق سيارة؛ تجاهليه، امضي قدماً، وبغض النظر عمّا يحدث لا تتوقفي.

لكن صوت امرأة كان ينادي: «دكستر! دكستر!». وتلاشت كل آمالها، وشعرت أنها قد اصطدمت بجدار.

كانت جاكوار والد دكستر متوقفة قبالة المبنى رقم خمسة وثلاثين، وخرجت والدته من السيارة وهي تلوّح له عبر الشارع. لم يكن قد تخيّل مطلقاً ألاّ يكون سعيداً إلى هذا الحد برؤية والديه.

«ها أنت ذا! كنا ننتظرك!».

لاحظت إيما كيف ترك دكستر يدها، وأفلتها تقريباً بقوة حين عبر الشارع وعانق والدته، وشعرت بنوبة سخط حين انتبهت إلى أن السيدة ميهو كانت جميلة جداً وترتدي ملابس أنيقة، وأن الوالد رجل وسيم، وطويل ومتجهم، لكنه ليس سعيداً لإبقائه منتظراً. نظرت الوالدة إلى عيني إيما من فوق كتف ابنها وابتسمت ابتسامة مواساة باهتة؛ وكأنها تعرف. كانت نظرة قد ترمقها بها دوقة حين تجد ابنها الضال يقبّل الخادمة.

بعد ذلك، حدثت الأشياء أسرع مما كان دكستر يود. تذكر المكالمة الهاتفية الملفّقة، وأدرك أن كذبته ستنكشف إن لم يجعلهما يصعدان إلى الشقة في أسرع وقت ممكن، لكن والده كان يسأل عن المرأب، ووالدته تتساءل أين قضى اليوم، ولماذا لم يتصل، في حين وقفت إيما بعيدة قليلاً عنهم إلى الجانب، لا تزال الخادمة - التي توقر الآخرين لكن لا أحد يكترث لها - تتساءل متى ستقبل الهزيمة وتتجه إلى المنزل.

«ظننت أننا أخبرناك أننا سنأتي إلى هنا عند السادسة».

«السادسة والنصف في الواقع».

«تركت رسالة هذا الصباح على جهاز الرد -».

«أمي، أبي – هذه صديقتي إيما!».
قال والده: «هل أنت واثق أنني أستطيع ركن سيارتي هنا؟».
«تشرّفت بلقائك يا إيما. أليسون. بشرتاكما سمراوان، أين كنتما أنتما الاثنان طوال اليوم؟».
«– لأنه إذا كانت هناك مخالفة وقوف سيارة يا دكستر –».
استدار دكستر إلى إيما، وعيناه تلمعان اعتذاراً. «إذاً، هل تريدين المجيء لتناول شراب؟».
قالت أليسون: «أو العشاء؟ لماذا لا تنضمين إلينا على العشاء؟».
نظرت إيما إلى دكستر الذي بدا مدهوشاً مما عدّته صدمة الفكرة، أم كان ذلك تشجيعاً؟ على كل حال، سترفض. بدا هذان الشخصان لطيفين كفاية، لكنها لم تكن ترغب بذلك؛ بالتطفل على مناسبة أسرية لشخص آخر. كانوا سيذهبون إلى مكان مكلف وهي تبدو مثل قاطع أخشاب. وإضافة إلى هذا، ما الفائدة حقاً؟ فهي ستجلس هناك محدّقة إلى دكستر وهما يسألانها عمّا يفعله والداها لكسب قوت حياتهما، وعن المدرسة التي ارتادتها. شعرت آنذاك أنها تنكمش من هذه الأسرة الصفيقة الواثقة بالنفس، ومن عواطفهم الرائعة تجاه بعضهم، وأموالهم وأسلوب حياتهم ولطفهم. ستصاب بالخجل أو، أسوأ، ستثمل، ولن يساعد أيٌّ من ذلك في تحسين فرصها معهم. لكن، هل تستسلم؟! رسمت ابتسامة على وجهها. «في الواقع، من الأفضل أن أعود».
قال دكستر وهو يعبس آنذاك: «هل أنت واثقة؟».
«نعم، هناك أشياء أريد أن أفعلها. اذهب أنت معهما، سأراك قريباً، ربما».
قال محبطاً: «أوه، لا بأس». لو أنها أرادت أن تذهب معهم لفعلت، لكن «أراك قريباً، ربما»؟ فكر في أنها ربما لم تكن مهتمة به كثيراً بالمحصلة. أطبق الصمت، وذهب والده لينظر إلى عدّاد موقف السيارة مرة أخرى.
رفعت إيما يدها. «وداعاً إذاً».
«إلى اللقاء».
استدارت إلى أليسون. «سعدت بلقائك».
«وأنا يا إيميلي».

«إيما».

«طبعاً، إيما. إلى اللقاء يا إيما».

«و –». هزّت كتفيها نحو دكستر في حين كانت والدته تراقبها. «حسنٌ، أتمنى لك حياة رائعة، كما أفترض».

«وأنت أيضاً، أتمنى لك حياة رائعة».

استدارت وبدأت تمشي مبتعدة عنهم، وراقبتها أسرة ميهو وهي تذهب.

«دكستر، أنا آسفة. هل قاطعنا شيئاً؟».

«لا، إطلاقاً. إيما مجرد صديقة».

مبتسمة لنفسها، نظرت أليسون ميهو إلى ابنها الوسيم بإمعان، ثم مدّت يدها وأمسكت طيّات بزّته بكلتا يديها، تشدّها قليلاً لتثبيتها على كتفيه.

«دكستر، ألم تكن ترتدي هذه أمس؟».

* * *

وهكذا مشت إيما مورلي إلى منزلها في ضوء المساء، وهي تجرّ أذيال الخيبة وراءها. كان الجو بارداً آنذاك، وارتعشت حين شعرت بشيء في الهواء، وسرت رعشة قلق غير متوقعة وقوية جداً على طول عمودها الفقري جعلتها تتوقف عن المشي لحظة؛ إنه الخوف من المستقبل، كما فكّرت. وجدت نفسها عند تقاطع شارعي جورج وهانوفر وكل الناس حولها يسرعون عائدين إلى منازلهم من العمل، أو يخرجون للقاء أصدقائهم أو أحبائهم. لديهم جميعاً وعي بالهدف والاتجاه. كانت هي هناك، عمرها اثنتان وعشرون سنة ولا هدف لها، تتجه عائدة إلى شقة كئيبة، محبطة مرة أخرى.

«ماذا ستفعلين بحياتك؟». بطريقة أو بأخرى بدا أن الناس يطرحون عليها هذا السؤال دائماً. فالمعلمون، ووالداها، وأصدقاؤها عند الثالثة صباحاً كلهم طرحوا عليها هذا السؤال، لكنه لم يبدُ قط ضاغطاً إلى هذا الحد. ومع هذا لم يكن لديها جواب. ظهر المستقبل أمامها، متوالية من أيام خاوية، كل منها مخيب للأمل وغامض أكثر من الذي قبله. كيف ستملأها كلها؟

بدأت تمشي مجدداً؛ جنوباً نحو قلعة ألموند. كانت النصيحة التقليدية تقول «عِش وكأنك ستموت غداً»، لكن حقاً، من كانت لديه الطاقة ليفعل هذا؟ ماذا إن هطل المطر

أو شعرت أنك مريض قليلاً؟ لم يكن ذلك عملياً. من الأفضل إلى حدٍّ ما أن يحاول المرء ببساطة أن يكون صالحاً وشجاعاً وجريئاً وأن يُحدث فرقاً، لا أن يغير العالم تماماً، ولكن أن يغير جزءاً صغيراً من حوله. اخرجي إلى هناك بشغف مع آلتك الكاتبة الكهربائية واعملي جاهدة على... شيء ما. غيري الحياة عبر الفن ربما، أبهجي أصدقاءك، ابقي وفية لمبادئك، عيشي بحماسة وسعادة ورفاه، اختبري أشياء جديدة، أحبّي واجعلي شخصاً يحبك، إن سنحت لك الفرصة.

كانت تلك نظريتها العامة، حتى إن لم تكن البداية جيدة جداً. وبمجرد هزّة من كتفيها، ودّعت شخصاً يعجبها حقاً؛ أول رجل اهتمت به فعلاً، وسيكون عليها آنذاك أن تقبل حقيقة أنها قد لا تراه على الأرجح مجدداً. لم يكن لديها رقم هاتف، أو عنوان. حتى إذا كان لديها، فما الفائدة؟ لم يكن قد سأل عن رقمها أيضاً، وهي أكثر غروراً من أن تكون مجرد فتاة حالمة أخرى تترك رسائل غير مرغوب بها. كانت آخر جملة لها أتمنى لك حياة رائعة. هل كان ذلك حقاً أفضل ما يمكن أن تقوله؟

تابعت المشي، وبدأت القلعة تلوح أمامها حين سمعت وقع الخطوات، سمعت نعلي حذاء يطقطقان بقوة وسرعة على الرصيف خلفها، حتى قبل أن تسمع اسمها وتستدير ابتسمت؛ لأنها عرفت أنه هو.

قال وهو يبطئ خطواته إلى المشي، أحمر الوجه ومقطوع الأنفاس، ويحاول استعادة بعض رباطة الجأش: «ظننت أنني قد أضعتك!».

«لا، أنا هنا».

«آسف بشأن ذلك».

«لا، حقاً، لا بأس».

وقف واضعاً يديه على ركبتيه، وهو يلتقط أنفاسه. «لم أكن أتوقع مجيء والديَّ حتى وقت متأخر، ثم ظهرا فجأة، ما شتت انتباهي، وأدركت فجأة... تحمّليني... أدركت أنه ليست لدي أي طريقة للاتصال بك».

«أوه، لا بأس».

«إذاً - اسمعي. ليس لدي قلم. هل لديك قلم؟ لا بد أن معك قلماً».

انحنت وبحثت في حقيبتها بين الأشياء التي أخذاها معهما في نزهتهما. اعثري على قلم، أرجوك اعثري على قلم، يجب أن يكون لديك قلم...

«مرحى! قلم!».

مرحى؟ أنت صرخت مرحى، أيتها الحمقاء! حافظي على هدوئك، ولا تفسدي الأمر.

بحثت في محفظتها عن ورقة، ووجدت وصل متجر، فسلّمته إياه، ثم أملت رقم هاتفها، ورقم والديها في ليدز، عنوانهما وعنوانها في أدنبره، مع تأكيد خاص على الرمز البريدي الصحيح، وبالمقابل دوّن رقم هاتفه وعنوانه.

«هذا رقمي». سلّمها الورقة الثمينة. «اتصلي بي أو سأتصل بك، لكن أحدنا سيتصل. ما أعنيه هو أنها ليست منافسة، ولن تخسري إن اتصلت أولاً».

«أفهم».

«سأذهب إلى فرنسا حتى آب، لكنني سأعود وأظن أنك ربما تريدين أن تأتي وتقيمي معي؟».

«أقيم معك؟».

«ليس إلى الأبد، وإنما خلال عطلة نهاية أسبوع، في منزلي، منزل والديّ. أعني فقط إن أردت ذلك».

«أوه، لا بأس، نعم. لا بأس، نعم، نعم. لا بأس، نعم».

«إذاً، يجب أن أعود. هل أنت واثقة أنك لا تريدين أن تأتي لتناول شراب أو شيء ما؟ أو العشاء؟».

قالت: «لا أظن أنني يجب أن أفعل».

«لا، لا أظن أنك يجب أن تفعلي هذا أيضاً». بدا مرتاحاً، وشعرت بضعفٍ مرة أخرى. لمَ لا؟ كما فكّرت. هل كان محرجاً منها؟

«أوه، صحيح، لماذا؟».

«لأنني أظن أنك إن فعلت فسأجن قليلاً، أعني إحباطاً. أنت تجلسين هناك وأنا لا أستطيع أن أفعل ما أريد أن أفعله».

سألت، رغم أنها تعرف الجواب: «لماذا؟ ماذا تريد أن تفعل؟». وضع يده برفق على قفا عنقها، وبالتزامن معه وضعت يدها برفق على وركه، وقبّلا بعضهما في الشارع في حين كان الناس حولهما يحثّون الخطى إلى منازلهم في ضوء الصيف، وكانت أعذب قبلة عرفها أيٌّ منهما.

هناك بدأ كل شيء؛ بدأ كل شيء في ذلك المكان، وفي ذلك اليوم.

ثم انتهى الأمر. قال وهو يمشي ببطء إلى الخلف مبتعداً عنها: «إذاً، سأراك قريباً».

ابتسمت: «آمل ذلك».

«وأنا آمل ذلك أيضاً. إلى اللقاء يا إم».

«إلى اللقاء يا دكس».

«إلى اللقاء».

«إلى اللقاء، إلى اللقاء».